الاستخبارات والجاسوسية

في

لبنان وفلسطين وسورية خلال الحرب العالمية

مذكرات سياسية

نشرت تباعاً في صوت الأحرار

تعريب
فؤاد ميداني

الاستخبارات والجاسوسية

في

لبنان وسوريه وفلسطين

خلال الحرب العالمية

نشرت تباعاً في جريدة «الصوت

تعريب

فؤاد ميداني

طبع بمطبعة صادر ٠ بيروت — ١٩٣٧

مقدمة المعرب

مثلت الجاسوسية خلال الحرب العالمية ادواراً خطيرة جداً كان نصيب بلادنا منها المآسي والفواجع التي ذهب ضحيتها مئات من الابرياء الذين انطوى ذكرهم مع انطواء تاريخ ذلك العهد .

الا ان المنصفين من الترك ابوا الا ان يسجلوا سيئات الطغاة فجمعوا معلوماتهم اليومية التي عربناها في هذه السلسلة من المذكرات فالقت نوراً على تاريخنا المجهول خلال الحرب العالمية وخلدت ذكرى شهداء الظلم والاستبداد اضيف اليهم شهداء السياسة الذين علقهم احمد جمال باشا على اعواد المشانق

عهد الاستقلال

وشاءت الظروف ان ننشر هذه المذكرات في اواخر عهد الانتداب على صفحات « صوت الاحرار » وان ننشرها في كتابنا هذا في عهد الدستور والاستقلال الذي يرعاه في لبنان صاحب الفخامة الاستاذ الجليل اميل اده رئيس الجمهورية اللبنانية

ولا شك في ان ابناء هذا العهد الدستوري سيرون عند مطالعتهم هذا الكتاب الفرق بين حالتهم الحاضرة وحالة اخوانهم في الماضي ويؤمنون معنا بان من سجل تاريخ ذلك العهد الظالم في جو الاستعباد والظلم سيسجل فيما بعد تاريخنا الحاضر بما يستحق من عدل وانصاف



فخامة الاستاذ اميل اده رئيس الجمهورية اللبنانية



معالي الاستاذ خير الدين بك الاحدب رئيس الوزارة اللبنانية



معالي الصحافي اللامع الاستاذ ميشال زكور وزير الداخلية والخارجية



معالي الاستاذ حبيب ابي شهلا وزير التربية الوطنية

في عهد الحرية والاستقلال

اما سوريا وهي اليوم في مطالع حياتها الاستقلالية فستأخذ العبر من هذه المذكرات وترى فيها الادلة الراهنة على عظم التضحية التي بذلها ابناؤها في خلال الحرب العالمية في سبيل الذود عن حياتهم وتأمين حريتهم واستقلالهم وفخامة الرئيس الجليل هاشم بك الاتاسي واركان حكومته الساهرون على مستقبل بلادهم سيخلدون ولا شك ذكرى الشهداء السوريين الذين انطوى هذا الكتاب على ذكر اسمائهم فيدخلون في عداد الشهداء السياسيين



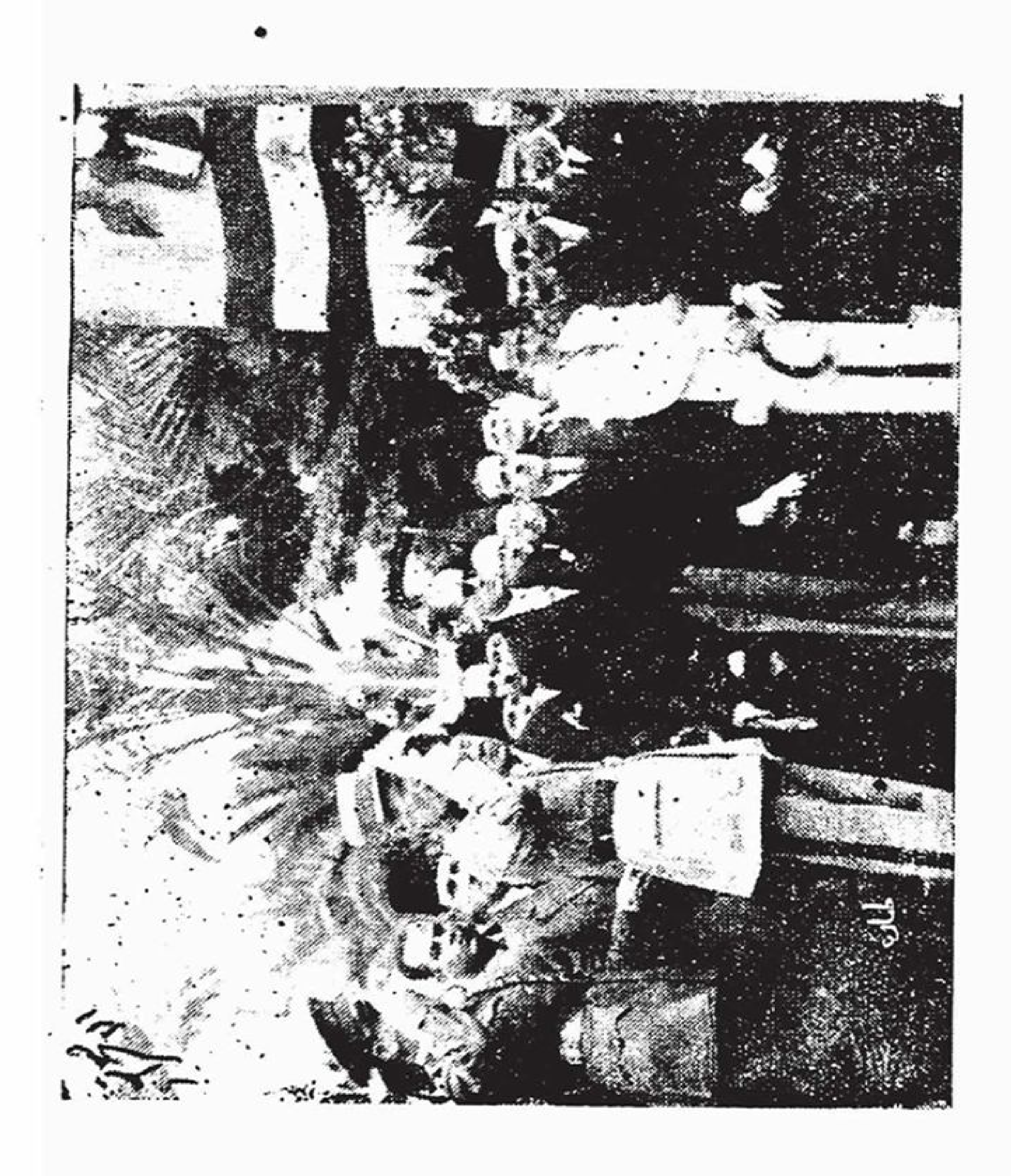
معالي السيد احمد الحسيني وزير النافعة والزراعة

الوزارة اللبنانية

ولقد اظهر معالي الاستاذ خير الدين بك الاحدب رئيس الوزارة اللبنانية وطنية صحيحة في تخليد ذكرى شهداء الامة وبذل جهوداً محمودة لتوحيد عيد

الامة والاحتفال به في يوم ٦ نوار فحق لنا ونحن نتكلم في هذه السلسلة عن شهدائنا خلال الحرب ان نعترف بفضله وفضل زملائه اصحاب المعالي الوزراء مسجلين في الوقت نفسه رسم اول حفلة وقف فيها فخامة رئيس الجمهورية وار كان حكومته بجانب الشعب في يوم عيد ذكرى شهدائنا الابرار

•





فخامة هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية السورية

بين جميل بك مردم بك رئيس الوزارة

وفارس بك الخوري رئيس مجلس النواب

الفصل الاول

عقد العرب مؤتمرهم في باريس من ١٨ حزيران سنة ١٩١٣ الى ٢٢ منه تخذوا فيه سلسلة من المقررات رأى اركان حزب الاتحاد والترقي ضرورة مقاومتها بتأليف شبكة استخبارات خاصة بالبلاد العربية فعقدوا اجتماعا حضره كل من احمد جمال محافظ استانبول، وانور باشا وطلعت باشا وعزمي بك مدير الشرطة وغيرهم من صناديد الاتحاديين وقرروا ما يلي

اولا — تأليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية تحت اشراف وزير الداخلية طلعت باشا تكون غايتها :

ا — معرفة تطور الحركات العربية ومقاومة المساعي التي يبذلها العرب بصورة سرية في العاصمة ونواحيها

ب — استخدام بعض الجواسيس من العرب المتصلين بعزيز علي ورفاقه

ج — مراقبة هؤلاء ومعرفة مدى اتصالهم بالسفارات الاجنبية وخصوصا السفارتين الافرنسية والانكليزية منها على وجه خاص

د — مقاومة دعاة الانفصال عن السلطنة العثمانية من العرب

هـ — ايجاد (فيش) لكل زعماء العرب الذين يقاومون السياسة الاتحادية ووضعهم تحت المراقبة الشديدة

و — يتولى رئاسة هذه الشعبة القائمقام اركان حرب نوري بك ويدير كل

فرع من فروع هذه الشعبة في البلاد العربية تركي يستخدم من الجواسيس العدد الذي تفرضه الادارة

ثانيا — ابعاد الضباط العرب الذين في العاصمة الى مختلف الانحاء التركية وعدم الموافقة على وجود قائد عربي في مركز واحد يعاونه ضباط عرب واذا كان لا بد من وجود قائد عربي فمن الواجب ان يكون اركان حربه من الضباط الترك الذين يثق بهم الاتحاديون

لا يجوز بوجه من الوجوه بقاء ضابط عربي فوق رتبة الملازم الاول في البلاد العربية

ثالثاً — تولية الضباط الترك القيادة في البلاد العربية

وكيلا ينتبه العرب الى هذا التدبير يصير تجريد البلاد العربية من الضباط العرب بصورة تدريجية وذلك بترقيتهم الى رتبة اسمى من الرتبة التي يتمتعون بها ليكون هناك حجة لنقلهم من البلاد العربية الى البلاد التركية

رابعاً — تنفيذ سياسة تتريك مختلف العناصر الغير التركية في البلاد بالقضاء على الجمعيات القومية المؤسسة في البلاد وانشاء المدارس الثانوية والعليا لبث الروح والثقافة التركية بين عناصر العرب

خامساً — مقاومة حركة الاصلاحية التي بدأت في مؤتمري بيروت وباريس والقيام بالدعايات اللازمة بهذا الصدد في البلاد العربية نفسها

سادسا — ابعاد من في العاصمة من العرب المدنيين وغيرهم من العرب الذين يعملون لمقاومة الحكومة العثمانية

سابعاً — تقوية نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العربية بانشاء فروع لها هناك واقامة الحفلات والولائم لاجل تعزيز نفوذ هذه الجمعية واستمالة الاهلين اليها .

الشروع في العمل

وعلى اثر هذا القرار الذي اتخذه الاتحاديون تألفت هذه الهيئة الاستخبارية

في وزارة الداخلية وشرعت في تنفيذ مقرراتها فأسست فرعا للحزب ببيروت اتخذ مقرا له في بناية (اوتيل مانترال) في ساحة البرج بملك رعد وهاني و كانت غاية هذا النادي تحقيق المطالب المذكورة ثم نشر الدعايات للحزب في بيروت لمقاومة مقررات مؤتمر بيروت الاصلاحي ومراقبة الاشخاص الذين يتولون ادارة الحركة الاصلاحية في بيروت ٠

وقد وجد في السجلات الرسمية التي عثر عليها عند تصفية الكماليين لاوراق حزب الاتحاد والترقي مايلي :

اولا — ان مصارفات هذه الادارة السياسية في بلاد العرب بلغت ١٨٢٥٠٠ ليرة ذهبية في السنة المالية المنتهية في شهر شباط سنة ١٩١٥

ثانيا — تلقت هذه الدائرة في السنة الاولى لتأسيسها ٢٩١٨ تقريرا عن البلاد العربيه وفي السنة الثانية ٤١٣١ تقريرا

ونظمت « فيشات » بحق العرب الذين يشتغلون ضدها او الذين يجب مراقبتهم بلغ عددها ٨٩٣٨ مقسمة على ٥١٣ شخصا من الذين يعملون لحساب الحكومة الفرنسية

وقد قسمت الدائرة المذكورة صفة الاشخاص المطلوب مراقبتهم الى عدة اقسام

١ — الاشخاص الذين يعملون لحساب فرنسا

٢ — الاشخاص الذين يعملون لحساب العرب

٣ — الفارون من وجه الاتحاديين

٤ — المشتبه بهم

٥ — اعضاء المؤتمر السوري الذي انعقد في باريس وعلاقة اعضائه الذين في فرنسا ومصر بباريس وبرجال الحكومة الافرنسية وابناء البلاد في سوريا

وقد انتدبت لمراقبتهم ثلاثة من مهرة جواسيسها يعملون تحت ادارة عبد القادر رضوان الموظف السياسي في السفارة العثمانية بباريس ، هم احمد عبد السلام شربجي من اهالي نابلس و كمال الدين نامى حابي من اهلي بغداد وحسن جودت

من اهالي استنبول

ولما كان الشيخ عبد الحميد الزهراوى والسيد عبد الكريم الخليل بعد ميلهما الى الاتحاديين اغترا بوعودهم في تنفيذ الاصلاحات المطلوبة للبلاد العربية واصبحا مهددين بالقتل من قبل عزيز علي المصري ورفاقه العرب الذين يعملون ضد الاتحاديين ، عهدا الى اسماعيل حقي (الذي تولى في الحرب العالمية رئاسة الادارة العدلية في ادارة شرطة بيروت) ورمزي وصفي بان يكونا على صلة تامة بالموقف وان يعمدا الى مراقبة الذين يهددون هذين الزعيمين .

عدم نجاح الاتحاديين

الا ان عزيز علي المصري لم يقف مكتوف اليدين تجاه الدعايات الاتحادية ، وجواسيس الاتحاديين ، بل قرر انذار الشيخ عبد الحميد الزهراوى بالكف عن الدعاية للحكومة ومغادرة العاصمة واوفد لهذه الغاية جميل بك المدفعي « رئيس الوزارة العراقية السابق » وسعيد التكريتي ويوسف الغزاوي ، وهم من ضباط العراق ، فقابلوا الزهراوي وهددوه بالقتل اذا هو تابع سياسة تأييد الاتحاديين فوافقهم على خطتهم هذه وغادر العاصمة الى سوريا

وكان عمله هذا سبباً في ازدياد سخط الاتحاديين على العرب ، وسخط طلعت ورفاقه على الزهراوي



التقارير السرية

وفي المستندات التي وجدت في مستودعات وزارة الداخلية العثمانية تقارير هامة وان كان تاريخها يرجع الى حوادث سابقة الا انها ذات اهمية تاريخية واليك مضمونها

- ١ -

ادارة بوليس بيروت

رقم خصوصي ١٨٢ — ٨١ رقم عمومي ٢١٩٣ — سري

١٠ كانون الثاني سنه ١٣٢٧ « ١٩١٢ »

« استقبل البيروتيون نبأ حل مجلس المبعوثان العثماني بكثير من الاهتمام ، لانهم يعتقدون ان هذا العمل سيساعد ابناء البلاد على انتخاب نواب بعيدين عن التحزبات الاتحادية

وقد اذيع في البلاد منشور من الاتحاديين يتضمن دعوة الشعب الى تأييد مرشحي حزب الاتحاد والترقي الذي قررما يلي:

اولا — استصدار العفو العام عن المجرمين السياسيين

ثانياً — حل مجلس الديوان الحربي العرفي الذي يشكو الاهلون منه

ثالثاً — اعلان برنامج الاصلاحات الذي تطلبه البلاد السورية

الا ان الصحافة العربية تقوم بحركات عدائية ضد الاتحاديين ، فجريدة « الراوي » تنشر المقالات الضافية تدعو فيها الشعب الى انتخاب نواب من العرب الاقحاح ليلموا شعثها .

ومسألة الانتخاب شغلت الناس عن كل ما يتعلق بالحرب مما يدل على يقظة تامة والصحف العربية الاخرى في هذه المنطقة تقول بصراحة انه لم يبق هناك اي تأثير لجمعية الاتحاد والترقي لانها اضحت في عداد الاموات»

— ٢ —

ادارة الشرطة — بيروت

رقم خصوصي ٢٩٣—٢٤ رقم عمومي ٤١٣٧ — سري

في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٣٢٧

قدم بيروت يوم الاربعاء في ٢٥ كانون الثاني على احدى البواخر الفرنسية كل من لطفي فكري بك نائب درسم وشكري افندي العسلي نائب دمشق وكامل بك الاسعد نائب بيروت وخالد افندى البرازي نائب حماه وعبد الحميد افندي الزهراوي نائب حمص وسعد الدين افندي الزهراوى نائب حوران وهم من اركان النواب الذين طلبت الحكومة في برقيتها المؤرخة في ٢١ الجاري ضرورة مراقبتهم وقد جرت لهم حفلة استقبال فخمة لم تقتصر على ابناء بيروت فحسب بل تعدتهم الى هيئات ووفود اتت من دمشق ولبنان والبلدان المجاورة

وقد زار قنصل فرنسا وقنصل انكلترا لطفي فكري بك وبعض رفاقه من النواب ونهار الاحد القى لطفي فكري بك محاضرة في مسرح (التريانو) حضرتها جماهير غفيرة تكلم فيها عن الاتحاديين وما قاموا به من اعمال ضد العرب ودعا شعب لمناصرة الائتلافيين الذين قرروا ان يعملوا يداً واحدة مع العرب وقد قاطع الناس هذه المحاضرة مراراً بالتصفيق ثم غادرنا الى درسم عن طريق حلب

ووزعت اليوم مناشير عديدة تتضمن حث الاهلين على مقاومة مرشحي حزب الاتحاد والترقي واصفة اياهم بانهم من اعداء العرب وقتلة رجالهم لا بد ان يقضوا على سيادة العرب اذا عادوا الى الحكم»

— ٣ —

ادارة شرطة بيروت

رقم خصوصي ٧١٨ — ٣١ رقم عمومي ١٧٣١ — سري

في ٢ شباط سنة ١٣٢٧

« احتجت جميع جرائد لبنان و بعض جرائد بيروت وفي مقدمتها الصحف التي تتناول التخصيصات من القنصلية الافرنسية على قيام جنود الولاية بمناورات داخل جبل لبنان وحجتهم في ذلك ان هناك مادة في قانون الجبل تمنع الجند العثماني من الدخول الى الجبل حتى ولو حدثت فيه ثورة الا بناء على طلب المتصرف وبعد صدور قرار من مجلس ادارة الجبل ٠

الا ان الصحافة البيروتيه الاخرى تعترض على هذه الصحف اللبنانية النزعة وتقول ان « هذه المادة لا تمنع من ان يقوم الجند العثماني بالمناورات لان الجند الذي يريد اجراء المناورات غير الجند الذي يريد ان يتدخل في شؤون الجبل »

وتضيف جريدة « الرأي العام » في عددها الصادر بتاريخ امس الاول الى ذلك قولها « نحن لا ننكر على مجلس ادارة جبل لبنان حقه في مسألة الجندية ٠ اما المناورات الحربيه فشيء اخر ومعناها ان الجند يضع لنفسه خططاً حربية للدفاع والهجوم عن سوريا امام عدو زاحف من الخارج على الشام أو على حلب من بيروت مثلا٠ ولهذا نرى من حق الجند العثماني الصريح في كل وقت ان يقوم بهذه المناورات لاسيما ان الجبل لا جند له ومع ذلك فلا بد لنا من القول ان اللبنانيين يغالون كثيراً في عملهم هذا ٠ »

وقد روج بعضهم في المدينة وفي دمشق اشاعات مفادها ان ناظم باشا لم يعين والياً على دمشق الا ليعرقل مساعي القائمين بترشيح شكري افندي العسلي

الاان دعايات هؤلاء قد اثرت في المندوبين الثانويين الذين يسعون بكل قواهم لانتخاب المذكور ٠ وقد حاول البعض الاعتداء على ادارة جريدة (البرهان) الصادرة في طرابلس لنزعتها الاتحادية ثم حاولوا اول امس حرق ادارتها الا انهم

فشلوا وقد اتخذت التدابير اللازمة بهذا الشأن .

وجاء في الاخبار التي وردتنا من حمص ان لطفي فكري بك استقبل فيها بحفاوة فلما وقف به القطار كان على المحطة جمهرة من الاهلين فتكلم بعضهم مرحبين به واجابهم بخطاب موجز

وفي حماة توقف لطفي فكري بك ونزل ضيفاً على نائبها خالد افندي البرازي وهناك القى محاضرة كالمحاضرة التي القاها في بيروت

— ٤ —

ادارة الشرطة — بيروت

رقم خصوصي ١٠٢٠ — ٤١ رقم عمومي ٥٨١٣

بيروت في ٢٥ اذار سنة ١٣٢٨

كان لموقف والي دمشق بسماحه للموسيقى العسكرية بان تصدح امام دار الحكومة تأثيره السيء في بيروت وهي بحالة الحداد بسبب اقدام الايطاليين على ضربها في الشهر الماضي ومقتل ١٤١ شخصا من اهاليها وقد عمد هؤلاء الى تختيم عريضة ضد الوالي ناظم باشا تتضمن الاحتجاج على عمله هذا

وقد قامت ليلة السبت في ٢٣ الجاري ضجة في طرابلس الشام اذ شاع في الاسكلة ان البعض شاهد بوارج حربية تسير في عرض البحر فاضطر المتصرف للنزول من المدينة الى الاسكلة وظل حتى الساعة الثامنة وهو يهدىء الخواطر وقد عاد الهدوء الى المنطقة الان

اصدر شكري بك العسلي جريدة يومية هذا الاسبوع باسم « القبس » وبدأ يهاجم بجريدته هذه الاتحاديين مما اهاب بالضابط الملازم رضوان بك الي ان يسترقفه في ساحة المرجه ويهدده بالقتل علناً قائلا انه من فدائيي حزب الاتحاد والترقي .

وقد تلقى شكري بك العسلي ثلاثة كتب يهدد فيها بالقتل ، اذا هو لم يعدل عن مقاومة الاتحاديين

ويسعى الاتحاديون في بيروت ودمشق لمقاطعة جريدة « القبس »

وتردد في حمص اشاعات مختلفة عن وجود خلاف بين المسيحيين والمسلمين فيها ، وقد نقلت صحف بيروت ودمشق انباء هذا الخلاف اذ كان انتشار مثل هذه الاشاعات يحدث قلقاً في النفوس لهذا صدرت الاوامر الى الصحافة بالكف عن بحث هذا الموضوع وانذر اصحابها باحالتهم الى الديوان الحربي العرفي ، اذا عادوا الى ترديد مثل هذه الاشاعات المضرة

اما فيما يتعلق بالانتخابات النيابية في بيروت فلا يزال قسم كبير من الاهلين ممتنعاً عن التصويت ، وفي اغلب شعب الاقتراع تفتح الصناديق فلا يرى فيها سوى اوراق تكاد تعد على الاصابع والسبب في ذلك كما يشيعون كثرة التلاعب بهذه الانتخابات النيابية

وتشكلت في نادي « الاتحاد والترقي » في بيروت لجنة لجمع اعانات للاسطول الجوي تحت رعاية حازم بك والي الولاية لمشترى طيارة تسمى باسم مدينة بيروت والاقبال على ذلك كثيراً جداً

واعتقل اول امس محمد افندي الباقر صاحب جريدة « البلاغ » وارسل مخفوراً الى العاصمة ليحاكم امام الديوان الحربي العرفي فيها وذلك لنشره القصيدة المعروفة التى ارسلت اليه من المدينة

وقد احدث اعتقال الرجل تأثيراً سيئاً في المحيط البيروتى نظراً لمكانة خاله الشيخ محيي الدين الخياط

وقد قام الشيخ محيي الدين وانصاره بتختيم مضبطة يحتجون فيها على هذا الامر »

ـ ٥ ـ

ادارة الشرطة ببيروت

رقم خصوصي ٢١٧ ـ ١٣ رقم عمومى ٨١٣١ ـ سري

في ١ حزيران سنة ١٣٢٨

« وتلقي الاهالى نبأ اقفال نادي الائتلافيين في دمشق بشيء من التأثر لانهم

رأوا فيه تحاملا على الحزب وبلغ الاستياء أشده من سياسة الحكومة تجاه حرية الصحافة ولايجهل الاهالي ان الصحافة تورطت كثيراً في سياستها العربية ضد الحكومة الا ان الرأي العام نظرا لميله لتاييد المعارضة يري في تضييق الحرية على الصحافة شيئاً من الاستبداد وقد راجع فريق من سكان جبل عامل الوالي مسترحمين العفوعن عارف افندي الزين صاحب جريدة (جبل عامل) الذي حكم عليه الديوان الحربي العرفي بالسجن مدة شهر واحد

ومع ان الوالي حازم بك تمكن من نقل الرجل من سجن بيروت الى سجن صيدا ليظل قريباً من اهله الا ان هذا الامر لم يرض الاهالين الذين رأوا فيه تضييقاً على الصحافة

وقد جاء هذا الاسبوع الى بيروت محمد افندي البارودي احد صاحبي جريدة « السيف » الحموية اجتمع بزملائه رجال الصحافة في بيروت وحثهم على الاحتجاج الى وزارة الداخلية على اقفال جريدته بدون مسوغ قانوني

ويرى الصحفيون ان الحكومة تمادت كثيراً في اضطهادها لرجال الصحافة ولهذا عزموا على عقد مؤتمر صحفي لبحث الموقف الحاضر ووضع احتجاج شديد اللهجة يتضمن استياء رجال الصحافة من موقف الحكومة تجاههم

وقد بدأت وفود الصحفيين تفد الى بيروت فوصل امس صاحب جريدة « ابو النواس » الصادرة في اللاذقية التي عطلتها الحكومة في الاسبوع الماضي ، ومحمد نجيب افندي صاحب جريدة العصا الصادرة في حيفا والشيخ سعيد حسن سعيد صاحب جريدة اللاذقية .

وقد احتج لدينا امس اصحاب جرائد البشير والريفال والمفيد التى عطلها ديوان الحرب العرفي لان الديوان الحربي العرفي احتج على اصدار المفيد والبشير باسم صدى البشير طالباً منا ضرورة منعهما من الصدور بهذين الاسمين ولما كان القانون لا يجيز لنا تلبية طلب الديوان الحربي العرفي فقد رأينا من الواجب التضييق على هؤلاء

ويسعى صاحب جريدة الريفال لاصدار جريدته باسم (ايكودي ريفال)

٦

ادارة الشرطة ــ بيروت

رقم خصوصي ٧١٨ـ٩١ رقم عمومي ٢١٥٨ـ٧

في ٣٠ اب سنة ١٩١٢

« تلقى الناس هنا نبأ القرار الصادر بالغاء الديوان الحربي العرفي ابتداء من ٢٤ الجاري بارتياح شديد وبخاصة رجال الصحافة الذين رأوا فيه السيف المسلط عليهم ٠

اما نحن فنرى ان الغاء الديوان الحربي يعد خطراً على السياسة العامة لانه لابد ان يطلق الصحف من عقالها ٠

وقد وصلت الى مياه الثغر دارعة افرنسية معقودة اللواء للاميرال ديلاج وعدد افرادها ٤٠٠ بحار ٠

ولوصول هذه الدارعة الافرنسية الى مياه الثغر بمناسبة الحركة اللبنانية الاخيرة، اهمية لان اللبنانيين والمؤيدين لفرنسا يرون في قدوم الاميرال ديلاج المعروف بصداقته للبنانيين اهمية كبرى وقد توجه الاميرال امس يصحبه بعض من ضباط اركان حربه الى بكركي لزيارة البطريرك الماروني ٠

وعاد في هذا الاسبوع من دمشق عبد الكريم افندي قاسم الخليل « هو الشهيد عبد الكريم الخليل » وباشر عقد سلسلة اجتماعات مع عبد الغني العريسي الذي عاد في الشهر الماضي من باريس

والمفهوم من التقارير الخاصة ان هناك مساعي جديدة تبذل منذ الان لتوحيد صفوف المشتغلين بالقضية اللامركزية والعربيه ، بين هذه المنطقة والعاصمة والموجودين في مصر وباريس ، وقد اجتمع عبد الغنى اثر وصوله الى قنصل فرنسا بحضور خليل افندي زينية

وبدأ الناس يبتعدون عن نادي الاتحاديين في بيروت ودمشق وفي سواهما من المدن بسبب انهيار حكومتهم

والصحافة المحلية تحمل حملات كثيرة على الاتحاديين وعلى احمد رضا بك منهم بوجه خاص

وجاء من تركيا شفيق بك المؤيد نائب دمشق السابق برفقه ابرهيم افندي النجار مكاتب المقطم في استنبول ومختار بك الصلح من ضباط حامية استنبول وقد استقبلهما الائتلافيون استقبالا باهراً واقاموا لهما المظاهرات ، لان الاول من اركان حزب الحرية والائتلاف والثاني من المنتسبين الى الحزب ايضاً

وقد القى شفيق بك في مسرح قصر اللوكسمبورغ مساء السبت الماضي خطبة اشار فيها الى موقف الاتحاديين السيء من العرب والى الامال التي يعلقها العرب على الوزارة المقبلة التي ستحل مكان وزارة احمد مختار باشا ويعتقد ان الوزارة ستسند الى كامل باشا ولذا ايد في خطبته هذه كامل باشا واعلن بصراحه تامة ان كامل باشا واركان الائتلافيين سيعملون على تحقيق مطالب العرب وان من واجب الشعب البيروتي ان يعمل يداً واحدة مع الائتلافيين ليحصل على حقوقه وحريته

وقد استقبلت الجماهير التي حضرت هذه المحاضرة الخطيب بالتصفيق الحاد

وشفيق بك المؤيد من الشخصيات المحترمة ذات النفوذ العظيم في البلاد وهو يتمتع باحترام تام ونفوذ وطيد خصوصاً بعد سقوط وزارة الاتحاديين ويشيع انصاره انه يتمتع بنفوذ عظيم في البلاد الانكليزية والافرنسية

ووجود ابرهيم افندي النجار مكاتب المقطم في العاصمة بجانب شفيق بك يرمي الى تأييد اواصر العلاقات السياسية بين شفيق بك وزعماء اللبنانيين اذ ان هناك مساعي جدية لايجاد رابطة قوية بين الفريقين ، وشفيق بك يريد ان يكتسب زعماء لبنان لجهته لما يعلمه من نفوذهم لدى فرنسا ، وسيتوجه غداً مع النجار لمقابلة البطريرك الماروني

وعرضت التقارير الاخرى للدعايات التي قام بها رجالات العرب في البلاد فتناول احدها الخطب التي القاها شفيق بك المؤيد وابراهيم افندي النجار في تأييد حزب الحرية والائتلاف ، وما جاء في هذه الخطب . وتناول تقرير اخر بتاريخ ٢٠ ايلول سنة ١٩١٢ عودة عبد الكريم افندي الخليل مندوب حزب الحرية

والائتلاف من دمشق وحلب بعد ان افتتح فيها ناديين للحزب وترشيح الحزب الشفيق بك المؤيد وشكري بك العسلي ورشدي بك الشمعه للنيابة عنه

وتناول تقرير ثالث تعطيل الديوان الحربي في اخر ايلول لجريدتي المفيد ولسان العرب ومحاكمة اصحابهما بتهمة الدعاية لفرنسا

وأشار تقرير رابع الى المظاهرة الكبرى التي أقيمت في بيروت يوم ٧ تشرين الاول عام ١٩١٢ احتجاجاً على احتلال اليونانيين لكريت

واشار تقرير خامس بتاريخ تشرين الاول سنة ١٩١٢ الى تأثير سقوط وزارة احمد مختار باشا وتولية كامل باشا الصدارة مما ادخل الفرح والسرور الى قلوب الاهلين الذين كانوا يتكلون على كامل باشا لتحقيق المشاريع المطلوبة لسوريا وبلاد العرب . واشار تقرير سادس بتاريخ اول تشرين الثاني سنة ١٩١٢ الى وصول السر وليم ويلكوكس كاتم اسرار اللورد كتشنر وزيارته لدمشق وحماه وحمص .

ويقول هذا التقرير « ان الغاية من قدوم السر وليم درس حالة العشائر في المنطقة السورية وجهات الاردن والعقبه منها على وجه خاص لان الانكليز الذين يسعون للاستيلاء على العقبة وجميع اقسام شبه جزيرة سينا يرون ان الوقت الحاضر خير مساعد للانكليز لتحقيق غايتهم واثارة الفتن في هذه البلاد »

ويؤكد هذا التقرير ايضاً ان السر وليم ويلكوكس لم يظهر اهتماماً خاصاً لمقابلة زعماء العرب في بيروت ودمشق ، لان اهتمامه كان منصرفاً الى الاجتماع برؤساء العشائر وقد اجتمع بنوري الشعلان الذي كان دليله في زيارته معظم المناطق التي اراد زيارتها

ويضيف التقرير الى ما تقدم ان الصحافة البيروتية تعلق اهمية كبرى على هذه الزيارة وان اللورد كتشنر سيأتي في منتصف كانون الاول القادم (١٩١٢) الى بيروت للطواف في جهات سوريا

اصلاحات بيروت

وتدل هذه التقارير على ان الموقف تطور في بيروت ولبنان واليك احد التقارير

ادارة الشرطة : بيروت

رقم خصوصي ٨٢٠ ـ ٨٩ رقم عمومي ٥١٣٧ سري
١٨ كانون الاول سنة ١٩١٢

اجمعت الجرائد البيروتية في هذه الايام على طلب الاصلاح العاجل للبلاد السورية بحجة ان الوقت قد حان لتحقيق ذلك بعد ان انتهت الحرب الايطالية — العثمانية ٠

وهذا الطلب الفجائي الذي تعرب عنه الصحافة الاسلامية في بيروت يرجع الى حالة اللبنانيين ومطالبهم وما تكتبه جرائد فرنسا عن سوريا ، وترى الصحف السورية ان من واجب الحكومة العثمانية تحقيق هذه المطالب كيلا تفسح مجالا للاعتقاد في الخارج بان وراء صيحات اللبنانيين فوضى في البلاد وان الثورة قائمة فيها !

وتؤكد الجرائد ان الغاية من وراء هذا العمل ليست مقاومة الحكومة ، بل المحافظة عليها وحجة الصحف في ذلك كثيرة اهمها :

اولا — الفوضى السائدة في المحاكم

ثانياً — تزعزع حالة الامن العام في جميع الولاية وذلك لقلة عدد المديرين حتى اذا اراد الوالي مثلا عزل مأمور اضطر لمراجعة استنبول وفي هذه الحالة يضطر للانتظار شهوراً ٠

وتطلب اجراء الاصلاح عن يد مراقبين من الاجانب لا مطمع لهم بالبلاد كالسويسريين والبلجيكيين والهولنديين

وهناك اهتمام خاص لموقف اللبنانيين ومطالبهم الرامية لضم بيروت الى لبنان فعقد اجتماعا في جوار جونيه كان شكري بزبك في مقدمة من تكلموا فيه لانه الساعي لعقد موءتمر كبير من اللبنانيين في عاليه لبحث الموقف اللبناني وتأليف وفد يسافر الى باريس للدفاع عن القضية اللبنانية فيها وفي عواصم اوربا

وقد ابلغ رئيس الديوان الحربي العرفي رؤساء تحرير صحف بيروت وسوريا وجوب الكف عن المناقشة في القضية اللبنانية والسورية وانذر المخالفين بتعطيل صحفهم واحالتهم الى الديوان الحربي العرفي

ان الصحفيين البيروتيين ارسلوا وفدا من قبلهم لمقابلة رئيس الديوان ، والاحتجاج على هذا القرار قائلين انه ليس من العدل اسكاتهم في الوقت الذي تطاق فيه حرية الكلام للصحافة اللبنانية ، مطالبين بضرورة تعميم الامر على الصحافة اللبنانية ايضاً بواسطة متصرف الجبل

وفي مطلع عام ١٩١٣ اشتدت حركة المطالبة باللامركزية والاصلاحات في بيروت ، واشتد معها نشاط دائرة بوليس بيروت لمراقبة هذه الحركات . فقد جاء في تقرير موءرخ في ٢ كانون الثاني «ان ابناء البلاد وان كانوا يتطرقون الى مسألة الاصلاحات واللامركزية الا انهم لم يتفقوا عليها بعد ولا يزال الخلاف مستمراً بينهم ، الا ان حصول اللبنانيين على موافقة الباب العالي بجعل مرفأ جونيه قاعدة بحرية للبنان اثر في المشتغلين في القضية ولهذا سافر عبد الحميد الزهراوي وعبد الكريم الخليل في ذلك اليوم الى القاهرة»

وتقول دائرة البوليس في تقريرها هذا ان الغاية من ذهاب هذين الزعيمين الى مصر هي الاجتماع بالمشتغلين في القضية السورية بمصر والاتفاق معهم على موءتمر يعقد في بيروت للنظر في مطالب سوريا وان عبد الغني العريسي يعارض في عقد هذا الموءتمر في بيروت اذ يرى من فائدة البلاد ان يعقد في احدى العواصم الاوروبية وان احمد عزت باشا العابد الذي سافر الى مصر في ٣١ كانون الاول سنة ١٩٠٢ وعد بمعاضدة الموءتمر اذا عقد في اوروبا على شرط ان يكون هو رئيساً للموءتمر .

الا ان الزهراوي والخليل عارضا في هـذا الامر بحجـة ان ماضي العابد لا يسوغ له الاشتراك في مثل هذه الامور الوطنية وان الواجب والحالة هـذه يقضي عليه اذا اراد مسـاعدة البلاد بان يؤيد الهيئات الوطنية بماله فقط · ومع هـذا فان عزت باشا يسعى في مصر للاجتماع بزعماء السوريين فيها ·

····

ادارة شرطة بيروت

رقم خصوصي ٨٩٣ــ١٢٥ رقم عمومي ٣٩١٣

١٥ كانون الثاني سنة ١٩١٣

في بيروت فئة ترى من الواجب اجراء الاصلاحـات المطلوبة للبلاد ولكن الا كثرية الساحقة من ابناء بيروت ، هـذه الا كثرية التي يلقبها رجال الاصلاح بالرجعية ، تعارض هؤلاء وتقول عنهم انهم يريدون في عملهم هـذا بيع البلاد من الاجانب وتقول ايضاً ان المطالبة بالاصلاحـات هي خطر على سيـادة البلاد سوى ان دعاة الاصلاح يستشهـدون على وطنيتهم باقوال الجرائد الاوربية وتصريح رئيس وزارة فرنسا مسيو بوانكاره الذي قال :

« لن نسحب بوارجنا من مياه بيروت ما دامت مصالحنا مهددة هناك » ولهذا عقد اجتماع في ادارة بلدية بيروت نهار الاحد في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩١٣ ؛ حضره زهاء مئة شخص من وجهاء بيروت والنافذين فيهـا من اصحـاب الحـل والكلمة في البلاد المطالبين بالاصلاحات وجرت في هذا الموضوع مناقشة طويلة حول الاصلاحات المطلوبة وقد رأى المجتمعون في النهـاية ان من الصعب تحقيق مشروع الاصلاحات في مثل هذه الجلسة العمومية وقرروا انتخـاب هيئة تنظر في لائحة الاصلاحات وعرضها بعد وضعها على الجمعية العمومية التي يكون لهـا الكلمة النهائية في تقرير هذا الامر واذاعتها فيما بعد في الصحف

وبعد ذلك تقرر الشروع في انتخاب الهيئة على ان تكون مؤلفة من ٢٥ شخصاً برئاسة الشيخ احمد عبـاس الازهري صـاحب الكلية العثمانية في بيروت

ومديرها « الكلية الاسلامية وكان اسمها في ذلك العهد الكلية العثمانية » وجرى اقتراع سري بين الحضور وكان عدد الناخبين ٦١ شخصاً ففاز بالاكثرية الاشخاص الاتية اسماؤهم

١ — ٦١ صوتا نالها احمد مختار بيهم ، وهو من مسلمي بيروت ومن عائلة معروفة في البلدة وكان رئيساً سابقاً لبلدية بيروت

٢ — الدكتور أيوب ثابت ٦٠ صوتا ، وهو من المؤيدين للسياسة الفرنسية وذو نفوذ كبير في المحيط المسيحي وبوجه خاص بين الاقليات المسيحية.

٣ — سليم علي سلام ٥٧ صوتا ، وهو وان لم يكن متعلما تعليما عاليا الا انه شديد الذكاء وذو نفوذ كبير في المحيط الاسلامي ويؤيده المسيحيون ايضاً وقد تمكن من تأمين النيابة لنفسه عن بيروت مراراً عديدة

٤ — جان تويني ٥٥ صوتا وهو من زعماء الارثوذكس وذو كلمة نافذة في بني قومه

٥ — كامل الصلح ٥٥ صوتا ، وهو من الزعماء النافذين في منطقة صيدا ، ويؤيده الشعب ولعائلته نفوذ شديد في البلاد

٦ — المحامي بترو طراد ٥٢ صوتا ، وهذا المحامي يتمتع بنفوذ كبير في محيطه وهو داهية ، طلق اللسان ، معروف بممالأته للسياسة الفرنسية

٧ — جان نقاش ٤٦ صوتا

٨ — رزق الله ارقش ٤٦ صوتا ، وهذا الرجل زعيم معروف ومشهور في موقفه الولائي تجاه الافرنسيين وهو من اشد المناوئين للسياسة الاتحادية ولا يمكن الاعتماد عليه في تأييد موقف الحكومة

٩ — سليم البواب ٤٣ صوتا

١٠ — حسن الناطور ٤٢ صوتا

١١ — المحامي جميل الحسامي ٤١ صوتا

١٢ — جرجي رزق ٤١ صوتا

الاول من تجار بيروت والثاني من اعيان بيروت اما الثالث فمحامي اشتهر

بالاعتدال و بعد النظر ، وهؤلاء الثلاثة لم يشتر كواحتي هـذا الوقت في اي امر من شأنه ان يصوب عليهم تهمة السعي للاشتراك في اي عمل من شأنه ادراجهم في عداد المالئين للاجانب ، ولكنهم يرون ان الحالة في البلاد تسودها الفوضى ، وان من الواجب الحصول على بعض الاصلاحات مع تأييدهم للسيادة العثمانية

اما الاخير فمن المؤيدين للسياسة الفرنسية

١٣ — البير بسول ٤١ صوتا

١٤ — حبيب فرعون ٣٧ صوتا

١٥ — عبد الحميد الغندور ٣٧ صوتاً

١٦ — البير يوسف سرسق ٣٧ صوتاً

فالاول وان كان في طبيعته معاديالدولة الا انه اقل خطراً من الثاني والثالث والاخير

١٧ — عبد الباسط فتح‌الله ٣٦ صوتاً وهذا الاخير يتعاطى التجارة وهو من مؤيدي بقاء سيادة الدولةويتمتع بنفوذ في منطقته وفوق ذلك محترم ومتدين معاً

١٨ — يوسف الهاني ، وهذا الرجل وان يكن من وجهاء بيروت الا انه لم يتدخل فيالشؤون السياسيةبصورة فعلية وهو من رجال المال وذو نفوذ كبير في البلاد نظراً لظرفه وادبه الا انه لم يشترك بصورة جدية مع الاشخاص الذين يشتغلون في السياسة الافرنسية

١٩ — فؤاد حنتس نال ٣٢ صوتاً وهو صحفي يشتغل في جريدة المفيد مع عبد الغني العريسي .من اشد المنادين بالاصلاحات

٢٠ — جان بسترس نال ٣١ صوتاً

تلك لائحة اسماء هذه اللجنة التي شرعت بعقد جلساتها فور انتخابهـا للنظر في لائحة المشروعات المقررة للاصلاحات المطلوبة لهذه المنطقة

***

لم تكن تقارير ادارة شرطة بيروت التي اوردنا نص بعضهـا فيما تقدم ، الا

عبارة عن معلومات سطحية ينقلها مرؤوس الى رئيسه ، اوردناها في هذه المذكرات الدلالة على مقدار معرفة الترك لحوادث بيروت وبلاد العرب ، قبل انعقاد مؤتمر باريس .

وقد وقعت قبل انعقاد مؤتمر باريس حوادث هامة في بيروت وهي :

راجت في أوائل شهر نيسان سنة ١٩١٣ ضجة شديدة بمناسبة الخطة العدائية التي اتبعتها الحكومة العثمانية تجاه دعاة الحركة الاصلاحية في بيروت وعلى اثر الاشاعات التي بدأت ترددها الاندية الوطنية عن عزم الحكومة على مقاومة طلاب الاصلاح وخنق هذه الحركة في مهدها

وقد ازداد ضغط القوم عندما اصدر اميرالالاي شاكر بك رئيس الديوان الحربي العرفي الجديد الذي حل محل اميرالا لاي حلمي بك ، امراً يقضي بمقاومة كل تدبير يرمي الى احياء الحركة الاصلاحية

و كان دعاة الحركة في بيروت قد اسسوا لهم ناديا في محلة باب ادريس ، مكان شركة سنجر الان ، اطلقوا عليه اسم (نادي الاصلاح البيروتي) وراح زعماء هذه الحركة يجتمعون فيه ، و كانت الاوامر التي صدرت الى اميرالا لاي شاكر بك بعد مجيئه الى بيروت ترمي الى تضييق الخناق على اركان هذا النادي وعرقلة مساعيه ، ويظهر ان شاكر بك رأى ان تنفيذ هذا الامر لا يتم الا باقفال النادي لاسيما ان التقارير الواردة من جواسيس السلطة العسكرية ومن جواسيس الشعبة السياسية في وزارة الداخلية اكدت للرجل ان اعضاء النادي لا يتمتعون بثقة الشعب وانهم افراد قلائل بنفر الشعب منهم ولا يؤيدهم لعلمه انهم يشتغلون لحساب احدى الدول الاجنبية ولمقاومة دولة الخلافة

واعتماداً على هذه التقارير السطحية التي لم تكن في حد ذاتها تستند الى حقيقة راهنة وقوية تم الاتفاق بين شاكر بك ووزارة الداخلية ووالي بيروت على اقفال النادي المذكور ومصادرة اوراقه واحالتها الى الديوان الحربي العرفي

وفي يوم الجمعة المصادف ١١ نيسان سنة ١٩١٣ مساء داهمت قوة من الشرطة

النادي المذكور وصادرت اوراقه وموجوداته وختمت ابوابه بالشمع الاحمر .

اضراب بيروت

وسرعان ما انتشر هذا الخبر في بيروت وقامت له قيامة البيروتيين ، فعقدوا الاجتماعات في ذلك المساء وقرروا الاضراب عن العمل في اليوم الثاني المصادف لنهار السبت في ١٢ نيسان سنة ١٩١٣ اضرابا تاما شاملا جميع مرافق الحياة فيها

وفعلا اضربت بيروت في النهار المذكور وقامت مظاهرات كبرى ، توجه خلالها المتظاهرون الى ادارة البرق وابرقوا باحتجاجاتهم الى استنبول ثم الى دور قناصل الدول الكبرى واشتدت المظاهرة عند الظهر بحيث اضطرت الحكومة لاستعمال قوات الجند واعتقلت عدداً من المتظاهرين والاهلين واودعتهم السجن العسكري في القشلاق (دار المفوضية العليا اليوم) ومضى ذلك اليوم والمدينة في حالة هيجان شديد ضد الحكومة لوقوفها ذلك الموقف .

وظهرت بعد ظهر ذلك اليوم عدة مناشير تتضمن الاحتجاج على عمل الحكومة وطلب مواصلة الاضراب في الايام التالية الى ان تنال بيروت حقوقها . وتضمنت هذه المناشير سلسلة من المطالب في مقدمتها اخلاء سبيل الموقوفين في (القشلاق) فوراً واعادة فتح نادي الجمعية وتحقيق الاصلاحات المطلوبة لمدينة بيروت ، وغير ذلك من المطالب المختلفة في هذا الشأن

ثم اوفدت رسل الاصلاحيين الى المناطق المجاورة لحث الشعب على معاضدة بيروت .

اجتماع حكومي

وتجاه هذه الحالة الغير المنتظرة وبعد ان استمر الاضراب نهار الاحد ايضاً رأى الوالى ضرورة وضع حد لهذه الحالة لاسيما وان قناصل الدول الاجنبية بدأوا يتدخلون في الامر ويرون ان موقف الحكومة ضعيف من هذه الوجهة ، وكان

الاجانب في ذلك الوقت يريدون التدخل في اتفه الامور التي تقع للدولة العثمانية خصوصاً في هذه البقعة التي كان الفرنسيون يريدون ان يبسطوا نفوذهم عليها ولهذا استدعى الوالي فوراً الى دائرته عبد الغني سني بك مكتوبجي الولاية وامير الالاي شاكر بك رئيس الديوان الحربي العرفي ، ومدير الشرطة وبعض معاونيه وقد عقدوا مجلساً بحثوا فيه الموقف

وكان من رأي شاكر بك ضرورة متابعة هذه الخطة وكان على اعتقاد وطيد بان في استطاعته استناداً الى قواته العسكرية اخماد هذه الحركة واجبار الاهلين على فتح محلاتهم وقد ايده في ذلك مدير الشرطة الذي كان يرى ان اقل تهاون في تنفيذ هذا الامر يؤثر في موقف الحكومة ويفقدها هيبتها . الا ان عبد الغني سني بك اعترض بقوله :

— تنفيذ القو. اذا أقدم الشعب على ضرام نار الثورة الا ان اهالي بيروت المعروفين بهدوئهم واعتقادهم بطالبون بمشاريع يؤمنون بحقهم فيها

وقد شجعتهم الحكومة السابقة في بادىء الامر ثم خذلوا في هذا الوقت فاقدامنا على تعطيل ناديهم واعتقال بعض رجالهم أهاب بهم الى الى الاعتقاد بان الحكومة لا ترغب في الاصلاحات وانها تقصد من وراء عملها هذا مقاومة شعورهم بالقوة فاقدامنا والحالة هذه على استعمال القوة يضر ويجعل من الهيئة المؤيدة لنا عدوة لدودة ولهذا أرى من الواجب استعمال اللين .

وقد وافق الوالي على نظرية عبد الغني سني بك هذه وتقرر في هذا الاجتماع :

اولا — اخلاء سبيل الموقوفين في الثكنة العسكرية (القشلاق)

ثانيا — الحصول على وعد من وزارة الداخلية بتحقيق الاصلاحات التي تتطلبها البلاد

ثالثاً — دعوة هيئة من اهالي بيروت المحترمة فوراً الى دار الحكومة والحصول على موافقتها على اذاعة منشور على الشعب تدعوه فيه الى الاقلاع عن الاضراب وفتح المحلات بانتظار المشاريع الاصلاحية التي ستقرر الحكومة القيام بها

وعملا بهذا الاتفاق تقرر استدعاء الوجيهين محمد بيهم ويوسف سرسق لما لهما

من نفوذ في المدينـة لتحقيق الفكرة الاخيرة

وقد توجه عبد الغني سني بك الى « نادي بيروت » فاجتمع هنـاك بالمشار اليهما وبسط لهما الموقف ، ضرورة لتهدئة ثائرة الاهلين واقناعهم بالعدول عن الاضراب ، وانتظار تعليمات وزارة الداخلية لتحقيق الاصلاحات المطلوبـة للبلاد السورية ، فقبـلا بذلك ووضعا نشرة صيغت بعبارات ملؤهـا الاخلاص والوطنية والرغبة في المحافظة على حقوق البـلاد وسيادتها التـامة ، تحت ظل العلم العثماني ناشد الشعب البيروتي في ختام هذه النشرة ان يملك اعصابه وان يهدىء من ثائرته وان يكون مخلصاً لبلاده ودولته وان يستأنف اعماله كالعادة ، ثم وقعا هذا المنشور ووزعاه في المدينة ، صباح الاحد في الثالث عشر من شهر نيسان سنة ١٩١٣ .

وقد ارادت الحكومة مساعدة هذين الوجيهين بتهدئة الحالة فاخلت سبيـل الموقوفين في المدينة واذاعت بمختلف الطرق الاعلانات والاشاعات عـن نيات الحكومة الحسنة ورغبتها الاكيدة في حل الامور المختلفة وتحقيق الاصلاحـات المنشودة .

وقد انقسم الرأي العام البيروتي صباح الاثنين في ١٤ الجاري الى قسمين ، احدهما يؤيد منشور المرحومين والاخر يواصل الاضراب ، لا ان احداً لم يجسر على فتح محلاته نظراً لاضطراب الافكار وقيـام البعض بتحريض الشعب على متابعة الاضراب

وهنا استقل الوجيهان المرحومان عربة ، واخذ يطوفان على اسواق المدينـة التجارية حاضين الشعب على فتح محلاتهم

ولما وصلا في العربة تجاه مدخل سوق اياس كانت هناك حركة شديـدة للمقاطعة يديرها السيد سعد الله العيتاني الذي ما كاد يرى عربة الوجيهين تقف هناك حتى اخترق الجماهير واعتـلى درجة العربة وأخذ يخطب في الناس لمقاومـة فكرة الوجيهين ومتابعة الاضراب . وصادف اذ ذاك قدوم المحـامي جميل بك الحسامي وهو من اركان الجمعية الاصلاحية ، فاستنجد به محمد بك بيهم ، وافهمه

الموقف فانزل جميل بك السيد سعد الله من العربة ووقف مكانه خاطباً في الشعب مهدئاً ثائرته داعياً اياه لان يضع ثقته في الوجيهين الكبيرين لان ما عرف عنهما من الوطنية الحقة والرغبة الصادقة في رفاهية الشعب وصالحه كان كافياً لجعلهما في مقدمة المخلصين ، وهكذا تطور الموقف وفتحت السوق وعادت السكينة الى ما كانت عليه .

الجاسوسية

اوردنا هذا الحادث الذي وقع في بيروت يوم الاثنين ١٤ نيسان سنة ١٩١٣ ليتعرف القراء الى حقيقة ما جرى في ذلك اليوم الا ان الجاسوسية ما لبثت ان مثلت في هذه القضية دوراً هاماً ليس في ذلك الوقت بل خلال الحرب العالمية عندما قام احمد جمال باشا يعاكس جميع رجال البلاد ليس من الذين وجدت الوثائق ضدهم في القنصلية الافرنسية فحسب بل الذين اشتغلوا في الحركة الاصلاحية وايدوها

ولهذا اوفدوا جواسيسهم من الوشاة ينقلون اليهم تاريخ حياة كل وجيه بيروتي ولبناني مع ما يجمعونه من وشايات اضف اليها رسائل الانتقام والسعاية التي كانت تفد الى الديوان الحربي في عاليه

وفي خلال تلك الايام العصيبة تلقى الديوان الحربي العرفي رسماً يمثل وقوف المحامي جميل بك الحسامي على مدرج عربة المرحومين محمد بك بيهم ويوسف بك سرسق مع تقرير يفيد ان المحامي المشار اليه من اعداء الدولة وانه عاكس بيهم وسرسق في مسعاهما بفتح بيروت والقى خطباً مهيجة ضد الدولة و كانت هذه الوشاية وهذا الرسم كافيين لتوقيف الاستاذ الحسامي والقائه في سجن عاليه

وكان الاستاذ محي الدين علم الدين المأمور اجراء بيروت السابق كاتب ضبط الديوان العرفي عندما اوقف الاستاذ جميل بك الحسامي فحقق معه فلم ينكر انه من طلاب الاصلاحات اللازمة للبلاد العربية الا انه انكر ان يكون عدواً للدولة عاملا مع اعدائها وقال انه كان يرغب في تحقيق هذه الاصلاحات بالطرق السلمية .

فعرض عليه رسمه ووجهت اليه تهمة التحريض فلم ينكر ان الرسم له اخذ في الظروف التي مر دناها آنفاً .



الاستاذ جميل الحسامي

واستشهد على ذلك بالسيد العيتاني وعشرات من الاحياء الذين شهدوه يومئذ وعرفوا موقفه فاستدعى المحقق هؤلاء الشهود حتى اذا اثبتت حقيقة رواية الاستاذ الحسامي الذي كان قد صرف عشرين يوما في السجن

ولم يكن الاستاذ جميل الحسامي الرجل الوحيد الذي ذهب ضحية وشايات الوشاة من الجواسيس بل كان هناك غيره من الاشخاص الذين فقدوا حريتهم وحياتهم في هذه الوشايات .

وسيرى القراء في المعلومات التي سنوردها في الفصول التالية الادوار الخطيرة التي لعبها هؤلاء الجواسيس و كانت سببا لفقد ارواح مئات من العرب ذهبوا ضحية لوشايات

ألفصل الثاني

الصهيونية الحسناء سارا ارونسون

ليس بين القراء ممن رافقوا سنوات الحرب العالمية من يجهل سارا ارونسون ، فلم تكن حفلة راقصة تقام في قصر من قصور بيروت الكبيرة الا تكون سارا النجمة المتألقة فيها ٠

ولم يكن احمد جمال باشا يحضر الى بيروت الا ترى سارا تقدم الى الكبراء والعظماء ٠

فسارا ترقص اليوم مع احمد جمال باشا في احد قصور الحي السرسقي وغداً يقيم لها عبد الرحمن باشا اليوسف مأدبة في دمشق

وبعد غد تقام لها حفلة شائقة في القدس ٠

و كان الجميع يتسابقون لخطب ودسارا اعتقاداً منهم بانها سيدة سيد للبلاد احمد جمال باشا

ولما لها من الجمال والملاحة والخفة

ولكن هل كانت سارا عشيقة جمال باشا حقاً ؟

وهل كانت مبتذلة ؟

ولماذا مثلت هذه الادوار في البلاد ؟

ان ماتا هاري الجاسوسة الالمانية التي مثلت ادواراً خطيرة في فرنسا لم تتعاط مهنة الجاسوسية الا لخدمة امتها وبلادها

ولما اعدمها الافرنسيون ماتت وهي تبتسم يقيناً منها بانها انما قتلت في سبيل وطنها اما سارا فقد مثلت ادواراً لا تقل خطورة عن الادوار التي مثلتها متاهاري في سوريا ولبنان وفلسطين

فهي يهودية صهيونية تعاطت الجاسوسية لغاية وطنية وهي من العاملات في سبيل الوطن القومي اليهودي في فلسطين

وكانت تعتقد انه لا يمكن تحقيق هذا المشروع الوطني الا اذا خرجت تركيا من فلسطين فراحت تسعى في هذا السبيل الى ان رأت السلطنة العثمانية تسير الى الاضمحلال وقبل ان يتحقق حلمها في زوال السيادة العثمانية نهائياً عن فلسطين اكتشفت الصدف قضية تجسسها والمام الترك بتوقيفها في مسقط رأسها زمارين انتحرت .

وقبل ان نأتي على تفاصيل الاعمال التي قامت بها سارا في البلاد نرى ان نذكر لمحة عن تاريخ اسرتها .

الهجرة اليهودية

على اثر المذابح والمظالم التي ارتكبها الروس والرومانيون في اواخر القرن التاسع عشر ضد يهود تلك البلاد أخذ اليهود يفكرون في ايجاد ملجأ لهم وشرعوا يهاجرون الى فلسطين وبعد ان كانت منطقة هجرتهم منحصرة ما بين صفد وطبريا انتقلت هذه المرة الى جهات (يهوذا) اذ انصرفوا الى مشتري الاراضي الواسعة فيها

وفي سنة ١٨٨٠ الف لووانتان ووايتبرغ وهابسان الذين هم من التبعة الروسية وهابغمن البولوني جمعية اخذت على عاتقها مهمة بث الدعاية للهجرة الى فلسطين وفي سنة ١٨٨٢ تمكن هؤلاء بواسطة المهاجرين الذين تمكنوا من جانبهم من انشاء قرية (ريشون لزيون) في ارض منطقة يهوذا

وفي سنة ١٨٨٣ الفت فئة اخرى من يهود رومانيا جمعية من عشر عائلات اشترت اراضي لها في جوار حيفا وانشأت فيها قرية (زمارين) او بحسب اصطلاح

اليهود زيكرون جاكوب التي هي مسقط رأس سارا

وانصرفت هاتان الفئتان من المهاجرين اليهود الى العمل في اراضي فلسطين ولكن جهلهما مركز البلاد الطبيعي جعلهما في حالة مؤسفة من الحاجة والفقر ومرعان ما انتشرت فيهما الفاقة والامراض واضطر القسم الكبير منهما الى الفرار

ولما لمس زعماء اليهود هذه النتيجة المحزنة التي صار اليها اخوانهم خافوا العاقبة كما خافوا ان لا تثمر هذه النواة التي وضعوها الوطن القومي الصهيوني فقرروا الاستنجاد باغنياء اليهود في العالم ، وعلى الاثر ارسلوا وفداً الى اوربا وذلك في سنة ١٨٨٧ فتولى هذا الوفد تحريك شعور اغنياء اليهود وفي مقدمتهم البارون ادمون ده روتشلد الذي وافق على هذا التدبير واوفد مندوبين من قبله مزودين بالصلاحية اللازمة وبالاموال الوفيرة

عائلة ارونسون

وفي سنة ١٨٨٩ جاء جاك ارونسون الى زمارين او زيكرون جاكوب كوكيل لروتشلد حاملا معه الاموال الوفيرة والاعتمادات الطائلة وراح يسعى لترقية هذه المنطقة وازدهارها وقد انفق في هذا السبيل ، هو وزوجته الشابة اموالا طائلة الى ان استعمر هذه القرية ، وكان نصيب عائلة ارونسون اراض شاسعة واملاك وافرة ، وما كادت تحل سنة ١٩١٤ وتعلن الحرب العالمية حتى كانت عائلة ارونسون من اكبر واغنى العائلات اليهودية المهاجرة والوطنية في فلسطين .

وكان ارونسون الاب في ذلك الوقت متمتعاً بثقة البارون ادمون ده روتشلد والجمعيات الصهيونية وينظر اليه على انه في مقدمة مؤسسي الوطن القومي الصهيوني كما انه كان في مقدمة الذين يثق بهم الترك ويستخلصونهم

ورزق جاك ارونسون خمسة اولاد هم حسب تاريخ ولادتهم : آرون — او هارون — ارونسون ولد سنة ١٨٨٦ ، وسام ارونسون ولد سنة ١٨٩١ ، وسارا ارونسون ولدت سنة ١٨٠٣ ، وروبيكا وقد ولدت سنة ١٨٩٧

وولد معظم هؤلاء في زمارين وتلقوا علومهم الابتدائية فيهـا ، الا ان والدهم عاد فبعث بهم الى اوربا حيث تلقوا علومهم العالية في جامعاتها واصبحوا من كبار العلماء رغم حداثة سنهم

فآرون ارونسون شقيق سارا الاكبر من كبار علماء النباتات ليس في فلسطين وحدها فحسب بل في العالم وله عدة مؤلفات ترجمت الى اللغات الاجنبية وتدرس الان في المعاهد الزراعية في كثير من انحاء العالم

وقد جاب هذا العالم الزراعي جميع انحاء البلاد السورية العربية واليه يرجع الفضل في اكتشاف « القمح البري » الذي ينبت منذ بدء الخليقة وبدأ بزراعته وتنميته وقد وجد هذا القمح في اعالي جبل الشيخ بلبنان وسجل اسمه في هـذا الاكتشاف في الانسيكلوبيديا الانكليزيـة وسجل اسمـه ايضـاً بانه مكتشف « اللوز البري » في اعلى جبال قاسيون بسوريا

وقد انشأ هذا الشاب مختبراً زراعياً كبيراً في قريه (عتليت) بفلسطين يعد عظم مختبر انشيء في ذلك العهد في السلطنة العثمانية

ومع انصراف هذا الرجل الى الشؤون الزراعية ودرس مختلف النباتات كان من اكبر جواسيس الصهيونية والانكليز وقد ادى خدمات كبرى لليهود والانكليز ولمـا نشبت الحرب العالميـة غـادر فلسطين الى انكلترا حيث التحق بخدمـة — الانتلجـانس سرفيس — وادى خدما كبرى للصهيونيـة والانكليز ، ولمـا انتهت الحرب العالمية وتقرر حل القضية الفلسطينية في مؤتمر لندن غادر باريس على احدى الطائرات الى لندن ليدافع عن القضية الصهيونيـة فكان نصيبه الموت اذ سقطت به الطائرة وقتل .

واليكسي او اليك كما كان يعرف في ذلك الوقت فقد كان خطيباً وداعية صهيونياً ومهمته الاساسيـة العمل على خدمـة الانتلجانس سرفيس قبل الحرب العالمية الا انه كان يتظاهر بانه معلم مدرسة فيطوف بين زمارين وملبس والخضيرة لالقاء المحاضرات على الشبيبة اليهوديـة مرة في كل قرية خلال اسبوع واحد ، وكان يطوف في المناطق الاخرى عند الضرورة

اما سارا اورنسون فتاة جميلة الصورة بديعة التكوين ولو كان في ذلك الحين معارض للجمال كما هي الحالة في هذه الايام لانتخبت ملكة الجمال في العالم وهي عدا الجمال الخلاب الذي تحلت به على جانب عظيم من طلاوة الحديث وخفة الروح تحسن اللغات العبرية والعربية والافرنسية والالمانية والانكليزية والايطالية والروسية

وكانت في الوقت نفسه ولوعة بالعلوم الزراعية والنباتية وشريكة لشقيقها آرون في المختبر الزراعي الذي يديره في قرية (عتليت) وكان الجميع يحبونها ويحترمونها ويطيعونها ليس والدها واشقاؤها فحسب بل جميع يهود (زمارين) والقرى اليهودية المجاورة لها وكان هؤلاء يرجعون اليها في الاختلافات والامور المتعلقة بهم ويقبلون بحكمها فوراً دون معارضة

وكانت سارا حرة في الذهاب الى حيث تريد ولم يكن لاشقائها الا الاذعان لارادتها والعمل بمشيئتها

وروبيكا كانت تمثل في هذه العائلة ربة المنزل فهي لم تتدخل كوالدها وشقيقها سام ، في الادوار السياسية التي مثلها ارون واليكسي وسارا بل ابتعدت عن هذه الامور جميعها لتنصرف الى ادارة شؤون المنزل

والحكومة العثمانية كانت تجهل حقيقة مهمة هذه الاسرة ولا تعرف عن افرادها الا انهم من المهاجرين اليهود الذين جاؤوا الى البلاد واستوطنوا فيها وكثيرا ما كانت تستعين بخبرة ارون وشقيقته سارا في مختلف الامور الزراعية ، وبذلك كانت تترك لهم المجال الكافي لان يوسعوا منطقة نفوذهم ، وان يستحصلوا على المعلومات السياسية التي يرونها لازمة لمصلحة الاستخبارات الانكليزية

ومصلحة الاستخبارات الانكليزية ، كانت قبل الحرب العالمية بقليل بحاجة الى معلومات جديدة عن اسرار بادية سوريا فخابرت سارا ، وكرر هذا الامر البارون ده روتشلد الذي اعلمها ان مصلحة الصهيونية توجب ذلك . فوافقت على هذا الامر وراحت تبحث عن شخص قوي يمكنها ان تعتمد على مكانته في سبيل الدفاع عن نفسها فوجدته اخيراً في شخص نور الدين بك ابهم

بين نور الدين وسارا

ونور الدين بك بيهم من اثرياء بيروت وهو شاب متعلم يحسن عدة لغات ومن غواة الآثار يصرف وقته وثروته على جمع ما يطيب له من الآثار القديمة القيمة ذهب في ذلك الوقت الى فلسطين ومر على عتليت لمشاهدة قلعتها التاريخية ، فتعرف هناك الى آرون ارونسون الذي دعاه الى داره في زمارين وقدمه الى افراد العائلة ، وهناك دار حديث بين افراد هذه العائلة ونور الدين بك حول الآثار واماكنها .

وخاضت سارا في الحديث بطلاوة « اسكرت » نور الدين بك وقد اظهرت له رغبتها في زيارة سوريا وصحراء سوريا وقبائل سوريا ، لمشاهدة النباتات الغريبة الموجودة فيها ومتابعة الاكتشافات النباتية التي قام بها شقيقها آرون فصدق نور الدين بك روايتها هذه لاسيما ان شقيقها العالم النباتي كان قد اشهر في ذلك الوقت بعد اكتشافاته فشجعها على متابعة ابحاثها

فسألته الانسة سارا أيوافق على استصحابها في هذه الرحلة ؟

وسارا التي لم تكن في ذلك الوقت قد بلغت العشرين من عمرها تغر الزاهد فكيف بنور الدين بك وهو شاب في ربيع الحياة فان رفقة مثل سارا في البراري والقفار من الامور التي تلذ مهما كانت المخاطر ، لهذا وافق فوراً على هذه الرحلة التي كانت مرضية للفريقين ، لسارا لانها برفقة شاب مسلم عريق في الحسب والنسب ، سيسهل لها كل سبيل ويجعلها في مقدمة الناجحات في تحقيق مهمتها ، ولنور الدين بك لانه رأى مرافقته مثل هذه الفتاة الجميلة سعادة لم يحلم بمثلها يوما

ماذا فعلت سارا

طافت سارا في بادىء الامر برفقة نور الدين بك جهات حوران وجبل الدروز خطوة فخطوة فكانت تدرس النباتات الغريبة درساً دقيقاً وتنصرف في الوقت نفسه الى درس كل منطقة تمر بها درسا ادق من الوجهتين العسكرية والسياسية

فتسجل كل هضبة تمر بها وكل بئر تراه وكل منطقة خالية من الابار ونفوذ كل زعيم في قريته ومركز كل قبيلة ومقدار نفوذها وتجتمع بكل زعيم من الزعماء وبكل شيخ من مشايخ القريــة الشيوخ والاحداث وتدرس نفوذه ومحبـة افراد القبيلة له ٠

وقد لفتت هذه الحركات انظار السيد بيهم فاستفهمها فقالت له

ما دمت اقوم بهذه الرحلة لغاية علميه فليس هناك ما يمنعني من درس حالة البلاد التي ساضع كتابا عنها

ولما كانت سارا على جانب وافر من العلم فلم تدخل الريبة الى نفس رفيقهـا لا سيما ان احدا في ذلك الوقت لم يفكر في الحرب العالمية وفي ان نفوذ السلطنة العثمانية سيزول من البلاد بعد سنوات قصيرة

وقـد يكون جمال سارا ولطف سارا ومحبة سارا لنور بك من الاسبـاب الرئيسية التي حالت دون تمكنه من اكتشاف اسرارها

وقد اكدت الاوراق التي وجدت فيما بعد ، اي بعد اكتشاف سارا ، ان نور الدين بك الذي ظل برفقة سارا الى ما بعد اكتشاف امرها وانتحارها كان يجهل كل شيء من اسرارها

وكانت سارا تحمل مبالغ كبيرة من المـال لتصرفها في رحلاتهـا هذه ، وكثيراً ما كانت تساعد البدو والقرويين بمبالغ لا بأس بها

وقد لفت هذا الامر نظر نور الدين بك فخاف عليها من ان تصبح عرضـة لاعتداء اللصوص الذين لا يتأخرون عن التضحية بها وبه في سبيل المال ولذا كان ينهاها عن حمل المال قائلا انه قد يكون سبباً في نكبة تصيبها فكانت تضحك لخوفه قائلة :

— لا قيمة للمال عندي ٠ فاذا جاء من يهاجمني للاستيلاء عليه تركته له غير عابئة ٠

الا انها في الحقيقة لم تفعل ذلك

مخاطرة شديدة

ففي احدى هذه الرحلات زارا تدمر وفيما هما يتوغلان في البادية خرج عليهما ثلاثة من الاعراب. و كانت سارا قد ابتعدت عن نور الدين مسافة طويلة الا انه تمكن من سماع استغاثتها التي ارسلتها وهي في حالة ذعر وخوف شديدين فاسرع اليها فشاهد هؤلاء العربان و كانوا مدججين بالسلاح يحاولون لبس سلبها فقط ، بل خطفها والذهاب بها الى البادية . فلم يفقد الشاب رباطة جأشه بل بادر فوراً الى بندقيته وهدد بها السلابين و كان مرتديا ملابس عربية وراكب جواداً عربياً ولما صرخ بهم ظنوه من امراء العرب في هذه المنطقة فخافوا العاقبة وولوا الادبار ولو اظهر نور الدين قليلا من الجبن في هذا الحادث لذهب هو ورفيقته طعماً لوحوش الفلاء .

ووقعت لهما عدة مخاطر كهذه الا انهما كانا يتلقيانها بشجاعة مكنت اواصر الود والصداقة بينهما ، وتعدت في النهاية دور الصداقة ...

عند اعلان الحرب

وهذه الرحلات التي قامت بها سارا ارونسون في نهاية سنة ١٩١٢ والتي استمرت الى اواسط سنة ١٩١٤ ظلت مكتومة عن السلطنة العثمانية ، الا انه بعد اعلان الحرب العالمية في آب سنة ١٩١٤ وقبل دخول الدولة العثمانية في هذه الحرب رأى افراد هذه العائلة انفسهم في موقف يوجب عليهم العمل بصورة جدية لخدمة دائرة الاستخبارات الانكليزية ولخدمة الصهيونية التي تعتمد على الجاسوسية فيما تعتمد عليه من الحيل للوصول الى هدفها فتقرر والحالة هذه القيام بما يلي

اولا = ان يتطوع اليك وارون في الجيش البريطاني بحيث يتوليان فروع الاستخبارات .

ثانياً — ان يتولى ايزيدور هالكن العمل في الجيش النمسوي ليكون على صلة بمعرفة اسرار النمسويين في الحرب ويوافي بها اخوي سارا

ثانياً — ان تتولى سارا ادارة شعبة الاستخبارات في فلسطين و تسعى لتنميتها وتتخذ من المختبر الزراعي الذي في (عتليت) قاعدة لادارة هذه الحركات وان تسعى عند اللزوم لايجاد جواسيس لها في فلسطين

رابعاً = ان يتبادل الاربعة المذكورون المخابرات بشيفرة خاصة بهم بواسطة دوائر البريد الاجنبية حتى اذا دخلت الدولة العثمانية في الحرب العالمية جرت هذه المخابرات بواسطة الحمام الزاجل والرسل الذين سيوفدون الى ساحل عتليت

وعلى هذا القرار تم الاتفاق بين الجميع

اعمال سارا

كانت اولى الاعمال التي قامت بهـا سارا في فلسطين ان اخذت بتدريب الحمام الزاجل على التنقل بين عتليت والمناطق المجاورة وكانت في كثير من الاوقات تقوم بنزهة على زورق بخاري تملكه فتمضي بالحمام من عتليت الى حيفا وتطيره من هناك فيعود ثانية الى عتليت

ثم عمدت الى تأليف شبكة جاسوسية قوية جعلتهـا ذات فروع وتسلسل بحيث لم يعرف امرها الا ثلاثة اشخاص هم الدكتور كوهين خانكن وابراهام ازرائيل وصموئيل سام ·

واتخذت عتليت قاعدة لها تجتمع فيها برسل شقيقها « اليك » الذين كانوا يزورونها من مصر قبل دخول الدولة العثمانيه الحرب العالمية ·

ثم وسعت منطقة نفوذها فاوجدت لها عملاء في صفخ = البطيحة والخربة وتل شهاب ، وحوران ، وبادية سوريا ، ثم في بيروت ، والقدس ، والشام ، وحلب ، ويافا ، وحيفا ·

وكان جميع الجواسيس الذين اشتغلوا معها من اليهود يجهل بعضهم بعضاً · لارتباطهم مع بعضهم البعض بدرجة التسلسل برؤساءهم فتصل الاخبار حقيقية الى سارا فترسلها بدورها الى المنطقة الانكليزية

وقد تمكنت خلال سنوات الحرب العالمية من التقاط معلومات كان جلهـا

مفيداً للانكليز مع انها اخطأت في كثير منها

موقف جمال باشا

لما استولى احمد جمال باشا في اواخر عام ١٩١٤ على مقدرات الامور في الجيش الرابع طلب الى رئاسة الشعبة الثانية ان تضع له قائمة باسماء اليهود الذين هم من اصل اجنبي ويقيمون بفلسطين مع اسماء الذين كانوا في فلسطين ونزحوا منها ٠

وقد وضع اليوزباشي كنعان بك تقريراً ضافياً عن هذه العائلات اردفه بمعلومات حقيقية عن عائلة ارونسون وبوجه خاص عن سلوك ارون واليك الذين لجأوا الى الانكليز مع لائحة من المعلومات الواردة اليه من مصر عن انتساب هذين الرجلين الى مصلحة الاستخبارات وقيامهما بعملهما ضد فلسطين

ومع ان الواجب كان يحتم على قائد الجيش الرابع ان يهتم لهذه الحوادث وان يأمر بمراقبة افراد هذه العائلة بدقة فانه لم يهتم لهذه الامور بل اكتفى بانذار آل ارونسون الذين في زمارين بان اقل حركة مريبة يقومون بها كافية لابعادهم الى قلب الاناضول كانه كان على اعتقاد بان هذا التدبير كاف لردع هذه العائلة عن القيام باعمال الجاسوسية

اول دور لسارا

لم تكن سارا تظهر الا في اندية الطبقة الراقية من البلاد ولهذا ما كاد احمد جمال باشا يأتي الى فلسطين في اواخر كانون الاول سنة ١٩١٤ حتى كانت سارا هناك فتقدمت اليه مع الوفد اليهودي الذي جاء القدس ليرحب بقدومه وتكلمت يومئذ امام الباشا مرحبة به باسم اخوانها ابناء الطائفة اليهودية واكدت له اخلاصهم للدولة العثمانية

وسارا لم تأت مع الوفد اليهودي لتحية احمد جمال باشا فحسب بل للتعرف اليه من جهة ولمعرفة اسرار الاستعدادات التي يقوم بها لتجهيز الحملة المسافرة الى

مصر عن طريق قناة السويس

والمعلومات التي نشرت بعد الحروب العالمية والوثـائق التي اذاعتهـا دوائر الاستخبارات اكدت ان شعبة الاستخبارات الانكليزية في فلسطين التي كانت تديرها سارا ارونسون ساعدت الانكليز مساعدة كبري على الاستعداد للحملة لان هذه المعلومات التى زودوا بها كانت كافية لاطلاعهم على اسرار الحملة العثمانية وما لديها من عدد حربية فاعدوا عدة مضاعفة لها و كان من جراء ذلك ان فشلت الحملة الاولى على قنـاة السويس وازدادت الثقة بسـارا فبانت مرجعـاً رئيسيـاً للحملة الانكليزية

سارا في بيروت

وكان للحلفاء خطة مدبرة لاحتلال السواحل السورية في بدء سنة ١٩١٥ اي في شهر اذار ، الشهر الثاني لمهاجمة العثمانيين قناة السويس ، ولهـذا ارادوا ان يتعرفوا الى حقيقة الحالة في بيروت والمناطق الساحلية الاخرى فانتدبوا لهذه الغاية سارا ارونسون التي جاءت بنفسها الى بيروت لدرس الموقف ونزلت في اليوم الواحد والعشرين من شهر شباط سنة ١٩١٥ في فندق دونشرهوف

وفي اليوم الثاني اتصلت بميشال بك سرسق متظـاهرة بان قدومهـا لمفاوضة المثري البيروتي بشأن املاك ومعاملات مشتركة لها في فلسطين فاستقبلها ميشال بك بحفاوة كعادته وقدمها في ذلك المساء لعدد كبير من وجهاء بيروت

ثم ارادت ان تتـأكد من موقف البيروتيين من الحلفـاء اذا ما اقدموا على احتلال هذه المدينه فارسلت اشعاراً الى اخيها اليك بان يوفد سفينتين حربيتين للتجول حول سواحل بيروت ثم اشاعت بين الناس بواسطة رسلها ان في نية الحلفاء احتلال مدينة بيروت الا ان هـذه الاشاعـة جاءت عكس ما كانت ترجو اذ ما لبث البيروتيون ان ابدوا استنكارهم للاذعان الى الاجانب وراحوا يهاجرون الى دمشق فامتلاءت محطة سكة حديد بيروت بمئـات العـائلات ممـا اضطر ادارة السكة الحديدية الى تسيير عـدة قاطرات مـدة بضعـة ايام شحنت الى دمشق الوفاً من

العائلات البيروتية

وتجاه هذا الحادث رأت سارا ان احتلال الحلفاء لسواحل سوريا ولبنان سيكلفها عدا الضحايا الكثيرة معارك دموية بين المسلمين والمسيحيين فارسلت تنبيء شقيقها بهذا الامر مما اهاب بالحلفاء الى تحويل وجهة خطتهم من بيروت الى اسكندرون والسير من هناك الى حلب وهكذا يفصلون سوريا عن بلاد الاناضول الا ان المذبحة الارمنية التي وقعت في شهر نيسان سنة ١٩١٥ في اورفة وضواحيها اخرت هذا الاحتلال الى اواخر سنة ١٩١٨

ولم تقتصر مساعي سارا عند هذا الحد في بيروت بل قامت بتمثيل ادوار اخرى اليك هي

لما اشتدت المعارك في (الدردنيل) اراد الحلفاء ان يهددوا المناطق الساحلية العثمانية فبثوا رقابة شديدة عليها ، وكانوا الى ذلك الوقت ، منتصف سنة ١٩١٥ يتركون الحرية للمراكب الشراعية في التجوال بين سواحل لبنان الحالية وسواحل فلسطين وبدأوا بمطاردة هذه السفن الا ان الالمان رأوا ان يكافحوها بغواصاتهم فاوفدوا بعض هذه الغواصات الى السواحل السورية ٠

وفي اليوم السادس عشر من شهر تموز سنة ١٩١٥ دخلت الى مرفأ بيروت احدى الغواصات الالمانية ورست فيه واراد قائدها ان يدخل الطمأنينة الى قلوب سكان المدينة ليظهر لهم ان الغواصات الالمانية لا تخاف اساطيل الحلفاء فاعلن بواسطة القنصلية الالمانية ومقام الولاية ان هذه الغواصة ستظل طول ذلك اليوم في مياه بيروت وان في استطاعة الاهلين زيارتها

والشعب البيروتي الذي لم ير حتى السفن الشراعية تدخل مرفأ بيروت منذ عام قد شاقه رؤية هذه الغواصة في مياهه خصوصاً بعد ان مهد الالمان الدعايات للغواصات الالمانية بانها قضت على اساطيل الحلفاء في البحر المتوسط وان مجيء هذه الغواصة الى مياه بيروت دليل على ذلك وان هذه الغواصات ستفتح الطريق البحري فيزول شبح المجاعة من سائر البلاد

وكان منظر المرفأ في ذلك اليوم جميلا لان الزوارق التي عشش عليها العشب

نظراً لوقوفها الطويل راحت تنقل الركاب الى الغواصة بعد ان نقلت في الصباح وجهاء الجالية الالمانية وطلاب معهد (ديا كونيز) ومدرسة سان شارل الالمانية والحكام الترك . وقد نزل هؤلاء الى الزوارق ثم الى الغواصة وهم ينشدون النشيد لوطني الالماني : — المانيا فوق الجميع — وقد اكرم قائد الغواصة وضباطها وفادة القادمين .

وكان بين القادمين لهذه الغواصة مع افراد القافلة الاولى الانسة سارا التي لم تتورع ايضاً عن الوقوف في صفوف الالمان تنشد معهم النشيد الوطني الالماني وهي تتظاهر بالارتياح لرؤيتها هذه الغواصة الالمانية

ولم تقف سارا في صف القادمين لشرب الشمبانيا وتسمع خطب الترحيب التي القاها اركان الجالية الالمانية وثلاث من الطالبات البيروتيات بل انصرفت لمراقبة حالة الغواصة ومحادثة احد بحارتها عن سفريات الغواصة والرحلات التى قامت بها ونظراً لظهور هذة الفتاة بين اشد المتحمسين من الالمان فان هذا البحار لم يتورع عن اطلاع الفتاة على ما ارادته من معلومات من غير ان يدور في خلده انه يوفر هذه المعلومات لاكبر عدوة لبلاده .

ولما استحصلت سارا على كل ما تريد من معلومات عن الغواصة عادت مع القافلة الاولى الى الفندق وانبأت احد رجالها السريين بما كان من امر الغواصة وسلمت اليه رسالة طيرها بواسطة الحمام الزاجل من محلة رأس بيروت الى عرض البحر فوصلت رسالتها بعد الظهر الى شقيقها اليك الموجود على ظهر الدارعة الانكليزية .

اول ضحايا سارا

وفي الاسبوع التالي لهذا الحادث اعتقل رجال الشرطة الموكلة بخفر الساحل شاباً بيروتياً يدعى يوسف عيسى عمران وكان يشتغل في خدمة ابي سعيد بيضون وهذا الشاب هو الذي اطلع على كمال بك رئيس القسم العدلي في شرطة بيروت على ان ابا سعيد بيضون يتصل بسيدة اجنبية تأتي لزيارته في منزله بمحلة المنارة وان

ابا سعيد بعد هذه الزيارات كان يقصد البحر على احد الزوارق وفي عرضه يجتمع بزورق بحاري انكليزي او بالدارعة ويسلمها الرسالة

وقال ان هذه الزيارات بلغت خمساً في الاسبوع الذي زارت فيه الغواصة الالمانية بيروت وانه ، أي يوسف ، قد رافق ابا سعيد في زياراته هذه مرة واحدة ٠

ألا ان الشرطة عندما داهمت منزل بيضون لم تجد فيه شيئاً من هذه الوثائق ولم تتمكن من اثبات هذه التهمة عليه ولهذا اكتفت بنفيه الى الاناضول

اما يوسف فانه حوكم امام الديوان الحربي العرفي في عاليه محاكمة سرية استغرقت مدة طويلة وقد عذب الرجل خلالها تعذيباً مراً لحمله على الاعتراف باسم السيدة التي كانت تزوده بهذه الرسائل الى الاعداء

ولما كان يوسف يجهل حقيقة هذه المرأة ولم يكن سوى آلة بيد رجالها السريين يوفدونه بمثل هذه المهمات مقابل مبلغ من المال فانه بطبيعة الحال لم يتمكن من ارشاد المحقق لدى المجلس الحربي العرفي الى هوية السيدة وعلى ذلك اعتبر انه جاسوس وحكم عليه بالاعدام بهذه التهمة وفي اليوم العاشر من شهر اذار سنة ١٩١٥ نفذ به حكم الاعدام في عاليه

اما الحلفاء فانهم بعد معرفتهم بمجيء الغواصة الى بيروت اوفدوا احدى الطائرات الحربية لاستكشاف امرها في بيروت ، فحامت هذه الطائرة فوق مينائها فوجدت الغواصة الالمانية في جهات ساحل الزيتونة فامطرتها ببعض القنابل ووقعت احدى هذه القنابل في مقبرة السمطية فاحدثت فيها حفرة عميقة نثرت بعض القبور

ثم اوفدوا الى مرفأ بيروت احدى البواخر الافرنسية المعدة لمراقبة الساحل فدخلت هذه الباخرة مرفأ بيروت بجرأة غريبة جداً والقت بضع قذائف في داخل المرفأ اصابت احداها اعلى بناية المصرف العثماني

وقد كان لهذا العمل تأثيره العنيف في بيروت لان الغواصة الالمانية التي تظاهرت بالشجاعة عند الصباح مالبث ربانها عندما شعر باقتراب الطائرة ان غادر

بغواصته الميناء وقال الالمان يومئذ ان الغواصة غادرت مرفأ بيروت كيلا تترك للحلفاء مجالا يتذرعون معه بوسيلة لضرب المدينة او احتلالها ولهذا انصرفت مع ان الحقيقة هي ان القائد خاف ان يكشف امره فيحاط بسفن الحلفاء الحربية ويكون سبباً في فقد هذه الغواصة

اما الترك فانهم بايعاز من الالمان ارادوا ان يستغلوا هذا الحادث فالتقطوا رسوما للمكان الذي وقعت فيه القذيفة في مقبرة السمطية ليظهروا للعالم ان الحلفاء اعتدوا على المقابر في مدينة عزلاء .

الا ان الانكليز ما لبثوا ان قاوموا هذه الدعاية ونشروا بعد مرور اسبوع على هذا الحادث رسماً للغواصة الالمانية الراسية في مياه بيروت ليبرروا موقفهم هذا وقد تبين بعد اكتشاف امر سارا ان هذا الرسم اخذته سارا نفسها بواسطة آلة فوتوغرافية تحملها في معصم يدها بصورة سرية

وتجاه هذا الامر لم يبق في امكان الالمان ايفاد هذه الغواصات الى بيروت لان قائد قوات الحلفاء ارسل كتابا الى احمد جمال باشا بواسطة القنصلية الاميركية للولايات المتحدة في بيروت ينذره فيه بضرب بيروت واحتلالها اذا ما لجأت الغواصات ثانية الى بيروت او اذا ما بلغه ان هذه الغواصات اخذت شيئاً من الوقود من مرافىء سوريا



ألفصل الثالث

كان فيصل في دمشق

واحمد جمال باشا في دمشق

وسارا ارونسون في دمشق

ولكل من هؤلاء الثلاثة هدف

و كانت المعلومات الواردة من الشريف حسين للشريف فيصل تفيد ان الاتفاق قد تم على اعلان الثورة العربية وان عليه ان يبذل جهوده لدي احمد جمال باشا لانقاذ قافلة شهداء العرب الثانية فاذا نجح والا يسعى بكل قواه للقدوم الى المدينة المنورة للالتحاق باخيه الشريف علي الموجود هناك

و كان احمد جمال باشا في ذلك الوقت شديد الاهتمام والعناية بتهيئة الحملة الثانية لقناة السويس وهو يترقب وصول القوات السفرية الحجازية من المدينة ، و كانت التقارير الواردة اليه من وهيب باشا قائد الحجاز وواليها تدل على ان في الحجاز حركة غير اعتيادية وان البلاد على اهبة ثورة على السلطنة العثمانية .

و كان تجاه مؤامرة في البلاد السورية نفسها بسبب اعتقال بعض زعمائها ومحاكمتهم استعداداً لاعدامهم

و كانت المحادثات جارية بين الفريقين ، بين جمال واستنبول وفيصل ومكة والمدينة

وفي هذا الوقت العصيب المصادف لاول عام ١٩١٦ ظهرت في دمشق الانسة سارا ارونسون الجاسوسة المشهورة ونزلت في فندق « فكتوريا »

سارا وفيصل ولورانس

وسارا هذه المرة كانت من الجرأة على جانب عظيم فقد حملت الى الشريف كتابا من والده

وكانت المخابرات بين دمشق ومكة صعبة يقتضي لها وقت طويل ولم يكن باستطاعة فيصل ان يخابر والده بصراحة وحرية ، كما انه لم يكن لدى فيصل اي علم بمجريات الامور في مكة وهو البعيد عنها

ولما كان الاتفاق قد تم مبدئياً بين الشريف حسين والسر هنري ما كماهون على اعلان الثورة العربية تقرر ابلاغ هذا الامر للشريف فيصل الموجود في دمشق ووقع الاختيار على سارا ارونسون فزودت بكتاب خاص من الشريف حسين الى نجله الشريف فيصل وجاءت الى دمشق في حين كان الشريف فيصل يلاين احمد جمال باشا ويتوسط في الامر رئيس ار كان حربه علي فؤاد باشا

وكان الشريف فيصل يجهل سارا ولم يجتمع بها ابداً ولم يكن في استطاعة سارا ان تزوره في هذا الوقت الذي توترت فيه عصبية احمد جمال باشا لاسيما ان الشريف لم يكن يحضر الحفلات الراقصة والساهرة التي يحييها القوم احتفاء باحمد جمال باشا

ومع هذا فان سارا تمكنت من ان تتدارك الوسيلة للاجتماع به في اليوم التالي لوصولها الى دمشق

فقد اقام عبد الرحمن باشا اليوسف مأدبة عشاء في قصره للامير فيصل لم يحضرها الا عدد قليل من المقربين اليه

وقد ادب الباشا هذه الحفلة بناء على طلب من الانسة سارا التى اظهرت لعبد الرحمن باشا رغبتها في رؤية الشريف والاجتماع به وقد قدمها عبد الرحمن باشا الى فيصل كعالمة نباتية فاستقبلها الامير ببشاشة ورقة وتحدثا مدة عن هذه الشؤون الزراعية وحالة البلاد العربية واحتياجاتها

وكان هذا الحديث يدور امام الجميع

ولما هم الامير (بالانصراف وضعت الفتاة في يده رقعة وقالت:
— في هذه الرقعة معلومات خطيرة تهمكم وانا بانتظار اوامركم
ولم ينتبه احد لهذه الحركة

ماذا يحوي الكتاب

اما الشريف فيصل فلم يضطرب لما جاء في هذا الكتاب بل خاف ان يشعر به احد اذا هو اجتمع ثانية بسارا ولم يكن ، في ذلك الوقت الحرج ، يريد ان يدع وسيلة لاحمد جمال باشا يصطاده بها ولهذا لم يرغب ان يوفد رسولا من قبله لمقابلة الفتاة

الا ان الفتاة نفسها ما لبثت ان اتصلت به في المساء التالي في دار علي فؤاد باشا رئيس اركان حرب القيادة العليا ، فقد تمكنت هذه الفتاه من الاتصال بعلي فؤاد وغيره من القواد الترك وهناك قدمها الباشا ثانية الى فيصل اذ تظاهرت بعدم معرفتها اياه ثم اغتنمت هذه الفرصة وانبأته بانها تنتظر الجواب فقال سأعمل بموجبه

والكتاب الذي حملته سارا لو وقع في حوزة جمال باشا لكان كافياً لدفعه الى اعتقال الشريف فيصل واعدامه فالشريف حسين انبأ ولده في هذا الكتاب بقرب اعلان الثورة العربية وطلب منه ان يعد العدة لاشراك سوريا في هذه الثورة حتى اذا رأى البلاد وهي غير مستعدة للاشتراك فيها اغتنم اقرب فرصة للسفر الى الحجاز لان اعلان الثورة يتوقف على ذلك

وفي الوقت نفسه قال ان مندوبا سيفد الى دمشق للتحدث اليه في الامر وان في امكانه ان يعتمد عليه

فادرك الشريف فيصل ان هذا الرسول الذي ذكره في الكتاب لم يكن الفتاة فالتفت الى هذه الاخيرة عندما اكد لها انه سيعمل بموجب ما جاء في الكتاب سائلا عن الرسول

فقالت :

ان الاوامر التي لدي تقضي بايصال الكتاب الى سموكم حتى اذا اخذت جواب الموافقة اثبات الوصول بالامر فيأتي بعد ثلاثة ايام الى دمشق

فلم يتمالك فيصل عن ان يسألها اسم الوصول وهويته فابدت عدم معرفتها شيئاً من هذا وتظاهرت بالكتمان التام

لورانس في سوريا

كانت وسائل مراقبة السواحل في سوريا ولبنان وفلسطين ضعيفة جداً حتى في ابان اشتداد الحركات الحربية في فلسطين ولهذا كان جواسيس الانكليز واليهود يذهبون ويأتون الى فلسطين بحرية تامة من غير ان يشعر بهم احد

ولورانس عندما جاء في شباط سنة ١٩١٦ الى فلسطين لمقابلة سارا ، لم ينزل في (عتليت) كيلا يلفت انظار الناس اليه بل نزل في الجهة الجنوبية من (قيساريا) المدينة التي تقيم بها ا كثرية جركسية ، وكان مرتديا ملابس الضباط الالمان ومحلياً صدره بالاوسمة الالمانية وجاء من هناك ووراءه ثلاثة من البحارة الانكليز كجنود المان وقابل مدير الناحية وطلب منه ارفاقه ببعض انفار من الدرك ليتفقد الموقف في الساحل

وفي اليوم التالي جاء الملازم الاول احسان افندي وقابل الضابط الالماني الذي استقبله بعجرفة ثم قدم اليه امراً عليه توقيع جمال باشا نفسه يقضي بمعاضدة حامله بكل ما يطلب فتولى القائد التركي خدمة لورانس ورفاقه الجواسيس فطافوا القرى الساحلية باجمعها ووصلوا الى (عتليت) وتحت انظار هذا الضابط التركي اجتمع الجاسوسان وتفاهما واوفد لورانس سارا الى دمشق بعد ان زودها باحد رجاله لتوصل الرسالة الى فيصل وتعود بالجواب

ولما جاءه الجواب لم يذهب رأساً الى دمشق بل ذهب الى حيفا ونزل في اكبر فنادقها بين عشرات من الضباط ومكث هناك يوما واحداً ثم استقل قطار السكة الحجازية وسافر الى دمشق ونزل في فندق (خوام) وفي مساء اليوم السادس من شهر اذار سنة ١٩١٦ اجتمع بسارا فاطلعته على كل ما جرى بينها وبين الشريف

فيصل ثم مهدت له سبيل الاجتماع وفيه اتفقا على الخطة الواجب اتخاذها لتحريض العشائر السورية على الثورة وانقاذ الموقوفين في الديوان العرفي في عاليه ثم غادر لورانس دمشق الى الحجاز



المغفور له جلالة الملك فيصل

اما سارا فانها توجهت برفقة نور الدين بك بيهم الى بيروت لتنظيم الدعاية في المحيط اللبناني ضد العثمانيين

فشل الاستخبارات التركية

ولم يكن لدى القيادة العامة الدائرة التي عرفت في الحرب باسم (الجاسوسية ضد الجاسوسية) بل كان لديها شعب للاستخبارات العسكرية ليس فيها عناصر تساعد على اكتشاف حركات الجواسيس فالعرب الذين كانت تستخدمهم في هذه المهمة لم يكونوا يظهرون لها شيئاً من الاخلاص ، خصوصاً بعد اعلان الثورة العربية حتى اصبح معظم الضباط والجنود العرب الذين في الجيش العثماني اعداء للترك ، ولم يكن الجواسيس الترك يتعدون في مهمتهم هذه حد اكتشاف المواقع التي يعسكر فيها الاعداء اما اسرارهم وما يجري من الامور خلف الجبهة الحربية للحلفاء وخلف الجبهة العربية للثورة فقد كانوا يجهلونها جهلاً مطبقاً

تسرب الاسرار

وقد سخط القائد العام للجيش الرابع على دائرة الاستخبارات العثمانية واستبدل كثيراً من موظفيها لان اسرار العسكرية والاوامر العليا كانت تسرب الى الحلفاء بصورة فظيعة ففي ذلك الوقت اصدرت القيادة العليا امراً بسحب قوات الاحتياط من « قلعة النخل » الى غزة واختارت لها الطريق الساحلي الا انها ما كادت تصدر هذه الاوامر ويشرع بتنفيذها حتى كانت دوارع الحلفاء تقطع عليها خط الرجعة وتصليها ناراً حامية

ثم قررت القيادة ايفاد قطعة من الجيش الى معان لتعزيز الحامية فيها ولم يكد القطار يسير بهذه القوات حتى اصبح عرضة لهجمات العصابات العربية

وقد عقد احمد جمال باشا مجلساً عسكريا في دمشق حضره جمال باشا الصغير (المرسيني) وعلي فؤاد وبعض اركان حربهما وبحثوا الموقف وابدى احمد جمال باشا سخطه على هذه الحالة وقرر انتداب اليوزباشي عارف حكمت بك لبحث الامر ومراقبة هؤلاء الجواسيس الا ان عارف بك لم ينجح لانه في اليوم الثالث من شهر آب سنة ١٩١٦ وجد قتيلا في حي القصاع وقيل يومئذ انه قتل

لاسباب نسائية مع ان الحقيقة هي ان الجواسيس الذين عرفوا بامره قتلوه

وهنا ازداد سخط احمد جمال باشا على رجاله وقرر ان يضع خطة حاسمة لهؤلاء الجواسيس فاختار لهذه الغاية اليوزباشي جواد رفعت رئيس الشعبة الاولى في الفيلق الثامن فاستدعاه وخاطبه قائلا :

— جواد بك ! ترى اننا بتنا في حالة مؤسفة جداً فالاعداء مطلعون على كل اسرارنا العسكرية فلا نقرر شيئاً الا ويعرفون به وعلينا والحالة هذه ان نضع حداً لمثل هذه الامور

= انني على استعداد يا مولاي لكل ما تأمرون به

— ان في معسكر الفيلق الثامن وفي مقر الجيش الرابع نفسه جواسيس يعرفون كل ما نقرر وقد استدعيتك الان وجعلت حديثنا سراً بيني وبينك لانني بت اخشى الجميع كما بت معتقداً بان الجميع جواسيس فاعمل على تطهير هذا المعسكر منهم ، فقد علموا الان ولا ريب بانك جئت لزيارتي وان هذه الزيارة تتعلق بهم فكن يقظاً من هذه الجهة وانا افوضك بكل ما تراه مناسباً لتحقيق ذلك ، فشكره جواد بك على هذه الثقة ثم انصرف الى مراقبة الضباط الذين في معسكري الجيش الرابع والفيلق الثامن والكتاب من الانفار فاستلم (لائحة) باسماء هؤلاء جميعاً ثم استدعى اليه ثلاثة من رجاله السريين كلا منهم على حدة وسلمهم (لائحة) باسماء هؤلاء الضباط والانفار طالباً من كل منهم ان يوافيه بمعلومات حقيقية عن حركاتهم وعن كل فرد يتصلون به بصورة جدية او عادية ثم ارسل امراً الى مدير الشرطة في دمشق يطلب فيه منه موافاته يومياً باسماء الذين يأتون اليها من ابناء البلاد والاجانب

وكانت غاية جواد بك من هذا الطلب الاخير معرفة الذين يترددون على دمشق من الاجانب والوطنيين ليقف على علاقة هؤلاء مع ضباط اركان حرب الجيش وكيفية تسرب اسرار الاوامر والخطط العسكرية من هؤلاء الى جواسيس الاعداء

جاسوسة يهودية

وفي هذا الوقت الذي انصرف فيه القائد جواد رفعت لدرس هذه القضية بصورة جدية وقعت حادثة كان من الضروري ان ينتبه اليها الموجلون بدائرة الاستخبارات العثمانية وجواد رفعت نفسه لانهم لو راقبوا ادوار هذه الحادثة مراقبة جدية لتمكنوا من اكتشاف اسرار الجاسوسية فيها

فقد كان في بيروت فتاة يهودية تدعي روزا امردخاى تقطن مع والدتها في منزل سعيد الشامي في محلة الخندق الغميق و كانت هذه الفتاة وهي دون العشرين من عمرها مجهولة الاصل و كل ما عرف عنها انها جاءت من ازمير الى بيروت في بدء الحرب العالمية والترك الذين كانوا يجهلون طرق مراقبة الجواسيس لم يحسنوا مراقبتها ومعرفة حقيقة هويتها وهل جاءت حقيقة من ازمير ام لا ؟

وان تكن جاءت من ازمير فماذا كان مركزها هناك ولماذا غادرت ازمير؟ ومن اين جاءت بالمال حتي تمكنت في سني الحرب العصيبة من ان تعيش حياة الاثرياء ؟

ومن اين سحبت الاموال التي وجدت في منزلها ؟

ولماذا كانت تحصر جهدها في معاشرة ضباط اركان حرب الالمان ؟

ويقول الترك او ادارة استخبارات الشعبة الاولى في بيروت في التقرير الذي رفعته الى القيادة العامة في سنة ١٩١٧ بعد اكتشاف امر هذه الجاسوسية انها كانت تظن ان الفتاة جاسوسة المانية لانها لم تكن تتردد الا على الالمان

وهي حجة واهية كان من الواجب درسها بغيرهذه الصورة خصوصا وقد كان في الامكان معرفة الحقيقة من الدائرة الالمانية ذات الشأن

الا ان الترك اهملوا هذا الامر وقد اكتشف الالمان انفسهم امر الفتاة اذ اشتبهوا بها على اثر فقد بعض المستندات العسكرية

اوفد الضابط الماجور الكونت « بلهلم فون برختولد بمهمة من القدس الى استنبول لمخابرة انور باشا بضرورة جلاء الجيش عن القدس والانسحاب الى خط تد من

الناصرة الى الساحل المقابل لايجاد خط مناسب، ولم تكن القدس قد سقطت ذلك الوقت تموز سنة ١٩١٧ بين ايدي الانكليز الذين احتلوها في كانون الاول من العام نفسه »

وقد اختار هذا الضابط طريق عكا بيروت للسفر الى استنبول لانها اقرب تناولا له من السفر بالسكة الحجازية من حيفا الى دمشق وعلى هذا غادر القدس وجاء بيروت فوصلها في اليوم الثالث

وبيروت التي كانت جحيما لسكانها الذين ضحوا في الحرب المذكورة باولادهم ونسائهم واموالهم كانت مدار سعادة ورفاه للضباط وموظفي الحكومة من ترك والمان

ففي اليوم الثاني لوصول الكونت ويلهلم فون برختولد الضابط الالماني الى بيروت ذهب مع نفر من اصحابه الى دار روزا مردخان في محلة الخندق الغميق وتناولوا ما طاب لهم من الخمرة وامضوا فيها سهرة راقصة انصرفوا في نهايتها الى رقادهم ولما افاق الكونت صباحاً تفقد حوائجه فلم يجد المحفظة ولا الرسالة التي كان يحملها من المشير فون فالكنهاين باشا الى انور باشا فضاع رشده وقلب الغرفة راساً على عقب دون ان يجد لها اثراً

اين ذهبت المحفظة

ولا شك في ان روزا هي التي استولت على هذه المحفظة واخذت صورها الفوتوغرافية ولما تم لها ما ارادت اغتنمت الفرصة والقت بالمحفظة في الشارع بعد ان وضعت ضمنها بضع ليرات تركية حتى اذا شاهدها احد الجياع البائسين احتفظ بها

ولما عاد ويلهلم لتفقد محفظته انكرت روام ان تكون المحفظة عندها وطلبت اليه ان يطلع الشرطة على الامر لعل احداً ممن كانوا حول المنزل وجدها فاستولى عليها

فراقت هذه الفكرة الضابط الالماني فقصد الى ادارة الشرطة واطلع رئيس البوليس العدلي على الامر وتولى المفوض السيد عارف الياسرجي (توفي المشار

اليه منذ سنوات قليلة) التحقيق فجمع كل الذين كانوا هناك وفي جملتهم احمد الصاوي ، وهو رجل بائس من اهالي بيروت وكان نصيبه المحفظة، فانكر بادئ الامر الا انه تحت ضربات العصي (وكان المتهمون يضربون في ذلك الوقت وكان في كل مخفر فلقة يحق للمفوض استعمالها عند اللزوم) اعترف بانه وجد المحفظة واستأثر بالخمس الليرات التركية التي وجدها لاطعام اولاده البائسين واعاد المحفظة

فاستغرب الضابط الالماني جواب الرجل لان المحفظة كانت خالية من المال، ولما تفقدها لاحظ ان الكتاب السري قد فتح فعرض هذا الامر على السيد اليامرجي فأحال هذا الاخير الرجل مع الضابط الالماني الى رئيس البوليس العدلي وهناك لاقى من الضرب الوانا فظيعة دون جدوى لانه كان بريئاً ومع هذا تقرر احالته الى الديوان الحربي في عالية فاحيل اليه بتهمة الجاسوسية وبعد محاكمة قصيرة حكم عليه بالاعدام ونفذ به الحكم في عاليه نفسها

بعد اعدام البريء

وكان في ساحة البرج دائرة للاستعلامات الالمانية يديرها السيد كارل هوبل وهو رغم وداعته وتظاهره بالهدوء من اخطر جواسيس الالمان ومن العاملين على نشر الدعايات الالمانية في البلاد

وقد عرف كارل هوبل هذا بما كان من حادث الماجور الذي رفض ان يطلع رؤساءه على سرقة الاسرار التي يحملها كيلا يؤاخذ على عمله الا ان كارل مالبث ان عرف بواسطة جواسيسه العديدين ما كان من امر الضابط الالماني فشدد الرقابة على روزا ومرعان ما تمكن جواسيسه من معرفة علاقاتها بشاب يهودي يدعى (كوهين اوينبزغ) كان يتردد عليها من فلسطين

وظل يراقبها حتى تمكن بعد هذه الحادثة بثلاثة اشهر من توقيف كوهين وصادر منه بعض الاوراق السرية الدقيقة المتعلقة بسلك بعض الضباط الالمان في بيروت ومخابراتهم مع القيادة فقاده الى الماجور (فون برث) زعيم الاستخبارات

الالمانية في حيفا وبعد مرور يومين صدرت الاوامر باعتقال روزا ووالدتها وسيقتا بصوره سرية الى حيفا وسلمتا الى فون برت فانصرف هذا الاخير للتحقيق معهما لمعرفة اسرارهما



الجاسوسة روزا

مصير روزا

اما روزا فان مصيرها ظل مجهولا فالقضية بقيت بين يـدي فون برت نفسه الذي لم يسلمها الى الديوان الحربي كما يقتضيه واجبه العسكري

والسبب في ذلك ان الالمان بعد ان تحرج موقفهم في اوربا ارادوا ان يستميلوا اليهم اليهود فتساهلو معهم كثيراً في خيانة الترك ، ويقال ان فون برت اخلى سبيلهم بعد ان وعدوه بالعمل لصالح المانيا الا ان الحقيقة ظلت مجهولة الى الان ولم نعثر

بين الوثائق التركية على وثيقة ما تدلنا على حقيقة مجرى القضية وما كان من مصير هؤلاء .

الربية بسارا

عندما اشتدت المجاعة في سوريا ولبنان بوجه خاص، رأى الانكليز انهم بحاجة لمعرفة تأثير الحالة الروحية في هذه البلاد على افراد الشعب فاوفدوا لهذه الغاية سارا ارونسون فجاءت الى بيروت ونزلت في فندق (دوتشرهوف) واجتمعت بكثير من رجالات بيروت ولبنان بواسطة نور الدين بك بيهم ثم سافرت الى دمشق

ولما وقعت حوادث اعتقال رجال سوريا واعدام بعضهم في ٦ ايار سنة ١٩١٦ كانت سارا بين بيروت ودمشق

ورابت دوائر الاستخبارات التركية هذه الزيارات المتعددة

كما بدأت ترتاب بنور الدين بك بيهم نفسه لان نور الدين وهو المثري صاحب الاملاك في بيروت وصاحب المنزل الخاص به ترك منزله وأقام بفندق (بسول) شهوراً

ويقول الرجل في احاديثه انه انتقل من منزله الى فندق بسول ليكون قريباً من فندق (دوتشرهوف) النازلة فيه سارا ولكن منزله قريب ايضاً من هذا الفندق فلماذا عمد الى هذا التدبير ؟

ولماذا جاءت سارا الى بيروت ودمشق في الوقت الذي تحرجت فيه الازمة السياسية ووقعت فيه حوادث من الخطورة بمكان عظيم

هذه الامور رابت جواد رفعت بك مدير الشعبة الاولى المولج بشؤون دوائر الاستخبارات فاوعز الى مديرية شرطة بيروت بمراقبة سارا ونور الدين بك مراقبة شديدة الا ان احداً لم يتمكن من معرفة شيء من هذا السر الذي يجمع بين نور الدين وسارا ولم يتمكنوا من ان يجدوا بينهما غير غرام عادي الا ان المعلومات الرسمية التي كانت ترد يومياً عن حركات نور الدين بك والفتاة لم ترق ادارة

الاستخبارات العسكرية فقررت توسيع تحقيقاتها

والديوان الحربي العرفي ، بعد اكتشافه الوثائق في القنصلية الافرنسية ، ومحاكمته رجالات العرب ، جمع كثيراً من المعلومات السياسية من ولايات دمشق وحلب وبيروت ومتصرفية القدس المستقلة عن كل من اشتغل في الحركة الاصلاحية وروجعت هذه الاوراق وما يتعلق منها بنور الدين بك فعثر :

اولا — على تقرير مؤرخ في ٢٠ ايار سنة ١٩١٣ يقول ان نور الدين بك بيهم جاء في ذلك الوقت الى حيفا ونزل في (الفندق الكبير) فيها و كان هناك فارس بك الخوري من اصلاحيي دمشق ومن كبار وجهاء المسيحيين فيها وغاية فارس بك من القدوم المخابرة مع شكري بك العسلي وعبد الوهاب بك الانكليزي مفتش العدلية العام ومعين بك الماضي وعبدالله مخلص ونجيب نصار صاحب جريدة الكرمل لتأييد الحركة الاصلاحية في البلاد . ولمفاوضة السيد ايايا زكا صاحب جريدة النفير ليكف عن مدح الاتحاديين والانضمام الى الاصلاحيين .

وتقول هذا التقارير الواردة من دائرة بوليس حيفا ما نصه :

« لم يكن فارس بك الخوري يعرف نور الدين بك بيهم فسأل عنا صاحب الفندق فلما عرفه اليه وعرف انه من عائلة بيهم المعروفة بالوطنية والاخلاص اطمأن اليه وانصرف الى محادثته في المواضيع السياسية العربية والحركة الاصلاحية والنهضة العربية ولكن نور الدين بك بيهم لم يكن في ذلك الوقت ليهتم بمثل هذه الاحاديث اذ في اليوم الثالث لوصوله جاءت الى الفندق المذكور يهودية حسناء هي سارا ارونسون العالمة في النباتات فانصرف اليها باجمعه وعرفها في ذلك الوقت الى هؤلاء السادة »

وهذا التقرير الذي اوردنا خلاصته في ما تقدم دل جواد رفعت بك على ان سارا كانت على اتصال بنور الدين بك منذ سنة ١٩١٣

ثم عثر بالتاريخ نفسه على نسخة برقية مرسلة من سارا الى نور الدين تدعوه فيها لموافاتها الى (زمارين) وعلى تقرير من ادارة بوليس حيفا عن وصول الرجل الى حيفا ثم ذهابه الى زمارين واجتماعه هناك بسارا ، وبعد هذا الحادث بايام قليلة

عثر على برقية بامضاء نور الدين بيهم مرسلة منه الى صديقه عبد الرحمن باشا اليوسف ، عضو مجلس الاعيان العثماني الموجود في دمشق يدعونها لاستقبال البارون دى روتشلد الزعيم الصهيوني

وراجع الضابط التركي سجلات الشرطة في ذلك الوقت فتبين له من التقارير السرية ان عبد الرحمن باشا اليوسف ، وهو البعيد عن التدخل في الشؤون السياسية جمع حوله عدداً كبيراً من وجهاء البلاد وذهب بهم الى محطة دمشق ، حيث استقبلوا روتشلد استقبالا فخما الا انه لم يجد في هذه التقارير ما يؤاخذ عليه الباشا ورفاقه لان اعضاء الحكومة وفي مقدمتهم عارف بك الماردبني والي الولاية وقائد الجند ومفرزة من الاترك والبوليس استقبلوا ايضاً على المحطة البارون روتشلد استقبالا فخما

وظهر له ايضاً انه عندما جاءت الدارعة حميدية الى بيروت كانت سارا ونور الدين في بيروت فزارا الدارعة وقد استقبل قائدهـا احمد رؤوف بك نور الدين بحفاوة ودعاه الى تناول الغداء على مائدتــه ثم اهدى اليــه رسم الدارعة مع بطاقة باسمه وبخط يده ، وقد زاد في حيرته انه وجد في محفوظات الادارة نسخة من مجلة (الالستراسيون) الافرنسية وفيها خبر هذه الزيارة مع رسم احمد رؤوف بك ونور الدين بك معا

وقد زدات هذه المعلومات في حيرة الضابط جواد رفعت بك لانه لم يجد في جميع هذه المعلومات التي حصل عليها ما يدل على وجود ادلة راهنة الا انه وجد ان الحكومة تنبهت الى حركات سارا ونور الدين في بدء الحرب العالمية فوضعتها تحت مراقبة الشرطة السرية في بيروت وحيفا ودمشق وتلقت عنها تقارير كثيرة لم يجد فيها ما يريب ، فاحد هؤلاء يقول انه شاهد سارا مع نور الدين في بيروت يتنزهان ، وقال آخر انه شاهدهما يحضران احدى الحفلات الساهرة في احد قصور بيروت ، وقال ثالث انه شاهدهما يزوران دار العظم او دار اليوسف الا ان احداً لم يقل في تقريره ما يدل على نيات سيئة ، وفي النهاية ظهرت نسخة من برقية ارسلها نور الدين بك من حيفا الى المؤتمر العربي بباريس في تموز سنة

١٩١٣ يستنهض فيها همة اعضائه للسعي لتحقيق اماني العرب

توقيف نور الدين بك

وقد رأى جواد رفعت في هذه البرقية وسيلة لاكتشاف اسرار نور الدين وسارا ولهذا استدعاه الى دائرته في دمشق وحقق معه عن معنى برقيته هـذه لمؤتمر للدفاع عن حقـوق العرب فاجاب انه لا يفرق ابداً بين الجنسيات ، فجميع الشعوب في نظره على السواء وقد حاول الضابط التركي استدراجه لمعرفة حقيقة علاقاته مع سارا دون جدوى لان الرجل اثبت انه كان عشيق الفتـاة ، وليس له اي علم بامر من امورها السياسية

فعرض عليه لائحة باسماء الاشخاص الذين عرف سارا بهم كعبد الرحمن باشا اليوسف، ومحمد فوزي باشا العظم وشفيق بك القوتـلي وجميل مردم بك وغيرهم من رجالات سوريا فلم ينكر انه قدم سارا الى هؤلاء والى غيرهم من وجهاء بيروت وسوريا واكد انه فعل ذلك بسائق الصداقة فقط

عند هذا اخلي سبيل نور الدين بك بعد ان اخذ منه وعداً بان لا يخبر سارا بما بدر منه وهدد بصورة سرية بانه سيكون عرضة لتهمة فظيعة قد تردي بحياته اذا هو اخبر سارا بذلك

وهكذا عاد نور الدين بك الى بيروت للاجتماع بسارا   ت بانتظاره

في حفلة ساهرة

ومع هذه المخاطر الشديدة التي هددت نور الدين ومع علمه بان الفتاة باتت موضع شبهة السلطة العسكرية لم يتركها بل تابع علاقاته معها كالعادة دون ان يهتم لمعرفة حقيقة نياتها لان الغرام — كما نعتقد — حال دون اهتمامه بغير شخصية سارا .

وقد وقعت حادثة كادت تودي به وبسارا الى مهلك خطر واليك بيانها

احيى الفرد بك سرسق حفلة ساهرة في قصره حضرها جمهور من علية القوم بينهم سارا ارونسون ورفيقها ، وخلال السهرة احاط طاهر كنعان بك رئيس بلدية

بيروت سارا بعناية خاصة اغاظت نور الدين بك واخافت سارا فقد خيل الى نور الدين بك ان طاهر كنعان بك يغازل الفتاة وخيل الى سارا من احاديث الرجل انه بدأ يعرف حقيقة امرها فمضت في مسايرته لتؤكد له براءتها او لتزيل من افكاره النيات السيئة التى كان يضمرها الرجل

وقد كان من جراء هذا التباين في الافكار ان تقدم نور الدين بك محاولا صفع طاهر كنعان بك فتدخل البعض وكانت سارا اشدهم تحمساً فقد خافت عاقبة هذا الحادث وغادرت على الاثر السهرة فلحق بها نور الدين فعاتبته بشدة على تصرفه وفي اليوم التالي توجهت الى فلسطين



ألفصل الرابع

ليرتان انكليزيتان ذهبيتان اكتشفتا اسرار الجاسوسية الانكليزية الصهيونية التي عجز رجال الاستخبارات العثماني عنها

فقد دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية في تشرين سنة ١٩١٤ ومنذ ذلك الوقت انقطعت كل علاقة للبلاد العثمانية بانكلترا

وطبيعي ان ظهور ليرتين ذهبيتين انكليزيتين من سك سنة ١٩١٦ في بلاد عثمانية يعد حادثاً خطيراً في البلاد لان وجودهما يدل على ان الليرات الانكليزية تتسرب الى البلاد لغاية معلومة

كيف عرف الحادث

كانت الليرة الذهبية نادرة الوجود في الحرب العالمية ، خصوصاً في مدن سوريا وفلسطين ، وكان بعض الضباط والجنود الذين عرفوا كيف يتدبرون الحالة في تلك الايام العصيبة تمكنوا من جمع مبالغ من النقود في الجبهات الحربية ولما كانوا حتى الترك منهم ، لا يثقون بعملة بلادهم عمدوا عندما يأتون الى احدى هذه المدن يحولون اوراقهم النقدية الى ليرات ذهبية

وجاء الملازم عدنان شوقي بك من ضباط الفرقة ٤٣ الى الناصرة لتمضية دور « النقاهة » هناك وجاء مقمم الجيب وأراد اغتنام هذه الفرصة لاستبدال اوراقه بذهب فخابر احد الجنود العرب فدبر له صساراً من سماسرة العملة و كانوا كثيرين في ذاك الوقت لان الحكومة لم ترغب الاعتراف بسقوط عملتها وتتكلف اعتبار الليرة الورق بقيمة ليرة ذهبية ، ومع هذا كانت الحكومة نفسها عند ما

تحتاج الى الذهب تلجأ الى هؤلاء السماسرة الذين تضطهدهم ليزودوها بما يحتاجون اليه

وعملا بهذه القاعدة ذهب الجندي الى السمسار وطاف السمسار على المتاجرين بالذهب وجمع منهم ١٥٠ ليرة عثمانية و ٥٠ ليرة من النقود الذهبية الاجنبية ودفعها الى الضابط الذي استلمها سراً ودفع ثمنها وانتهت القضية

وفي المساء حلا لعدنان شوقي ان يتفقد نقوده ليضعها في زناره — كمره — الذي اعتاد الضباط ان يتمنطقوا به وفيما هو يفرز هذه النقود لفت نظره ليرتان انكليزيتان ذهبيتان عليهما تاريخ سكبهما ١٩١٦ فوقف حائراً تجاه هذا الاكتشاف واخذ يسائل نفسه عن كيفية تسربهما الى الناصرة البعيدة كثيراً عن الجبهة الانكليزية

ولبث الضابط حائراً أيبني قائد الموقع بالحادث لعله يكتشف من ورائه اسراراً خطيرة ام يسكت خشية ان يفتضح امره اذ لا بد ان تسأله القيادة عن المصدر الذي جمع منه هذه الثروة وظل طول الليل يراجع ضميره الى ان استقر رأيه في النهاية على ان يحمل الليرتين الذهبيتين الى قائد موقع الناصرة ويعلنه الحادث دون ان يشير الى بقية الليرات التي اشتراها اذ لا فائدة للتحقيق من وراء ذلك ونفذ قراره وعرض على يونس حيدر بك قائد قوات الناصرة القطعتين الذهبيتين وروى له كيفية وصولها اليه

وعلى اثر ذلك استدعى يونس حيدر بك الجندي احمد الذهني الذي توسط بين الضابط والسمسار فاعترف بانه استدعى السمسار حنا مرقص الذي كان وسيطاً في مشترى النقود وانه لا يعرف عن الحادث شيئاً غير هذا

فطلب يونس حيدر بك من الجندي عبد الستار ان يأتيه بحنا مرقص لانه يريد ان يشتري منه الف ليرة ذهبية

فسر الجندي من الحادث بعد ان خيل اليه ان امره قد فضح وان يونس حيدر بك يريد مجازاته وارساله الى الجبهة الحربية اما وهو يريد مشتري الذهب فهذا يدل على ان الرجل سقط في حبائله وانه هو الجندي سيصبح ثريا لانه يصبح

سمسار القائد . وعلى هذا الاعتقاد اسرع عبدالستار الى حنا يبشره بوقوع القائد في حبائله وان في امكانه ان يبيعه كميات وفيرة من الذهب ولم ينس الجندي وهو ذاهب بحثا الى منزل القائد ان يتفاهم معه على حصته من الارباح

وفي دار القائد استقبل يونس حيدر بك السمسار بشاشة ولطف واتفق معه على مشتري الف ليرة ذهبية وسأله ان يسعى لان يجمع له اكبر كمية ممكنة من النقود الذهبية الاجنبية كانت وفيرة في البلاد العثمانية وكثير من الضباط الترك اعتادوا ان يطلبوها منه وعلى هذا ذهب حنا ليجمع هذه النقود بعد ان الح عليه يونس حيدر بك ان يأتيه بها في اقرب وقت واذا امكن في مساء اليوم نفسه وانصرف الى جمع النقود الذهبية بحيث تمكن من ان يتداركها في مساء اليوم نفسه وكان ثلثاها من النقود الذهبية الانكليزية والفرنسية وبعد ان تفحص يونس حيدر كل هذه الليرات بدقة دفع ثمنها من الاوراق النقدية وصرف الرجل ، ثم عمد الى فحص الليرات الانكليزية فوجدها كلها من الليرات القديمة وليس فيها اية قطعة من الليرات المسكوكة سنة ٩١٦

ومع هذا رأى القائد ضرورة اجراء التحقيق ، فاستدعي حنا مرقص ثانياً فاسرع اليه ، ولما ولج الى مقر القيادة في الناصرة لم يدخل على القائد بل ادخل الى غرفة منفردة وطلب اليه ان ينتظر فيها ففعل . ولما طال انتظاره بدأ القلق يدب في نفسه وحاول الخروج من الغرفة لمقابلة الكاتب وابلاغه ان له اعمالا تضطره الى الذهاب فمنعه الجندي ، فاعترض حنا بقوله :

— ولكنك على خطأ فانا لست موقوفاً بل قادم لمقابلة القائد باشغال خاصة فدعني اذهب

— بل انت موقوف

ـ ولماذا ؟

— لا اعلم .

— وهل في امكانك ابلاغ الضابط الخفير « النوبتجي » اني بحاجة لمقابلته

— ليس في امكانك مقابلة احد حتى اكبر ضابط لان الامر صريح بمنعك

من محادثة اي كان

ولما رأى حنا مرقص ان من المستحيل معرفة سبب توقيفه من الجندي تريث الا ان تريثه هذا كان اشبه بالجنون فقد خشي العاقبة واشتبه بتوقيفه دون ان يستدعيه القائد

استجلاء الحقيقة

عاد الضابط الذي اوفده يونس حيدر بك من منزل حنا مرقص حاملا ما وجده من نقود واوراق وانصرف الى التدقيق فيها فلم يجد بينها اية قطعة ذهبية قديمة او اية ورقة تشير الى علاقات الرجل بدوائر الاستخبارات الاجنبية

كما ان المعلومات التي طلبها من ادارة الشرطة في الناصرة اثبتت ابتعاد الرجل عن الشؤون السياسية وانصرافه الي التجارة وبيع الذهب وانه اوقف بتهمة بيع الذهب مراراً متعددة الا انه كان يتمكن بواسطة رشوة الحكام والضباط من انقاذ نفسه .

واستدعاه القائد فدخل عليه وهو شديد الاضطراب خصوصاً بعد الذي رآه من تبدل لهجة يونس حيدر بك في استقباله ، وأخذ ينظر الى القائد وهو لا يجسر ان يسأله عن الدافع الى اعتقاله الا ان يونس حيدر بك ابتدره بقوله :

هل علمت بالتهمة الكبيرة الموجهة اليك ؟

— نعم يا مولاي . فقد خالفت القانون ، وتاجرت بالذهب

— كلا بل يعنني الذهب برضاي واذا كانت مسؤولية في المتاجرة بالذهب فعلي وعليك معاً . لانك بعت وانا اشتريت الا ان التهمة الموجهة اليك شديدة الخطورة فانت لم تبعنا الا نقوداً مزيفة

= اذن انا مزيف يا مولاي ؟

— نعم . ولدينا ادلة راهنة على ذلك

فانتفض حنا مرقص لهذه التهمة التي وجهت اليه وأخذ يجهش بالبكاء محاولا بشتى الطرق اثبات براءته وابتعاده عن مثل هــذه الامور فتركه يونس حيدر

بك على هذه الحاله هنيهة ثم قال :

— نعم لدينا ادلة على انك مزيف نقود

قال يونس بك حيدر وقرع الجرس داعياً عدنان شوقي فدخل هذا الاخير وبعد ان ادى التحية العسكرية التفت اليه القائد وقال :

— عدنان بك ، ان حنا افندي ينكر انه مزيف للنقود فما و ك ؟

— انني اصر يا مولاي على اتهامه بذلك فقد اشتريت منه اول امس مبلغ من الليرات الذهبية وجدت بينها هاتين الليرتين الذهبيتين وهما مزيفتان

قال عدنان بك ذلك واخرج الليرتين من جيبه والقاهما امام يونس حيدر بك فالتفت هذا الاخير الي حنا ، فانقض حنا بسرعة الى الليرتين وفحصها فتبين له انهما غير مزيفتين فسرى عنه وقال :

-- اراهن يا مولاى برأسي على ان هاتين الليرتين غير مزيفتين

— كلا انهما عكس ما تقول ! لدينا ادلة على ذلك فمن اين اتيت بهما ؟

— من ... من ...

— ممن ؟ قل !

= مولاي ، ان عملي هذا يعد خيانة للرجل الذي كان السبب في معيشتي

— اذن انت المسؤول عن ذلك وفي امكانك الانصراف الى غرفة التوقيف استعداداً لارسالك الى الديوان الحربي بتهمة تزييف النقود وبيعها من الجيش

= ولكنهما غير مزيفتين

ـ انظر اليهما جيداً

فتناولهما حنا ودقق فيهما ولما انتبه الى تاريخ سكهما ظهر عليه الاضطراب وادرك خطورة الموقف

وقد لاحظ يونس حيدر بك ان الرجل فقه الحقيقة فقال له :

ـ هل تأكدت انهما مزيفتان ؟ واذا حاولت انكار انهما مزيفتان فمن اين اتيت بهما ؟ ان الانكليز ...

ـ مولاي لم اكن جاسوساً في حياتي وقد اشتريت كل النقود التي دفعتم

لعدنان بك من الخوري اغناطيوس ... راعي كنيستنا وهو رجل تقي لا يتنزل الى الجاسوسية

— ستري الامر . والان ستظل في ضيافتنا لنرى ما يكون من نتيجة التحقيق .

التحقيق مع الخوري

اما الخوري اغناطيوس فلم ينكر انه باع الذهب من حنا وقد اراد ان يلقي على القائد محاضرة في الوطنية عندما سأله عن مصدر الذهب وحاول ان يثبت انه وطني صميم لانه يحتفظ بالورق النقدي ضد الذهب الا ان القائد أوقفه عن المضي في محاضرته هذه قائلا :

— هل في امكانك ان تعين لنا المصدر الذي اشتريت منه الليرات الذهبية ؟

— انها لدي من قبل الحرب

— يا حضرة الاب المحترم ان رجال الدين لا يكذبون فهل تقسم على ان هذه الليرات لديك من قبل الحرب

— كلا فهناك بعض من ابناء كنيستي كانوا يأتونني ببعض ما خبأوه لاستبداله لهم بالعملة الدارجة

— لقد جاءك مؤخراً من باعك ليرات انكليزية ذهبية

فظهر الاضطراب على محيا الخوري التقي اذ كان يعرف ان اللذين باعاه هاتين الليرتين هما من ابناء رعيته وقد جاء منذ عشرة ايام من مصر على احدى سفن الانكليز

وكان يخاف ان يتهم هذين البائسين بالجاسوسية لعلمه ببراءتهما او ببراءته هو على الاقل ولخوفه من ان يؤدي اكتشاف امرهما الى اعدام الثلاثة معاً ولذا قرر التمسك بالكتمان ولو كذب في سبيل انقاذ بريئين ، ولم يكن يجهل ان القائد لا يملك الدليل على قدوم الرجلين وبيعهما الذهب منه

ولهذا قال :

— انا على ثقة يا مولاي بان اللذين باعاني الليرتين لم يكونا جاسوسين الا انهما دخلا البلاد بصورة غير شرعية

— كن على ثقة باننا لن نؤدبهما على هذا العمل اذا تأكدت لنا براءتهما ، وكل غايتنا ان نعرف منهما الطريقة التي يسلكها هؤلاء الاجانب في دخول بلادنا .

ولما كان الخوري اغناطيوس على اعتقاد وطيد ببراءة الرجلين صرح باسميهما وعلى الاثر ارسل القائد من استدعاهما وهما يوسف اسعد حنانيا وحنا ابو سعد المهري ، فاعترفا امام القائد بانهما من اهالي الناصرة وانهما جاءا على ظهر غواصة انكليزية من (بور سعيد) الى فلسطين وانزلا في جوار (عتليت) وهناك تركا وشأنهما فتوجها الى الناصرة

كيف اتصلا بالانكليز

وقد اكد لهما يونس حيدر بك انه سيخلي سبيلهما ولا يحيلهما الى الديوان الحربي العرفي اذا هما اعترفا بكل شيء فصرحا قائلين :

— تروج في القطر المصري دعايات شديدة ضد العثمانيين لحمل العرب على التطوع ضدهم في هذه البلاد وقد انقسمت هذه الدعايات الى قسمين احدهما يسعى لحمل الشبان العرب الموجودين في مصر وغيرها من البلاد الاجنبية على التطوع في صفوف الجيش المحارب ضد العثمانيين في جبهتي الحجاز وفلسطين ، والآخر بوفد الى قلب البلاد للاشتغال بالجاسوسية او لتحريض اخوانه في قلب البلاد على الجندية العثمانية ولاحداث فتن في البلاد ، وكنا نحن في القاهرة قبل الحرب وقد ذهبنا اليها طلباً للعمل ، ولما نشبت الحرب بدأت الاخبار تردنا بصورة فظيعة عن انتشار المجاعة في هذه البلاد ، وعن موت عشرات من النساء والاطفال والعجز

ولما كان لكل منا عائلة كبيرة قلقت افكارنا وعلمنا بحاجة الانكليز الى متطوعين مدربين فقصدنا مقر القيادة وعرضنا خدمتنا فوافقت القيادة على استخدامنا

في هذه البلاد ، وقد مكثنا في مقر القيادة زهاء شهر تلقينا في نهايتهــا الاوامر التاليه :

اولا — ان انكلترا صديقة للعرب وان علينا ان نذيع بين ابناء وطننــا العرب ان المعاهده عقدت بين الانكليز والعرب لاستقلال هــذه البــلاد تحت ادارة الملك حسين ، وانــه ليس للانكليز من غاية الا استقلال هذه البــلاد وتحريرها من ظلم الترك واستبدادهم

ثانيا ـ علينا ان نعمل بكل قوانا لتحريض الجنود العرب في جبهة فلسطـين على ترك السلاح والفرار الى المستعمرات اليهودية التي لديها الاوامر اللازمة لاطعامهم وايوائهم ومساعدتهم على الفرار

ثالثاً ـ توزيع المناشير التي ستصل الينا

اما طريقة وصول هذه المناشير الينا فهي ان مندوبنا من قبل الانكليز سيفد علينا وهو يعرف كل حركة من حركاتنا وكل تطور تتطور به نظريتنــا وكانوا يريدون بذلك تهديدنا للقول بان في وسعهم وهم بعيدون عنا معرفة كل ما نصنع

رابعاً — علينا ان نجمع كل ما يمكننا جمعه من المعلومات السياسية والعسكرية في المنطقة التي نحن فيها وتسليمها الى رسولهم الذي سيزودنا بكل ما نحتاج اليه من مال وان في امكاننا ان نطمئن من هذه الوجهة لان المال سيردنا بصورة منظمة ما دمنا مخلصين في عملنا سواء أقمنا بعمل ام لم نقم

ـ وكم مضى على مجيئكما الى فلسطين

ـ عشرون يوما لان المعلومات التي عرفناها ونحن في مصر دلتنا على ان الغواصات الانكليزية تأتي الى مياه فلسطين مرتين في الشهر لنقل البريد الذي يردها من مختلف الجواسيس في السلطنة العثمانية ولارسال التعليمات والمال

ـ والى اين تذهب هذه الغواصة من فلسطين

ـ لقد حدثنا احد البحارة المصريين وكان في خدمة اركان الغواصة بان الغواصة تأتي الى مياه عتليت مرتين كل شهر

ـ وكيف نزلتما من الغواصة

ـ نزلنا في زورق بخاري على بعد ثلاثة اميال من البر ولما اقتربنا من الساحل في الجهة الجنوبية من عتليت لم نر احداً من الجنود على الساحل ومررنا من تلك الجهة ووصلنا الى الناصرة دون ان يعترضنا احد

ـ الم يأت احد الى الغواصة حين وصولكما اليها

ـ كلا بل رأينا ضابطاً انكليزيا ينزل من الغواصة ويسير على زورق الى جهة معاكسة لجهتنا وقد يكون هو الذي قصد الاجتماع بجواسيسه الذين على الشاطيء

ـ وخلال هذه المدة التي قضيتماها في الناصرة الم يأت احد لمقابلتكما فيها

ـ كلا انما قرع باب منزل احدنا حنا في مساء السبت الماضي اي منذ خمسة ايام ولما نهض من رقاده ليفتح الباب لم يجد الا صرة فوقها رقعة كتب عليها ما نصه : (تعاون مع رفيقك على توزيع هذه النشرات) وكانت عبارة عن مناشير موقعة بامضاء الملك حسين وتتضمن تحريض الشعب العربي على الثورة ولما كانت غايتنا الرئيسية من وراء مجيئنا الى مسقط رأسنا الاجتماع بعائلتينا لهذا احتفظنا بهذه الاوراق لنتلفها فيما بعد وقد خبأها حنا في زريبة الماشية خوف العثور عليها

فارسل القائد الضابط عدنان شوقي احد رجاله السريين الى منزل حنا برفقة حنا وعادا بزرمة هذه الاوراق التي اثبتت اقوالها

وعلى اثر ذلك اخلي يونس حيدر بك سبيل جميع الذين اعتقلهم في الناصرة بعد ان اخذ منهم عهداً قاطعاً بان لا يتدخلوا في اي امر لئلا يصبحوا عرضة للتهم الخطرة ثم انصرف لوضع تقرير ضاف رفعه الى القيادة العامة والى مدحت بك متصرف لواء القدس المستقل واخذ رأيها في التدابير الواجب اتخاذها في هذا الصدد

اجتماع هام في القدس

اثارت هذه المعلومات التي بعث بها يونس حيدر بك الى القدس اهتماما شديداً في المعسكر العام لا سيما ان المعلومات الواردة الى القيادة العامة دلت على وجود عصابة قوية تعمل على التجسس لحساب الحلفاء ضد العثمانيين

وعلى اثر ذلك عقد اجتماع في القدس برئاسة علي فؤاد بك درست فيه هذه الامور بصورة جدية وتليت التقارير السرية الواردة من مختلف الجهات فتبين منها ما يلي :

اولا — ان للجاسوسية الانكليزية في البلاد شعبة واسعة النطاق للعمل في محيطين احدهما في فلسطين ويشرف على مختلف البلدان العربية والاخر في تركيا ويشرف على شؤون بلاد الاناضول

ثانياً — ان الاسرار الحربية والسياسية والعسكرية تتسرب الى الحلفاء ، بصورة منظمة . وما دام حنا ورفيقه اللذان جاء في الغواصة من القطر المصري التي يؤكدان ان الغواصة الانكليزية تأتي مرتين في الشهر الى عتليت ، الادليلا على ذلك وانه من الضرورة مراقبة هذه الجهة ومعرفة الاشخاص الذين يترددون على عتليت والذين يتصلون بهم لمعرفة جميع اسرار هذه الشبكة

ثالثاً — معرفة الطرق التي يتخذها هؤلاء في نقل البريد الوارد من الغواصات والمرسل اليها .

رابعاً — معرفة ربطة العمل في هذا الشأن

خامساً — درس موقف قوات المحافظة في عتليت والسواحل المجاورة لها ، اذ من المؤكد ان الجنود وضباطهم يهملون المراقبة بصورة جدية فمن الصعب ان يمر رجلان بساحل موضوع تحت مراقبة شديده ولا يشعر بها احد من رجال خفر الساحل .

وعلى اثر ذلك تقرر ما يأتي :

اولا — ارسال برقية شيفرة الى القيادة العامة في استنبول وابلاغها هذه المعلومات

ثانياً — وضع مراقبة شديدة على عتليت لمعرفة موقف سارا ارونسون ، من هذه الحركة الجاسوسية الواسعة النطاق ومعرفة الاشخاص المتصلين بها بصورة جدية .

ثالثاً — القيام بجولة لمطاردة الفارين من الخدمة العسكرية في فلسطين ، ومعرفة اهمية دعايات ساره هناك

رابعاً — تجريد حملة لتحقيق هذه الغاية برئاسة عارف بك ابرهيم رئيس بوليس القدس ، ويعطى هذا الاخير صلاحيـة واسعة النطاق ، لمطاردة هؤلاء الجواسيس والوصـول الى الغاية الرئيسية من اكتشاف زعمائهم والقضـاء على حركاتهم ٠

وعندما تبلغ مدحت بك متصرف القدس هذه المقررات استدعى اليه عارف بك ابراهيم رئيس بوليس القدس وأبلغه الموقف قائلا :

— انا على ثقة وطيـدة من معرفتك واخلاصك للوظيفة فالبـلاد في خطر شديد ، فهناك عصابات قوية تعمل على تحريض الجنود الترك والعرب على الفرار من الخدمة العسكرية واختفـائهم في المستعمرات اليهودية وهناك عصابة اشـد خطورة وهي عصابة الجواسيس فبالاتفاق مع القيادة العليا قد اعتمدناك[1] لادارة هذه القضية ومقاومة هـذه العصابة بصورة جدية فاعمل كل ما في وسعك للقضاء على هذه العصابة بشرط ان لا تخدع في عملك هذا وان لا تكون سبباً في توقيف الابرياء واضطهادهم لانني اعتبرك مسؤولا عن كل ما يقع في هذا الصدد سواء تجاه السلطة العسكرية او تجاه ادارتي هذه ٠ وقد وضعت تحت تصرفك كل ماتحتاج اليه من قوات البوليس والجنود للوصول الى هذه الغاية

وهنا شكر عارف بك للمتصرف اهتمامه وثقته به وانصرف لاجراء تحقيق دقيق حول الاشخـاص الذين يقطنون المستعمرات اليهودية المجاورة لعتليت ثم رأى ان يقوم برحلة ليتأ كدرواية الناصريين في الساحل فطاف هذه المنطقـة مدة ثلاثة ايام متوالية دون ان يجد احداً من الجنود يعترض سبيله او يسأله عـن الغاية من تجواله في هذه المنطقـة فأدرك من هـذا ان الجنود لا يكترثون بالواجب ٠ ولا يعنون بالمراقبة

وفي الوقت المعين لاقتراب الغواصة الانكليزية من عتليت رأى عارف بك في هذه المنطقة حركة غير عادية فقد شاهد سارا ارونسون تدخل الى المختبر الفني الذي شيده اخوها هناك وفي اليوم التالي شاهد عدداً من الفتيات اليهوديات يأتين من القرى والمستعمرات اليهودية

وقد لاحظ من احاديثه مع القرويين العرب هناك ان ساره اعتادت اقامة حفلة راقصة مرة واحدة كل اسبوعين يدعى اليها ضابط خفر الساحل ومعاونو مفرزته حتى ان كثيراً من الجنود كانوا يتركون مراكزهم ليشاهدوا هذه الحفلة التي تربق فيهاروزا أرونسون كثيراً من خمور (ريشون لزيون) المعتقة وتبذل الابتسامات الخلاعية

وسرعان ما ادرك عارف بك ان الغاية الاساسية من هذه الحفلة هي جمع رجال قوات المحافظة حولها واضاعة عقولهم بخمرتها المعتقة وحسانها الجميلات

ولهذا قرر ان يسهر وحده في تلك الليلة لمعرفة مجريات الامور

وراح يراقب دار سارا التي تعج بالحسان والجنود من افراد خفر الساحل ثم التفت الى المنطقة الساحليـة الممتدة شمالا وجنوبا على بعد بضعة كيلومترات من الدار فوجدها خالية من الجنود فادرك ان في ميسور الجواسيس الاستفادة من الظرف الحاضر والاتصال بالاعداء بحرية تامة

ولكن المهم لديه معرفة الجهة التي ستبرسو فيها الغواصة او الجهة التي سيتصل بها الانكليز بجواسيسهم في البحر وقد اعتقد عارف بك ان سارا ارونسون هي التي ستقوم بهذه المهمة فحصر جهده في مراقبتها

الا ان ظنونه من هذه الجهة ذهبت سدى لان الليل انتصف والفتاة لم تخرج من المنزل وصارت حفلة الطرب الى نهايتها وتحول المنزل الى حفلة غرام كالتي كانت تجري في القصور الرومانية

وفي تلك الاونة رأى عارف بك شابا يهوديا يدخل الى المنزل فتخرج سارا اليه وبعد ان يحدثها تعود الى الداخل فتأمر النساء بالانصراف مما دله على ان رسلها قد اتصلوا بمندوبي الغواصة وان الغاية من اقامة هذه الحفلة قد تحققت

ولما ادرك عارف بك الحقيقة تعقب الشاب اليهودي الذي عاد هادىء الاعصاب غير عالم بوجود من يراقبه ، الى معمل (الكحول) الكبير الواقع في (ريشون لزيون) ولم يخرج منه

وفي هذا الوقت اجتمع باثنين من رجاله السريين فأبلغاه ان ثلاثة من اليهود جاؤا بعد الغروب الى المعمل وفي الساعة العاشرة من المساء غادر احدهم مع الشاب اليهودي المعمل الى جهة مجهولة وغابا مقدار ثلاث ساعات

وفي الساعة الواحدة من بعد نصف الليل عاد اليهودي المجهول وحده ولم يمكث الا عشر دقائق ثم ذهب مع رفيقيه الاخرين الى جهة مجهولة وبعد مرور ساعة على الحادث حضر الشاب الذي كان يترصده عارف بك وهذا كل ما في الامر

وتجاه هذه المعلومات رأى عارف بك ضرورة معرفة حقيقة مهمة افراد هذه العصابة فاستدعي احد رجاله السريين وخاطبه قائلا :

— عثمان ، اعهد بك الذكاء والمقدرة .. فاذهب وجئني باسماء هؤلاء الاشخاص واعد بان اعينك في وظيفة سامية .

وعثمان من عائلة بيروتية معروفة ، الا انه كجميع العثمانيين في ذلك الوقت ، لم يكن يعرف الا باسم عثمان البيروتي ، وقد استخدم مدة في موءسسة — (اورزدي بك) فتعرف هناك الى بعض اليهود ثم نقل الى فلسطين فعين موظفا في ميناء (قيسارية) ولما اعلنت الحرب اخذ للخدمة العسكرية ثم الحق بخدمة رئيس بوليس القدس

وقد عرف عارف بك بعثمان افندي الجد والاخلاص فاراد استخدامه في هذه المهمة فخول اليه الصلاحية التامة في التنقل حيثما يشاء بشرط ان يأتيه بما يريده .

ولقد ارتاح عثمان افندي الى هذه المهمة لانها تمكنه من اظهار ذكائه ومواهبه من جهة ، وتعيده الى وطنه وتكسبه وظيفة حسنة من جهة اخرى ولهذا انصرف وكله امل وطيد في الحصول على ما يريد

تعزيز الحامية

وبعد ان زود عارف بك الجندي عثمان ورجاله الاخرين بالتعليمات الواجب اتخاذها

لمعرفة هوية هؤلاء الجواسيس انصرف الى كتابة تقرير ضاف ابرسله الى مدحت بك متصرف القدس يشعره فيه بالامور التي وقعت حتى ذلك الوقت وعدم تمسك الجنود بواجبهم وبخطورة الحالة في تلك الجهات ، ويطلب في النهاية احتلال عتليت والمختبر الكيماوي الذي فيها واتخاذهما كمقر لبلوك من الجنود

وقد وافقت القياده على هذا التدبير فوراً ارسلت بلوكا من الجنود الى عتليت بصورة مفاجئة فاحتل القرية والمختبر وقام قائده بتحريات هناك الا انه لم يعثر على اي اثر يدلُّ على حقيقة علاقة سارا اورنسون بهؤلاء الجواسيس

واحتلال عتليت عسكريا لم يرب سارا ارونسون ورفاقها ، اذ كانوا على ثقة تامة من امرهم خفي عن الترك ، ولكن تراءى لهم ان احتلال هذه المنطقة بهذه القوة الكبيرة لا يفيدهم بل قد يضرهم وان من الواجب اطلاع السفن الحربية الانكليزية ففعلوا ذلك بواسطة آلات لاسلكية مرسلة مكنتهم من ارسال الاشارات الى السفن الحربيه عن الموقف وعلى اثر ذلك تبدل موعد مجيء الغواصة، او تحولت الى جهة اخري ، وهو امر لم يتمكن عارف بك من استجلاء اسراره ٠

الحمام الزاجل

وبعد مرور عشرة ايام على احتلال القوات العثمانية لمركز عتليت كثر مرور الحمام من هذه الناحية ، ولم يلفت الا انظار عارف بك فراح يتعقب الحمام فرآه يأتي من جهة البحر ويذهب الى (زمارين) ثم يعود منها وقد تعذر عليه رؤية المنزل الذي يحط عليه في زمارين ، فاشتبه بهذا الحمام ان يكون حمام المراسلات السياسية ، فترقب واحدة منه وهي قادمة من البحر على بعد من زمارين ورماها بالرصاص فاصاب منها مقتلا ولما سقطت على الارض اسرع اليها والتقطها فوجد في رجلها خلخالا ضمنه رقعة صغيرة ففتحها فلم يعرف منها شيئا ، لانها كانت مكتوبة بالرموز السرية فاعتقد ان فيها دليلا قاطعا على حقيقة الجواسيس الذين يترقبهم فتوجه فوراً الى القدس وعرض الورقة بنفسه على مدحت بك متصرف القدس وهذا الاخير عرضها على اركان الحرب فبذلوا كل ما لديهم

من جهود في سبيل حل رموزها دون جدوى اذ ظلت سراً من الاسرار

وعلى هذا سار عارف بك الى مقر عمله لمتابعة مهمته وهو اشد ثقة من ان دوائر اركان الحرب العثمانية ودوائر الاستخبارات عاجزة ليس عن مكافحة الجاسوسية الانكليزية فحسب بل عن معرفة الادوارد التي تمثلها في بلادها ايضا

وفي اليوم الذي عاد فيه الى عتليت وكان الى ذلك الوقت لا يزال متنكراً بثياب قروي جاءه عثمان البيروتي وانبأه بان خمسة اشخاص من الغرباء ويظنهم من اليهود جاؤوا الى معمل كحول (ريشون لزيون) وليس بينهم احد من الاشخاص الثلاثة المشتبه بهم ومع هذا فقد اعتقد ان لهؤلاء الخمسة علاقة بجواسيس اليهود لان احدهم زار منزلها بزمارين ثم عاد رأساً الى المعمل

وفي صباح اليوم التالي عاد رفيقاه وأبلغاه ان اثنين من الجواسيس الخمسة توجها الى القدس والثالث توجه الى خان يونس والرابع توجه الى حيفا والخامس الى جهة مجهولة

فذهب عارف بك الى ادارة البرق وأرسل برقية شيفرة الى مدحت بك يطلعه فيها على اوصاف هؤلاء الاشخاص الخمسة كما سردها له عثمان لوضعهم تحت المراقبة الشديدة ومعرفة الوجهة التي اتجهوا اليها

وقد اهتم متصرف القدس لامر هذه البرقية التي حولها فوراً الى علي فؤاد باشا وهذا بدوره ابرق الى قواد المناطق في الجبهة يعلمهم الامر وفي هذا الوقت شوهد في قرية (قالونيا) المجاورة للقدس ثلاثة اشخاص من البدو فقاموا يراقبونهم مراقبة دقيقة وكان احد هؤلاء الثلاثة جاسوس من جواسيس اليهود الخمسة المطلوبين او بالاحرى زعيم هؤلاء المعروف باسم لينشانسكي وكان قد عرف بواسطة جواسيسه الذين في داخل معسكر الفيلق بامر المخابرات السرية التي عممها قائد الفيلق على القواد لتوقيفه وتوقيف رفاقه فخاف العاقبة وقرر الاستعانة بسكان المنطقة الذين اعتاد هو وأمثاله الانكليز الاستعانة بهم كادلاء يرشدونهم الى الطرق التي لا يعرفها الترك والتي تمكنهم من الوصول الى الحدود دون ان يشعر بهم احد

وقد اجتمع ليتشانسكي باثنين من هؤلاء الادلاء الساكنين وهما احمد الشيخ خصيري ويوسف ابو رفيدة من العرب الذين صرفوا حياتهم في رعي الماشية ٠

ولما كان الجاسوس اليهودي يخشى سوء العاقبة بعد المراقبة الدقيقة وهو يحمل اوراقا تتضمن جميع معلومات جواسيسه لايصالها الى القيادة الانكليزية في الجبهة الحربية استعان بهذين البدويين للاختفاء في قريتهما فالونيا فذهبا اليها وهناك تدارك له ثيابا كثيابهما واقام عندهما

و كان الباش جاويش احسان افندي من الموظفين بالمراقبة على الامن في هذه القرية

فشاهد هؤلاء الثلاثة و كان يعلم بساعي احمد ويوسف فاعتقد انه وقع على الجاسوس بشخص رفيقهما ومع انه كان وحيداً فقد هدد الثلاثة و كانوا عزلا من السلاح واعتقلهم وربطهم بحبل كان معه وهم يسوقهم الى مقر القيادة

الا ان ليتشانسكي ابى ان يقع فريسة بين ايدي الترك الذين سيعدمونه فوراً فالتفت الى الباش جاويش وأفهمه بصراحة انه جاسوس تركي وانه على استعداد لان يدفع له الف ليرة تركية او مئتي ليرة ذهبية فوراً اذا اخلى سبيله

فاصابت هذه المفاجأة موضع حيرة واضطراب من نفس الباش جاويش فأخذ يزن واجبه الوطني بالمال فرجح الاخير على الاول واخلى سبيل الجاسوس واحتفظ بالقرويين وقادهما الى المركز معلناً على فوءاد باشا بفوزه الباهر هذا

اعدام البريئين

اما علي فوءاد باشا الذي كان في حالة استياء شديد من تعدد حوادث الجاسوسية واشتراك ابناء البلاد بها فقد اندفع هذا المرة مع تيار العاطفة وشكل في ذلك اليوم مجلساً عسكريا تولى محاكمة هذين الرجلين اللذين اعترفا نظرا لسذاجتهما بما كان من امر الجاسوس الذي لا يعرفان هويته الا انهما لم يشيرا الى طريقه فراره اذ كانا يعتقدان ان المجلس ان يحكم عليهما بل يخلي سبيلهما ٠

بيد ان الامر كان عكس ذلك لان المجلس الحربي العسكري حكم عليهما بالاعدام وابلغ الحكم برقيا الى علي فؤاد باشا فصدقه فوراً وفي صباح اليوم التالي اعدما شنقا في قريتهما (قالونيا) نفسها دون ان يتمكنا من الدفاع عن نفسهما لان الذي تولى الاشراف على تنفيذ الاعدام كان الباش جاويش احسان الذي كان سبب اعتقالهما واخلاء سبيل الجاسوس الحقيقي ·

خطة عثمان في تتبع الجواسيس

ولم يكن من السهل تتبع اثر اليهودي في فلسطين لان بني قومه لا بد ان يعمدوا الى اخفائه عندما يعلمون ان الحكومة جادة في طلبه ولهذا كان من المستحيل على عثمان البيروتي ورفيقيه اظهار حقيقة هويتهم كما انه كان من المتعذر عليهم التجول في القرى اليهودية بدون صفة ولذا اتخذوا لانفسهم صفة موظفي دائرة المالية الموكلين بجباية الرسوم الاميرية وبهذه الصفه يستطيعون مراقبة الاشخاص دون خوف

و كان لليهود في هذه المنطقة عدة قرى اشتروها في السنوات الاخيرة من العرب وباشروا استعمارها وهي ام العلق ويربكه والمراح وزراريه و كركور بيدبس فقصدوا هذه القرى الواحدة تلو الاخرى وعرفوا من مسلميها ن ثلاثة من اليهود الغرباء كانوا يترددون على قرية « كركور بيدبس » وانهم جاؤا اليها منذ ايام ثم رحلوا بعد ان مكثوا في منزل مختار القرية ثلاثة ايام ·

فاكتفى عثمان ورفيقاه بهذه المعلومات لتتبع الاثر في الجهة التي قيل لهم ان هؤلاء الجواسيس ذهبوا اليها

ولكن لم يكن في المنطقة التي ارادوا الذهاب اليها مسلمون او عرب بل يهود وهؤلاء من الصعب استجلاء الاسرار منهم ولكن عثمان اعتمد على مهارته والصدف التي كثيراً ما تخدم الشرطي في تتبع الحقائق وقصدوا ملبس ونزلوا في فندق القرية وهو فندق نظيف يديره يهودي فرحب بالقادمين ثم جاءهم (بياروج دينوبي) مختار القرية ففاوضوه في مسألة الرسوم الاميرية المترتبة على

القرية ٠

واغتنموا هذه الفرصة للبحث معه في عدد الغرباء الذين في القريـة فانكر باروج وجود احد منهم قائلا ان اثنين من الغرباء فقط مرا في القرية منذ اسبوع وانها من سكان زمارين ولا علاقة لهما بالقرية والرسوم المترتبة عليها

وقد افادت هذه المعلومات عثمان فطلب مقابـلة هذين الرجلين لانهما قـد يكونان من المدبونين ومسرعان ما لفظ المختار كلمة دلت على حقيقة هوية الجاسوس الخطير قال :

— احد هذين الرجلين نهمان باكنـد وهو من اثرياء المنطقـة وليس من الاشخاص الذين يتهربون من دفع الرسوم الاميرية المترتبـة عليهم وهو صديق لال ارونسون زعماء قرية زمارين

وكانت هذه المعلومات كافية لمساعدة رئيسه عارف بـك على رفـع الستار الذي احتجب وراءه جواسيس اليهود

وزاد في ايضاح ذلك المعلومات التي وردت من دائرة استخبارات النمسا عن عصابة الجواسيس اليهود التي اعتقلت هناك والتي اعدم فيهـا بعض اشخـاص بينهم خطيب سارا أرونسون وبذلك وقعت الشبهة على سارا ارونسون ومن في منزلها وتقرر وضع رقابة شديدة عليها ٠ ثم توجه عارف بك الى القرى وعرض هـذه المعلومات وما لديه من معلومات اخرى عن الجواسيس الامر الذي لم يصـدقه المتصرف فأجابه قائلا :

— اعتقد انك على ضلال في هذه التهم التي توجهها الى سارا أرونسون ورفاقها ولذا أطلب اليك ان تصرف مساعيك الى جهة اخرى

— ولكن المعلومات التي بسطتها لكم تؤيد هذه الحقيقة الناصعة وأرى من واجبي ان أحصل على موافقتكم في هـذا الشأن لاتمكن من مطاردة هؤلاء الجواسيس وفي مقدمة المساعي توقيف سارا ارونسون وتحري معمل الكحول وتوقيف من اشتبه به

— لن اوافقك على هذه الامور فاحمد جمال باشا كما تعلمون يعطف على سارا

عطفاً خاصاً ، ولنفرض انها جاسوسة فلن اوافق على انزال الاذى بها تحاشياً لغضب الباشا

— اذن ارجو منك اقالتي من هذه المهمة

— كلا بل اجعلك مسؤولا عن كل ما يحدث فاذا شاءت الصدف ان تظهر براءة سارا ورفاقها فانت مسؤول عن ذلك بروحك وسأكون اول من يطالب باعدامك فهل تقبل ؟

— نعم

— واذا غضب جمال باشا ؟

— ان الواجب الوطني يحتم علينا ان لا نهتم لاستياء احد واذا شاءت الصدف ان تثبت جرم سارا ارونسون فيكون احمد جمال باشا اول من يهنيء صاحب الدولة المتصرف

= اذن اتكل عليك والقي كل مسؤولية في هذا الشأن على عاتقك . وماذا تطلب الان ؟

— اولا ـ اصدار امر للقائد يونس حيدر بك قائد المنطقة بان يعمل بالتعليمات التي سأزوده بها في هذا الشأن

ثانياً ـ ان تحتل قوة من الجند زمارين وقوة اخرى معمل المشروبات الكحولية في ريشون لزيون (زمارين)

— لك ذلك

وهنا شكر عارف بك للمتصرف عنايته هذه وتوجه الى الناصرة وقابل يونس حيدر بك وبحث معه القضية واتفقا على الخطة الواجب اتباعها لمكافحة الجاسوسية .

موقف سارا

وفي هذا الحين كان بعض الجواسيس في منزل سارا يحدثونها عن تطور التحقيق في قضيتهم ومن تولي عارف بك التحقيق فيها

وقد نصحها لينشانسكي بضرورة مغادرة زمارين على احدى الدوارع
نكليزية الى مصر

الا ان سارا رفضت هذا الامر قائلة :

— لنفرض ان الترك اشتبهوا بي فليس لديهم أي دليل مادي او أدبي على
راكي في هذه القضية وقد أخفيت الآلة اللاسلكية كما اخفيت كل الاوراق
برية المتعلقة بمخابرات الشيفره وعلى هذا ليس في امكانهم ادانتي · اما فراري
كون خطراً على شقيقتي رويكا وشقيقي سام المقيمين هنا ، وأخشى ان ينتقم
ما الترك وربما أتهموهما بالجاسوسية واعدموهما ولذا سأظل هنا اقوم بواجبي
النهاية اما انتم ففي امكانكم الابتعاد وعدم التردد على هذه المنطقة ربما تمر
زبعة ·

وهكذا ذهبت جهود لينشانسكي ورفاقه في اقناع سارا دون جدوى
دروا القرية وبعد مغادرتهم اياها بساعتين داهمت القرية قوات الجند واحتلت
طق المقررة

وجاءت قوة كبيرة من الجنود الترك الى القرية فاحتلتها، وكان معمل المشروبات
ي يضم مئات من العمال والعاملات لا يزال يعمل رغم توقف دولاب العمل
مختلف انحاء السلطنة العثمانية ، فاحتلته الجنود واخرجت من فيه من عمال وعاملات
نت بتحريه بصورة دقيقة فلم تعثر فيه لا على الآلات اللاسلكية المرسلة ولا
ورقة او اي اثر يدل على اشتراك من في المعمل بحوادث الجاسوسية

ثم توجهت قوة ثانية واحتلت منزل آل سارا ارونسون وبكل المنازل المجاورة
او المتصلة ولو جزئياً بهذه العائلة

وكانت الشمس لم تشرق بعد عندما داهمت هذه القوات قرية زمارين فأفاق
هم من رقادهم وكان المجال واسعاً لتحري عشرات الاشخاص الموضوعة عليهم
لنابة وقد جرت التحريات بدقة زائدة الا انه لم يعثر في احد هذه المنازل على
، ووفتشت سارا ارونسون نفسها تفتيشاً دقيقاً فلم يعثر معها او في منزلها على
راهن وكانت سارا ارونسون على اعتقاد وطيد بان الترك سيكتفون بهذه

التحقيقات

الا ان ظنونها هذه ذهبت سدى لان قائد الحملة ابلغها ان الاوامر التي لديه صريحة في توقيفها وتوقيف افراد عائلتها جميعاً وسوقهم الى مقر القيادة ، وقد ف ذلك وقادها مع من اوقف من افراد العصابة وزعماء اليهود الى دار المختار حي كان هناك جمال باشا المرسينلي الذي جاء خصيصاً ليشهد عملية مطاردة الجواسي وبرفقته اعلي فؤاد باشا ويونس حيدر بك وياسين بك الجابي

ولما استدعيت سارا للمثول بين ايدي الباشا ورفاقه استرحمت من القائ السماح لها بالذهاب الى منزلها لارتداء ملابسها فاقتنع القائد عند ذلك وخا الباشا بالامر فوافق على ان تذهب تحت الحراب وارفقت بالملازم ابراهيم بك وبعض جنود ظلوا يراقبونها خارجاً ودخل الضابط برفقتها الى المنزل ثم الى غرفتها وهنا التفتت سارا الى الضابط قائلة :

ـ انكم معشر الترك تحافظون على العرض كثيراً فهل يجوز ان تخلع فتا غريبة عنكم ثيابها امامكم ؟

ـ كلا ولكن ...

ـ لا خوف من فراري والنوافذ مقفلة كما اني لا استطيع ان اخفي شيئاً

فحول ابراهيم بك ظهره ليمكنها من نزع ثيابها الداخلية وهي تحدثه بقوله

ـ لقد كنت لطيفاً معي ولذا اصارحك الحقيقة وفي امكانك نقلها الى رؤسائك فانا جاسوسة وقد ادرت وحدي حركة الجاسوسيه دون ان يكون لي شريك فأخواي ارون واليك يشتغلان في مصلحة الجاسوسية الانكليزية وقد طلبا من مساعدتها في التجسس عليكم ففعلت راضية الا ان بقية افراد عائلتي الذين في دا المختار ابرياء من هذه الحركة واقسم لك على صحة ما اقول بكل ما هو مقدس لدي وارجو منك ان تنقل هذه الكلمات حرفيا الى رؤسائك ليكونوا على ثقة تامة مما اقوله لكم

ان اعترافاتك هذه يا حضرة الانسة خطيرة والادلاء بها الي لا يفيد ابدا فالقواد بانتظارك في دار المختار وفي امكانك نقلها اليهم بصراحة تامة ليصبح

بجعلها ، اما انا فسأكون شاهداً على اعترافاتك هذه كيلا تعمدي فيما بعد الى انكارها

فابتسمت سارا ابتسامة مرة وقالت :

ـ لو كنت عازمة على الانكار لما اعترفت لك بشيء

طريق الانتحار

وكانت سارا منذ طلبت القدوم الى منزلها قد عزمت على الانتحار اذ خيل لها ان الانتحار هو الطريقة الوحيدة التي تمكنها من انقاذ اهلها فوضعت مسدساً صغيراً كان لديها ضمن رزمة من القطن خبأتها في غرفة الزينة المجاورة لغرفة رقادها وبعد ان ارتدت ملابسها لم يبق لها الا الوصول الى هذا المسدس ولهذا التمست من الملازم ابراهيم بك ان يرخص لها بدخول غرفة الحمام الواقعة بجانب غرفة الزينة

وتروج اشاعتان في هذا الصدد :

الاولى ـ هي ان الفتاة ارادت اغراء هذا الضابط الشاب بجمالها ليساعدها على الفرار وتتمكن من النجاة

والاخرى ـ هي انها بعد ان رأت ابواب النجاة مسدودة في وجهها ارادت قتل الضابط والانتحار

على ان الملازم ابراهيم اعترف لدى جمال باشا ورفاقه قائلا

ـ ابلغتني الفتاة انها بحاجة ملحة الى دخول الحمام فعجبت من امرها هذا بعد ارتدائها ملابسها ورأيت في عملها هذا شيئاً من المماطلة فقلت لها ان الباشا ورفاقه في انتظارنا وليس من المستحسن ان نتأخر فابتسمت وقالت ان كل شيء سينتهي في خمس دقائق ثم فتحت درج المغسلة وتناولت منه قطعة من القطن لم انتبه لمحتويه اذ لم يخطر في بالي ان هذه القطعة من القطن تحوي مسدساً صغيراً وما كادت الفتاة تخرج من غرفة الزينة الى الحمام حتى دوى عيار ناري واحد فدخلت الحمام فوجدت الفتاة تتخبط في دمائها

اعتراف الفتاة

وقد اثرت هذه الحادثة تأثيراً عظيما بالملازم ابراهيم بك الذي خاف عاقبة الحادث وخشي ان يتهم باقترافه الجريمة ولما كانت الفتاة لم تمت بعد فقد اوفد احد رجاله الى دار المختار لينبيء القواد بالحادث فأسرعوا الى دار ارونسون فوجدوا الفتاة في حالة النزاع ولما رأتهم قالت :

— انا المسوءولة وحدي عن هذه الحوادث فأنا فتاة صهيونية اعتقدت بأن واجبي الوطني يحتم علي مقاومة السياسة العثمانية وتأييد السياسة الانكليزية التي وعدت بمنحنا الوطن القومي في فلسطين فتجسست عليكم وقمت بكل هذه الامور بالاتفاق مع اخوي الكسي وارون اما شقيقي سام وشقيقتي روبيكا فليس لهما دخل في امورنا

وبعد ان ناشدت سارا بعبارات موءثرة جمال باشا ان لا يوءذي اخوتها فقدت رشدها ونقلت الى المستشفى حيث بقيت يومين ثم فارقت الحياة

الوثائق المثبتة

لم تنته حلقة الجاسوسية التي ترأستها الآنسة سارا ارونسون بانتحار هذه الفتاة بل تبعتها ذيول وحواش ، فسارا رغم ذكائها ومهارتها في ادارة هذه العصبة ورغم كل الجهود التي بذلتها لاخفاء جميع الاوراق لم تخف دفتر مذكراتها الصغير الذي كانت تدون فيه حوادثها كل يوم . وهذا الدفتر الصغير الذي القته في بئر ماء عميقة واقعة في المنزل عثر عليه في قاع البئر مع كثير من الاوراق التي استخدمتها هذه الجاسوسة ومع ان مياه البئر افسدت محتويات الاوراق الا انها حفظت دفتر المذكرات اليومية فنقل الى مقر الفيلق الثامن مع جميع الاوراق التجارية والخصوصية التي وجدت مع سام وروبيكا وفي المختبر الكيماوي في عتليت وعهد بفحص هذه الاوراق وترجمتها الى الضابط عبد الرحمن بك النصولي معاون مدير الشعبة الاولى (المشار اليه من تجارنا المعروفين وعضو مجلس بلدية بيروت اليوم) فانصرف الى توضيب هذه الاوراق وترجمتها وترجمة سائر التحارير الخصوصية الواردة الى ساره واقاربها ولم يفد التحقيق في كل هذه الامور الا دفتر مذكرات

صارا الذي وجدت فيه اسماء الجواسيس والاشخاص الذين تعاونت معهم في فلسطين وبيروت وولاية سوريا وفي جملة هوءلاء الاشخاص رؤساء هذه الحركة الجاسوسية وهم : ليثشانسكي ، ونهمان بلكند ، وجوزف طوبيا

وعلى اثر هذا الحادث امر احمد جمال باشا باجراء تحقيق على نوعين :

الاول — مع الاشخاص الوارد ذكرهم في مذكرات الفتاة ووضعهم جميعهم تحت المراقبة ومعرفة مقدار علاقاتهم مع صارا

الثاني — مطاردة ليثشانسكي ورفاقه الثلاثة ، باعتبارهم زعماء الجواسيس وتوقيفهم

وقد عهد بالامر الاول الى هيئة موءلفة برئاسة خليل رفعت بك (رئيس محكمة التمييز في سوريا اليوم) وعهد بالامر الثاني الى عارف بك الذي تمكن بدهائه ومهارته عن معرفة أسرار هذه القضية والاهتداء الى الطريق التي أدت الى معرفة جاسوسية صارا ورفاقها المذكورين



الفصل الخامس

استدعى مدحت بك متصرف القدس عارف بك ابراهيم وبعد ان هنأه على فوزه بجرارة خاطبه قائلا :

ـ طلب الي صاحب الدولة محمد جمال باشا ان ابلغكم شكره وتقديره للجهود العظيمة التي بذلتموها في سبيل اكتشاف اسرار هوءلاء الجواسيس الا انه يرى ان من الواجب متابعة المساعي لنتمكن من الوصول الى رأس الحية لقطعه لان هوءلاء الجواسيس باتوا خطراً عظيما يهدد البلاد وموءخرة الجيش العثماني

ثم هناك مسائل اخرى رأينا من الواجب ان تهتموا لهـا وهي :

اولا ـ مطاردة هوءلاء الجواسيس الثلاثة ومعرفة رفاقهم

وثانياً ـ معرفة كيفية اتصال الجماعات اليهودية بالعصابة

ثالثا — ان حوادث الفرار من الجندية العثمانية من ترك وعرب قد ازدادت في المدة الاخيرة وتدل الاخبار الواردة الينا على ان هؤلاء الفارين يلجأون الى المستعمرات اليهودية التي لا تكتفي باطعامهم بل تشجعهم على الفرار وتعمد الى اخفاء اسلحتهم لتوءلف منهم قوة عند اللزوم تعمل على ضرب قواتنا اذا تراجعت امام الانكليز ، وعلى هذا ترون ان الموقف بات شديد الخطورة وان واجباتنا الوطنية تحتم علينا اكتشاف كل هذه الامور

ونظراً لما اعهده فيكم من الذكاء والمقدرة ونظراً الثقة القيادة العليا بكم قررنا ان تقوموا بهذه المهمة الوطنية وثقتنا وطيدة بأنكم واصلون الى هدفكم

الفصل الخامس

استدعى مدحت بك متصرف القدس عارف بك ابراهيم وبعد ان هنأه على فوزه بحرارة خاطبه قائلا :

ـ طلب الي صاحب الدولة محمد جمال باشا ان ابلغكم شكره وتقديره للجهود العظيمة التي بذلتموها في سبيل اكتشاف اسرار هؤلاء الجواسيس الا انه يرى ان من الواجب متابعة المساعي لنتمكن من الوصول الى رأس الحية لقطعه لان هؤلاء الجواسيس باتوا خطراً عظيما يهدد البلاد ومؤخرة الجيش العثماني

ثم هناك مسائل اخرى رأينا من الواجب ان تهتموا لها وهي :

اولا ـ مطاردة هؤلاء الجواسيس الثلاثة ومعرفة رفاقهم

وثانياً ـ معرفة كيفية اتصال الجماعات اليهودية بالعصابة

ثالثا — ان حوادث الفرار من الجندية العثمانية من ترك وعرب قد ازدادت في المدة الاخيرة وتدل الاخبار الواردة الينا على ان هؤلاء الفارين يلجأون الى المستعمرات اليهودية التي لا تكتفي باطعامهم بل تشجعهم على الفرار وتعمد الى اخفاء اسلحتهم لتؤلف منهم قوة عند اللزوم تعمل على ضرب قواتنا اذا تراجعت امام الانكليز ، وعلى هذا ترون ان الموقف بات شديد الخطورة وان واجباتنا الوطنية تحتم علينا اكتشاف كل هذه الامور

ونظراً لما اعهده فيكم من الذكاء والمقدرة ونظراً لثقة القيادة العليا بكم قررنا ان تقوموا بهذه المهمة الوطنية وثقتنا وطيدة بأنكم واصلون الى هدفكم

وبعد هذا انصرف عارف بك لاتخاذ التدابير اللازمة فهاجم القرى بشدة ومثل خلال اسبوعين ادوارا هامه اقلقت المستعمرات اليهودية وجعلت الجميع يقظين حذرين دون جدوى

وبعد ذلك اتصل به من جواسيسه ان لينشانسكي ورفيقيه في زمارين وانهم يحملون بريد الجواسيس لتسليمه الى الغواصة ، واكدله هؤلاء الجواسيس ان من بطاردهم قدلجأوا الى معمل الكحول في البشون لزيون فهرول الى للعمل بقوة مؤلفة من خمسين جندياً

وقد اعتاد البدووالقرويون ان يؤمواهذا المعمل مرة كل اسبوع حاملين معهم محصول اراضيهم من العنب لبيعه من اصحاب المعمل ، وصادف في الوقت الذي هاجمفيه عارف بك المعمل ان كان فيه بعض هؤلاء البدوففتشهم تفتيشاً دقيقاً وصرفهم ، ثم لفت نظره ثلاثة اشخاص اخرين نائمين بجانب شجرة كبيرة لا يتحركون رغم الجلبة و كانوا مرتدين الملابس البدوية ومسترسلي اللحى والشعر على الطريقة البدوية وليس في امكان أحد ان يميزهم عن عشرات البدو الذين كانوا هناك فاقترب منهم ورفسهم بقدميه فهبوا من رقادهم مذعورين

ولماسألهم عن هويتهم قالوا انهم من بني صخر جاؤوا لبيع محصولهم من الحبوب و كانوا يتكلمون بلهجة بدوية فلم يدخل الشك اليه فامرهم بالانصراف فهرولوا مسرعين ولم يعرف انه افلت بيده من وقف راحته على مطاردتهم

ليا تنبو

ليا تنبوفتاة كاعب جميلة الصورة حسنة الهندام

وهي رغم جمالها الخلاب ظلت بعيدة عن الجاسوسية ويرجع السبب في ذلك الى ان هذه الفتاة احبت طبيباً بيروتيا حباً شديداً فبادلها الحب ، وعرفت في ذلك الوقت بانها خطيبة لهذا الطبيب

وقدتعرف اليها احمدجمال باشا الكبيرعندما زارمستعمرة (دوران) القريبة من الزملة مسقط رأس هذه الفتاة فاحبها حباًجنونياً واراد الحصول عليها الا ان

الفتاة ابتعدت عنه فاحترم عفتها وتركها

ووالد ليا من المثرين الذين كانوا يتاجرون بالذهب وكان على اتصال بجواسيس اليهود الذين يخدمون الانكليز .

وكان ان اوقفه الترك قبل هذه الحوادث التي مر ذكرها في عدة مناسبات تتعلق بالاتجار بالذهب وصدرت الاوامر الان باعتقاله ايضا الا انه تواري عن الانظار فحكم عليه بالسجن سنة ونصف سنة غيابيا واكتسب هذا الحكم الدرجة القطعية

وفي اليوم نفسه الذي عجز فيه عارف بك عن توقيف الجواسيس الثلاثة في معمل ريشون لزيون وردته الاوامر بمهاجمة مستعمرتي (عين قارا) و (دوران) لتوقيف بعض اليهود وبينهم والد ليا بتهمن مساعده الجند على الفرار واخفاؤهم في هاتين المستعمرتين

وقد جاء عارف بك الى قرية (عين قارا) وتمكن فيها من توقيف عشرات من الجنود الفارين وبعض اليهود المطلوبين بمساعدة الجواسيس وارسلهم مخفورين الى الناصرة . وفي الساعة العاشرة من مساء اليوم نفسه ركب عارف بك جواده وتبعه خمسون خيالا الى قرية (دوران) فوصل

اليهود يعرفون كل شيء

وفي الساعة الثانية من بعد منتصف الليل كانت الاخبار الموثوق بها الواردة اليه قبل مغادرته (عين قارا) بنصف ساعة تفيد ان والد ليا تنبو واكثر من مئة شخص من الجنود الفارين واليهود المطلوبين من القضاء والسلطة العسكرية فور وصوله الى القرية .

الا انه ما كاد يداهم القرية ويتحرى دورها حتى وجدها خالية من جميع الذين قصدهم مادله على ان اليهود عرفوا بتقدمه قبل وصوله الي القرية ، فقلق واسقط في يده لا سيما ان الفجر اشرق وهو على وشك العودة من القرية بخفي حنين

وفيما هو يجمع قواه في اطراف القرية استعداداً لمغادرتها تقدمت امرأة

مسلمة من سكان احد اكواخ دوران من ضابط وسألته عن قائد هذه الفرزة ولما ارشدها اليه التفتت المرأة الى عارف بك وقالت:

— انك تبحث عن الخواجه تنبو ، أليس كذلك ؟

— نعم ، أتعرفين شيئا عنه ؟

— نعم فلليهود في هذه القرية ارصاد معروفون يقومون بالمراقبة طول الليل وقد اتخذوا من هذه القرية قاعدة لاخفاء جواسيسهم وتحريض الجنود على الفرار من الخدمة العسكرية وفي كل مساء يعقدون الاجتماعات لتدبير المؤامرة على الحكومة وقبل قدومهم بساعة جاء الرسل يحملون اليهم نبأ قرب وصولكم فاخفوا جميع الغرباء الذين في القرية ومن بينهم الخواجه تنبو الموجود في القرية .

— واين اخفى هؤلاء الخواجه تنبو ؟

= لا اعرف تماما انما انا على ثقة وطيدة بان الرجل في منزل قريب من منزله واذا عرفت كيف تشدد النطاق على هؤلاء تمكنت من توقيفه فوراً

وتجاه هذه المعلومات التي استقاها عارف بك جمع قواته وحاوط بها المحلة المذكورة ثم ارسل يستدعي اليه المختار ولما لبي هذا الاخير الدعوة اختلى به جانباً وقال :

= لقد عرفت المكان الذي أخفي فيه الخواجه تنبو فعليك ان تحضره الي فوراً والا اعتبرك مسؤلا عن اختفائه

قال عارف بك جملته هذه ولم يزد عليها وترك المختار في مكانه وذهب الى الغرفة الثانية حيث كانت الانسة ليا وراح يهددها بقوله :

— لقد ارشدني المختار الي منزل والدك وقد وعد باحضاره فاري ان تحضريه انت بنفسك كيلا يؤخذ بجريرة المقاومة

— ماذا ؟ هل قال لك المختار ان والدي هنا ؟

— نعم

— ولكن الم يقل لك شيئا عن سائر الجواسيس الذين اخفاهم ؟

و كان المختار خارجا من الغرفة عندما سمع جملة الابنة ليا فعمل لها اشارة سرية حملتها على السكوت ظناً منها ان المختار لم يش بها

الا ان المختار ارادباشارته هذه ان يقول لها يجب ان تضحي بوالدك في سبيل مواطنيك

وبعد نصف ساعة لما رأت المختار يعود ومعه والدها نقمت عليه وعلى مواطنيها جميعاً وارادت ان تفشي كل ما لديها من اسرار في سبيل انقاذ والدها فتحولت الى عارف بك وقالت له :

— ان والدي لم يكن جاسوساً وجرمه لا يوجب توقيفه وهو لو اسئل قبلا ابرأته المحكمة الا انني سافضي اليك باسرار جواسيسنا مقابل اخلاء سبيل والدي فهل تقبل بذلك ؟

نعم

ألم تشاهد في ريشون لزيون ثلاثة من البدو كانوا نياما تحت جذع شجرة هناك ٠

نعم ولكن اية علاقة لهؤلاء البدو بالجواسيس وهم من عرب بني صخر وقد تأكدت لي حقيقة امرهم

انك على خطأ لان هوءلاء البدو ليسوا الا لينشانسكي ورفيقيه الجواسيس الذين تطاردهم والذين اقلقوا مضجع القيادة العامة

! ٠٠٠

نعم هذه هي الحقيقة التي اكدوها لنا بانفسهم عندما جاءوا الى هنا في اليوم التالي لاخلاء سبيلهم و كانوا يضحكون منكم بملء اشداقهم لانكم لم تعرفوا كيف توقفونهم واخليتم سبيلهم بانفسكم

والان الى اين ذهبوا ؟

لا اعرف ٠

ودارت مناقشة طويلة بين الفتاة وعارف بك ، وقد ندمت الفتاة على خيانتها بني قومها ، لاسيما ان المختار كان ينظر اليها نظرات تدل على قلق وخطر

الا ان عارف بك ما لبث ان ادرك هذه الاشارات المتبادلة بين المختار والفتاة فامر بابعاد الاول الى الخارج وانصرف الى اقناع الفتـاة بضرورة الاعتراف له بالمعلومات الحقيقية عن العصابة فقالت :

ان المؤكد هو ان ليتشانسكي ورفيقيه بعد ان باتوا في قريتنا (دوران) يوما وليلة توجهوا الى جهات الجبهة وانا على اعتقاد وطيد بانهم سيعودون الى هنا لأن عملهم محصور فيها

وهل يلبثون متخفين بملابس البدو ؟

هذا ما اعتقده لانهم رأوا في هـذا التخفي الطريقة الوحيدة التي يخفيهم عن انظار الشرطة وهنا شكرلها عارف بك تصريحها هذا وتوجه الى (عين فارا) وابرق منها الى مدحت بك متصرف القدس يشعره بما وقع له مع الانسة ليا تبو والوعد الذي قطعته بان توفد شقيقها لمساعدتـه في توقيف الجواسيس الثلاثة اذا نالت وعداً بانقاذ والدها

وقـد تأخر مدحت بك في الجواب على هـذه البرقية لاضطراره الى مخابرة قائد الجيش الرابع حتى اذا جاءه الجواب وعاد به الى (دوران) ومعه والد الفتاة لم يجد من اثر لا لليا ولا لشقيقها ولا للمختار الذين تواروا عن الانظـار

والسبب في اختفاء هؤلاء ان ليا بعد مغادرة عارف بك للقرية عـاد اليهـا المختار ولما علم منها بما اقدمت عليه من خيانة لبني قومها خاف العاقبة فطلب الى ليا ان ترافقه مع شقيقها الى قرية (عين دبول) وظلوا مختفين في هذه القرية لا يعلم احد من امرهم شيئا الى نهاية الحرب العالمية فظهرت ليا وقـد ارادت ان تضحي والدها الذي ظل طول هذه المدة قيد السجن ، حتى بعد توقيف الجواسيس ، كيلا يرتكب هذه الخيانة

اما عارف بك فلم يقنط من هذا الفشل الذي لحق به للمرة الثانية بل اراد ان يتبع آثار الجواسيس حتى ولو اضطر لاجتياز الحدود الى المنطقة الانكليزية ولهذا قصد منطقة الحدود لتحري آثار هؤلاء الجواسيس

الى اين ذهب الجواسيس

اما ليتشانسكي ورفيقاه فلم يختبئوا امام هذه المطاردة الجديدة بل قصدوا على اثر هذا الحادث الى قرية (ام درمان) وهناك لجأوا الى الشيخ عباس الجرادي وهو من قبائل البدو وقد اعتاد ان يخدم كل من يعطيه ما هو بحاجة اليه من دراهم وطلبوا منه ان يجهز لهم قافلة مؤلفة من عدة جمال وبعض من رجاله ليتمكنوا بهذه الصورة من الوصول الى المعسكرات التركية كانهم بدو جاءوا لبيع محصولهم . و كانت غاية هؤلاء من وراء هذا التدبير درس حالة القوات التركية واستعداد تها ثم السفر الى الجبهة لتزويد الانكليز بهذه المعلومات التي طلبوها منهم

فلبى الشيخ طلب هؤلاء فوراً وقبل شروق شمس اليوم الثاني كانت هذه القافله في طريقها الى الجبهة الحربية والغريب انها غادرت القرية في الوقت عينه الذي كان عارف بك يدخل فيه القرية نفسها وقد شاهده هؤلاء الجواسيس وحيوه بجرأة دون ان يخطر بباله هذه المرة ايضاً انه تجاه الاشخاص الذين وقف نفسه لمطاردتهم وقد افلتوا من بين يديه مرة اخرى

العربي دوماً شريف

بينما كانت خيانات الضباط الطامعين في المال تتوالى كان عدد كبير من العرب الذين يتهمهم بعض المؤلفين الترك بالخيانه وعدم الاخلاص يظهرون اخلاصاً عظيما في اداء الواجب

ففيما كان الجندي محمد اوغلو خليل ابراهيم (اي خليل ابراهيم بن محمد) من اهالي قرية (طرون) التابعة للقدس يقوم بواجبه في حراسة الشواطي البحرية بالقرب من « [illegible] » المنطقة الموبوءة بالجواسيس ، و كان الوقت ليلا ، شاهد على الشاطىء ناراً تشتعل بصورة لفتت باله فاقترب منها من غير ان يدع [illegible] يشعرون به ، فوجد [illegible] يشعل عيدانا من الكبريت الذي يلهو به الاطفال ويرسل نوراً [illegible] فازدادت ريبته [illegible] الى البحر فشاهد بعض

نور ينبعث منه فاعتقد ان الرجل جاسوس يخابر الاعداء فهاجمه من الوراء وضربه بعقب بندقيته فاطعمه الارض ثم تناول حبلا كان معه فربطه به من يده وجره الى مقر القيادة

وفي الطريق حاول الرجل المجهول ان يرشو الجندي فاعطـاه خمس ليرات ذهبية ليخلي سبيله ثم ضاعف المبلغ فجعله ٢٥ ليره دون جدوى لان الجنـدي اصر على سوقه الى قائده وسلمه اياه مع الدراهم التي حاول رشوته بها

توقيف كتلة من الجواسيس

وفي اليوم نفسه امر يونس حيدر بك قائد موقع الناصرة الذي علم بالحادث بتحري قرية الرجل الذي تبين انه يدعي يعقوب ابراهيم خابون وكل من له علاقة به وقـد بلغ عددهم في ذلك الوقت ٢٥ شخصـاً بينهم اسحق شواره فاصدر الامر فوراً بنقلهم الى الناصرة تحت خفارة قوة من الجند

واسحق من الجواسيس الخطرين وقد وجدت في منزله اوراق هامـة تثبت علاقته بسارا وبخـابون المذكور الا انهـا لا ترشد التحقيق الى بقية الجواسيس و كان الملازم ابراهيم بك قائد مفرزة خفارة السـاحل على معرفة تامة باهميـة هذا الرجل فوضعه مع يعقوب خابون تحت خفارة خاصة وتحت اشرافه ٠

وعندما توسط قطار السكة الحديدية الطريق طلب اسحق السماح له بدخول المرحاض فارسل اليه تحت خفارة جندي و كان المرحاض قائماً في طرف القاطرة وفجأة دفع اسحق باب المرحاض بحيث بوغت الجندي المولج بحراسته وقبل ان ينتبه الجندي من هذه المباغتة كان اسحق شواره قد القى بنفسه بين القـاطرتين فمرت عليه الدواليب فمزقته بصورة فظيعة

ولما توقف القطار ، نزل الضابط ابراهيم بك ليتفقد الرجل وجده شلة ممزقة الاجزاء فقد آثر الرجل الانتحار على هـذه الصورة الفظيعة كيلا يجبره المحققون الترك على الاعتراف باسماء رفاقه ٠

التحقيق في الناصرة

وقد عهد الى هيئة بالتحقيق مع هؤلاء الاشخاص وبوجه خاص مع يعقوب ابراهيم خابون فاصروا على الانكار وعلى عدم معرفتهم اي امر من امور الجواسيس وقد عذب هؤلاء تعذيباً مراً لحملهم على الاقرار ومنعوا من الطعام دون جدوى وبظهران يعقوب صمم من برائته فتوصل الى يونس حيدر بك معلناً اياه عزمه على الاعتراف بكل شيء فاستدعاه القائد لغرفته فقال :

— مولاي اني بريء فانظر كيف يعذبونني لحملهم اياي على الاعتراف بما انا بريء منه

— انك تزج نفسك يا ولدي في مأزق خطر فارى من الصواب ان تعترف بالحقيقة لتنجو بنفسك

— وهل تعفون عن حياتي ؟

— اذا رويت لنا الحقيقة التامة اعدك باستحصال العفو عن حياتك

— انني رجل بريء وذو اولاد ولست مجرما فاذا عفوتم عني اعترف لكم بكل شيء والا افضل السكوت

— لقد وعدتك

— اريد وعداً خطياً من جمال باشا

فاراد يونس حيدر بك مسايرته الى النهاية فاجابه بانه سيفعل ذلك امامه وتناول ساعة التلفون وخاطب احمد جمال باشا قائلا ان الرجل يشترط العفو عن حياته لقاء اعترافه فاجابه الباشا بالايجاب والتفت يونس حيدر بك الى الرجل وقال .

هاك وعداً قطعياً من القائد العام فتكلم

— الرحمة يا مولاي لقد قلت لكم اني ساقول الحقيقة اي الحقيقة التي اعرفها .

انا لا نعرف شيئاً لانهم يستخدموننا كالعبيد وكل هذه المصائب التي تنزل بنا هي منهم فاذا نحن البائسين لم ننفذ اوامرهم يطردوننا من املاكهم ويقطعون ارزاقنا ولهذا نخاف منهم ... انني اخاف منهم يا مولاي ...

— لا تخف ... اتعتقد انهم اقوى من الحكومة ؟

= نعم يا مولاي فقد اخذونا تحت ادارتهم ووضعونا في قبضة ايديهم فلا نستطيع معارضتهم الحكومة نفسها لا تسمع شكوانا عليهم بل تسمع شكواهم على من يريدون

ومن هم هؤلاء ؟

— مولاي انني بريء

وذهبت جهود يونس حيدر بك لحمل الرجل على الاعتراف بالاسماء سدى فاعاده الى السجن على ان يستدعيه في اليوم التالي لانتزاع هذا السر منه . اما يعقوب فانه ادرك خطورة الحالة فقرر الانتحار وفي صباح اليوم التالي دخل الى المرحاض كعادته تحت حراسة الجندي الا انه تأخر في الخروج منه الى ان سمع الجندي حركة غير اعتيادية في داخله فحاول فتح الباب فوجدوا الرجل قد انتحر بان ربط قشاطه الجلدي بنافذة المرحاض الحديدية ثم زرد طرف القشاط حول عنقه فخنقه بعد عذاب اليم ولما فتح الجند باب المرحاض وجدوا الرجل جثة هامدة وقد كتب رقعة يقول فيها (تعذبت كثيراً الا ان الخيانة لبني قومي كانت اشد مرارة على نفسي من هذا العذاب ولذا قررت الانتحار)

توقيف الجواسيس

ومع هذا فقد مكنت هذه التحقيقات التي جرت في الناصرة القيادة من معرفة هوية جواسيس منطقة زمارين وعتليت فقام رجال الجند لمطاردة هؤلاء بصورة جدية وشرعوا يوقفون كل بدوي يشتبهون به ويقودونه الى عارف بك الذي اصبح يعرف هيئتهم وفي النهاية تمكنوا من توقيفهم وهم ليتشانسكي وهو من كبار زعماء اليهود البولونيين ومن العلماء المعروفين يحسن عدة لغات حية

ويعرف العربية والبدوية منها على اختلاف لهجاتها وهو في مظهر نبيل يدل على انه من الشخصيات المؤثرة .

جوزيف طوبين — رجل معتدل القـامـة ذو عينين شهلاوين يظهر بمظهر العظماء وليس في حركاته وسكناته ما يريب فهو ساكن هادىء يجيد تمثيل دوره كامهر الممثلين وينظر الى المحققين معه كما ينظر صديق لصديق قـديم يعرفه قبلا وله اسلوب في الكلام والحديث يخيل الى من يسمعه انه ليس امام جاسوس صغير بل تجاه شخصية بارزة ذات افكار عالية

بيهان بلكند — اما هذا فطويل القامة معتدل الجسم ذو رأس كبير وعينين لا تستقران ألا اذا استقر جسمه ، ويلعب بجفنيه بصورة مستمرة ويتكلم بحركة سريعة ومع هذا فهو حاكم على ارادته لا يتكلم الا بما يريد

وقـد ارسل هؤلاء الجواسيس الثلاثـة الى دمشق تحت خفارة ٢٥ جنديا وثلاثة ضباط فوصلوها بعـد ثلاثـة ايام وارسلوا توا الى مقر الفيلق حيث عرضوا على محمد جمال علي باشا وعلي فؤاد باشا اللذين حققا معهم مدة طويلة ثم احيلا الى هيئة مؤلفة برئاسة خليل رفعت بك حققت معهم مطولا وجاءتهم في نهاية تحقيقها على الاعتراف بجرائمهم .

مئات من الجواسيس

وقد كان من جراء هذه التحقيقات التي جرت في دمشق ان تمت تحقيقات شعب الاستخبارات ورجال الشرطة فاعتقل في بادىء الامر في الجاعونة كل من كوهين بنجامين ، وسامي روتبرغ ، وجول ايزاك ، وايزاك شالوم وقد تبين ان لهؤلاء علاقة بهذه الحوادث ثم اعتقلت في قرية « كفرقنة » فاوايا اخرى من الجواسيس بادارة وايتبرغ وأخرى في طبريا بقيادة كوهين انا ول

وقد اعتقل في بضعة ايام اكثر من ٣٠٠ يهودي حتى اضاع هـذا العدد من التوقيفات الوجهة الحقيقية لمعرفة هوية الجواسيس الذين غصت بهم سجون دمشق ولم يبق من هذه الاخيرة مكان لغيرهم حتى اضطرت القيادة الى وضعهم في مراكز

اخرى تحت المراقبة الشديدة ولم يبق من عمل للقيادة ولرجال الشرطة الا مراقبة سوق هوءلاء اليهود وكيفية سجنهم ونقلهم من المراكز المعدة لسجنهم الى دواوين التحقيق الكثيرة التي شكلها الديوان الحربي العرفي

وقد خشي تحسين بك والي دمشق عاقبة هذه الامور فارسل تقريراً ضافياً بالبرق الى قائد الجيش الرابع يشكو اليه امتلاء سجون دمشق بهوءلاء اليهود وازدحام كل قطار قادم من حيفا بالعشرات منهم معلناً بصراحة انه بات يخشى اذا استمرت الحال على هذا المنوال ان يوءتي بجميع يهود فلسطين الى دمشق طالباً وضع حد لهذا كله خوف ان يزداد نفور اليهود من الدولة فيعمدوا الى مقاومة العرب والحلفاء ثم يثورون ويحرجون موقف الدولة العثمانية

وقد راقت هذه الملاحظات قائد الجيش الرابع فاحالها الى قائد الفيلق الثامن محمد جمال باشا ملحاً عليه بضرورة الاسراع في حل القضية

الا ان قائد الفيلق الثامن كان يرى ان الموقف في هذا الوقت الذي تخرج فيه مراكز القتال في الجبهة يوجب مثل هذا التدبير فابلغ والي دمشق وقائد الجيش الرابع انه في حال الاستمرار على مثل هذه الحركات العدائية المشتبه بها والتي تهدد سلامة الجبهة فان قيادة الفيلق الثامن تضطر الى اتخاذ تدابير اشد من التدابير المتخذة حالياً وان سلامة الجبهة توجب ذلك

ثم امر الديوان الحربي الاسراع في النظر بالقضية فاجتمع حالاً وحكم على الجواسيس الثلاثة بالاعدام ورفعت اوراق القضية الى محمد جمال باشا فاقرها وعين اليوم التالي لهذا التصديق موعداً لتنفيذ حكم الاعدام بهم شنقاً في ساحة المرجة

وصية المحكوم عليهم

وفي الساعة الثالثة من صباح اليوم المعين لتنفيذ حكم الاعدام جاء النائب العام ممثل الديوان وقائد موقع دمشق الى السجن العسكري لاخذ افادة الموقوفين واستماع وصيتهم الاخيرة فاستدعى في بادىء الامر ليتشانسكي فبعد ان تبلغ قرار تصديق حكم الاعدام بحقه قال :

— انني لست آسفاً على هـذه الحياة وقـد كنت انتظر هـذه النتيجة ولذا اعددت وصيتي سلفاً وها كم ثلاثة كتب الى زوجتي وولدي واحد اصدقائي فانا لا اكتمكم انني كتبت الى زوجتي اواسيها في مصابها بفقدي متوسلا ان لا تتأثر لانني لا اموت موت الجواسيس الادنياء الذين يشتغلون لحساب الغير بل اموت موت رجل قام بواجبه الوطني خير قيام ، وقد تركت لهـا ٥٠٠ ليرة انكليزيـة هي كل ما املك راجياً منها ان تعتني بتربية ولدي وان تفهمه انني قمت بواجبي نحو بني وطني ومستقبلهم وان عليها ان تربي ولدي تربية صالحة وان تدعوه الى اقتفاء اثري في الحياة التي سرت عليها وان يضحي بنفسه في سبيل امته اليهودية وان يبذل كل ما في استطاعته لتحقيق الوطن القومي في فلسطين

ونصحت لزوجتي بل اوجبت عليها ان تتزوج فوراً من صديق لي ذكرت لها اسمه لتعمل معه على تربية ولدي

اما الكتاب الثاني فهو بالمعنى نفسه وفيه اخبار لصديقي ان يقترن بزوجتي ويعمل معها على تربية ولدي ، اما الكتاب الثالث فهو لولدي الطفل وقـد خاطبته فيه عندما يصبح شابا وعندما يقرأ كتابي هذا الذي يجب ان يكون دستوراً له في حياته القادمة

اما نهان بلكند فقد مثل هادئاً امام الهيئة وقال :

— لقـد كتبت وصيتي واليكم هي ، فهي معنونة باسم رئيس حاخامي الطائفة الاسرائيلية في القدس وقد اوصيته فيها ان يبلغ عائلتي انني قمت بواجبي كوطني اشتغل في سبيل امته وبلاده ولدي ١٥٠٠ ليرة انكليزية هي كل ثروتي اقفها لاول رجل يبشر عائلتي بتحقيق الوطن القومي الصهيوني في فلسطين

اما زوجتي واولادي فلا اترك لهم شيئاً اذ عليهم ان يعملوا بكل قواهم لتحقيق الغاية التي ضحيت بنفسي لاجلها وان يعتبروني كرمز للتضحية التي قمت بها في سبيل امتي وعليهم ان يسيروا على هذه الخطة

اما انتم أيهـا الترك فاسامحكم لانكم قمتم بواجبكم الوطني كما قمت انا بواجبي وانما على امتي ان تقتفي اثري في هـذا السبيل الى ان تصل الى هدفها المنشود

اما جوزيف طوبين فقد قال :

— انا روسي الاصل وقد هاجرت من مسقط رأسي وتركت كل حياة رفاه وسعادة ومستقبل حسن يترقبني هناك في سبيل تحقيق فكرة الوطن القومي اليهودي وفي سبيل هـذه الغاية اشتغلت مع الانكليز الذين وعدونا بتحقيق هـذا الوطن ولست نادما ابداً على ما بدر مني في هـذا الصدد وفي امكانكم ان تفعلوا ما تشاؤون بنا

اما وصيتي فهذه هي وقـد كتبتهـا لزوجتي واولادي الذين اتركهم للامـة اليهودية التي لها ان تفعل بهم وتقرر مستقبلهم ومصيرهم كما تشاء

وبعد هذا حضر حاخـام دمشق الى السجن وانصرف الى استماع وصيتهم وتشجيعهم لملاقاة ربهم في ذلك اليوم ثم صدرت الاوامر بنقل هؤلاء الثلاثة الى ساحة الاعدام فاركبوا سيارة السجن الى ساحه المرجة التي كانت محاطة بالجنود وهناك نفذ بهم حكم الاعدام وبذلك قضي على حياتهم وانتهت المأساة التي مثلها هؤلاء الجواسيس وكانت سبباً في فقدهم حياتهم

اما بقية الجواسيس الذين اعتقلوا بسبب هؤلاء الثلاثة فان الديوان الحربي لم يجد في اعمـالهم ما يوجب ادانتهم الا انـه وجد من المستحيل اخلاء سبيلهم واعادتهم الى البلاد التي خانوها فقرر ابعادهم عن فلسطين بصورة ادارية



الفصل الخامس

ففي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الامور في دمشق كان جواسيس الانكليز من اليهود قد حولوا مركز عملهم من تلك الجهات الى بيروت لانهم وجدوا في هذه المنطقة ارضاً صالحة لاتصالهم بالانكليز بعيدة تمام البعد عن المراقبة

فالتقارير الواردة الى رئيس الشعبة الاولى في الجيش الرابع تدل على ان هناك نفراً من اللبنانيين يشتغلون لحساب فرنسا وان هؤلاء الجواسيس اتخذوا من جونيه وضواحيها قاعدة لاجراء حركاتهم هذه والقيام بمخابرة رسل الفرنسيين الواردين اليهم من جزيرة ارواد

الا ان القياده لم تحفل بامر هؤلاء الجواسيس كثيراً لانها تعرف ان هذا النفر من الجواسيس يشتغل في الجاسوسية العادية التي لا يمكن ان يشكل خطراً تهدد سلامة الجيش والبلاد وان كل ما في استطاعتهم ان يفعلوه هو نقل مبالغ من المال الى بعض اللبنانيين ونقل سير الحالة في المناطق اللبنانية الى الفرنسيين الا ان الذي اهتمت له القيادة هو الاخبار التي وردتها بعدئذ عن اعمال الجواسيس اليهود الذين حولوا قاعدة تجسسهم ومخابراتهم للانكليز من فلسطين الى دمشق ، ولهذا عقد اجتماع في مقر القيادة فقرر فيه اتخاذ تدابير شديدة حول الامر وعهدا بذلك الى كاظم بك مفوض مخفر ميناء الحصن

الا ان كاظم بك لم يكن ذا مقدرة تساعده على اكتشاف اسرار الجواسيس لا سيما ان الجميع كانوا يعرفونه ولم يكن يخرج من المخفر الكائن على رأس محلة

ميناء الحصن الا بعد ان يهبط الظلام لانه لم يكن يريد قط ان يغادر منطقته التي تتجول في جهاتها الحسان في سبيل الوظيفة ومع هذا فهو لايزيد ان يظهر نفسه بمظهر العاجز امام رؤسائه وقائد الفرقة ٤٣ فارسلا في ذلك الوقت تقريراً يدل على سخافة اذ اورد في هذا التقرير انه بينما كان ماراً من شاطيء عين المريسة لفتت نظره اشارات انوار منبعثة من الجامعة الاميركية بصورة متقطعة وان مثل هذه الاشارات تكررت في اليوم الثاني والثالث ولما لم يكن في ميسوره ان يفعل شيئاً اكتفى بذلك

ومع ان هذا التقرير يدل على سخافة مرسله فان المديرية العامة للشرطة لفتت نظر الوالي عزمي بك الى هذا الامر ، ثم اجرى تحقيق دقيق في الامر تبين منه ن المولج بادارة المرصد الفلكي كان يدخل مساء الى دائرة الرصد ويضيء النور لمتحرك فيعطي هذا النور الاشارة الذي ظنه المفوض مخابرات سرية بين احد الجواسيس المختبئين في الجامعة الاميركية وبين الانكليز

نشل عثمان بك

وعند هذا العجز الذي اظهره المفوض عهد بامر مراقبة هوءلاء الجواسيس الى عثمان بك رئيس ميناء بيروت وهذا بدوره كان يرى ان الطريق الوحيدة التي يمكنه من الوصول الى هوءلاء الجواسيس تنحصر في مراقبة الجامعة الاميركية لهذا حصر همه في مراقبة كل من في هذه الجامعة

الا انه في الوقت التي كانت تجري فيه هذه التبدلات في المراقبة وفي الوقت الذي كانت فية جهود المولجين بالمراقبة لا تتعدى الجامعة الاميركية كان الجواسيس الحقيقيون يشتغلون بصورة جدية في بيروت وفي مكان قريب من دوائر الحكومة نفسها

مرأة غريبة

وقف شاب يحسن اللغة التركية امام احد جنود الدرك القائمين بحماية الساحل في صيدا وخاطبه بالتركية قائلا انه من ضباط اركان حرب احمد جمال باشا وانه

قادم سيراً لتفتيش وحدات المناطق الساحلية

ومع ان القانون لا يوجب على المفتش ان يعرف الجندي بنفسه فان هذا الجندي صدقه خصوصاً انه لا يعرف اللغة التركية وانه رأى محدثه يرتدي ملابس الضباط

وفيما الجندي واقف حائراً امام هذا الضابط المفتش ظهر سليم بك صاصي من اثرياء صيدا وكان قادماً الى بستانه هنالك فاراد انقاذ الجندي واقترب من الضابط يحييه ويدعوه الى بستانه في جهات جسر الاولي في صيدا حيث اكرم وفادته

ولما هم الضابط المفتش بالانصراف تعجب سليم بك كيف ان ضابطاً يقوم بتفتيشه سيراً على قدمية في مثل ذلك الوقت ، ومع هذا لزم الصمت لانه لم يشأ في ذلك الظرف الذي تعددت فيه الحوادث المفجعة ان يتدخل في امور لاتعنيه

اما ذلك الضابط فقد سار على قدميه الى مخفر (الناعمة) فتفقده واستعرض جنوده وسأل عن عددهم ودرس احتياجاتهم وسجلها في مفكرته ثم امر باستدعاء مختار القرية التي كانت بعيدة عن المخفر ودرس معه حالة هذه المنطقة ثم توجه الى السعديات وهناك تفقد المخفر وزاد جاويشه في اكرامه ودعاه الى احدى المقاهي وادب له مأدبة فخمة وبات تلك الليلة هناك

وفي اليوم الثاني تابع سيره الى الدامور فمخفر خلده الذي كان مشيداً على رابية تجاه خان خلده فتفقده ايضاً ومنه جاء الى بيروت

وكان هذا الضابط قادماً من حيفا وقد طاف كل هذه المخافر وتفقدها بدقة واشرف على حالة جنودها وكانوا جميعهم في حالة مؤسفة ، وقد وصف له هؤلاء حالتهم واحتياجاتهم وضائقتهم باسهاب كلي وهم على اعتقاد وطيد بانهم يخابرون مفتشاً من ضباط الاركان الحربية

ويظهر ان هذا الضابط بعد ان تعرف على حقيقة حالة القوات الموجهة بحراسة وحماية السواحل الممتدة من حيفا الى بيروت ، اراد ان يدرس حالة القرويين هناك فمر على القرى الساحلية فوجدها شبه خالية من السكان لان الجميع كانوا في

حالة من الفاقة لا تمكنهم حتى من تأمين احتياجاتهم للغذاء

في المطرانية الارثوذكسية

وكانت آخر مرحلة لهذا الضابط المجهول المطرانية الارثوذكسية لجبل لبنان التي حط رجاله فيها ، فانه بعد ان اجتاز صحراء الشويفات عرج عند وصوله الى حدود الحدث على دار المطرانية ونزل على مطرانها وقدم له نفسه بصفته من ضباط اركان حرب احمد جمال باشا ، وكان المطران يعرف شيئاً من اللغة التركية وقد اضاف الضابط تلك الليلة وتحدث اليه في شتى الشؤون وقد استدرجه هذا الضابط لبيان موقف طائفته واهمال الحكومة امرها وعدم اعطاء رجال الدين الارثوذكس الحبوب ومواد المعيشة التي اغدقها الباشا على البطريركية المارونية .

وفي صباح اليوم الثاني غادر هذا الضابط دار المطرانية واعداً المطران بايصال شكواه الى الباشا

كيف اكتشف الامر

ومضى على مرور هذا الضابط المجهول من هذه المنطقة اسبوع واحد لم يحقق خلاله مطاليبهم ولم يرسل اليهم ما وعدهم به من اصلاحات وقد اراد قائد مخفر الناعمة ان يلفت انظار القيادة في صيدا الى هذا الامر لا سيما ان مختار الناعمة أبى تنفيذ اوامر الضابط المفتش بتجهيز المخفر بالاسرة التي فرضها عليه الجنود الذين ينامون على الواح من الخشب ملئت بالبق فوضع تقريراً بالحادث رفعه الى قائد البلوك في صيدا يشكو فيه مختار الناعمة لعدم رضوخه لامر المفتش طالباً الاوامر اللازمة في هذا الشأن

وقد بوغت قائد صيدا بهذا الامر اذ لم يكن له علم به فابرق الى بيروت يسألها معنى ايفادها مفتشاً لمراقبته . الا ان قيادة بيروت لم تكن اقل منه جهلاً لهذا الامر فخابرت الفرقة ٤٣ وهذه بدورها خابرت الفيلق الثامن ثم الجيش الرابع واستمرت هذه المخابرات خمسة ايام كان من نتيجتها ان استنكر الجميع هذا الامر

وانتدب جواد رفعت بك المدير المعاون للشعبة الاولى في الفيلق الثامن للتحقيق في الحادث فقام به

وكانت النتيجة ان تتبع — بواسطة المخابرات — هذه المعلومات التي اوردناها آنفاً والتي اثبتت له ان الانكليز بعد الفوز الذي احرزوه في جبهتي غزة وبئر السبع ارادوا ان يتأكدوا من حالة البلاد القائمة وراء الجبهة الفلسطينية ليتعرفوا الى حقيقة وسائل الدفاع فيها وان جواسيسهم توغلوا في البلاد وتزيوا بزي الضباط الترك غير حافلين باحد منهم

حادث آخر

وفي هذا الوقت الذي وقعت فيه الحادثة واختفت اثار الجاسوس حصلت حادثة اخرى ، فقد ورد الى مديرية شرطة بيروت اشعار يفيد ان ثلاثة من الاجانب شوهدوا في جهات رأس بيروت يحاولون النزول في زورق هناك وقد شاهدهم اثنان من الخفراء هما الاونباشي حسن واحمد باندرمه ولما حاولا توقيفهم بادروهما باطلاق الرصاص فقتلوا حسناً وجرحوا رفيقه جراحا خطرة ونزلوا من الزورق فتوغلوا في جهة لم يتمكن احمد من معرفتها

وقد اهتمت قيادة موقع بيروت لهذه الحوادث وقررت تعزيز وسائل الرقابة على المناطق الساحلية

الا ان هذه الرقابة وهذه الاستعدادات لم تفد القيادة شيئاً لان السفن الحربية الانكليزية كانت تشاهد من وقت لاخر في هذه الجهة كان الجواسيس كانوا يجتازون هذه المنطقة بجرأة متناهية فينقلون الى هذه السفن ما لديهم من معلومات حربية .

من هو رئيس العصبة

وكان عارف بك رئيس بوليس القدس الذي اكتشف عصابة سارا ارونسون ورفاقها مولجا بالتحقيق عن عصابة اخرى من الجواسيس اليهود كان يديرها في

الجبهة الحربية نفسها ابراهام وارتنبورغ وهو رجل في العقد الرابع من عمره معتدل القامة والجسم في رجله اليمني عرج يمكن معرفته به

وقد عهد عارف بك الى مطاردة هذا الرجل بصورة جدية وسريعة فضايقه في تلك الجهات ثم بث حوله العيون والارصاد فاتضح له ان الرجل بعد ان يئس من متابعة أعماله في هذه المنطقة عهد بمهمته فيها الى جاسوس آخر وغادر الجبهة الى مستعمرة (بريكه) الصهيونية القريبة من عتليت ومنها سار الى قرية ام العلق فاجتمع هناك باربعة من اليهود توجه بهم الى حيفا ومن هناك اختفت اثارهم عنه لانهم لجأوا الى بيروت وبدأوا عملهم في منطقتها و كانت اول اعمالهم سرقة وثائق خطيرة معدة للدفاع عن بيروت

كيف سرقت الوثائق

عندما تحرج الموقف الحربي في جبهة فلسطين عقدت القيادة العامة اجتماعاً كبيراً في مقر القيادة بدمشق حضره قائد الفرقة ٤٣ وقائد مركز بيروت وقائد الالاي وقرروا في هذا الاجتماع تنظيم خطة الدفاع عن الجبهة بصورة جدية وايجاد خطة ثابتة للدفاع عن منطقة لبنان والسواحل التابعة للفرقة ٤٣ حتى اذا فشلت القيادة التركية في الدفاع عن جبهة فلسطين اتخذت من لبنان وسواحله الجنوبية ومن بيروت قاعدة للدفاع عن الجنوب ولصد القوات المعادية اذا ما حاولت احتلال بيروت والتقدم منها الى الداخلية لاحتلال دمشق وقطع خط الرجعة عن القوات المحاربة في شرقي الاردن وشمالي فلسطين وعهد الى قائد الفرقة ٤٣ بمهمة وضع خطط الدفاع عن بيروت والسواحل الجنوبية والشمالية

وقد عرف جواسيس الانكليز المنتشرون في كل جهة من جهات القيادة العثمانية بامر هذا الاجتماع الذي عقد في دمشق وبما كان من انتداب قائد الفرقة ٤٣ لوضع خطة الدفاع فاوفدوا جواسيسهم بقيادة ابراهام وارتنبرغ لدرس خطط الدفاع الحالية حتى اذا جاءهم بالاخبار التى استقاها يخور جودا (الذي تزيا بزي الضابط المفتش) وعرفوا ان الترك لا يزالون يهملون هذه المنطقة ويقوموا بايـ

استعداد للدفاع عنها عادوا وقرروا الاستيلاء على الخطط

و كانت خطة الجواسيس المتبعة في الحروب استنساخ الخطط كيلا ينبهوا القيادة الى هذا الامر الا ان ابراهام لم يكن لديه الفرصة الكافية لهذا العمل فتمكن من سرقة الخطط باجمعها وقد شعر رئيس اركان حرب الفرقة ٤٣ بفقد اوراق خطط الدفاع وتكتم بالامر مدة سبعة ايام عادت خلالها الوثائق بالطريقة السرية التي فقدت فيها الامر الذى زاد في حيرة قائد الفرقة فاجتمع برئيس اركان حربه وبحثا الموقف بدقة واستدعيا رئيس المختبر الفني لفحص هذه الاوراق واخذ البصمات التي عليها ، وكان رئيس اركان الحربية بعد رؤيته الاوراق تعود الى مكانها أبى ان يمسها ليتمكن من فحصها فنياً لمعرفة الاثار التي عليها توصلا الى اكتشاف المجرم الحقيقي .

وتولى رئيس هذه المصلحة التحقيقات الدقيقة فعثر على هذه الاوراق على بصمات اصابع لثلاثة اشخاص وقد ظهرت له بوضوح تام

ورأت القيادة ان تقابل هذه البصمات ببصمات الضباط والجنود والكتاب الذين في مقر الفرقة وكانت على اعتقاد وطيد بان الجواسيس لم يصلوا الى هذه الاوراق الا بواسطة مساعدين لهم من مقر الفرقه في عاليه ولهذا اتخذت احتياطات سرية لاخذ البصمات بصورة لم يشعر بها احد

فقد ارسل رئيس اركان الحرب تعميما اداريا الى جميع موظفي الفرقة فكان كل من هؤلاء يتناوله بيده للتوقيع عليه فترتسم بصمات اصابعه على هذا التعميم وعلى هذه الصورة بات لدى القيادة بصمات يد جميع الذين في مقر الفرقة ووضعت رقابة شديدة حول هؤلاء حتى اذا بدرت من احدهم بادرة اعتقل قبل ان يتمكن من الفرار .

و كان معظم كتاب الفرقة ٤٣ في عاليه من العرب وجلهم من البيروتيين و كان قائد للفرقة يثق بهم ثقة عمياء رغم تحذير رئيس اركان حربه له فقد كان هذا الاخير ينصح له دوما بان لا يثق بالعرب خصوصاً بعد ثورة الشريف حسين .

ولما وقعت هذه الحادثة التي نحن في صددها وقعت شبهة القائد على ثلاثة من

الكتاب البيروتيين فامر باعتقالهم والتحقيق معهم في الحادث

الا ان قائد الفرقة عارض في هذا الامر واصر على وجوب اجراء التحقيق بصورة سرية حتى اذا اعيدت الاوراق واخذت البصمات التي وجدت عليها سر القائد من هذه النتيجة اذ لا بد ان ترشد الى الجواسيس الحقيقيين وتحول دون وقوع الابرياء وتعذيبهم لحملهم على الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها وهذا ما حصل فعلا فقد اثبت التحقيق براءة هؤلاء من الاجرام التي اسندت اليهم

واقد وجدت بين البصمات التى اخذت بصمات يد اثنين من الذين في الفرقة احدهما الملازم عثمان بك وهو تركي الاصل من اهالي استنبول والاخر جندي يدعى بهلول احمد آغا وهما من رجال رئيس اركان الحرب الذي يعتمد عليها فالضابط عثمان بك كان من ضباط اركان الحربية والجندي كان في خدمته وقد اثرت هذه الحقيقة في رئيس اركان الحرب تأثيراً شديداً حتى كاد يصاب بنوبة عصبية ، ونظراً لهذه الصلة التي تربطه بهما ابى ان يحقق معهما مع ان هذا حق من حقوقه فأمر باعتقالها وسوقها فوراً الى رضا باشا قائد الفرقة ليحقق معهما بصورة مباشرة

ولما اعتقلا وتحري منزلها في عاليه وجدت فيه رقعة بتوقيع «روز كونكون» تتضمن بعض العبارات الغرامية ومبلغ ٣٥٠ ليرة عثمانية ذهباً و ٢٥٠٠ ليرة تركية نقدية

اعتراف الجندي

وقد انكر الملازم عثمان بك الحادث انكاراً باتاً ولما سئل عن مصدر المال وكان معروفاً عنه انه لا يملك شيئاً حاول القول بانه كان يتاجر بالحبوب مع وصيطه الجندي بهلول

ولما سئل هذا الجندي بصورة منفردة اجاب ان سيده يوفده الى بيروت لمقابلة عشيقته (روز) في محلة الزيتونة ، تسليمها ظرفاً كبيراً يحوي اوراقاً لا يعرف ماهيتها وان روز سلمته ظرفاً وصرة من الدراهم وانه لم يسع لمعرفة اسرار هذه

الامور وبعد بضعة ايام اوفده سيده الى روز فسلمته ظرفاً اخر .

ولم يزد الجندي على هذه المعلومات بشيء وقد اثبت انه لا يعرف من كل هذه الامور غير ما تقدم

وعلى اثر ذلك ابرق الى مديرية شرطة بيروت بتوقيف روز في منزلها الكائن تجاه مقهى خريستو ومن في المنزل الذي كانت تتخذه شبه (بانسيون)فاعتقل ١١ نفساً جيء بهم الى عاليه ولدى اجراء التحقيق اعترفت روز بان اثنين من الذين في منزلها طلبا منها اوراقاً سيرسلها عشيقها الملازم عثمان بك و كانت افادتها مؤيدة لافادة الجندي مما أيد براءتها من كل التهم التي وجهت اليها في باديء الامر وانحصرت الشبهة في اثنين من الموقوفين هما بخور جودا وعزرا كوهين فاوقفا قيد التحقيق واخلي سبيل الاخرين

وقد حاول هذان الرجلان انكار هويتهما الا ان التحقيقات الدقيقة ما لبثت ان اثبتت هذه الهوية ، فعادا وانكرا ان يكونا من الجواسيس وحاولا ان ينكرا ايضاً علاقاتهما بالضابط عثمان بك الا ان مواجهة الجندي لروز ومواجهو روز لهما ارغمتهما على الاعتراف بانهما بتاجران مع الضابط وان هذا الضابط يساعدهما للحصول على وثائق لتصدير الحبوب الى فلسطين وان الاوراق التي جاءهما بها الجندي لم تكن الا وثائق لمشترى الحنطة

وهنا وضعت القيادة غلاف لوثائق ضمن غلافات اخرى وطلبت من الجندي ان يرشد الى الغلاف الذي نقله فارشد اليه فورا وهكذا ثبتت التهمة على هؤلاء بصورة صريحة

واجريت مقابلة على اثر ذلك بين الجاسوسين اليهوديين وبين الملازم عثمان بك فوجد القائد تبايناً كبيراً بين اقوال الفريقين الا انه في الوقت نفسه وجد في افادة روز وافاده الجندي والدراهم مما يثبت هذه التهمة على الرجل

انتحار الضابط

وشوهد رئيس اركان الحرب يجتمع بالملازم عثمان بك ثم يخرج من غرفته

مسروراً ولما سأله رضا باشا هل تمكن من حملة على الاعتراف بجريمته اجاب :

— كلا وانما اقنعته بوجوب حفظ شرفه العسكري » ولم يزد على ذلك الا ان معنى هذا الاقناع ظهر في اليوم الثاني لان عثمان بك الذي ارسل مخفوراً الى دمشق طلب وهو في رياق مقابلة قائد الفرقة فيها الميرالاي وحيد بك ، وهو ابن عمه وقد ربى عثمان في داره فرفض وحيد بك مقابلته له قائلا :

— ان من يخون وطنه وشرفه العسكري لا يجوز له ان يطلب مقابلتي

الا ان عثمان الح في هذه المقابلة ولما مثل بين يديه بكى وقال :

— لقد احببت فتاة هي كريمة الميرالاي المتقاعد الدكتور ادهم بك حباً جنونياً وقد اضطرني هذا الحب ان انفق عليها مالا كثيرا فمددت يدي الى صندوق المصارفات السرية المودعة تحت عهدتي

وكنت في بيروت اتردد على بانسيون روز كونكون التي كانت تجمعني بمن احب وقد حظيت من اموالي بالشيء الكثير

وفي الشهر الماضي بلغني ان جمال باشا قادم لتفتيش صناديق المخصصات السرية فخفت العاقبة فقصدت روز وحاولت الانتحار عندها الا ان الفتاة شعرت بامري وحاولت دون قصدي واخبرتني ان هناك تاجرين يهوديين يترددان عليها دوما قصد الاجتماع بي لانهما يعرفان ترددي عليها وانهما فاتحاها بامر اشتراكي في تجارة ستدر علي ارباحاً طائلة دون ان اخون وظيفتي

ولما كنت بحاجة الى الدراهم استقدمت الى هذين الرجلين وسألتهما ما يطلبان فكانا عارفين بحالتي وبعجزي عن تسديد الدراهم فقالا انهما لا يطلبان الا ان احميها في تجارتهما وهما مقابل ذلك ينقدانني ما احتاج اليه ثم سألاني عن المبلغ المتأخر على الصندوق فابلغتهما انه ٢٤٠٠ ليرة تركية فوعداني باعطائي المبلغ فوراً مقابل سند ارل فيه انني اخذت منهما المبلغ لتسديد النقص الحاصل في صندوق الفرقة الذ بدرتة على ملاذي

فرفضت ذلك فقبلا ان يأخذا سنداً اقول فيه انني اخذت المال منهما مقابل حمايتهما تها هذا السند دون ان اشعر بحقيقة مهمتهما ظاناً انهما من كبار التجار

وانهما بحاجة لمن يحميهما ، وهما يهوديان ، ضد اعتداء البوليس او الاهلين ونقداني ثلاثة الاف ليرة بزيادة ٦٠٠ ليرة ، وهكـذا نجوت من ورطة اسـاءة استعمال الوظيفة . على ان هذين الجاسوسين عرفا ان يستخدما السند الذي اعطيتهما اياه فقد اعترفا لي بصراحة انهما من جواسيس انكلترا وانهما بحاجة الى خرائط دفاع المنطقة ولما ثرت غضباً عليهما ظلا هادئين وقالا لي ان اقل كلمة مني كافية لاثبات التهمة علي اذ يعترفان بانني كنت شريكا لهما في جاسوسيتهما وانني لم احمهما الا بعد ان عرفت انهما جاسوسان اذ لا يعقل ان يدفع احد عن احد مثل هـذا المبلغ الكبير دون ان يكون له ضلع في الحادث

وهكذا اصبحت في ايديهما وقالا لي ان غايتهما استنساخ هذه الوثائق التي لا لا يمكن احداً ان يشعر بها وهما مقابل ذلك يدفعان لي ٥٠ ليرة عثمانية ذهبـاً ولا اعلم كيف قبلت ونفذت هذا الطلب

فالتفت الميرالاي وحيد بك الى الضابط واشار الى الغرفة المجاورة لمقره في رياق وقال له :

ادخل الى هذه الحجرة وسجل اعترافك هذا بيدك ثم قم بواجبك

ودخل عثمان الى الغرفة وسجل كل هذه الوقائع باسهاب كلي وبعد ان وقعها عاد الى غرفة وحيد بك وسلمه اياها

فالتفت وحيد بك اليه وقال

= هل قمت بواجبك تماما ؟

— نعم

فتناول وحيد بك مسدساً كان على الطاولة واخذ يلاعبه بيده . ولما قال له (نعم) وقف وحيد بك وخرج من الغرفة فادرك ما اراده سيده القائد فمد يده الى المسدس وافرغ منه رصاصة على صدغه كانت كافية للقضاء على حياته

وهنا اطرق وحيد بك حزيناً وقال :

= لقد كفر الرجل عن خيانته بدمه فاحسن

ثم اسرع ضباط الفرقة الى محل الحادث فنقلا جثمان الضابط المنتحر الى الخارج ثم تولى الميرالاي وحيد بك وضع تقرير ضاف عن القضية ضمه الى كتاب عثمان ورفعه الى قيادة الفيلق الثامن وهذه بدورها احالته الى قائد الفرقة ٤٣ لاستئناف التحقيقات مع الجواسيس

وثيقة الاعتراف

الا ان البوليس البيروتي لم يعثر في دار السيدة (روز) على وثيقة الاعتراف التي اشار اليها الضابط المنتحر في حديثه للميرالاي وحيد بك كما ان الجاسوسين عزرا ويخور لم يشيرا في حديثهما الى هذه المذكرة ، ولما كان ظهور هذه الوثيقة مع اعتراف الضابط المنتحر كاف لاثبات تهمة الجاسوسية على الرجلين لذا شددت الرقابة عليهما واستعملت بحقهما طرق قاسية لحملهما على الاعتراف بمقرهذه الوثيقة دون جدوى لان الرجلين وقد عرفا ان هذه الوثيقة تقودهما الى الشنق اصرا على انكار وجودها وذهبت جميع الجهود التي بذلت لحملهما على الاعتراف بهذه الحقيقة ادراج الرياح .

اعتقال احد الجواسيس في رياق

وفي الوقت الذي سيق فيه الملازم عثمان الى دمشق شوهد شاب بملابس البدو يرافقه بالقطار وقد اعتقله الجند يومئذ بتهمة الفرار من الجندية الا انه تمكن من اظهار وثيقة تثبت انه من عرب (الروله) وانه مرسل بمهمة الى بيروت من قبل امير هذه القبيلة فاخلي سبيله

الا ان الملازم الاول كاظم بك قائد محطة رياق رابه امر هذا البدوي خصوصاً وقد رآه يأتي الى (حوش حالا) ثم يذهب الى الكيلومتر (مكان واقع على خط السكة الحديدية المؤدية الى حلب) حيث مستودعات الذخيرة الحربية

فاوفد اثنين من رجاله لمراقبته بشدة فلم يتمكنا من العثور عليه الا بعد خمسة ايام من تاريخ انتحار الضابط فقدشاهداه آنئذ على هضبة يعطي الاشارات فاطبقا عليه فوراً وقاداه الى كاظم بك وقدحاول الرجل في الطريق ان يرشوهما بمبلغ كبير من المال الا انه لم يفلح لان الجنديين اصرا على سوقه الى ضابطهما ولما فتش وجدت معه الاوراق الخطيرة التالية :

اولا — (كروكي) عن موقع محطة رياق المؤدية الى حلب وفي هذه الخارطة تفاصيل دقيقة عن مستودعات الذخيرة الحربية في المنطقة وعن مستودعات الاعاشة الالماني .

ثانيا — (كروكي) عن مقر المدفعية النمسوية في الجبهة الشمالية من رياق ومركز خزانات القنابل والذخيرة المعدة لها وبيان مركز القيادة المدفعية النمسوية .

٣ — (كروكي) عن خطة الدفاع عن رياق واشارات عن مراكز الجنود واسم كل بلوك والاي .

٤ — الوثيقة التي اخذت من الملازم عثمان المنتحر

ولدى هذه الادلة الراهنة التي تثبت جاسوسية هذا الرجل قاده الملازم كاظم بك الى قائد الفرقة الميرالاي وحيد بك فحقق معه وحمله على الاعتراف بانه يدعى مردخاي عزراليفي وهو الجاسوس الثالث الذي جاء مع ابرهام فقاده تحت خفارة الجند الى عاليه حيث ادمجت دعواه بدعوى رفيقيه .

وعقد الديوان الحربي العرفي جلستين فقط نظر خلالهما في هذه القضية فحكم على المتهمين الثلاثة بالاعدام

وعلى هذا لم يبق من افراد عصبة الجواسيس التي جاءت الى بيروت وضواحيها الا اثنان : ابراهام وارتنبرغ وايزاك جاك راينوفتش .

وقد اختفت اثار هذين الجاسوسين الا ان اختفاءهما هذا لم يدل على انهما ابتعدا عن المنطقة بل تجنبا الظهور في المحلات العمومية خصوصا بعد اعتقال رفاقهم واعدامهم . ويثبت ذلك تسرب الكثير من اسرار الجيش الى الاعداء ورؤية الدوارع الانكليزية تجوب سواحل رأس بيروت الممتدة لغاية خلدة

تدابير فاشلة

ورأت قيادة موقع بيروت ان نشدد الرقابة على الجواسيس في المناطق الساحلية فعقد اجتماع برئاسة قائد الموقع حضره عثمان بك رئيس ميناء بيروت واسماعيل حقي بك قائد قوات الساحل ومدير الشرطة ، وجرى البحث فيه حول التدابير الواجب اتخاذها لمراقبة هذه النقطة واعتقال الجواسيس بالجرم المشهود ، فتقرر تعزيز الحامية في هذه المنطقة بصورة جدية واقامة مراقبة دائمة في المناطق المشتبه بها

ولكن مضت عشرة ايام على اتخاذ هذه التدابير وحركات الجواسيس لاتزال على حالها .

وحلا هذه المرة للجواسيس الذين كانوا يشتغلون في هذه المنطقة ان يهزأوا برجال الامن ليثبتوا لهم انهم عاجزون تمام العجز عن مطاردتهم وتوقيفهم فعمدوا في بادىء الامر ، الى سرقة بندقيتين من بنادق حراس الساحل

ثم بعد مرور اربعة ايام على هذا الحادث ، ورد نبأ اخر يفيد ان جنديا وجد مربوطا بحبل وملقى على شاطىء البحر فاستدعي هذا الجندي فقال :

— بينما كنت اقوم بمهمتي في جوار نهر ابو شاهين شاهدت على الشاطىء رجل وامرأة ولم يخطر ببالي ان هذا الرجل جاسوس بل اعتقدت انه عاشق جاء بمن يحب الى هذه المنطقة البعيدة عن السكان ، فاقتربت منهما وكانا فارشين مائدة عليها بعض اللاطات والشراب ودعوتهما لمرافقتي الى المخفر ، الا ان الفتاة اخذت تتذلل قائلة انها من عائلة شريفة وان سوقها الى المخفر سيقودها حتما الى القتل . فاشفقت عليها وامرتها بالانصراف وحدها وترك الرجل مكانه واصررت عليه بان يرافقني الى المخفر لاتثبت من هويته فدعاني لتناول قدح من الخمرة قبل الذهاب معه فلبيت الدعوة وكرعت القدح وخلال ذلك رأيت زورقا يأتي من عرض البحر الى الجهة التي نحن فيها فتنبهت للموقف وهممت بان انبه رفاقي ، الا انني في هذه الساعة اضعت توازني ولم اشعر الا وانا مربوط وملقى على شاطىء البحر على بعد سحيق من مكان الحادث فاستنجدت فاسرع رجالي الي

وتعددت امثال هذه الالعاب التي لعبها (شيطان بيروت) الجاسوس على الجنود دون جدوى لان الرجل الذي يقوم بمهمة جاسوسية خطيرة كان من طبعه المزح فاخذ يسخر من رجال الحكومة وهو يقوم بعمله

وقد كان في الامكان ان يتابع مهمته هذه لو لم يعمد شابان بيروتيان لتوقيفه والقضاء على مهازله هذه وهما الان في قيد الحياة ومن ملاكي بيروت والى القراء بيان ذلك :

يقوم دير مارالياس الارثوذكسي في محلة مار الياس بطينة المطلة على السواحل الممتدة من جهات الروشة الى سواحل البحر الواقع حتى جهات خلدة · اتخذته السلطة العسكرية مقرا للقيادة المولجة بخفر الساحل ، وقد عززت السلطة هذه المنطقه بالجنود وبالمراقبين الدائمين

اجتماع في الدير

وفي هذا الدير عقد اجتماع حضره قوات مفرزات الساحل ، وتكلم فيه قائد قوات محافظة الساحل اسماعيل بك قائلا :

— لم يبق في امكاني السكوت على هذه الحالة فالبلاد ترتجف منا كالقصبة ولا يجسر احد ان يحرك ساكنا ، والجندي العادي من جنودنا يفعل ما يشاء دون ان تتمكن احد من اعتراضه ، ومع هذا نرى جاسوسا واحدا يهزأ بنا ، ويسرق اسرارنا ثم يعمد الى مداعبة قواتنا بصورة تظهر عجزنا ليس امام الشعب الذي لا نحفل به بل امام رؤسائنا ، فالقيادة في بيروت مستاءة من هذا العمل وقيادة الفرقة ناقمة وقائد الجيش يهددنا باستبدالنا وارسالنا الى الجبهة الحربية اذا لم نتمكن من توقيف هوءلاء الجواسيس ورئيسهم بوجه خاص ، ولهذا دعوتكم الى هنا لتختاروا احد امرين :

اما ان تقبضوا على هوءلاء الجواسيس لنسلمهم الى القضاء العادل ليلاقوا جزاءهم ، واما ان تستعدوا للسفر الى الجبهه الحربية

وقد اصغى رؤساء المخافر والمفرزات الى اقوال قائدهم اسماعيل بك وهم سكوت،

حتى اذا انتهى انصرفوا بعد ان وعدوه وعداً قطعياً بالعمل على تحقيق رغبته ، ومرت الليلتان الاوليان من غير ان يحدث شيء وفي الليلة الثالثة تبدلت الحالة فقد التقى احد بحارة بيروت عند (ميناء الحصن) برجلا يعرج تدل اوصافه على انه رئيس العصبة فاستوقفه ونقده ربع ليرة تركية طالباً اليه ان يوصل رسالة سلمه اياها الى القائد اسماعيل بك ففعل ، ولما فتحها اسماعيل بك ثارت ثائرته واعتقل البحري واخذ يحقق معه عمن سلمه الرسالة ولما روى له الحقيقة ابى ان يصدقه مع ان الادلة ظاهرة على ذلك وابقاه تلك الليلة في المخفر وانهال عليه ضرباً موجعاً حتى افقده رشده ثم ساقه في اليوم التالي الى الديوان العرفي في عاليه ليحاكم بتهمة الاشتراك في الجاسوسية

اما الكتاب الذي اثار سخط القائد الى هذا الحد حتى سكب جام غضبه على هذا البحار المسكين فقد احتوى تعميماً اعده القائد اسماعيل بك ليذيعه على قواته يتضمن وصفاً للجاسوس ووجوب التشديد عليه لتوقيفه . وقد كتب القائد مسودة هذا البلاغ بيده واحتفظ به في مكتبته الخاصة في الدير ليسلمه الى الكاتب في اليوم التالي ، وقد نسيه في ذلك اليوم

ويظهر ان هذا الجاسوس زاره في مكتبه في اثناء غيابه في نزهة بالمدينة فاخذ التعميم ليعلن للقائد انه في استطاعته حتى الوصول الى مقره واخذ اوراقه منه وقد كتب على ذلك البلاغ ما نصه :

« لقد اخطأ القائد في تدوين اشكالي واذا اراد فليضرب موعداً لاتشرف بمقابلته الى دائرته فيحصل على اشكالي الحقيقية ومجرد موافقته على ذلك في مذكرة يكتبها ويضعها في غرفته كاف لان اعرف بالموعد فاتشرف في الوقت المعين »

وفي هذه المذكرة كثير من الهزء بالقائد الذي رأى نفسه غير قادر على فهم كيفية وصول الكتاب المذكور الى الجاسوس

كيف وصل الكتاب

الا ان الحقيقة التي ظهرت هي ان القائد اسماعيل بك كان يحب فتاة تتردد

عليه في غرفته الخاصة ولم تكن هذه الفتاة تتردد على القائد حبا له بل طمعا في المال الذي يعطيها اياه وقد عرف الجاسوس ابراهام بهذه العلاقة وسرعان ما تعرف الى الفتاة واستعملها جاسوسة على القائد تأتيه بما يريد من اسراره وبخطط المراقبة التي يضعها على الساحل وبشارات التعارف و كلمة السر بين الجنود

وفي هذه الحالة كان باستطاعة هذا الجاسوس ان يختار الاماكن التي تساعده على الاتصال بالجواسيس الذين توفدهم اليه القيادة البريطانية دون ان يشعر بهم احد ، كما انه كان قادرا على اعطاء كلمه السر للجنود عندما يمرون من امامه فيظنون انه من ضباطهم فيفعل ما يحلو له

والفتاة التي تمكن هذا الجاسوس الداهية من الاستيلاء عليها تدعي زاهية .. (يعذرنا القراء اذا امسكنا عن ذكر اسمها بكامله ، لانها سيدة ام اولاد وتقيم اليوم في بيروت) . وقد ثابرت على مهمتها هذه الى ان اعتقل الجاسوس واتفق والقائد كما سيتبين ذلك للقراء في حينه الا ان القائد عندما علم بما كان منها قطع علاقاته بها .

وعلى اثر هذا الامر الذي زاد في سخط القائد استدعي اسماعيل بك اثنين من شبان رأس بيروت المعروفين بقوة الشكيمة والجرأة والاخلاص وهما السيدان خضر المغربي ومعروف الداعوق ، وتحدث اليهما في امر هؤلاء الجواسيس وعجز رجاله عن اعتقالهم رغم كثرة عددهم ووعد من يأتيه برئيس الجواسيس باعفائه من الخدمة العسكرية ويمنحه صلاحية العمل ومساعدته في كثير من الامور

فاجابه السيد خضر المغربي :

— كن على ثقه يا حضرة القائد بانني سآتيك بهذا الرجل في اقرب وقت

و كان خضر المغربي على معرفة سابقة بحركات الجواسيس في محلته رأس بيروت ، فقد كان يشاهد في بعض الليالي المظلمة الزوارق تأتي من البحر ، واشباحا تنسل ، ويسمع البحارة واهالي المحلة يتهامسون عن حركات الجواسيس ولذا لم يشأ ان يوسع نطاق عمله في بيروت بل حصره في سواحل محلته

و كأن الجاسوس شعر بحركة السيد خضر فاراد ان يتجنبه فحاد عن

طريقه واصطدم بة مرة في جوار نهر ابو شاهين وكاد يقبض عليه لو لم يركب الزورق ويتمكن من الفرار

وفي المنحدر القائم بين ساحل الروشة وجهات الروشة ، بقعة صخرية منعزلة معروفة بالملاحة وفي استطاعة المرء ان يقف في هذه الجهة دون أن يشعر به احد لانها قائمة على الساحل تعلوها من الجانبين صخور عالية لا يمكن رؤية من يختبيء فيها .

وكان الجواسيس يعتمدون على هذه المنطقة البعيده للاتصال بمن بأتيهم من البحر دون أن يزاحم احد فشعر السيد خضر بهذة الحركة فكان يقضي ليلة هناك وفي بعض الاحيان يرافقه السيد معروف الداعوق

وبعد منتصف ليلة من ليالي تموز ، وكان القمر بدراً ، بينما كان واقفا يرقب البحر شاهد على صفحه الماء رسم خيال ثالث يمتد بين خياله وخيال رفيقه فادرك ان في الجهة العليا من يراقبه مع رفيقه ،خطر له لاول وهلة ان هذا الرقيب لا بد ان يكون اما ضالته او أحد جواسيسة وتوقيفة على كلا الحالين ، خدمة للقائد ولوطنه ، فتناول عصاه وركزها بين صخرين والف عليها عباءته فكونت الخيال المنعكس على صفحات الماء نفسه ثم التفت الى رفيقه ونبهه الى وجود الجاسوس في الاعلى وحثه على ان يلزم مكانه بجانب العصا ليظن الجاسوس انهما باقيان ، ثم انبطح على الارض فحل خيال العصا محل خياله ، وأخذ يزحف الى الجهة التى يريدها ، وما هي الا هنيهة حتى اصبح على مقربة من الخيال العالي الذي كان لا يزال واقفا امامه وفجأة شعر به الجاسوس فاطلق لساقيه الريح

وقد عرج المجهول عندما ركض فتذكر السيد خضر قول القائد له ان الرجل اعرج واتضح له انه رئيس العصبة .

وكان السيد خضر يحسن الركض فأخذ يجري وراء الرجل الى ان ادركه قرب المنارة وامسك به من عنقه

فتظاهر الرجل بالطاعة وسأله عن الغاية من مطاردته فقال ببساطته المعهودة :

— لانك جاسوس ولان القائد يطلبك

— كلا انت جاسوس بل انا جندي خفت توقيفي فجئت اختبيء هنا

كلا انت جاسوس والا لماذا هربت لما لحقت بك ؟

— لانك ظهرت لي بصورة مفاجئة فخفت ان تكون لصاً

وطالت المحاورة بين الرجلين نال خلالها الرجل المجهول عدة لكمات من قبضة السيد خضر الحديدية

ولما وجد نفسه غير قادر على النجاة واتضح له ان الرجل سيسوقه الى القائد تناول من جيبه عشر ليرات ذهبية ودفعها له مقابل اخلاء سبيله ولما ابى ضاعف له المبلغ وظل يضاعفه حتى وعده بكل ما يحمل ويزيد على الخمسين ليرة ذهبية الا ان كل هذه الوعود ذهبت سدى وابى السيد خضر الا ان يسلمه الى القائد وقاده الى مخفر راس بيروت وسلمه الى المفوض وطلب اليه وضعه في سجن انفرادي ريثما يخابر القائد بامره ثم ارسل اشعاراً تلفونياً الى اسماعيل بك ينبئه فيه بما وقع له فتلفن القائد الى المفوض طالباً ارسال الرجل مع السيد خضر وارفاقه بثلاثة من رجال الشرطة لحراسته

وجاء السيد خضر بالجاسوس الى دير مار الياس بطينه فلم يجد القائد هناك الا انه وجد امراً منه بان يترك الرجل بحراسة احد رجاله لانه سيتاخر في العودة الى دائرته وان يعود اليه في اليوم التالي ففعل ولما جاء في اليوم التالي استقبله القائد اسماعيل بك بحفاوة كبيرة وقال له:

— اني مسرور منك جداً لانك برهنت في عملك على ذكاء ومقدرة ولكن يؤسفني ان اقول لك ان من اعتقلته ليس الجاسوس الذي نطلبه بل رجل يشبهه

— ولكن يا مولاي !

— هل تأثرت يا خضر ؟

— لا ، ولكنه كاد يعترف لي بانه هو زعيم الجواسيس وعرض علي مبلغاً كبيراً من المال لقاء اخلاء سبيله فرفضت

— انك على خطأ في تشخيصه يا عزيزي ومع هذا فانا اعتبر انك فزت بتحقيق غرضك وارى ان تعدل عن المراقبة اذ لم تكن لنا فائدة منها وقد وعدتك

اذا اوقفت الجاسوس باعفائك من الخدمة العسكرية ومساعدتك . واليك الان وثيقة اعترافي بذلك

فخرج خضر المغربي وهو شبه ذاهل حائر لا يعرف الغاية الحقيقية من هذا التضليل فقد عهد اليه بطاردة جاسوس مع رفيقه السيد معروف فتمكن من ذلك فما السبب في اخلاء سبيل هذا الجاسوس ولماذا يمنعه القائد من مواصلة البحث عنه ما دام ان من اعتقله ليس زعيمهم ؟

كل هذه الاسئلة مرت في مخيلة السيد خضر المغربي ، وهو منصرف من دير مار الياس بطينه ولكنه سكت على هذه النتيجة قائلا لنفسه :

— ليكن ما يريدون فقد قمت بواجبي وحسبي ذلك

حقيقة الامر

ومما لا نزاع فيه ان من اوقفه السيدان خضر المغربي ومعروف الداعوق هو ابراهام وارتنبرغ (شيطان بيروت) ورئيس عصبة الجواسيس الذي اخلي سبيله بدل ان يحال فوراً الى الديوان الحربي العرفي في عاليه ، ويرجع السبب في ذلك الى ان القائد ما كاد يدخل الى دائرته حتى اجتمع سراً بالرجل الموقوف واستغرقت هذه المقابلة مدة طويلة انتهت باخلاء سبيل الرجل وقد قال القائد لمعاونه وقتئذ ان تحقيقاته اثبتت له براءته من التهمة وانه رجل شريف مخلص للدولة

فما السر في ذلك ..

تدل الوثائق التي لدينا على ان ابراهام غادر مقر القيادة بريئاً من التهمة الا ان تقريراً سريا ورد من الملازم الثاني رضوان بك الى قائد الفيلق الثامن ، يثبت ان الرجل الذي اوقف هو رئيس الجواسيس وان القائد قد اخلي سبيله لقاء مبلغ من المال لم يعرف مقداره ، وان القيادة اهتمت لهذا الاتهام فاوفدت القائد عثمان بك لاجراء التحقيق في الامر فقام به واثبت براءة القائد مقابل مبلغ من المال اخذه من زميله ، وهكذا طمس المال كل الحقائق

اما ابراهام (شيطان بيروت) الجاسوس الاخير ورئيس الجواسيس الصهيونيين

فيها فقد تراءى له بعد هذا الحادث ان من الصعب متابعة عمله في منطقة رأس بيروت فحول جهوده الى صيدا وصور وعكا وظل يشتغل في هذه المنطقة الى ما بعد دخول قوات الحلفاء اليها ٠

اما عملاؤه في بيروت والملحقات فقد ظلوا على اتصال به الى اخر وقت دون ان يتمكن رجال الامن وهيئة مقاومة الجواسيس من معرفة امورهم

وبهذه المناسبة نروي الحادث التالي : ففي سنة ١٩١٧ عندما جاء انور باشا الى بيروت نزل في فندق كسمان — اوتيل رويال اليوم — وضرب حوله نطاق من الحرس الا ان احد هؤلاء الجواسيس تمكن من الوصول الى غرفته فتناول منها ملفاً من الاوراق هو تقرير تلقاه انور باشا من قائد (جيش الصاعقة) في فلسطين يتضمن وصف الحالة في فلسطين من وجهتها العسكرية والادارية

وفيما الجاسوس يحاول الخروج من الغرفة داهمه انور باشا نفسه مما اهاب بالجاسوس الى ان يشهر مدية ويحاول طعن انور باشا بها

الا ان انور باشا كان قوي العضلات فقبض بيديه القويتين على يد الرجل وانتزع منها المدية وبهدوء زائد قرع الجرس فاسرع مرافقه الخاص واشد ما كان اضطرابه عندما رأى الخنجر بيد سيده والرجل واقفاً ذليلا امامه فابتسم انور وقال

— ادع مدير الشرطة وسلمه هذا الرجل وليبق التحقيق معه سراً ٠

ولما جاء مدير البوليس واستلم الشقي لم يتأخر كثيراً في معرفة هوية الرجل فقد تبين انه يدعى ايزاك حاك رابينوفيتش وهو الجاسوس الرابع الذي نجا من الاعدام ولم يتمكن رجال الشرطة وفرقة مقاومة الجواسيس من توقيفه

وقد استدعاه انور باشا بنفسه وحقق معه في هذه القضية الا ان الرجل ظل صامتا ينكر اتصاله باحد قائلا انه هو وحده المسؤول عن الحوادث ، وقد انكر محاولته قتل انور باشا مؤكدا انه جاء ليسرق اوراقاً وردته عن خطط الدفاع في فلسطين فكان ان وجد نفسه مع انور باشا وجها لوجه فاراد تهديده بالمدية وهو يجهل شخصيته جهلا مطبقاً ٠

وقد احيل هذا الجاسوس الى الديوان الحربي العرفي فحكم عليه بالاعدام

الفصل السادس

مثل اليهود خلال الحرب العالمية ادوارا خطيرة طالع القراء في الفصول الماضية ادوار بعضها و كان في فلسطين جاسوس اخر لا يقل خطورة عمن سبق وذكرناهم ، وهو التر صموئيل ليفي الذي كان عام ١٩١٦ في العقد الرابع من عمره ، هاجر قبل اعلان الحرب العثمانية الى فلسطين فاحرز فيها مكانة تجارية كبرى وو كالة عدة شركات اوربية امير كية

وهو متعلم تعليما راقيا يحسن عدة لغات حية كما يحسن العربية والعبرية وقد انتسب التر لدائرة الاستخبارات الايطالية سنة ١٩١١ وظل مقيما في القدس الى الحرب

وفي القدس مستعمرات او احياء متعددة للاجانب ، فمنها الحي المسكوبي المعروف بالكومبانية المسكوبية والالماني فالنمسوي ، فاستوطن التر حي الكومبانية النمسوية واتخذ مكتبا لعمله في شارع باب الخليل وحشد فيه عددا كبيرا من العمال العرب واليهود ٠ وقد قسم هؤلاء العمال الى قسمين ، قسم الموظفين العرب الذين اتخذهم كمستخدمين في محل تجاري كبير معروف ، وقسم اتخذه في الظاهر كما اتخذ هؤلاء العمال و كانوا في الحقيقة جواسيس يوفدهم الى مختلف مناطق فلسطين كعمال متجولين لحمل الناس على التأمين على انفسهم ومحلاتهم في شركات الضمان التي هو وكيلها

و كانوا يؤدون اليه الخدم التي يريدها كالتسلل الى احوال البلاد ومقاومة

نفوذ الدولة العثمانية . وقد قام هؤلاء بعملهم هذا بصورة جدية ، فصرف التر جهوده الى جهات سينا ، فجمع قبل دخول الدولة العثمانية في الحرب العالمية معلومات وافية عن هذه القضية

ولما اعلنت الحرب العالمية كان التر ليفي في مقدمة الاجانب الذين استنكروا دسائس الحلفاء وقاموا يؤيدون الدولة العثمانية حتى انه لما جاء احمد جمال باشا الى القدس للمرة الاولى في اول كانون الثاني سنة ١٩١٥ ليستعد لحملة قناة السويس الاولى كان التر ليفي في مقدمة الذين رحبوا به باسم الجالية الاجنبية الموجودة في البلاد معلناً تبرعه بكميات وفيرة من الادوية التي يحتاج اليها الجيش الزاحف على القناة

وهكذا نال ثقة احمد جمال باشا ثم ما لبث ان اقترح على وزارة البحرية منحه وسام الحرب العثماني كما ارسل اليه كتاب شكر على اخلاصه للوطن

وهذا كل ما يرجو التر ليفي لتأمين خدمة اسياده الانكليز وهو ثقة الترك به والاتصال بهم بصورة مباشرة وصرف النظر عن عملاء مكتبه الذين هم جواسيس الانكليز .

وقد وفق الرجل في مسعاه هذا لان جواسيسه كانوا منتشرين في المنطقة يشرفون على الاستعدادات الحربية لحملة قناة السويس الاولى بحرية تامة

ويقول فون قرمس باشا في مذكراته التي اصدرها في العام الماضي ان الانكليز عندما هاجموا قناة السويس بقواتهم كانوا عالمين بجميع التدابير التي اتخذها الترك ، وان معرفتهم هذه هي التي سببت خذلان هذه المعركة ويؤكد ان التر ليفي حضر حفلة عرض القوات المسافرة الى القناة واشرف على امورها

ولما افتضح امره كان كل شيء قد تم ، ولم يبق في امكانه ان يتخذ بحقه اي تدبير الا ان القائد الالماني يلوم في مذكراته هذه الترك لانهم افسحوا في بادىء الامر مجال الثقه بالرجل حتى تمكن من تحقيق نياته الخبيثة

يلعب على الحبلين

فشلت معركة القناة الاولى في شهر شباط سنة ١٩١٥ وعاد احمد جمال باشا الى القدس ليدرس الوضع الحاضر ويستعد لمعركة القناة الثانية

وفي هذه المرة ايضا تمادى التر ليفي في خديعته للترك ، فعرض خدمته على جمال باشا واستعداده للقيام بالمهمة التي يريدها منه

وكان احمد جمال باشا بحاجة الى اسكات الحملة التي تثيرها صحف مصر عليه فانتدب التر ليفي لهذه الغاية . وكان التر ليفي بصفته امير كيا يستطيع السفر الى مصر دون ان يقع في قبضة الانكليز .. ولهذا استدعاه اليه وارسله الى مصر ليدرس له استعدادات الانكليز ، وليسكت حملة الصحافة عليه وعلى الدولة ، وليشرف على الموقف الحاضر في مصر .

وعرف التر ليفي في رحلته هذه التي استغرقت شهراً واحداً والتي عاد منها سالماً بمهارة فائقة — كما قال الباشا = ، ان يحمل لاحمد جمال باشا معلومات موافقة لرغبته .

فبالاتفاق بينه وبين القيادة الانكليزية تمكن من ايقاف الصحافة في مصر عن الحملة على احمد جمال باشا لمدة من الوقت وحمل الى هذا الاخير المعلومات التي املتها عليه القيادة الانكليزية في مصر وعن استعدادهم وادخل في روع احمد جمال باشا انه تدبر بمصر جواسيس يوافونه بالمعلومات الحقيقية عن استعدادات الانكليز وعن حركاتهم في جزيرة العرب ، وقد تمكن التر ليفي بالمعلومات التي كان يزود بها الباشا من خدعة مدة طويلة

ومن الادوار الخطيرة التي مثلها هذا الرجل مع احمد جمال باشا انه سلم اليه في نيسان سنة ١٩١٥ تقارير واردة اليه من شعبة الاستخبارات الانكليزية في مصر على انها تقارير خاصة واردة اليه لخدعه ، مفادها ان الانكليز قد عزموا على تجهيز حملة قوية على اسكندرونه لاحتلالها والسير من هناك الى حلب لقطع خط المواصلات بين تركيا والمنطقة السوريه ، وقد اورد هؤلاء خلاصة الخطة التي اتبعها الانكليز لتحقيق هذه الغاية وهي :

اولا = ضرب حصار قوي من سفنهم الحربيه والتجارية حول السواحل السوريــة ٠

ثانياً — ارسال بعض السفن الحربية لمراقبة السواحل وضربها بالقنابل لاثارة شعور الرأي العام في هذه المنطقة واضرام ثورة داخلية

ثالثاً — ضرب المناطق التركية في اسكندرون

رابعاً — احتلال اسكندرون والزحف الى الامام ٠

وفي الاسبوع التالي لوصول هذا التقرير الى احمد جمال باشا ضرب الانكليز النطاق البحري حول السواحل السورية وراحوا يضربون بعض المراكز ثم ضربوا القنصلية الالمانية في اسكندرون بعد ان ارسلوا انـذاراً الى حاكم المنطقــة ، يهددونه فيه بضرب القنصلية والمدينة اذا لم ينزل العلم الالمـاني ، وهكــذا حملوا احمد جمال باشا على الاعتقاد بصحة هذه المعلومات التي بعثوا اليه بها

الغاية من هذه الخديعة

وكان مقصد الانكليز من وراء هذا الحادث جلياً ظاهراً ، فقد ارادوا حمل احمــد جمال باشا على تحويل عــدد كبير من قواته من جبهة فلسطين الى حدود شمالي سوريا وتأخير تجهيز حملة فلسطين على قناة السويس ، وقد نجحوا في هــذا التدبير نجاحاً باهراً اذ ساعدهم :

اولا — على تحويل قوات وفيرة من الجنود العثمانية من فلسطين الى شمالي سوريــا ٠

ثانياً — تحويل وجهة نظر القيادة من فلسطين الى سوريا

ثالثاً — تأخير حملة قناة السويس الثانية ٠

رابعاً = اكتساب الوقت للقيام بالاستعدادات العسكريــة لاجتياز ضفــة القناة الى منطقة فلسطين بدلا من ان يجتاز الترك قناة السويس الى حدود مصر ٠

وهكذا تمكن هــذا الجاسوس الخطر بجهوده هــذه ان يخــدع القائد العام للقوات العثمانية وان يؤمن للانكليز اكبر فوز كان حجر الزاويــة

الاساسي في هدم السلطنة العثمانية ونفوذها في فلسطين وبلاد العرب .

ومع هذا بقي احمد جمال باشا يثق به ويعتمد عليه للاتصال بمصر وموافاته بكل ما يريده من معلومات عن حركات الجواسيس الانكليز واستعداداتهم الحربية .

ويستدل من وثائق قيادة الجيش الرابع ان هذا الجاسوس نال لقاء عمله هذا الذي هدم به سيادة العثمانيين العسكرية مبلغ ٢٥٠٠ ليرة عثمانية ذهباً من العثمانيين انفسهم …

شبكة ليفي

وكانت شبكة النبر ليفي اقوى شبكات الجاسوسية الانكليزية الصهيونية في فلسطين لان النفوذ الذي كان يتمتع به رئيسها لدى احمد جمال باشا جعل لهذا الرجل ولاعوانه مناعة قوية تجاه كل من يشتبه بهم من جهة ، ولان الرجل كان يستطيع ان يبث جواسيسه في البلاد بصفتهم عملاء للمؤسسات التي يملكها دون ان يشعر بهم احد من جهة ثانية كما كان له عملاء في جميع انحاء منطقة الجيش الرابع يوافونه بجميع الاخبار التي يريدها ، وقد اثبتت المعلومات التي ظهرت فيما بعد ، ان هؤلاء العملاء في القدس وحيفا ويافا وبئر السبع وفلسطين وبيروت وصيدا ودمشق وحلب وطرابلس وزحله وحمص واللاذقية والاسكندرون الا ان المؤسف هو ان القيادة لم تتمكن من معرفة هؤلاء العملاء بوجه من الوجوه ، لان الذين اعتقلوا بعد اكتشاف امره اثبتوا انهم لا يعرفون عن رفاقهم شيئاً .

الوثائق المشؤومة

عندما اعلن احمد جمال باشا قراره بتوقيف احد موظفي القنصلية الفرنسية في بيروت لابعاده الى الاناضول ظن ذلك الموظف ان الترك يريدون اعدامه . فاخذ يسترحم العفو عن حياته مقابل ارشادهم الى الوثائق السرية التي خبأها القنصل العام في صدد علاقات نفر من السوريين والعرب بفرنسا

ولما كان الترك قد قلبوا هذه القنصلية رأساً على عقب ولم يجدوا فيها شيئاً اهتم احمد جمال باشا لافادة الرجل واراد ان يتولى هذه التحريات بحضور ممثلين من قبـل الاجانب ٠

فارسل دعوة الى قناصل الولايات المتحدة الاميركيه وسويسرا وهولاندا واسبانيا وقائد الدارعة الاميركية التي كانت يومئذ راسية في ميـاه بيروت للحضور الى دار القنصليـة الفرنسيه ليكونوا بجانب الهيئـة التركية المؤلفة برئاسة رضـا باشا قائد الفرقة ٤٣ في عاليه عنـد اخراج هذه الوثائق ، وفي الوقـت نفسه استدعى احمد جمال باشا مستر النر ليفي بصفته اميركيا ليكون ضمن الشهود

وكان النر شديد الرغبـة في معرفة هوية الرجل ، الذي انبأ بوجود هـذه الوثائق ، والذي كان هذا مرتديا ثياب الجنود الترك وواضعا على وجهه نظارة سوداء وقد كبر شعر ذقنه بحيث صعبت معرفته حتى على المقربين منه ، ولكن لم يكن هناك من يهتم لمعرفه حقيقته الا النر ليفي ، وتقدم الرجـل من الحائـط واشار على احد الجنود بان يزيح جداراً خفياً ظهرت وراءه كوة وجدت فيهـا وثائق القنصليه الفرنسيـة ، تلك الوثائق التي لو لم تظهر لما اعـدم ذلك العـدد الكبير من رجالـ سوريا في السادس من شهر ايار سنة ١٩١٦

وقد اراد النر ليفي ان يحصل على نصوص هذه الوثائق ، وكثيراً ما حـاول ذلك ففشل ولكنه مع هذا تمكن من معروفة مضمونها ارسال معلوماته الى مصر حيث سعى الانكليز يومئذ بواسطة الحكومـة الاميركية سعياً جديا لانقـاذ المتهمين من الاعدام الا انهم لم ينجحوا

وثمة مسائل كثيرة تدل على مقدار ثقة احمد جمال باشا بهذا الجاسوس الذي كان يستثمر هذه الثقة ليسترق اسراره ويوافي بها رؤساءه

ولكان هذا الجاسوس تمادي كثيراً لو لم يقـع حادث فجائي كان سبباً في افتضاح امره ٠

اذا اوقفت الجاسوس باعفائك من الخدمة العسكرية ومساعدتك . واليك الان وثيقة اعترافي بذلك

فخرج خضر المغربي وهو شبه ذاهل حائر لا يعرف الغاية الحقيقية من هذا التضليل فقد عهد اليه بمطاردة جاسوس مع رفيقه السيد معروف فتمكن من ذلك فما السبب في اخلاء سبيل هذا الجاسوس ولماذا يمنعه القائد من مواصلة البحث عنه ما دام ان من اعتقله ليس زعيمهم ؟

كل هذه الاسئلة مرت في مخيلة السيد خضر المغربي ، وهو منصرف من دير مار الياس بطينه ولكنه سكت على هذه النتيجة قائلا لنفسه :

— ليكن ما يريدون فقد قمت بواجبي وحسبي ذلك

حقيقة الامر

ومما لا نزاع فيه ان من اوقفه السيدان خضر المغربي ومعروف الداموق هو ابراهام وارتنبرغ (شيطان بيروت) ورئيس عصبة الجواسيس الذي اخلي سبيله بدل ان يحال فوراً الى الديوان الحربي العرفي في عاليه ، ويرجع السبب في ذلك الى ان القائد ما كاد يدخل الى دائرته حتى اجتمع سراً بالرجل الموقوف واستغرقت هذه المقابلة مدة طويلة انتهت باخلاء سبيل الرجل وقد قال القائد لمعاونه يومئذ ان تحقيقاته اثبتت له براءته من التهمة وانه رجل شريف مخلص للدولة

فما السر في ذلك ..

تدل الوثائق التي لدينا على ان ابراهام غادر مقر القيادة بريئاً من التهمة الا ان تقريراً سريا ورد من الملازم الثاني رضوان بك الى قائد الفيلق الثامن ، يثبت ان الرجل الذي اوقف هو رئيس الجواسيس وان القائد قد اخلى سبيله لقاء مبلغ من المال لم يعرف مقداره ، وان القيادة اهتمت لهذا الاتهام فاوفدت القائد عثمان بك لاجراء التحقيق في الامر فقام به واثبت براءة القائد مقابل مبلغ من المال اخذه من زميله ، وهكذا طمس المال كل الحقائق

اما ابراهام (شيطان بيروت) الجاسوس الاخير ورئيس الجواسيس الصهيونيين

فيها فقد تراءى له بعد هذا الحادث ان من الصعب متابعة عمله في منطقة رأس بيروت فحول جهوده الى صيدا وصور وعكا وظل يشتغل في هذه المنطقة الى ما بعد دخول قوات الحلفاء اليها .

اما عملاؤه في بيروت والملحقات فقد ظلوا على اتصال به الى اخر وقت دون ان يتمكن رجال الامن وهيئة مقاومة الجواسيس من معرفة امورهم

وبهذه المناسبة نروي الحادث التالي : ففي سنة ١٩١٧ عندما جاء انور باشا الى بيروت نزل في فندق كسمان — اوتيل رويال اليوم — وضرب حوله نطاق من الحرس الا ان احد هؤلاء الجواسيس تمكن من الوصول الى غرفته فتناول منها ملفاً من الاوراق هو تقرير تلقاه انور باشا من قائد (جيش الصاعقة) في فلسطين يتضمن وصف الحالة في فلسطين من وجهتها العسكرية والادارية

وفيما الجاسوس يحاول الخروج من الغرفة داهمه انور باشا نفسه مما اهاب بالجاسوس الى ان يشهر مدية ويحاول طعن انور باشا بها

الا ان انور باشا كان قوي العضلات فقبض بيديه القويتين على يد الرجل وانتزع منها المديه وبهدوء زائد قرع الجرس فاسرع مرافقه الخاص واشد ما كان اضطرابه عندما رأى الخنجر بيد سيده والرجل واقفاً ذليلا امامه فابتسم انور وقال

— ادع مدير الشرطة وسلمه هذا الرجل وليبق التحقيق معه سراً .

ولما جاء مدير البوليس واستلم الشقي لم يتأخر كثيراً في معرفة هوية الرجل فقد تبين انه يدعى ايزاك جاك رابينوفيتش وهو الجاسوس الرابع الذي نجا من الاعدام ولم يتمكن رجال الشرطة وفرقة مقاومة الجواسيس من توقيفه

وقد استدعاه انور باشا بنفسه وحقق معه في هذه القضية الا ان الرجل ظل صامتا ينكر اتصاله باحد قائلا انه هو وحده المسؤول عن الحوادث ، وقد انكر محاولته قتل انور باشا مؤكدا انه جاء ليسرق اوراقاً وردته عن خطط الدفاع في فلسطين فكان ان وجد نفسه مع انور باشا وجها لوجه فأراد تهديده بالمدية وهو يجهل شخصيته جهلا مطبقاً .

وقد احيل هذا الجاسوس الى الديوان الحربي العرفي فحكم عليه بالاعدام

الفصل السادس

مثل اليهود خلال الحرب العالمية ادوارا خطيرة طالع القراء في الفصول الماضية ادوار بعضها و كان في فلسطين جاسوس اخر لا يقل خطورة عمن سبق وذكرناهم ، وهو التر صموئيل ليفي الذي كان عام ١٩١٦ في العقد الرابع من عمره ، هاجر قبل اعلان الحرب العثمانية الى فلسطين فاحرز فيها مكانة تجارية كبرى ووكالة عدة شركات اوربية اميركية

وهو متعلم تعليما راقيا يحسن عدة لغات حية كما يحسن العربية والعبرية

وقد انتسب التر لدائرة الاستخبارات الايطالية سنة ١٩١١ وظل مقيما في القدس الى الحرب

وفي القدس مستعمرات او احياء متعددة للاجانب ، فمنها الحي المسكوبي المعروف بالكومبانية المسكوبية والالماني فالنمسوي ، فاستوطن التر حي الكومبانية النمسوية واتخذ مكتبا لعمله في شارع باب الخليل وحشد فيه عددا كبيرا من العمال العرب واليهود . وقد قسم هؤلاء العمال الى قسمين ، قسم الموظفين العرب الذين اتخذهم كمستخدمين في محل تجاري كبير معروف ، وقسم اتخذه في الظاهر كما اتخذ هؤلاء العمال ، كانوا في الحقيقة جواسيس يوفدهم الى مختلف مناطق فلسطين كعمال متجولين لحمل الناس على التأمين على انفسهم ومحلاتهم في شركات الضمان التي هو وكيلها

وكانوا يؤدون اليه الخدم التي يريدها كالتسلل الى احوال البلاد ومقاومة

نفوذ الدولة العثمانية . وقد قام هؤلاء بعملهم هذا بصورة جدية ، فصرف التر جهوده الى جهات سينا ، فجمع قبل دخول الدولة العثمانية في الحرب العالمية معلومات وافية عن هذه القضيه

ولما اعلنت الحرب العالمية كان التر ايفي فيمقدمة الاجانب الذين استنكروا دسائس الحلفاء وقاموا بؤيدون الدولة العثمانية حتى انه لما جاء احمد جمال باشا الى القدس للمرة الاولى في اول كانون الثاني سنة ١٩١٥ ليستعد لحملة قناة السويس الاولى كان التر ايفي في مقدمة الذين رحبوا به باسم الجالية الاجنبية الموجودةفي البلاد معلناً تبرعه بكميات وفيرة من الادوية التي يحتاج اليها الجيش الزاحف على القناة

وهكذا نال ثقة حمدجمال باشا ثم ما لبث ان اقترح علىوزارة البحرية منحه وسام الحرب العثماني كما ارسل اليه كتاب شكر على اخلاصه للوطن

وهذا كل ما يرجو التر ايفي لتأمين خدمة اسياده الانكليز وهو ثقة الترك به والاتصال بهم بصورة مباشرة وصرف النظر عن عملاء مكتبه الذين هم جواسيس الانكليز .

وقد وفق الرجل في مسعاه هذا لان جواسيسه كانوا منتشرين في المنطقة يشرفون على الاستعدادات الحربية لحملة قناة السويس الاولى بحرية تامة

ويقول فون قرمس باشا في مذكرته التي اصدرها في العام الماضي ان الانكليز عندما هاجموا قناة السويس بقواتهم كانوا عالمين بجميع التدابير التى اتخذها الترك ، وان معرفتهم هذه هي التي سببت خذلان هذه المعركة ويؤكد ان التر ليفي حضر حفلة عرض القوات المسافرة الي القناة واشرف على امورها

ولما افتضح امره كان كل شيء قد تم ، ولم يبق في امكانه ان يتخذ بحقه اي تدبير الا ان القائد الالماني يلوم في مذكراته هذه الترك لانهم افسحوا في بادىء الامر مجال الثقه بالرجل حتى تمكن من تحقيق نياته الخبيثة

يلعب على الحبلين

فشلت معركة القناة الاولى في شهر شباط سنة ١٩١٥ وعاد احمد جمال باشا الى القدس ليدرس الوضع الحاضر ويستعد لمعركة القناة الثانية

وفي هذه المرة ايضا تمادى التر ليفي في خديعته للترك ، فعرض خدمته على جمال باشا واستعداده للقيام بالمهمة التي يريدها منه

وكان احمد جمال باشا بحاجة الى اسكات الحملة التي تثيرها صحف مصر عليه فانتدب التر ليفي لهذه الغاية . وكان التر ليفي بصفته امير كيا يستطيع السفر الى مصر دون ان يقع في قبضة الانكليز .. ولهذا استدعاه اليه وارسله الى مصر ليدرس له استعدادات الانكليز ، وليسكت حملة الصحافة عليه وعلى الدولة ، وليشرف على الموقف الحاضر في مصر .

وعرف التر ليفي في رحلته هذه التي استغرقت شهراً واحداً والتي عاد منها سالماً بمهارة فائقة — كما قال الباشا = ، ان يحمل لاحمد جمال باشا معلومات موافقة لرغبته .

فبالاتفاق بينه وبين القيادة الانكليزية تمكن من ايقاف الصحافة في مصر عن الحملة على احمد جمال باشا لمدة من الوقت وحمل الى هذا الاخير المعلومات التي املتها عليه القيادة الانكليزية في مصر وعن استعدادهم وادخل في روع احمد جمال باشا انه تدبر بمصر جواسيس يوافونه بالمعلومات الحقيقية عن استعدادات الانكليز وعن حركاتهم في جزيرة العرب ، وقد تمكن التر ليفي بالمعلومات التي كان يزود بها الباشا من خدعة مدة طويلة

ومن الادوار الخطيره التي مثلها هذا الرجل مع احمد جمال باشا انه سلم اليه في نيسان سنة ١٩١٥ تقارير واردة اليه من شعبة الاستخبارات الانكليزية في مصر على انها تقارير خاصة واردة اليه لخدعه ، مفادها ان الانكليز قد عزموا على تجهيز حملة قوية على اسكندرونه لاحتلالها والسير من هناك الى حلب لقطع خط المواصلات بين تركيا والمنطقة السوريه ، وقد اورد هؤلاء خلاصة الخطة التي اتبعها الانكليز لتحقيق هذه الغاية وهي :

اولا = ضرب حصار قوي من سفنهم الحربيه والتجارية حول السواحل السوريـة ٠

ثانياً — ارسال بعض السفن الحربية لمراقبة السواحل وضربها بالقنابل لاثارة شعور الرأي العام في هذه المنطقة واضرام ثورة داخلية

ثالثاً — ضرب المناطق التركية في اسكندرون

رابعاً — احتلال اسكندرون والزحف الى الامام ٠

وفي الاسبوع التالي لوصول هذا التقرير الى احمد جمال باشا ضرب الانكليز النطاق البحري حول السواحل السورية وراحوا يضربون بعض المراكز ثم ضربوا القنصلية الالمانية في اسكندرون بعد ان ارسلوا انذاراً الى حاكم المنطقـة ، يهددونه فيه بضرب القنصلية والمدينة اذا لم ينزل العلم الالمـاني ، وهكـذا حملوا احمد جمال باشا على الاعتقاد بصحة هذه المعلومات التي بعثوا اليه بها

الغاية من هذه الخديعة

وكان مقصد الانكليز من وراء هذا الحادث جلياً ظاهراً ، فقد ارادوا حمل احمـد جمال باشا على تحويل عـدد كبير من قواته من جبهة فلسطين الى حدود شمالي سوريا وتأخير تجهيز حملة فلسطين على قناة السويس ، وقد نجحوا في هـذا التدبير نجاحاً باهراً اذ ساعدهم :

اولا — على تحويل قوات وفيرة من الجنود العثمانية من فلسطين الى شمالي سوريـا ٠

ثانياً — تحويل وجهة نظر القيادة من فلسطين الى سوريا

ثالثاً — تأخير حملة قناة السويس الثانية ٠

رابعاً = اكتساب الوقت للقيام بالاستعدادات العسكريـة لاجتياز ضفـة القناة الى منطقة فلسطين بدلا من ان يجتاز الترك قناة السويس الى حدود مصر ٠

وهكذا تمكن هـذا الجاسوس الخطر بجهوده هـذه ان يخدع القائد العام للقوات العثمانية وان يؤمن للانكليز اكبر فوز كان حجر الزاويـة

الاساسي في هدم السلطنة العثمانية ونفوذها في فلسطين وبلاد العرب

ومع هذا بقي احمد جمال باشا يثق به ويعتمد عليه للاتصال بمصر وموافاته بكل ما يريده من معلومات عن حركات الجواسيس الانكليز واستعداداتهم الحربية .

ويستدل من وثائق قيادة الجيش الرابع ان هذا الجاسوس نال لقاء عمله هذا الذي هدم به سيادة العثمانيين العسكرية مبلغ ٢٥٠٠ ليرة عثمانية ذهباً من العثمانيين انفسهم ...

شبكة ليفي

وكانت شبكة الثر ليفي اقوى شبكات الجاسوسية الانكليزية الصهيونية في فلسطين لان النفوذ الذي كان يتمتع به رئيسها لدى احمد جمال باشا جعل لهذا الرجل ولاعوانه مناعة قوية تجاه كل من يشتبه بهم من جهة ، ولان الرجل كان يستطيع ان يبث جواسيسه في البلاد بصفتهم عملاء للمؤسسات التي يملكها دون ان يشعر بهم احد من جهة ثانية كما كان له عملاء في جميع انحاء منطقة الجيش الرابع يوافونه بجميع الاخبار التي يريدها ، وقد اثبتت المعلومات التي ظهرت فيما بعد ، ان هؤلاء العملاء في القدس وحيفا ويافا وبئر السبع وفلسطين وبيروت وصيدا ودمشق وحلب وطرابلس وزحله وحمص واللاذقية والاسكندرون الا ان المؤسف هو ان القيادة لم تتمكن من معرفة هؤلاء العملاء بوجه من الوجوه ، لان الذين اعتقلوا بعد اكتشاف امره اثبتوا انهم لا يعرفون عن رفاقهم شيئاً .

الوثائق المشؤومة

عندما اعلن احمد جمال باشا قراره بتوقيف احد موظفي القنصلية الفرنسية في بيروت لابعاده الى الاناضول ظن ذلك الموظف ان الترك يريدون اعدامه . فاخذ يسترحم العفو عن حياته مقابل ارشادهم الى الوثائق السرية التي خبأها القنصل العام في صدد علاقات نفر من السوريين والعرب بفرنسا

ولما كان الترك قد قلبوا هذه القنصلية رأساً على عقب ولم يجدوا فيها شيئاً اهتم احمد جمال باشا لافادة الرجل واراد ان يتولى هذه التحريات بحضور ممثلين من قبل الاجانب ·

فارسل دعوة الى قناصل الولايات المتحدة الاميركيه وسويسرا وهولاندا واسبانيا وقائد الدارعة الاميركية التي كانت يومئذ راسية في مياه بيروت للحضور الى دار القنصلية الفرنسيه ليكونوا بجانب الهيئة التركية المؤلفة برئاسة رضا باشا قائد الفرقة ٤٣ في عاليه عند اخراج هذه الوثائق ، وفي الوقت نفسه استدعى احمد جمال باشا مستر التر ليفي بصفته اميركيا ليكون ضمن الشهود

وكان التر شديد الرغبة في معرفة هوية الرجل ، الذي انبأ بوجود هذه الوثائق ، والذي كان هذا مرتديا ثياب الجنود الترك وواضعا على وجهه نظارة سوداء وقد كبر شعر ذقنه بحيث صعبت معرفته حتى على المقربين منه ، ولكن لم يكن هناك من يهتم لمعرفه حقيقته الا التر ليفي ، وتقدم الرجل من الحائط واشار على احد الجنود بان يزيح جداراً خفياً ظهرت وراءه كوة وجدت فيها وثائق القنصليه الفرنسية ، تلك الوثائق التي لو لم تظهر لما اعدم ذلك العدد الكبير من رجال سوريا في السادس من شهر ايار سنة ١٩١٦

وقد اراد التر ليفي ان يحصل على نصوص هذه الوثائق ، وكثيراً ما حاول ذلك ففشل ولكنه مع هذا تمكن من معروفة مضمونها ارسال معلوماته الى مصر حيث سعى الانكليز يومئذ بواسطة الحكومة الاميركية سعياً جديا لانقاذ المتهمين من الاعدام الا انهم لم ينجحوا

وثمة مسائل كثيرة تدل على مقدار ثقة احمد جمال باشا بهذا الجاسوس الذي كان يستثمر هذه الثقة ليسترق اسراره ويوافي بها رؤساءه

ولكان هذا الجاسوس تمادي كثيراً لو لم يقع حادث فجائي كان سبباً في افتضاح امره ·

كيف افتضح امر الجاسوس

قام احمد جمال باشا بحفلة عرض للقوات في جهات حرج بيروت ، و كان عرضاً عسكريا كبيراً يقصد به الحلفاء لمقاومتهم اذا ماحاولوا احتلال السواحل اللبنانية السورية ، ولما كان الحلفاء يهمهم معرفة هذه الاستعدادات العسكرية عمد النرليفي الى التقاط رسوم الوحدات العسكرية بصورة سرية وذلك بواسطة آلة تصوير صغيرة وضع زجاجتها في عروة سترته و كثيرا ما تمكن بواسطتها من أخذ رسوم الاسرار العسكرية العثمانية في كثير من الظروف

وقد لفتت هذه الآلة الفوطوغرافية نظر الملازم صبحي نوري بك (هو اليوم من نواب المجلس الوطني الكبير) فاقترب من الرجل ولما تبين الآلة الفوطوغرافية في عروته وقف وراء فؤاد باشا ، رئيس اركان حرب الجيش الرابع ، وأسر اليه الامر فافهمه فؤاد باشا ان الرجل من اصدقاء احمد جمال باشا فلا يحرك ساكناً بل من الواجب مراقبته لمعرفة الغاية من أخذه الرسوم على هذه الصورة الغريبة ولا يترك الرجل يذهب قبل معرفه امراره

وقد اثبت التحقيق الذي قام به صبحي نور بك ، ان النرليفي التقط رسوما لعرض القوات العثمانية في محلة حرج بيروت ، كما تمكن رجاله من انتزاع بعض هذه الرسوم وعرضها على علي فوءاد باشا

الا ان احمد جمال باشا لم يشك في حسن نية الرجل بل اصر على القول ان الرجل ادى اليه والى القيادة خدما جلى ، وان رجلا كهذا لا يمكن ان يكون جاسوساً للاعداء عليه -

ولهذا عارض في مطاردة الرجل ووضعه تحت المراقبة مهما كان نوعها

يقظة علي فوءاد باشا

ولكن علي فوءاد باشا لم يتنزل على اوامر رئيسه فقد رأي نفسه بصفته رئيس اركان حرب القيادة مضطرا لان يتولي مكافحة الجواسيس وحماية قوائه ، ولهذا

قرر وضعه تحت المراقبة الشديدة ليعرف حركاته دون ان يطلع القائد الاعلى على ذلك .

وقد اثبتت هذه التحقيقات السرية التي قام بها صحة ظنونه ، اذ ورد بعد ذلك بايام تقرير يفيد ان النر ليفي اجتمع في فندق دونشرهوف في محلة الزيتونة بالمستر ادمسون احد ضباط الدارعة الاميركية الراسية في مياه بيروت ، وان هذا الضابط استلم منه بعض الوثائق في رزمة كبيرة وانصرف الى الدارعة

ولما فاتح علي فؤاد باشا احمد جمال باشا بالامر الجديد اجابه هذا الاخير :

— انا الذي انتدب الرجل بمهمة فانت تعرف ان الحلفاء ضربوا حصاراً حول سواحلنا ومنعوا مراكبنا الشراعية من نقل المحصول ، وهذا الحصار البحري الذي ضربوه علينا جعلنا في حالة احتياج شديدة وبات يهدد البلاد بمجاعة اعظم هولا مما هي عليه في الوقت الحاضر .

ولما كان هذا الامر خطرا على مستقبل الجيش لهذا انتدبت النر ليفي لان يتوسط لدى قائد الدارعة لمخابرة الحلفاء في هذا الامر وان يقوم بمساومتهم في امر الاقليات حتى اذا تابعوا خطتهم هذه عمدت الى تنفيذ خطة ابعاد الغير المسلمين من المناطق الساحلية والتشديد عليهم

ورجالك اخطأوا في هذا التدبير لانهم كانوا يراقبون رجلا عمدت انا لايفاده بمهمة رسمية كان من الواجب ان لا يطلع احد عليها من الناس

وتجاه هذه الحوادث ادرك علي فؤاد باشا انه من العبث اقناع احمد جمال باشا بسوء نيات النر ليفي ولهذا اعتمد ان يتبع خطة مراقبة الرجل من تلقاء نفسه

جاسوسية النرليفي

ويستدل من الوثائق التي عثر عليها بعد الحرب في مختلف دوائر حكومة (الباب العالي) في العاصمة العثمانية ومن مختلف التقارير الواردة من الشعبة الاولى ان النر ليفي مثل عدة ادوار سياسيه خطيرة . ومع هذا فقد ظل احمد جمال باشا على ثقته بالرجل الجاسوس الى اخر ايام حكمه لمنطقة الجيش

الرابع ، وقد كان في الامكان ان لا يشعر به احد من السكان لو لم يتخل الباشا عن القيادة في فلسطين

وقد اثبتت الوثائق المذكورة ان الجاسوس هو الذي نبه احمد جمال باشا الى المؤامرات التي يدبرها العرب في منطقته لاضرام ثورة في جهات صيدا استناداً لتقارير سرية وردته من صيدا نفسها كما أنه هو الذي حرضه على الدكتور عبد الرحمن شهبندر وعبد الكريم الخليل اللذين كانا في المنطقة لان الانكليز لم تكن هذه الخطة موافقة لامانيهم ولانهم كانوا في ذلك الوقت في دور المخابرات مع الشريف حسين امير مكة لاضرام ثورة عربية كبرى على الترك

فقيام هذه الثورة الموضعية والحالة هذه يضر بهم كثيراً لاسيما ان الفرنسيين تولوا ادارتها دون ان يستشيروا الانكليز ولهذا عارضوا في الامر واوعزوا الى الترليفي ان يفضح امرها لاحمد جمال باشا .

ثم جاءت المعلومات الواردة من نائب جبل عامل كامل بك الاسعد الى احمد جمال باشا وهي تؤيد صحة هذه الانباء وكان كذلك من الاسباب الرئيسية التي جعلت احمد جمال باشا يثق بالجاسوس المتلاعب

و ثبتت الوثائق ايضاً ان الرجل مثل ادواراً خطيرة في تحويل قسم كبير من القوات التركية الى العراق على الصورة التي سردناها آنفاً

وفي تحويل قسم اخر من هذه القوات التي في فلسطين الى شمالي حلب باظهاره ان الحلفاء يريدون احتلال اسكندرون لقطع خط المواصلات بين شمالي سوريا والاناضول .

وقد اثبتت معلوماتة هذه الثورة التي اضرم الارمن نيرانها في ولاية اورفه وغيرها من ولايات جنوبي الاناضول ، والتي بدأت في ٢٠ شباط سنة ١٩١٥ اي بعد عشرين يوما من المعلومات التي بعث بها اليه التر

وقد اراد الترليفي ان يصرف الباشا الى الشؤون الداخلية فاعلمه بحادث صيدا .

وهكذا كان المجال فسيحاً للانكليز لان ينصرفوا الى تحقيق غايتهم

الرئيسية المختلفة ٠

ومع هذا فقد ظل علي فؤاد باشا يطارد الجاسوس الى ان تمكن من اعتقاله وفيما هو يهم بمحاكمته تمهيداً لاعدامه تمكن احمد جمال باشا من انقاذه وتهريبه

حادث فظيع

في اليوم العاشر من شهر كانون الاول سنة ١٩١٦ اشتدت هجمات العدو على الجبهة العثمانية في فلسطين وفي الوقت نفسه بدأت العصابات العربية الثائرة بمهاجمة خطوط سكة حديد الحجاز على حدود منطقة شرقي الاردن

وفي هذا الوقت عقدت القيادة اجتماعا في القدس درست فيه الموقف الحربي وقررت ما يلي :

اولا — ان يقوم قائد الفيلق السادس القائد فوزي بك (اليوم المشير فوزي باشا وزير الدفاع في الجمهورية التركية) بهجوم على منطقة العدو غربي غزه ، لان القوات الانكليزية ضعيفة في هذه المنطقة

ثانياً — تتقدم في الوقت نفسه من بئر السبع قوات الفرقة ٤٥ التي بقيادة الميرالاي عصمت بك (عصمت باشا رئيس الوزارة التركية اليوم) الى تلك الجهات للقيام بحركة التفاف حول القوات الانكليزية التي قد تتراجع امام القوات العثمانية الزاحفة ٠

ثالثاً — تعاون قوات الجبهة الخلفية الاحتياطية هذه القوات في تشكيل جبهة الوسط ٠

وقد اتخذت هذه التدابير بصورة سرية وسعت القيادة العليا لتنفيذها في اقرب وقت ممكن ٠ الا ان الانكليز ما لبثوا ان اطلعوا فوراً على تدابير القيادة فاوفدوا قوات عظيمة من جنودهم الى المراكز التي يريد الترك مباغتتهم فيها كما أوفدوا ايضاً اسراباً من الطائرات هاجمت قوات الترك الاحتياطية التي يراد بها تأليف قوات القلب وبذلك فشلت تدابير القيادة العثمانية فشلا تاما

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل اضطرت القيادة في الوقت نفسه للتراجع عن

الخطوط التي كانت في حوزتها ، بعد ان خسرت في هذه المعركة ١٢٥٠ جنديا وضابطا بين قتلى وجرحى

الجاسوسية سبب الفاجعة

والمؤكد ان الجاسوسية كانت سبباً لهذه الفاجعة لان قيام الانكليز باتخاذ هذه التدابير كان دليلا على انهم عرفوا باسرار القيادة العثمانية وعمدوا الى شلها

فكيف عرف هؤلاء هذا السر الذي ظل منحصراً بين القائد علي فؤاد باشا ورئيس اركان حربه ؟.. هذا السؤال شغل افكار علي فؤاد باشا كثيراً لاسيما ان تسرب امثال هذه الاوامر الحربية الى العدو تكاثر في المدة الاخيرة وتعددت ضحاياه وبات من الواجب وضع حد لمثل هذه الامور ومعرفة الخائن في الاركان الحربية العثمانية

ولهذا استدعى القائد رئيس الشعبة الاولى ففاوضه في الامر وطلب اليه وضع رقابة شديدة على ضباط اركان الحرب ومأموري الشيفرة لمعرفة كيفية اتصال هؤلاء بالعدو على ان يسرع بقدر امكانه لحل هذه الالغاز

اليهودية الحسناء

والمرأة التي مثلت في الحرب العالمية ادواراً خطيرة لم يكن دورها في فلسطين دون سائر البلدان

فاستير حاييم امرأة يهودية اتخذت من منزلها دارا لملتقى العشاق في الحي المسكوبي في القدس وكان يتردد عليها كبار الضباط الالمان والنمسويين وبعض الضباط الترك الذين يعرفون لغة هؤلاء المثقفين ، ومن هؤلاء الضباط الذين كانوا يترددون على هذه الدار البنباشي عارف حكمت بك من ضباط اركان الحربية واليوزباشي عادل بك واليوزباشي جواد ادهم بك

ولما كان هؤلاء يترددون دوما على هذه الدار التي تديرها اليهودية حصر رئيس الشعبة الاولى جهوده عندما عهد اليه القائد بمراقبتهم بهم فعرف ان الاولين

يترددان عليها للمقامرة بمبالغ قليلة من المال قصد التسلية وتضييع الوقت في حين كان الاخير جواد ادهم بك يرتادها للاجتماع بيهودية حسناء تدعى ليديا مردوخ صيمونفتش .

ورأت القيادة ان تحتال لمعرفة ما اذا كانت الاخبار تنساب عن اجتماعاتها بواسطة هذا القائد فعقدت اجتماعا قررت فيه بعض التدابير العسكرية ثم استرجعتها بعد انصراف ضباط اركان الحربية وفعلا اتصل هذا بالعدو الذي كانت هذه الخدعة سببا في تكبيده خسائر فادحة

وعندئذ اتضحت للقيادة خيانة هذا الضابط الذي اعتقل بعد يومين في دار استير يتشاجر مع ليديا وهي تبلغه استياء القيادة منه

الا ان هذا القائد الذي اوقف بالجرم المشهود لم ينتظر محاكمته بل تناول فورا مسدسه وافرغ منه رصاصة على صدغه كانت كافية للقضاء على حياته

اما ليديا فقد اصرت على الانكار في بادىء الامر الا انها عادت فاعترفت بانها لا تعرف من الامر شيئا بل هي آلة بيد الترليفي الذي دفعها للاتصال بالقائد لقاء جمالها ومبلغ كبير كانت تحمله اليه ، وانكرت معرفتها مكان الجاسوس المذكور .

وهنا استدعاها علي فؤاد باشا الى غرفته واستجوبها فلم تنكر انها صهيونية ، ولكنها قالت ان خدمة قومها اليهود توجب عليها أن تنسى وطنها النمسوي ولهذا خدمت الترليفي لا كجاسوسية انكليزية بل تحقيقا لخدمة الوطن القومي اليهودي .

ولم تزد الانسة الحسناء على ما تقدم شيئا ، كما انها رفضت ان تجيب على السؤال الذي وجه اليها عن مكان اختفاء الترليفي رغم جميع التهديدات. فادرك القائد عندئذ أن من العبث التحقيق مع هذه الفتاة بالحسنى ، ولهذا احالها الى مقر القيادة في دمشق ومنه احيلت الى الديوان الحربي العرفي

عارف بك ابراهيم

وتوالي هذه الحوادث ، اظهر عجز الدوائر العسكرية في هذه القضايا

المتعددة واصبح هذا الجاسوس خطرا شديدا على سلامة الجيش ولهذا قرر الباشا الاستنجاد بالسلطة الادارية فاستدعى اليه متصرف القدس وحادثه بالامر

فتم الاتفاق على الاستنجاد بعارف بك ابراهيم رئيس بوليس القدس فخابره المتصرف بالامر فلبى الدعوة ولما بات في مقام المتصرفيه خاطبه المتصرف قائلا :

— لقد وعدت دولة الباشا بانك ستحقق المهمة التي سيعهد اليك بها علي فؤاد باشا — وانا بدوري اثق بك ثقة تامة وهذه الثقة تجعلني أومن بفوزك — فالبلاد باتت محاطة بالاعداء من جميع جهاتها وقوما هنا وفي الجيش يشتغلون ضدها ولا اريد منك ان تقاوم الناس وتعمد الى استمالتهم الى صفوفنا ولكن هناك رجلا واحدا يهدد سلامة الجيش والبلاد معاً فاطلب منك ان تقبض عليه ·

ويكفي لان ابين لك خطورة هذا الرجل انه تمكن من الحصول على ثقة احمد جمال باشا ثم ثقة ضباطنا والتغلغل في قلب اركان الحرب العامة وسرقة كل الخطط التي وضعناها للدفاع عن الجبهة ·

وقد بلغ به الامر الى حد انه اصبح باستطاعته معرفة ما نقوله الان نحن الثلاثة ، وفي هذا خطر كفنا المئات من ارواح جنودنا

— انني على استعداد يا صاحب الدولة لما تأمرني به

— لم افاتحك بما تقدم لاخوفك من الرجل فانا على اعتقاد وطيد بجسارتك ومقدرتك انما رويت لك ذلك لابين لك خطورة الرجل ومقدار الاضرار العظيمة التي انزلها بنا وبالجيش معا

وازيد على ذلك ، انني طاردته بواسطة عدد كبير من رجالي المقتدرين المخلصين الا انهم فشلوا كلهم في هذه المساعي ولم يصلوا الا الى القشور التي كلفتنا ايضاً بعض التضحية

اما انت ، فانا اعتمد عليك وحدك في تحقيق هذه المهمة

وعد عارف بك بتحقيق رغبات القائد والمتصرف وانصرف كل الى عمله

توقيف الجاسوس

كان ذلك في اذار سنة ١٩١٨ ، عندما عهد علي فؤاد باشا الى عارف بك بمطاردة هذا الجاسوس

وفي اليوم الاخير من هذا الشهر كان عارف بك راكباً جواده وذاهباً من ادارة الشرطة الى منزله ، ولم يكن في ذلك الوقت عربات او سيارات والمسافة بين الدائره والبيت طويلة وكان رئيس البوليس يتنقل بين القدس ومنزله وضواحي القدس على الجواد.

وكانت افكار الرجل منصرفة الى الجاسوس ليكفي القيادة مؤونة دسائسه المتعددة ولما انتهى السير الى خلف مستشفى البلدية - عند شارع يافا - شاهد في احد الازقة المتفرعة من شارع طريق يافا شخصين يتقدمان الى هذه المنطقة وهما على بعد مئة متر منه ، ولما أبه لهما لو لم ير احدهما يدير وجهه عندما شاهده قادما الى جهته ثم يمعن بالركض كأنه يحاول الفرار منه

فاشتبه عارف بك بالرجل وهب لمطاردته دون ان يعرف من هو ولهذا ادار عنان الجواد الى جهة الزقاق فلم يجد الرجل فترجل وراح يتغلغل في الزقاق الضيق وانتهى الى بناية قديمة مهجورة ليس لها منفذ فادرك عارف بك ان الرجل لا بد ان يكون مختبئا في هذه البناية فدخل اليها . كانت هناك حفرة مسدودة تقريباً بالحجارة والاشواك فتطلع الى داخلها فشاهد الرجل هناك ، فاخرجه من الحفرة وتحراه فلم يجد معه شيئا حتى ولا اوراق هويته ، ولما سأله عن اسمه اجابه بلغة عربية وبلهجة ابناء القدس انه شاب عربي يدعى محمد الخلف من اهالي القدس وكان في الجبهة الحربيه يدافع عن الوطن وان له والدة وزوجة وولدين جميعهم في حالة المرض الشديد ولهذا فر من الجبهة الحربية لرؤيتهم واسعافهم

وأخذ الرجل يبكي ويسترحم من رئيس البوليس ان يخلي سبيله لانه اذا ساقه الى القيادة عوقب ومنع من رؤية عائلته

— وكيف تمكنت من الوصول الى هنا دون ان يشعر بك رجال ضابطة العسكرية ..

— كان لدي بعض النقود تمكنت بواسطتها من الوصول الى هنا ، معي الان خمس ايرات عثمانية ذهبا في امكانك أخذهـا مقابل السماح بمتابعة سيري لرؤية عائلتي .

— ماذا تقول ؟

— لا اعطيكم اياها كرشوة بل كهدية من نفسي

— بامكانك الاحتفاظ بهذا المبلغ اما الان فسر امامي الى الدائرة

— مولاي رحمه بعائلتي فان افرادها بحالة الموت واعتقالكم اياى سيؤدي حتما الى موت هولاء وانت ...

— لا فائدة من الجدال فيجب ان تسير معي

— مولاي انا غني وفي امكاني ان اعطيك اضعاف هذا المبلغ اذا اخليت سبيلي وليس لك الا ان ترافقني الى المنزل فتنال ما تريد من مال.

— ولماذا فررت من وجهي عندما رأيتني قادما

= لانى اعرف تمسكك بالواجب

— اذن ما دمت تعرف هذه الحقيقة فهيا بنا

وهذا الالحاح ادخل الشك الى نفس عارف بك ابراهيم واعتقد اعتقادا راسخًا بان هذا الرجل ليس عربيا ولا مسلما بل يهودي وهو اذا لم يكن النر ليفي الجاسوس الذي يطارده فهو ولا شك احد اعوانه ، ولذا تناول الاصفاد الحديدية من جيبه ووضعها في يد الرجل وامسك بطرف السلسلة ثم امتطى جواده وساقه الى مخفر البلدية ولم يكن في المخفر ساعتئذ الا اثنان من رجال الشرطة فاستدعاهما وسلم اليهما الرجل وطلب منهما حفظه في المخفر الى ما بعد الظهر ريثما يعود من المنزل ولما اقترب احد الشرطيين من الرجل صاح قائلا :

= هذا يا مولاي النر ليفي الجاسوس الخطير

وكانت هذه الصيحة كافية لاخافة الجاسوس الذي حاول انكار هويته في باديء الامر الا ان الشرطي أكد لرئيسه حقيقة هويته ولذا امره عارف بك بان يشدد الرقابة عليه الى ما بعد الظهر لان علي فوءاد باشا والمتصرف كانا غائبين

في تلك الساعة

وما كاد عارف بك يبتعد عن مخفر الشرطة ، حتى دعى الترليفي الشرطي الذي عرف به رئيسه وطلب اليه ان يعد له شيئا من الطعام ونقده ليرة عثمانية ذهبا ثمنا لهذا الطعام ، فقبل الشرطي بهذه المهمة وخرج الى اقرب مطعم مجاور للمخفر وهو يعتقد اعتقاداً تاما ان ليس في استطاعة الجاسوس الفرار وانه سيكسب حتما بقية الليرة الذهبيه

ولم تدم غيبة الشرطي اكثر من ربع ساعة ، ولما عاد الى المخفر وجد بابه مفتوحا وليس فيه رفيقه فاسرع الى الغرفة المجاورة التي حجر فيها على الجاسوس فلم يجده ايضاً لان الجاسوس عرف كيف يخدع الشرطي الاخر ويلوذ بالفرار

وارسلت الرسل الى عارف بك تنبئه بالحادث فبث رجاله في مختلف الجهات وبعد الغروب اعتقلوا الشرطي ، الذي سبب الفرار فقال انه جلس بعد ذهاب رفيقه على باب المخفر ووجهه الى الطريق واذا به يشعر ان رجلا يضربه من الوراء فارتمى على الارض ولما افاق رأى السجين قد فر فلحق به الى الخارج وظل يطارده حتى مدينة القدس الداخلية الا ان الرجل توغل بين الازقة واختفت آثاره

بيد ان هذه الافادة الملفقة لم تقنع رئيس البوليس خصوصا ان الطرقات التي اشار اليها الشرطي مملوءة دوما بالاهلين والجند وليس من الهين ان تجري هذه المطاردة في الطرقات والشوارع ولا يشعر بها احد من الاهلين ولهذا ضيق عليه الخناق فاعترف له بانه بعد ذهاب رفيقه ، استدعاه السجين وعرض عليه تهريبه مقابل ٢٠ ليرة عثمانية ذهبية فنقده منها اربع ليرات ومضى واياه الى منزله في (المستعمرة النمسويه) حيث جاءته امرأة طاعنة في السن ببقية المبلغ فأخذها وترك الرجل .

فمضى رئيس البوليس على رأس قوة من رجاله الى (المستعمرة النمسوية) وطوقها من جميع جهاتها ثم اعتقل كل من فيها واجريت معهم تحقيقات دقيقة الا ان كل هذه التحقيقات ذهبت سدى ، لان احداً من هؤلاء لم يعترف برؤيته الرجل او الشرطي كما ان المنزل الذي دل عليه الشرطي قائلا انه تركه على بابه

الجاسوس مع السيدة وجد خالياً من السكان وقد اثبت معظم سكان المستعمرة ان الرجل لا يقطن في هذا المنزل وانه خال منذ اكثر من عام ، وعلى هذا ذهبت جميع التحريات التي اجريت في سبيل اعادة القبض عليه سدى .

اعدام الشرطي :

وقد اثرت هذه الحادثة في علي فؤاد باشا تأثيراً عظيماً فاستدعى المتصرف وعارف بك وحقق معهما في الحادث ولما تأكد له ان الشرطي خان واجبه واهمل في سبيل هذا الجاسوس قرر احالته الى الديوان الحربي العرفي لمحاكمته فوراً

واجتمعت المحكمة العسكرية في القدس وحاكمت الشرطيين معاً فاستمعت الى افادة سعيد المقدسي عن الحادث وسعيد هو الشرطي الذي عرف الجاسوس فوراً ، وقال انه اوضح امره لرئيسه امام رفيقه خليل عبد الكريم واكد له ان الرجل هو الذي ارتكب الجرائم الفظيعة والذي تطارده السلطة العسكرية وانه ذهب الى السوق ليأتي بالطعام لفت انظار رفيقه لزيادة المراقبة وايد هذه الاقوال بعض الشهود الذين رأوا الشرطي سعيد يذهب الى السوق وحده

ثم جاء الجنود وشهدوا انهم وقفوا الشرطي خليل في ضواحي القدس وهو يحاول الفرار الى الجهة المؤدية الى الاعداء .

وقد جاءت هذه الشهادات ضد خليل عبد الكريم فحكمت عليه المحكمة بالاعدام وبرأت ساحة رفيقه ، ونفذ به حكم الاعدام في اليوم الثاني .

وعارف بك ابراهيم الذي لم يره احد من الناس يبكي بكى في ذلك اليوم لرؤيته خليل عبد الكريم يعدم بناء على قرار الديوان الحربي العرفي لاعتقاده بان هذا الشرطي لم يقدم على الخيانة الا مدفوعا بعامل الحاجة وانه لم يقدر خطورة الرجل واهتمام القيادة بامره فظن انه رجل عادي ولذا أطلق سراحه مقابل عشرين ليرة ذهبية وهي ثروة طائلة في نظره بالنسبة الى احتياجات الناس في ذلك الوقت، وأخذ المبلغ وحاول الفرار الى حيث الثوار العرب ، وكان يستطيع كعربي ان يلتحق بهم وان ينقذ نفسه من العقوبة المفروضة عليه .

ولم يخطر في باله ان يفر الى جهات العدو للعمل في صفوف الاعداء كجاسوس على دولته وهو الامر الذي استندت اليه المحكمة لاعدامه

هذه هي الخواطر التي مرت ببال رئيس البوليس في القدس وهو يضع الخطة الجديدة لمطاردة الجاسوس وقد بات متدرغة في الاقبال على مطاردته وتوقيفه انتقاما للدماء البريئة التي يهرقها

خيانة جديدة

اشتدت المعارك الحربية خلال هذه الحوادث في فلسطين وتوالت الهجمات الانكليزية على جبهتي غزة وبئر السبع وطلبت قيادة (جيش الصاعقة) النجدات من قيادة القوات العثمانية في سوريا وبلاد العرب ووضع برنامج جديد للدفاع وطرق نقل القوات الاحتياطية من دمشق الى فلسطين ومن لبنان الى حيفا وكانت هذه الخطة سرية ومع هذا اتصلت باذن التراليفي الذي لم يغادر القدس وتمكن من ايصالها الى الانكليز فارسلوا سفنهم الحربية الى سواحل حيفا وتمكن تضربت هذه القوات وهي قادمة الى فلسطين وضعضعت صفوفها ثم قامت بهجمات قوية على مناطق الجديد في الجبهة فاضاعت على القيادة العثمانية كل تدبير متخذ في هذا الشأن وعندئذ ادرك علي فؤاد باشا ان كل هذه الضربات صادرة عن التراليفي فاستدعي اليه عارف بك وانذره للمرة الاخيرة بضرورة توقيفه

في ذلك الوقت ورد اشعار الى عارف بك من رجاله السريين يفيد ان التراليفي شوهد في قرية (النبي صموئيل) فانبأ علي فؤاد باشا بالامر فأبلغه ان عليه ان يقلب هذه القرية رأسا على عقب ليتمكن من توقيف الرجل ولو اضطر الى توقيف كل من فيها وحرقها وزوده بالقوة العسكرية الكافية لتنفيذ قراره هذا

ولليهود في المستعمرات التي اسسوها في فلسطين عيون وارصاد لمراقبة رجال الحكومة وقواتها وكلهم يعرفون ليفي ويفتحون بيوتهم له وليس من السهل حملهم

على الاعتراف بمكان وجوده .

ولم يكن عارف بك يجهل هذه الحقيقة فطوق القرية واعتقل السكان ووضعهم تحت حراسة الجنود الا انه لم يجد الجاسوس بينهم واستجوب رجال القرية جميعاً وعددهم ينيف على المئتين وقادهم الى السجن ومع هذا لم يتمكن من الاهتداء الى اثر للرجل فامره على فؤاد باشا بمضاعفة الشدة فداهم دار الجاسوس في المستعمرة ودور اقاربه واصدقائه وقد بلغ عدد اليهود الذين اعتقلوا بجريرة ليفي ٢٥٠ شخصاً لم يتقدم احد منهم لارشاد الحكومة الى مقره .

ولهذا عمد رئيس البوليس الى الحيلة فاخذ يتظاهر بين جماعات اليهود باستيائه من خطة علي فؤاد باشا الشديدة القاسية وبتقديره لهذا الجاسوس الذي اتعب واتعب القيادة ويظهر رغبته في التعرف اليه ومساعدته على النجاة .

ولكي يؤكد نيته الطيبة هذه كان يسهل السبل لابتعاد بعض اليهود عن مطاردة الجنود لهم كما كان يساعد بعض المشبوه بهم على الفرار .

وقد جازت هذه الحيلة على القوم وآمنوا بها ووصلت اخبارها الى والتر ليفي الذي اراد ان يجرب عارف بك فاوعز الى حماته ان تعود الى منزلها ، ولم تكن مسؤولة عن اعماله .

واتصل نبأ عودة حماة الجاسوس برئيس البوليس فقصدها مع نفر من البوليس السري ، ولما كان قد حزر الغاية الحقيقية من عودتها الى المنزل لم يضايقها في هذه المرة بل تظاهر بعطفه عليها وعلى عائلة ليفي وحاول اقناعها بوجوب تسليمها الرجل اوارشاده الى مقره . ولما فهمته عدم استعدادها عتهاذاك لجهلها مقره تركها وشأنها وعاد الى مركزه ثم اخذ يتردد عليها من وقت لآخر متظاهراً بعطفه عليها .

وبعد عودة هذه المرأة الى منزلها باسبوع واحد جاءها عارف بك وابتدرها بقوله :

ــ أنا على ثقة تامة بانه بعد هذه المطاردات العنيفة لم يبق في امكان الرجل الخروج والابتعاد عن القدس وانا على استعداد تام لمساعدته لتحقيق غايته هذه فاجمعيني به ترين كيف اساعده على ذلك

— ولكنني لا اعرف مقره ؟

ـ انا لا اريد منك الجواب عن سؤلي هذا لانني على ثقة تامـة بانك لن تذكري أية كلمة الان وانما جئت لابلغك انني على استعداد تام للتفاهم واياه على طريقة تساعده على الفرار فبلغيه رغبتي هذه وساعود اليك بعد يومين لاخذ الجواب النهائي

ـ ولكنني لا اعرف مقره

فلم يجبها عارف بك واكتفى بتحذيره اياهـا قائلا :

ـ يجب ان تكوني على حذر تام وان لا تبلغي احداً ما داربيننا من حديث لان هذا الامر يؤدي الى اعدامي كخائن وهو امر لا يمكنني السكوت عليه فانتقم منك شر انتقام

المفاوضـات السرية

ودارت مفاوضات سرية بين عارف بك ابراهيم وحماة التريليفي كانت هذه الاخيرة تتصل خلالها باحدى الطرق السرية بالجاسوس الذي وافق على ما يظهر على ان تأتيه بعارف بك بعد ان وعدها بان يتفق وصهرها على اخفائه او ابعاده عن القدس مقابل مبلغ من المال ولهذا لما جاءها في المرة الثالثة سائلا اياها ماذا قررت اجابته :

ـ لقد جاءني اليوم احدهم فاوفدته الى والتر ليبلغه رغبتكم في الاجتماع به فوافق على هذا قائلا انه لا يخـاف سواكم وانه على استعداد تام لقبول شروطكم فعليكم ان تذكروا المبلغ الذي تريدونه لآتيكم به فوراً

ـ ان هذا المبلغ ساعينه لاتر نفسه

ـ ولكنني مستعدة لان ادفع لكم هذا المبلغ مقابل تعهدكم بعدم مطاردته

ـ ولكن بقية القوات ستظل تطاردة

ـ لا يعبأ ببقية القوات ولا يهمه في الدرجة الاولى الا ان تبتعدوا انتم من طريقه ولهذا ارجو منكم ان تعينوا لي المبلغ لآتيكم به

— لا يمكنني قبول اي مبلغ الا منه ولهذا ارجو منك ان تقودني اليه وعند ما اجتمع به نتفق على كل شيء ٠ الا انني اعدك منذ الان بل اتعهد لك بانني ساتفق معه وساساعده على الفرار

ـ اذن في امكانكم العودة الي في ليلة غد فنذهب معاً لمقابلته اذا وافق هو على ذلك ، واذا لم يوافق لن استطيع ان افعل شيئا ولو هددت بالقتل

فتركها عارف بك وانصرف وهو على اعتقاد وطيد ان والدة ليفي سيوافق حتما على هذه المقابلة بعد ان اقنعه بحسن نياته وبرغبته في خيانة وظيفته والاتفاق واياه على تهريبه ولذا استدعى اليه ثلاثة من رجاله السريين وابلغهم انه ذاهب بمهمة متوقفة حتما الى الجاسوس الذي سيكون لهم ايضا حصة في شرف توقيفه

وانتدب احدهم سليمان بشوتي ان يراقب منزل حماة والدة ليفي منذ العشاء دون ان يفسح لاي كان في معرفته والشعور بانه يراقب المنزل ، واحمد عبد السلام ان يلحق به عن بعد والثالث جاد الله ابراهيم ان يتبع الاخر ، هكذا يؤلفون شبكة تساعد على معرفة الطريق التي سيسلكها هو وحماة الجاسوس فيسرعون الى نجدته عند ما يقتضي الامر

وبعد ان تخذ رئيس البوليس هذه التدابير الشديدة توجه منفردا الى المستعمرة المنسوبة ودخل على حماة ليفي فوجدها في انتظاره وقد لفت حول عنقها شالا من الحرير وحملت بيدها فانوسا صغيرا مضاء بزيت الزيتون وطلبت اليه ان يلحق بها الى مقر الجاسوس

اين اختبأ الجاسوس

للوجيه الفلسطيني الاستاذ خليل بك السكاكيني دار كبيرة في القدس قائمة تجاه دار الحكومة مباشرة وهي مؤلفة من طابقين مؤلفين من عدة غرف

والاستاذ السكاكيني اديب معروف ليس في فلسطين فحسب بل في البلاد العربية كافة وقد اتهم خليل بك السكاكيني بحوادث الحركات الاصلاحية فاعتقل مع رجالات سوريا في سنة ١٩١٥ وارسل الى الديوان الحربي العرفي في

عاليه ثم نفي الى الاناضول مع غيره من رجالات العرب الذين سيقوا يومئذ الى الديوان المذكور ولذا كان منزله في ذاك الوقت خاليا من السكان

ولما غادر عارف بك ابراهيم رئيس البوليس في القدس حي المستعمرة المنسوبة برفقة حماة الجاسوس ورأى المرأة تسير جهة دار الحكومة تعجب من الامر وقد ازداد عجبه عند ما رأى المرأة تقف امام باب دار السكاكيني فسألها عن معنى ذلك فقالت مبتسمة :

ـ لم يكن يخطر ببالكم ان من قابتم الدنيا للعثور عليه يختبيء في بناء ملاصق لدار الحكومه

ـ كلا لم يخطر ببالنا ابداً ان الجرأة تبلغ بالرجل الى هذا الحد فيعمد الى الاختباء بالقرب من دار الحكومة

ـ ستري اعظم من ذلك

ـ ماذا

ـ ستجتمع الان بالترليفي وستري منه مايسرك لانه وهوهنا قادر على روءية كل ما يجري في دار الحكومة وما يجري في غرفة المتصرف مما يساعده على تتبع حركاتكم بدقة تامة وقد تمكن وهو في هذا المكان من معرفة كل حركاتكم وانصاره الذين كانوا ياتون لزيارته في هذه المنطقة كانوا يوخلون عليه بهدوء تام لا يخشون مراقبة الحكومة او رجالها لهم

ـ آه . . .

نعم ، تعجب عارف بك ابراهيم من هذه المعلومات التي زودته بها حماة والتر اذ لم يخطر في باله ان يجد الجاسوس في هذا المكان

وكان خليل بك السكاكيني في اقصى الاناضول وقد مضى على ابتعاده عن هذه المنطقة ما ينيف على السنتين فكيف حصل هذا الجاسوس على مفتاح المنزل ؟ . . .

وكيف تمكن من الاقامة به ؟

وكيف نقل حاجياته الى هذا المنزل ؟

و كيف نقل حاجياته الى هذا المنزل ،

و كيف لم يشعر به رجال الشرطة والحراس ، وهو يقطن هذا المنزل كما تقول حماته من مدة طويلة ؟

هذه هي الاسئلة التي مرت في مخيلة عارف بك وهو يقترب مع المرأة من منزل السكاكيني حتى اذا وصلا الى بابه انحنت المرأة امام حجر كبير موضوع امام الباب وتناولت من تحته مفتاحاً فتحت به الباب وصعدت الدرج الى الطابق العلوي .

ومع ان باب هذا الطابق المطل على مدخل الدار كان مغلقاً يمكن فتحه بالاكرة دون مفتاح فان المرأة قرعت الباب ثلاث مرات متقطعة وبصورة خاصة ثم ادارت الاكرة وفتحته و كانت هذه الحركة ايذانا بقدومها

ثم دخلت بعارف بك الى ردهة كبيرة و كانت خالية من الرياش ومثلها الاخرى مما يدل على ان المنزل خال من السكان

والى يسار الداخل تقع غرفة ذات باب واحد فقرعته بطريقة خاصة وقالت :

— يا هودا

فاجابها صوت :

— في ارض

— اسرائيل لنا

— هل من غريب ؟

— كلا !

— هل اتى جبرائيل

— اتى يحمل غصن السلام

وبعد هذه المحاورة التي وقف عارف بك يستمع اليها سا كتا سمع حركة ادخال المفتاح في القفل وفتح الباب واطل منه في الظلام رأس رجل عرف رئيس البوليس انه رأس الرجل الذي اعتقله في طريق يافا بالقدس والذي فر من المخفر و كان فراره سبباً في اعدام ذلك الشرطي البائس وقد استقبل الجاسوس

رئيس البوليس بجفاوة زائدة وامره بدخول الغرفة

الا ان رئيس البوليس باغته بقوله :

— الهر ليفي باسم القانون اقبض عليك ، فارفع يديك

وهنا بوغت ليفي والتفت الى حماته وحملق فيها سائلا اياها عن معنى ذلك .

والمرأة نفسها لم تكن دونه دهشة واستغرابا، فالتفتت بدورها الى عارف بك وسألته عن معنى ذلك وقسمه بشرفه بان لا يمس صهرها باذى ، فابتسم عارف بك وقال :

— ان واجبي يقضي علي بتوقيف الرجل ولذا خدعتك الوصول الى هدفي .

والان ليس على الهر الا مرافقتي الى دار الحكومة

عارف بك يرفض المال

ولما اصر عارف بك على توقيفه خيل الى الجاسوس انه يطمع في المال فاراد استمالته بالمبلغ الذي يريده فتناول من محفظته خمسة الاف دولار وعرضها عليه مقابل تركه الا ان عارف بك رفض هذا المبلغ فظن الهر ليفي ان الرجل يرفض لانه يطمع في مبلغ اكبر فعرض عليه عشرة الاف دولار قائلا :

— ليس لدي الان الا خمسة الاف دولار وسأعطيك حوالة بخمسة الاف اخرى تقبضها من دوتش بالستين بانك

= قلت لك ان الواجب يقضي علي بتوقيفك

— اليك هذه الحوالة بخمسة عشر الف دولار فيكون المجموع عشرين الفاً من الدولارات فاذهب واقبض المبلغ من القدس او دمشق او من اي بلد اردت فيدفع لك فوراً وسأظل انا هنا تحت حراستك وعندما يصبح المبلغ في متناول يدك عد الى هنا وافعل بي ما تريد

— قلت لك ان القانون يجب ان يأخذ مجراه وعليك ان تستعد لترافقني

— كلا ، لن اذهب

— بل تذهب مرغماً

— وماذا تستفيد انت من اخذك اياي الى المركز ؟

— اكون قد قمت بواجبي

— وماذا يكون مصيري انا

— ان مصيرك معروف فستحال فوراً الى المحكمة العسكرية التي لديها الادلة على اعمالك فتحكم عليك في الحال ٠

— وبعدئذ

ـ ينفذ بك حكم المحكمة وهو الاعدام ولا شك

فاطلق الرجل قهقهة عالية تجاوبت صداها انحاء المنزل الخالي من السكان ثم التفت الى عارف بك ابراهيم وخاطبه بلهجة الناصح قائلا

اسمح لي بان اخاطبك بصراحة تامة ٠ انت طفل جاهل فانا لن اشنق ولو علقتم لي المشنقة وقدتني انت بيدك اليها

ـ لامجال للترهات فهيا اتبعني

ـ لقد اردت خدمتك انت شخصيا والثروة التي اعرضها عليك ليست من عندي بل من عند الانكليز وهي ثروة طائلة اذا اخذتها عشت طول حياتك بغنى عن الناس ٠

ـ لا يمكن ان اخون وطني

ليس في عملك هذا اية خيانة فانت لن تؤثر في مصائر الامور وستري بنفسك انني لن اشنق رغم جميع المحاولات التي ستبذلها انت ورجال حكومتك، اما القدس فستسقط بعد بضعة ايام في حوزة الانكليز ولا يمكنك انت سواء اخليت سبيلي او اعتقلتني ان تغير في ما تقرر لمصير هذه البلاد ، وعلى هذا انصح لك بان تغتنم هذه الفرصة وتتناول حصتك من المغنم والا فالعاقبة تكون وخيمة

ففرغ صبر عارف بك ابراهيم من هذا الحديث الذي لم يكن يتفق وخطته ومبادئه فقطب حاجبيه وامر الرجل بان يستعد للذهاب معه ثم تناول من جيبه صفارة وصفر بها ايذانا لرجاله الذين كانوا يتعقبونه في الاشغل

ولما ادرك النرليفي انه لم يبق هناك من سبيل لاقناع رئيس البوليس التفت

اليه وقال :

— لقد اثبت لي الان انك ولد طائش وغر جاهل ولما كنت ترفض هذه الثروة الطائلة وتفضل الواجب الواهي عليها اكرر عليك الان ما قلته . انني لا اشنق وستراني حراً طليقاً رغم انفك كما سترى القدس بعد ايام في قبضة الانكليز ويبدأ مجد اسرائيل بتشييد الوطن القومي الاسرائيلي

— هذا شأنك ، اما انا فغير نادم على شيء ما دمت اقوم بواجبي بشرف

وفي هذه الاونة دخل الشرطيان السريان اللذان كان عارف بك ابراهيم قد عينهما تتبع خطواته فطلب منهما ان يكبلا الرجل والمرأة بالاصفاد ثم تحري المنزل بتدقيق فعثر فيه على اوراق خطيرة تثبت جاسوسية التر ليفي وآلة ميكانيكية موصلة للمخابرات اركزها الرجل على سطح الدار لمخابرة مقر قيادة الاعداء فضبط هذه الالة التي تساعده على اثبات جريمة الجاسوسية عليه ولما عرضها على الجاسوس اجابه مبتسما :

— لاحاجة لكل هذه الادلة فسأعترف بكل شيء ولكن ثق بانه لن ينالني اي اذى

توقيف الجاسوس

وقد كان توقيف الجاسوس على هذه الصورة التي بسطناها مدعاة شرف لعارف بك ابراهيم وقد هنأه قائد القوات علي فؤاد باشا ومتصرف اللواء امام جمهرة الضباط والموظفين

ثم استدعى علي فؤاد باشا الجاسوس الى ديوانه وحدثه في هذه القضية فابى ان يجيب بابة كلمة ولما هدده بالاعدام اكتفى بابتسامة غامضة ...

وهنا امر الباشا الشعبة الاولى بان تعد كل الاوراق المتعلقة بالجاسوس مع المستندات التي تثبت جاسوسيته لتقديمها الى الديوان الحربي العرفي مرفقة بالتقرير الذي وضعه عارف بك ابراهيم وما صادره عنده من الة المخابرة والوثائق التي تثبت جاسوسيته

ثم أصدر امراً آخراً بتأليف الديوان الحربي العرفي لمحاكمة الرجل وانصرف الى ادارة دفة الامور الحربية في الجبهة تاركا امر الرجل الى القضاء العسكري وهو واثق من ان جميع الادلة كافية لادانة الرجل والحكم عليه بالاعدام

الموقف العسكري

ونرى هنا ان نبسط للقراء شيئاً عن الموقف العسكري في فلسطين فقد كان الانكليز قبل اعتقال النبر ليفي اخترقوا جبهة فلسطين واحتلوا المناطق الساحلية ففي فجر ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ هاجم العدو الجبهة العثمانية في مستعمرة عين بيراق اليهودية التي يدافع عنها الفيلق الثامن ، وبعد معركة تذبذبة استمرت الى الساعة العاشرة من ذلك النهار تمكن العدو من اختراق الجبهة والتقدم الى الامام وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم نفسه كانت طلائع قوات الانكليز قد دخلت يافا

وفي فجر ٢٣ تشرين الثاني هاجم الانكليز المواقع الامامية التي اقامها الفيلق العشرون للدفاع عن القدس وقد وجهوا هجومهم الى المراكز التركية الحصينة الممتدة من بيدو الى سوربق فصدتهم القوات العثمانية بعد معركة دامت من الساعة السادسة مساء الى الثامنة صباحا الا ان العدو عاد في الساعة العاشرة بقوات مضاعفة وتمكن من احتلال مرتفعات (النبي صموئيل) ونصب مدافعه فيها وراح يمطر المراكز العثمانية بوابل من القنابل

وفي الوقت نفسه هاجم العدو الجبهة الامامية التي تدافع عنها الفرقة الرابعة والعشرون الا انه مني بالفشل

ومع هذا فقد تمكنت قوات اخرى من خيالة العدو من مهاجمة (عناب) فاحتلتها بعد معركة استمرت ساعتين ثم تقدمت الى الامام لتعبر نهر (قانوني) ولكن نسف الترك لجسر هذا النهر حال دون تقدمها في ذلك اليوم

ثم توالت هجمات قوات الانكليز على المراكز العثمانية حتى ليل ٨ — ٩ كانون الاول فجلت قوات العثمانيين عن القدس الى الشرق والشرق الشمالي من القدس

وظلت هذه المدينة المقدسة خالية من الادارة العسكرية الى قرب ظهر اليوم التالي فدخلوها بفرقتين من المشاة البريطانية والفرقة ٤٧ الهندية والفرقه العاشرة الاوسترالية وفي اليوم التالي اي في العاشر من شهر كانون الاول سنة ١٩١٧ وصلت الى القدس من الرملة فرقة الخيالة البريطانية وفي ١١ منه زحف قسم من هذه القوات الى الامام فطرد القوات العثمانيه من القدس واضطر قيادة القوات العثمانية العامة الى نقل مقر القيادة الى نابلس .

مصير الترليفي

وشملت الفوضى القدس يوم ٨ كانون الاول سنة ١٩١٧ لان الضربات المتوالية التي نزلت بالقوات العثمانية التابعة للجيشين الثامن والسابع المدافعين عن فلسطين جعلت امر المحافظة على الامن مستحيلة فقد هاجم الاهلون السجون واخرجوا المسجونين منها كما ان الفوضى ضربت اطنابها في المنطقة

وقد اهمل الجميع امر الجاسوس الترليفي الا عارف بك الذي رأى ان سبب هذه الضربات هو هذا الرجل الذي كان يرقص على اشلاء الضحايا في سجنه وهو يترقب الفرص للنجاة ولكنه رأى من الخطر ان ينسحب من القدس ويترك هذا الرجل في سجنه فيتمكن الانكليز من اخلاء سبيله ولذا توجه بعد ظهر ٨ كانون الاول الى السجن وامره بان يستعد الذهاب معه . وقد بوغت الرجل لرؤيته عارف بك وجهاً لوجه بدل ان يرى احد انصاره الذين جاؤوا لانقاذه فاضطرب واظهر جبنه وخيل اليه ان ساعته الاخيرة قد دقت . فراح يتوسل الى عارف بك مسترحماً العفو عن حياته وعدم نزال الاذى به الا ان رئيس البوليس افهمه بصراحة تامة انه لا يقصد ايذاءه لانه ليس قاتلا سفاكا مثله الا انه لما كان مجرماً خطيراً جاء يأخذه معه الى مقر القوات العثمانية ليلاقي جزاءه ويحول دون ارتكابه فواجع جديدة

ولما ادرك الترليفي انه سقط في قبضة الرجل عاد يكرر نغمته السابقة محاولا اقناعه بضرورة اخلاء سبيله لقاء ما وعده به من المال فقال :

— سنسقط القدس بعد بضع ساعات في حوزة القوات الانكليزية فهيا بنا الى منزلي فاعطيك العشرين الفاً من الدولارات فتثري ٠

الا ان عارف بك رفض هذا المبلغ رفضاً بتاً ، وكان يستطيع ان يقبضه دون ان يقع تحت طائلة القصاص ، وساق الجاسوس الى احدى العربات ومضى به الى (اريحا)

وفي اريحا ابرق الى القيادة يشعرها بما كان من امره مع الجاسوس فابلغ ضرورة سوقه الى (عمان) فسافر اليها ٠

الا ان الحالة في عمان كانت في ذلك الوقت مضطربة لان سقوط القدس في حوزة القوات الانكليزية وتشدد الثوار العرب في جهات عمان بهجومهم على المواقع العثمانية جعلا القيادة هناك تهمل امر الجاسوس ولا تسأل عارف بك عن الغاية من قدومه ولكن هذا الاخير خابر علي فؤاد باشا الذي انتقل الى دمشق ، وطالت هذه المخابرة الى ان ورد امر القيادة بوجوب جلبه الى دمشق ٠

في دمشق

وفي اليوم الثالث من شهر شباط سنة ١٩١٨ اي بعد مشقات استغرقت زهاء شهرين وصل عارف بك ابراهيم يرافقه الجاسوس الى دمشق وفيها اضطر ايضاً الانتظار مع الجاسوس منفردين مدة اسبوع واحد الى ان ورده امر رسمي من وكالة قيادة الجيش الرابع بضرورة تسليمه الى الديوان الحربي العرفي في دمشق ففعل وسلمه بموجب الامر واخذ وصلا رسمياً من مستنطق الديوان الحربي بالسلامة ٠

وهكذا انتهت مهمة عارف بك وانصرف المستنطق الى التحقيق مع الجاسوس وقد طال التحقيق واسفر عن خروج هذا الجاسوس من السجن دون ان يرسل الى المحاكمة ٠ وبقي خروجه من السجن سراً من الاسرار

الفصل السابع

عارف بك ابراهيم يحدثنا عن الجاسوس ! ...

كانت جرائم النر ليفي الجاسوس الصهيوني من الخطورة بمكان عظيم فقد ذهب ضحية هذا الرجل عشرات من الافراد الذين اشتغلوا بجانبه كما ان المعلومات الحقيقية التي كان يستقيها من مصادرها الراهنة كانت سبباً في قتل مئات من الجنود الذين اطلع الانكليز على حركاتهم

وقد خاطر عارف بك ابراهيم رئيس بوليس القدس مخاطرات جمة في سبيل توقيفه حتى فاز به وقاده الى المحكمة العسكرية في دمشق

ولكن مؤلف هذه المذكرات لم يشر الى خاتمة هذا الرجل الا بقوله انه نجا من الموت ولم يرسل الى المحكمة التي لو حاكمته لقضت باعدامه فوراً .

فما السبب في ذلك يا ترى ؟

لا شك في ان مؤلف هذه المذكرات الذي تمكن من التسلل الى اسرار هذه القضية الدقيقة لم يكن جاهلا مصير هذه القضية الا انه اراد ختمها بصورة لا تمس الديوان الحربي العرفي . .

اما ونحن نريد ان ننقل للقراء الحقيقة الناصعة عن اسرار الجاسوسية في بلادنا خلال الحرب العالمية شئنا ان نتأكد الحقيقة ونتعرف الى مصير هذا الجاسوس الذي لا يزال الى يومنا هذا يتمتع بالحياة في فلسطين ويخدم السياسة الانكليزية فقصدنا عارف بك ابراهيم الموجود في بيروت وتحدثنا اليه عن الموضوع فقال لنا :

— لقد اوردتم في هذه المذكرات من المعلومات ما جعلني اتنكر على نفسي فقد سردتم من وقائعها واسرارها الامور الكثيرة التي اجهل حقيقتها انا بنفسي

— واليفي ماذا كان من مصيره ؟

— ان معلوماتكم من جهة اعتقالي السنر ليفي مختبئاً في منزل الاستاذ خليل سكاكيني وعرضه على الدراهم وسجنه ثم اخراجي اياه من السجن ونقله الى دمشق كل هذه المعلومات حقيقة الا ان الخطأ فيها هو قولكم ان الرجل نجا معران الحقيقة هي ان المستنطق لدى الديوان الحربي المذكور هو الذي اخلى سبيله بقرار تبرئة وقد عرفت بهذه البراءة ولكني لم اتمكن من عمل شيء لاسيما ان الدولة كانت في ذلك الوقت في اواخر ايامها .

اما كيفية معرفتي ذلك فانه بينما كنت ماراً من ساحة المرجة وذلك بعد تسليمي الجاسوس الى المحكمة باربعة اشهر او خمسة وكنت قد نسيته وانا بدون عمل نظراً لسقوط معظم مدن فلسطين في حوزة الانكليز والحلفاء سمعت صوتا يناديني فتحولت الى جهة الصوت فشاهدت رجلا مسترسل اللحية واضعاً على عينيه نظارات جالساً في المقهي يدخن النار كية فاقتربت منه فبادرني ضاحكا :

— كيف انت ، عارف بك ؟

واذا هو الجاسوس فاستغربت وجوده في المقهي حراً طليقاً وظهوره بمثل هذه الجرأة ودعوته اياي لتناول فنجان من القهوة بجانبه ويظهر انه ادرك حيرتي هذه فقال :

— دعوتك الي لاني بريء ولان المستنطق قدر هذه البراءة واخلى سبيلي بقرار منه

ـ هذا مستحيل

ـ كلا بل هذه هي الحقيقة والا لما رأيتني اتجاسر فاناديك

ـ ولكن الادلة والوثائق ..

ـ لا وجود لها لانها اتلفت جميعها

ـ ولكن ؟

ـ ولكن ماذا ؟

ـ كيف مزقت هذه الاوراق ؟

ـ بالمال فقد عرضت عليك عشرين الف دولار فرفضت اخلاصاً لي اما هنا فقد استحصلت على قرار البراءة باربعماية ليرة ذهبية وساظل هنا حراً امارس عملي دون ان يتمكن احد من مسي باقل اذى ٠

ـ هذا مستحيل

ـ بل هي الحقيقة بعينها ٠

ـ قال الجاسوس جملته هذه ثم التفت الي وقال

ـ وانت ماذا تصنع ؟ ـ لا شيء

ـ أرأيت ؟ لقد عرضت عليك ثروة طائلة فاظهرت بلاهة بعدم قبولها ماذا قدروا اخلاصك ؟ بلا شيء طبعاً وستظل كالشريد لا يهتم بك احد ولن تحصل على مرتبك

و كان الرجل قد روى لي الحقيقة لانني عندما راجعت القيادة في ذلك اليوم نفسه ابلغوني ان المستنطق قرر براءة الرجل وطلبوا الي ان لا اهتم بامره اذ كفاه ما لقي من مشقات في الايام الماضية اما الوثائق والاثباتات وما لدى علي فؤاد باشا من معلومات حقيقية عن الرجل فقد ذهبت جميعها سدى لان المال الذي لقمه الجاسوس لهؤلاء الجماعة وقد رأوا الدولة تسقط الى الهاوية جعلهم يقررون براءته

ومن هذا الحديث يتضح لنا كثير من المسائل الخطيرة التي مرت بالبلاد وجعلت العرب ينقمون على الترك

فقد اتهمنا كثير من كتابهم بالخيانة والدناءة ولكن هذه الحوادث اثبتت براءة العرب من هذه التهم الشائنة فهم قوم يعرفون الواجب عندما يدعون اليه

اما والتر ليفي بطل هذه الحوادث الفاجعة فقد بقي في دمشق على اتصال تام بالكولونيل لورانس الى ما بعد سقوط دمشق ثم انتقل منها الى القدس ليشتغل في سبيل القضية الصهيونية

الفصل الثامن

فصول جديدة عن الجاسوسية في لبنان

تقوم دائرة السوقيات — اي الدائرة التي تستلم الجنود الذين توفدهم شعب الجنود لتسفيرهم الى قطعهم — في بناية قائمة تجاه ادارة محطة سكة حديد بيروت على المرفأ

ويتولى ادارة هذه الدائرة ضابط يدعى صلاح الدين بك . وفي اليوم العاشر من شهر كانون الاول سنة ١٩١٦ ، وكانت العاصفة البحرية شديدة ، جاء الى هناك در كيان ومعها عشرة من الجنود الفارين الذين اعتقلهم حمدي افندي المشهور بشدته وقساوته على الفارين من الجنود في بيروت وسلمهم الى دائرة السوقيات

الا ان ثلاثة من هؤلاء تمكنوا من الفرار من المعسكر في الليلة نفسها فقد دفعوا رشوة الى المأمور فافرج عنهم

وقد كان في الامكان ان لا يشعر احد من الرؤساء بفرار هؤلاء ، والفراريون كثيرون ، الا ان خطأ حصل في السوقيات ادى الى افتضاح الامر .

فقد ورد اشعار من قائد الجيش الرابع يفيد ان جاسوساً انكليزيا يدعى مستر ادوار جان طومسون من اكبر مساعدي لورانس جاء الى بيروت واعطيت اوصافه فانطبقت على اوصاف احمد سعد الدين الجاسم الرجل البدوي الذي اعتقل قبل يومين واعلن انه فار من الخدمة العسكرية فارسل الى دائرة السوقيات لتسفيره ، الا انه تمكن في تلك الليلة من الفرار مع شابين بيروتيين ، فقامت قيامة القيادة للحادث وامرت باعتقال القائد ورجاله وارسالهم الى الديوان الحربي العرفي في

عاليه لمحاكمتهم ثم صدرت الاوامر الى ادارة الشرطة بمطاردة هذا الجاسوس

الى اين ذهب الجاسوس

اما اهتمام القيادة بامر هذا الجاسوس الانكليزي فيرجع الى ان اشعاراً ورد من خارج الجبهة يفيد ان لورانس دبر مؤامرة لاغتيال احمد جمال باشا وانه انتدب طومسون مع ثلاثة من العرب لادارتها وتنفيذها ، ففرار الجاسوس والحالة هذه يعد من الامور الخطيرة التي تهم القيادة وتوجب مطاردته

وفي اليوم التالي لهذا الحادث اوقف الشابان البيروتيان اللذان كانا مع الجاسوس فابلغا القيادة انهما ذهبا برفقة الرجل الذي دفع عنهما خمس ليرات ذهبية لتهريبهما الى جهة نهر بيروت وهناك تركهما وذهب بعد ان اعطى كل منهما ليرة ذهبية وعلى اثر ذلك مضى رجال الشرطة الى تلك الجهة فلم يعثروا على الرجل

وفي المساء ورد اشعار من قائد درك (بيت مري) يشعر بان رجاله اوقفوا في اليوم السابق رجلا تنطبق اوصافه على الجاسوس المذكور الا انه ابرز اوراقاً انه يدعى (اغناطيوس بن حنا ابو كرم) من اهالي زغرتا وانه جاء الى بعبدا لاشغال تتعلق به وانه توجه الى جهة مجهولة ثم ورد اشعار آخر من قائد درك بسكنتا يفيد ان الرجل المذكور مر بها ثم عاد ادراجه الى بيروت

وقد سمى نفسه في بسكنتا باسم ميلاد يوسف رومانوس وابرز للدركي الذي سأله عن هويته اوراقاً تثبت انه من اهالي جونيه

اتهام ملحم قاسم

في الوقت الذي اتجهت فيه انظار رجال الشعبة الاولى لاتخاذ التدابير الحاسمة للمحافظة على احمد جمال باشا بعد فاجعة قطار سكة حديد الزبداني كان الجاسوس الانكليزي ادوار جون طومسون ورفاقه في جوار (حورتعلا) على اتصال بملحم قاسم الذي ثار براسطتهم على الدولة العثمانية واخذ يطارد قوات الجند التركي في بعلبك وجوارها ٠

وكان ملحم قاسم اول زعيم في هذه المنطقة رفع لواء العصيان على الدولة العثمانية يوم كانت هذه الاخيرة ما تزل في قوتها .

وقد حاول الترك في ذلك العهد اتهام ملحم قاسم ورجاله بانهم هم الذين دبروا المؤامرة لقلب القطار وانهم احدثوا عطلا في خط السكة الحديدية حتى ادى الامر الى هذه الفاجعة

والحقيقة هي ان الرجل كان بعيداً جد البعد عن مكان الحادث وكان في مطلع حياة العصيان التي عاشها ولم يكن في ذلك الوقت يجرؤ على الاصطدام بالقوات التركية بل كان يطوف القرى المجاورة لمسقط رأسه فيقتل هذا وذاك من الجنود الذين يشاهدهم في طريقه ويسعى لجمع فئة من الخارجين على القانون لضمهم الى عصابته

وفي هذا الوقت جاء طومسون الى حورتعلا مع الثوار العرب الثلاثة الذين كانت شعبة الاستخبارات التركية تجهلهم وقابلوا ملحم قاسم وسعوا لضمه الى صفوفهم .

ولم تكن الغاية من محاولة هؤلاء القوم اثارة ملحم قاسم على الدولة وهو الخارج عليها بل السعي لجمع اكبر عدد ممكن من الرجال حولهم لتحويل بعلبك وضواحيها الى منطقة ثائرة تعمل تحت ادارتهم اعتقاداً منهم بان هذه المنطقة تساعد حتماً على اتساع نطاق الثورة الى لبنان وبذلك يمكنهم ان يقضوا على الجبهة الفلسطينية ويعجلوا اسقاطها في حوزة قواتهم

وقد اشتدت حركات ملحم قاسم على اثر وصول طومسون ورفاقه الى منطقته حتى تعذر على القوات المسلحة نفسها المرور في هذه المنطقة

الا انه في اليوم التالي لوصول احمد جمال باشا الى دمشق اصدر امراً الى وحيد بك قائد فيلق رياق بوجوب مطاردة ملحم قاسم ورفاقه بلا شفقة وفي اليوم نفسه زحفت قوات غفيرة من الجند من بعلبك ورياق وزحلة وتمكنت بمدة خمسة ايام من اخماد هذه الحركة ففر ملحم قاسم ومن بقي من افراد عصابته الى مرتفعات الجبال واخلدوا هناك مدة الى السكينة وقد قتل في هذه المعركة مئة وعشرة

اشخاص من الاهالي

جمال باشا في بيروت

وهكذا يرى القراء ان مجيء احمد جمال باشا الى بيروت تمهد بضحايا كثيرة من سكان قضاء بعلبك الذين والوا ملحم قاسم وقد اراد احمد جمال باشا ان يظهر نفوذه لانور باشا فامر بان تقام له سلسلة من الاحتفالات الشعبية الكبرى فاقامت له القيادة في حرج بيروت حفلة استقبال عسكريه كما كان معاهد العلم الرسمية اجبرت طلابها على استقباله والقيت الخطب الترحيبية بين يديه

وقد وصل احمد جمال باشا الى بيروت في اليوم التاسع عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ ومكث فيها بضعة ايام وكانت غايته من هذه الزيارة، اولا انشاء مدارس للاناث في بيروت بادارة خالدة اديب وعشرات من المعلمات التركيات اللواتي عهد اليهن باستلام ادارة مدرسة دير الناصرة ومدرسة القديس يوسف وغيرهما من مدارس الارساليات الدينية الفرنسية لاعتقاده ان هذه المدارس هي التي بذرت بذور محبة الفرنسيين في قلوب الناشئة العربية وان من واجبه ازالتها بواسطة خالدة اديب واحلال المحبة التركية محلها

وكان موعد وصول هذه البعثة في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني

ثانياً — استمالة الناس الى الباشا بانشاء المطاعم في بيروت ولهذا جمع في اليوم الثاني لوصوله بعضاً من اعيان بيروت في دار السيد عمر الداعوق للنظر في توسيع مناطق الاعاشة

وكانت غايته من ذلك ان لا يفسح مجالا لاي شكوى تقدم ضده الى انور باشا المنتظر وصوله قريباً الى بيروت.

ثالثاً — تأليف وفد من بيروت ودمشق وغيرهما من المناطق التابعة للجيش الرابع وارساله الى فلسطين ليشرف عن كثب على حالة جبهة فلسطين وينقل الى ابناء منطقته مناعة الجبهة وعدم امكان العدو اختراقها

بعثة المعلمات

وقدمت بعثة المعلمات وكن من فتيات استنبول العصريات فقد جئن سافرات مرتديات افخر الملابس وحضرن في الليلة التالية لوصولهن المأدبة الراقصة التي اقامها ميشال بك سرسق في قصره على شرفهن وشرف احمد جمال باشا وفي اليوم التالي استلمت الانسة نكار اديب (شقيقة خالده اديب) رئاسة مدرسة مار يوسف الواقعة في محلة زقاق البلاط وقد اطلق عليها اسم (كلية جمال باشا للاناث) وعهد الى خالدة اديب خانم بادارة مدرسة دير الناصرة مع بقائها مفتشة عامة ووزعت سائر المعلمات على بقية المعاهد وفي اليوم السادس والعشرين من الشهر نفسه سافر احمد جمال باشا مع خالده اديب خانم وبقية المعلمات الى دمشق ليتسلمن ادارة المدارس التي هناك

جمال كالوباء

اتعرف الوباء المعروف بالهواء الاصفر الذي يزرع الموت حيثما يحل ؟

ذلك شأن احمد باشا فهذا الرجل كان ينتقل معه الموت ايان يذهب . ففي الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ نصبت بساحة المرجة بدمشق ثلاث مشانق وبعد شروق شمس ذلك اليوم الذي سبق مغادرة احمد جمال باشا بيروت وجدت ثلاث جثث معلقة على اعواد هذه المشانق وقد كتب على رقعة علقت على صدر المشنوق الاول حسين بن مصطفى وعلى صدر الثاني محمد علي وعلى صدر الثالث مصطفى جانم وكتبت تحت اسم كل منهم الجملة التالية:

« اعدم لارتكابه الخيانة الوطنية »

ثم زاد اهتمام الترك بالمستر طومسون فباتوا يرونه في كل مكان فيعمدون الى اعتقال من يتصل به دون ان يتمكنوا من الوصول اليه .

وفي اليوم الذي سبق عودة احمد جمال باشا من استنبول الى دمشق اي في اليوم الحادي عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ ورد اشعار الى رئيس الشعبة

الاولى يفيد ان حسين مصطفى عزام احد الجواسيس الثلاثة الذين جاؤوا مع طومسون لجأ الى قرية (دوما) التابعة لدمشق وانه يقيم بمنزل محمد علي الشاغوري وعلى الاثر توجهت قوة كبيرة من الجند الى القرية المذكورة وداهمت منزل محمد علي فاعتقلت فيه الجاسوس مع صاحب المنزل وعائلته من نساء ورجال.

وكان حسين عزام في حالة المرض عندما اعتقل ولهذا لم يتمكن من تحمل الالم الشديد فاعترف بانه ترك رئيسه في قرية يعقوبه في منزل مصطفى بن قاسم جانم وان مصطفى المذكور يجهل حقاً هوية الرجل ورفيقيه الا انهم اعلموه بانهم من الشبان المطلوبين للخدمة العسكرية الاجبارية وانهم فارون من الخدمة

ولما كان الرجل فقير الحال اطمعوه بالمال قبل ان يؤويهم في منزله

وعلى اثر هذا الاعتراف ارسلت قوة من الشرطة الى القرية المذكورة الا انها لم تجد اثراً لطومسون ورفيقيه فاعتقلت مصطفى وجميع عائلته وقادتهم الى سجن دمشق

اعتراف عزام

ولم ينكر حسين بن مصطفى عزام انتسابه الى الثورة العربية كما انه لم ينكر انه اوفد مع ضابط انكليزي يدعى طومسون لدرس الحالة في البلاد والسعي لتأسيس رابطة لمخابرات الجواسيس بين دمشق والحجاز وغيرهما من البلدان العربية ولم ينكر ايضاً ذهابه الى منطقة بعلبك واجتماعه هو ورفاقه بملحم قاسم لحمله على اعلان الثورة الا انه ابى ان يدلي باي ايضاح عن اسمي رفيقيه اللذين يرافقان الجاسوس الانكليزي مصمما على عدم ذكرهما رغم كل ما لقيه من وسائل التعذيب .

وفي الوقت نفسه اكد براءة محمد علي ومصطفى جانم قائلا انهما يجهلان تمام الجهل حقيقة مهنته ومهنة رفاقه

ولكن المحكمة العسكرية في دمشق لم تراع هذه الصراحة في الرجل وظلت على اعتقادها بانهما مجرمان وبقيت مصرة على رغبتها في تقديم ضحايا جدد

وعلى مذبح دمشق لارهاب الدمشقيين ولهذا حكمت على البريئين مع المجرم بالاعدام واقر قائد الجيش الرابع احكام الاعـدام بحق الثلاثة المذكورين ونفذ بهم حكم الاعدام في الساعة السادسة من صباح ٢٥ كانون الثاني سنة ١٩١٧

وفي اليوم التالي لهذا التاريخ صدرت جريدة (الشرق) الدمشقية وفي صدر صفحاتها الاولى تفاصيل الحفاوة التي لقيها القائد الاكبر عند وصوله الى دمشق وقد جاء في العامود الرابع من الصفحة الاخيرة ما نصه :

« اعدام خائنين : نفذ حكم الاعدام صباح امس بالمدعوين حسين بن مصطفى ومحمد علي ومصطفى جانم من يعقوبة لثبوت خيانتهم »

الى اين ذهب طومسون ؟

يكاد هذا الجاسوس الانكليزي يشبه بكثرة ضحاياه الذين ذهبوا في سبيله بالجاسوس الصهيوني الانكليزي القدليفي ·

الا ان الامر الذي كانوا يخافونه بعد اعدام حسين مصطفى اعزاز هو اعمال هذا الرجل واعوانه حتى ان احمد جمال باشا كدر قائد الفيلق الثامن لانه تسرع في التصديق على حكم الاعدام بحق الرجل قبل ان يعرف منه اسرار رفاقه ولكن قائد الفيلق اعتذر بحجة ان الجاسوسية ثابتة وانه اقر حكم الاعدام عليه بصفته جاسوساً

الا ان الامر الذي كان يهم احمد جمال باشا هو معرفة مصير سائر الجواسيس وخوفه من ان يقدموا على اغتياله او اي عمل آخر من شأنه الاساءة الى انور باشا الذي كان ينتظر وصوله قريباً الى دمشق وبيروت ولهذا استدعى اليه اليوزباشي برهان الدين بك من شعبة الاستخبـارات وزوده بالتعليمات اللازمة لمطاردة هذا الجاسوس ·

وقد توجه برهان الدين بك الى بيروت في ٢٧ كانون الثاني يرافقه الباش جاويش رضوان النعماني من اهالي بيروت وسعد الدين ابن صادق بك الميرلاي الحمصي ورئيس مراقبة التحارير في ادارة بريد بيروت للقيام بهذه المهمة وزودوا بتعليمات كافية الى الميرالاي سامي بك قائد قوات الدرك العام في بيروت قبل ان يعين قائداً عاماً لقوات الدرك في الجيش الرابع .

حياة الارهاب في ذلك العهد

وكانت تسود ذلك العهد حياة ارهاب شديد الوطأة بحيث لم يكن للحياة من قيمة فرجال السلطة المدنية والعسكرية كانوا يتبعون سياسة ظلم وبطش لا حد لها بحيث ان اقل حادث كان كافياً للمضي بالمرء الى منصة الاعدام وتجويع الناس

وكانت بيروت وجبل لبنان اشد المناطق العثمانية ظلماً فالمجاعة ضربت اطنابها في هذه المنطقة والشعب لا يهتم هنا الا للتأمين على حياته

وكان الناس يشعرون بوطأة هذه المجاعة ويشاهدون مشانق الاعدام تنصب قبل قدوم جمال باشا الى منطقتهم وبعده ولذا كانوا يعلمون عندما تنصب احدى المشانق ان الباشا قادم الى مدينتهم كما كانوا يترقبون ضربة شديدة توجه اليهم عندما يأتي جمال باشا واذا لم تنصب المشنقة كانوا على اعتقاد وطيد بان الضربة اذا لم تأت الان ستأتي فيما بعد .

وهذا ما حصل قبل مجيء احمد جمال باشا الى دمشق ففي اليوم الثالث من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ — اي في اليوم الثاني لفاجعة قطار الزبداني — داهمت قوة من الشرطة قرية « كفرسوسه » التابعة لدمشق واعتقلت فيها احد سكانها السيد ديب احمد عيد وفي اليوم نفسه اعتقلت في محلة الحميدية بدمشق محمد ابي السعود من اهالي هذه المحلة وسيقا الى الديوان

الحربي العرفي فيها

وكانت التهمة التي وجهت الى هذين الشابين السوريين ان احدهما محمد ابي السعود استقبل في منزله الجواسيس العرب الذين جاؤوا مع الجاسوس الانكليزي واثبت جواسيس الترك انهم دخلوا الى منزل ابي السعود ولما ارادوا الاحاطة بالمنزل تمكن محمد ابي السعود من تهريبهم الى قرية كفرسوسه حيث خبأهم في منزل ديب

الا ان هذين الشابين انكرا هذه التهمة انكاراً باتاً وانكرا عدم معرفتهما الجواسيس العرب المذكورين لانهما لم يتمكنا من انكار كونهما من الجنود الفارين وكانت هذه التهمة كافية لاثبات ادانتهما وهذا ما كانت ترجوه الشعبة الاولى لتتمكن من اعدامهما قصد ارهاب اهل دمشق وعلى هذا حكم الديوان الحربي العرفي على هذين الشابين السوريين البريئين بالاعدام

تنفيذ حكم الاعدام

وهب سكان دمشق في الساعة السادسة من صباح العاشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ لرؤية مشنقتين نصبتا في ساحة المرجة وقد علق عليهما محمد ابي السعود الدمشقي وديب احمد عيد الكفرسوسي وقد علقت على صدر كل منهما رقعة بيضاء كتب عليها بحروف كبيرة :

« اعدم فلان

« لثبوت ارتكابه الخيانة الوطنية واتصاله بالاعداء »

مع ان هذه التهمة غير ثابتة ولم تؤيدها محاكمة الديوان الحربي العرفي في ذلك الوقت

وصول احمد جمال

وفي صباح اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ عندما

صدر عدد جريدة (الشرق) التي يحررها بعض ابطال الوطنية العربية اليوم (المعرب – لا لزوم لذكر اسماء محرري جريدة الشرق التي اصدرها جمال باشا خلال الحرب العالمية فالعالم العربي يعرفهم جميعاً) طالعت في صدر صفحتها رسم احمد جمال باشا تحت عناوين ضخمة احدها (القائد الكبير والوزير الخطير صاحب الدولة الفريق احمد جمال باشا قائد الجيش الهمايوني الرابع ووزير البحرية الجليلة) مع بيان استقباله الحافل بحيث خصصت هذه الجريدة اكثر من صفحتين من صفحاتها لوصف وصوله واغداق النعوت والالقاب عليه ووقعت في زاوية منفردة من هذه الجريدة على خبر صغير يتضمن تنفيذ حكم الاعدام بالخائن محمد ابي السعود وديب احمد عيد

ولما لم تكن طرق المخابرات بين قاعدة القيادة في بيروت وقرى جبل لبنان متوفرة ولهذا لم يصل التعميم بطلب الجاسوس ادوار جون طومسون الا بعد مدة طويلة

والرجل الذي كان يعرف هذا الضعف في البلاد عرف كيف يستفيد منه ويتدارك سالماً وجود اوراق هوية كاذبة ساعدته على الاختفاء

الا انه بعد اربعة ايام من تجوله في لبنان اختفى اثره ولم يبق احد من الناس يعرف عن مصيره شيئاً مما اقلق بال القيادة اذ انها باتت على اعتقاد وطيد بان الرجل عاد الى بيروت وان موعد قدوم احمد جمال باشا الى بيروت قد اقترب فتخشى ان تقع حوادث مؤلمة

فاجعة السكة الحديدية

وفي الشهر الذي جاء فيه هذا الجاسوس الى بيروت حصلت عدة حوادث فاجعة اصابت باحمد جمال باشا الى تقرير خطة الشدة ليس مع هذا الجاسوس فحسب بل مع كل من يتصل به ، وفي اليوم الاول من شهر كانون الثاني

سنة ١٩١٧ غادر قطار بيروت الى دمشق وفيه ثماني حافلات مملوءة ركاباً وكانت السكة الحديدية في ذلك العهد طريق المواصلات الوحيدة بين بيروت والداخلية بسبب جمع الحكومة لجميع وسائل النقل الاخرى واستخدامها في الشؤون العسكرية

وصل القطار الى معاملة زحلة وكان هناك عدد كبير من الركاب والجنود فأضيف الى القاطرات الثماني ثلاث قاطرات اخرى فاصبحت احدى عشرة ثم سار القطار الى رياق

وكانت رياق في ذلك العهد قاعدة عسكرية ومقر قيادة الفرقة وقاعدة السوقيات لنقل الجنود القادمين من الاناضول وحلب ومن بيروت ولبنان ومن دمشق وداخلية سوريا وكان في هذه المحطة ايضاً عدد من الركاب والجنود فاضيف الى القطار ثلاث شاحنات اخرى فاصبح عددها ١٤ شاحنة تجرها الماكنة الضعيفة

حالة القطر الحديدية

ولم تكن القطر الحديدية في ذلك العهد تسير على الفحم الحجري لان هذا الفحم فقد في السنة الاولى من دخول الدولة في الحرب العالمية فاستعاضت ادارة السكة الحديدية والسلطة العسكرية العثمانية المسيطرة على مقدرات السكة الحديدية بادارة (المحروقات) التي تأسست على اثر ذلك لمشترى الحطب من المتعهدين والاهالي في مختلف جهات البلاد وبيعه في معظم محطات السكك الحديدية .

وعدم وجود الحطب الناشف كان يجعل سير القاطرات الحديدية صعباً جداً بحيث كان القطار يسير من بيروت الى دمشق بثماني عشرة ساعة وفي بعض الاحيان كان القطار يسير من بيروت الى دمشق باربع وعشرين ساعة

او اكثر اذ كثيراً ما يبرد (مرجله) من رطوبة الحطب فيضطر الى التوقف في الطريق مدة طويلة ريثما يغلي المرجل ويتابع القطار سيره

مؤامرة على القطار

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الاول سنة ١٩١٦ ورد اشعار سري الى شعبة الاستخبارات « الشعبة الاولى » يفيد ان ادوار جون طومسون الجاسوس الانكليزي ورفاقه الذين جاؤوا من منطقة الثورة العربية يقصدون نسف قطار الركاب المسافر الى دمشق ، في الوقت الذي يحاولون فيه تدبير المؤامرة لاغتيال احمد جمال باشا الا ان رئاسة هذه الشعبة التي اهتمت للحادث الثاني لتعلقه بسيدها الاكبر اهملت الامر الاول اهمالا تاماً حتى انها لم تشعر به القائد المولج بمراقبة الخطوط الحديدية فقد رأت في سلامة احمد جمال باشا ما هو فوق الاهتمام بمئات الركاب الذين يقلهم القطار الحديدي بين دمشق وبيروت يومياً وازداد اهمالها للامر مضي ايام على النبأ دون وقوع الحادث

الا ان هذا الاهمال العظيم الذي ارتكبته الشعبة الاولى ادى الى فاجعة مؤلمة فالقطار الذي غادر بيروت في اليوم الاول من عام ١٩١٧ كما بينا آنفاً سار الى الزبداني دون اي عائق ودون ان يلحظ السائق اي شيء في الطريق حتى اذا ابتعد خمسة كيلومترات عن الزبداني انقلب القطار في واد سحيق فتحطمت قاطراته واسفرت نتيجة هذه الفاجعة الاليمة عن قتل ٢٨٠ شخصاً من اهالي بيروت ودمشق وجرح ٢٣٧ لا يزال بعضهم مشوهين الى يومنا هذا

مطاردة الجواسيس

وكانت مهمة القائد برهان الدين بك ورفيقيه في مطاردة الجواسيس الذين جاؤوا من الحجاز شاقة لسببين احدهما وجودهم في محيط يكره الترك ويعاضد اعداءهم مهما كانوا ، والاخر عدم توفر معلومات راهنة عن مواقف

الجواسيس ، ولهذا ذهبت التحريات التي قاموا بها في بيروت سدى و كان انور باشا قد جاء في ٢٠ كانون الثاني ١٩١٧ الى بيروت فاكتفى هؤلاء باجراء المراقبة حوله دون جدوى

ثم جاء اشعار يفيد ان الماجور طومسون ورفيقيه ذهبوا الى طرابلس ونزلوا في دار السيد محمد مرشاق وعلى اثر ذلك امرت شرطة طرابلس باجراء المراقبة وتوجه برهان الدين بك ورفيقيه الى طرابلس سراً لمتابعة التحقيق فعلموا ان الجواسيس ذهبوا الى القبيات التابعة لعكار ونزلوا سراً في بيت عبدالله ضاهر مختار قرية القبيات ، فلم يجدوا اثراً للجواسيس ، وكان المختار مطلوباً من قبل الديوان الحربي العرفي في عاليه لتهمة اشتراكه في اعمال الجاسوسية لصالح فرنسا وقيام مخابرات بينه وبين قنصل فرنسا وعلى هذا سلم الضابط عبدالله المذكور الى قائد درك طرابلس الذي سلمه بدوره الى الديوان الحربي العرفي في عاليه فحاكمه واتهمه بالجاسوسية والخيانة الوطنية وحكم عليه بالاعدام وقبل شروق شمس ١٨ شباط سنة ١٩١٧ نفذ به حكم الاعدام شنقاً

الى اين ذهب طومسون ؟

والمعلومات التي رفعتها شرطة المنطقة الى المرحوم رشيد بك طليع متصرف لواء طرابلس في صدد مجيء طومسون ورفيقيه الى هذه المنطقة كانت حقيقية لان الجماعة بعد زيارتهم بيروت وتفقدهم الحالة العسكرية فيها وفي مناطق جبل لبنان المتاخمة لها وبعد اجتماعهم بملحم قاسم ورفاقه في حورتعلا قصدوا الى طرابلس ومن طرابلس سافروا الى عكار ومروا بقرية القبيات الا انهم لم ينزلوا على المرحوم عبدالله ضاهر ولم يجتمعوا به ولم يشعر احد بامرهم ، وقد اكتفوا بدرس الحالة العسكرية واتجهوا تواً الى قرية حورتعلا بعد ان مروا بحمص وجاؤوا منها الى بعلبك

وقد اتصلت كل هذه المعلومات ببرهان الدين بك الذي كان يتتبع خطى هؤلاء فاراد ان يضرب حولهم نطاقاً ضيقاً من الحصار لعله يتمكن من توقيفهم وهم يحاولون العودة من الجبال الى منطقة نفوذ الدولة

فرار طومسون

ولكن الانكليز الذين كان يهمهم عودة هذا الجاسوس اليهم ما لبثوا ان اوفدوا ثلاث طائرات لانقاذه سقطت احداها في جوار بريتال فتحطمت مقدمتها واخذ من فيها اسرى حرب وتمكنت الاخريان من الوصول الى السهل المنبسط حول قرية « النبي شيت » فنزلت احداها فاستقلها طومسون وحده وقد اكد القرويون هذه المعلومات لبرهان الدين بك بقولهم له ان جماعة من رجال ملحم قاسم هددوهم بالقتل وابعدوهم عن الطائرة ثم خرج من بينهم رجل اجنبي دلت اوصافه على اوصاف الجاسوس الانكليزي فاستقل الطائرة وذهب .

وعلى هذا اعتقد برهان الدين بك انه نجا من الجاسوس الانكليزي ولم يبق امامه الا الجاسوسان العربيان اللذين جاءا معه وكان على اعتقاد بانه لا بد له ان يقتلهما قريباً

ولكن من اين له ذلك وقد آثر رفيقما الاعدام واعدم فوراً في دمشق كما بينا قبلاً على ان يتلفظ باية كلمة عنهما

ومع هذا اخذ مرافقا برهان الدين يتتبعا حركة الجواسيس الى ان شعرا بشخص يركب القطار من بعلبك فرابهما امره لان الرجل غريب عن المنطقة وتوليا مطاردته الى رياق فشاهداه يركب القطار المسافر الى دمشق ومع انهما كانا يستطيعان توقيفه الا ان رئيسهما امر احدهما السيد رضوان النعماني بان يتبع الرجل الى دمشق ليتعرف الى الاشخاص الذين سيجتمع بهم ويطلعه على النتيجة واستبقى في بعلبك سعد الدين صادق لمراقبة الرجل الآخر الذي

لا يزال في الجبال

مطاردة خطرة

وقد جاء الرجل المجهول الى دمشق الا انه لم ينزل من القطار في محطة دمشق بل ظل فيه ونزل في محطة القدم مما اضطر رضوان للعودة الى القطار فلفت اليه نظار الرجل الذي شعر بان هذا الشاب لم يركب القطار الا لمطاردته واراد ان يتبع خطة جريئة تدل على استهتاره بالحياة فاغتنم فرصة سير القطار بسرعة بين المحطتين حتى اذ توسط بساتين محلة الميدان فتح باب الحافلة فجأة والقى بنفسه من القاطرة ويظهر ان هذا الامر لم يؤثر فيه اذ شوهد يسرع ركضاً بين البساتين

ما رضوان الذي تعقب الرجل حتى رآه يفلت منه على هذه الصورة الجريئة فقد اراد ان يتبع خطاه الا انه سقط من القطار بشدة فاصيب بصدمة شديدة لزمته الفراش مدة اسبوع ولما نهض من فراشه وتوجه الى مكان القيادة وجد رئيسه برهان الدين هناك فاطلعه على ما وقع له وهو يكاد يبكي من شدة تأثره الا ان رئيسه اخذ يطيب خاطره وقال له ان معرفته الرجل باتت تسهل له سبيل المطاردة وان عليه ان يذهب لاستئناف عمله وان يستعين باي رجل من رجال الامن الذين يحتاج اليهم

وقد خرج رضوان من عند رئيسه لا يعرف اية وجهة يجب ان يسلك الا ان الصدف التي تخدم دوماً رجال الامن خدمت هذه المرة ايضاً هذا الرجل، فقد جاءه صديق يدعى زكي افندي وكيل ضابط في المستشفى العسكري ومن مواطنيه البيروتيين ودعاه لتناول العشاء عنده ، وكان الضابط زكي افندي يجهل مهمة رضوان في مطاردة الجواسيس ، فلبى الدعوة وذهب فوجد هناك بضعة اشخاص من الضباط العرب فاخذوا يتسامرون

وطبيعي ان يتناول الحديث الثورة العربية وموقف الضباط العرب منها فقال احدهم ، ولا نتذكر اسمه ، ان في حي الميدان فئة تعمل على استمالة الضباط العرب وتهريبهم من دمشق الى جوار معان .

ولما كانت القيادة مهتمة لهذا الحادث وكان قد بلغها ان تسعة من الضباط العرب فروا خلال ذلك الشهر الى الجبهة تحركت غريزة رضوان لخدمة دولته واراد ان يتعرف الى حقيقة هذه العصبة ليفضح امرها فابدى امام الضابط رغبته هو ايضاً في الفرار لمعرفة الوسطاء لان هذا الضابط كان من الذكاء بحيث لم يجرؤ على الاشارة الى علاقاته بالضابط السري فقال انه لا يعرف حقيقة هؤلاء الوسطاء وانه سمع بهم وسيسعى للاتصال بهم حتى اذا عرفهم ارشده اليهم ليسافر الى حيث يشاء . وهكذا انقضت السهرة وانصرف الجميع الى منازلهم ما عدا رضوان الذي مضى تواً الى رئيسه واوقفه على ما سمع واضاف الى ذلك قائلا :

— اعتقد ان ذلك الجاسوس الذي طارده هو الذي يتولى تهريب العرب الى الجبهة ولذا ارى ان من الفائدة لنا ان نطارده سواءا كان هو الذي يتولى العصبة ام غيره » واتفقا في هذا الاجتماع على ان يظل رضوان على اتصال بهذا الضابط في الوقت الذي يتولى فيه ثلاثة آخرون يتقدمهم برهان الدين بك تتبع خطواته بصورة سرية .

وقد تمت هذه التدابير في صباح اليوم التالي دون ان يشعر الضابط العربي بالامر .

في طريق المطاردة

وفي مساء اليوم الثالث لهذا الحادث دخل رضوان على رئيسه فاخبره هذا الاخير ان جواسيسه اطلعوه على ان ذلك الضابط العربي يتردد بصورة مستمرة

على منزل صغير قائم في طرف حي الميدان بالقرب من محطة القدم وهو منزل لجندي دمشقي فار من الخدمة العسكرية وان هؤلاء الجواسيس علموا ان في المنزل فتاة هي شقيقة الجندي المدعو احمد عطا الحايك من اهالي الميدان وطلب منه معرفة السبب في تردده الى هناك

لم تكن هذه المعلومات حقيقية وكان الشاب يتردد على المنزل لانه خطيب للفتاة وهي وحيدة وكان شقيقها من الجنود المخلصين للدولة ومن مواليد ١٣١٣ وقد دعي الى الخدمة العسكرية في بدء اعلان النفير العام عام ١٩١٤ وقد لبى الخدمة فرحاً مسروراً حتى انه عندما ارتدى ملابسه العسكرية عاد الى منزله واقام الحفلات الباهرة الا ان ضربة شديدة نزلت به وكانت سبباً لسخطه على الترك واقدامه على مقاومتهم واليكم هذه الحادثة :

قضية الحايك

عندما دعي السيد احمد ابن عطا الحايك الى الخدمة العسكرية كان في منزله خمسة اشخاص لا معين لهم الا هو ووالده السيد عطا الذي كان رجلا مسناً في الستين من عمره وكان على اعتقاد وطيد بان الحرب لن تطول كثيراً وسيعود الى عائلته قريباً حاملاً اليها ثمرات انتصاراته في الحرب

وقد ارسل الى الفيلق الثامن في شبه جزيرة سينا حيث اشترك في حملة قناة السويس الاولى في شباط سنة ١٩١٥ بقيادة احمد جمال باشا وفون كره س باشا .

وقد اظهر احمد في ميدان هذه الحرب بطولة فائقة وكان في جملة افراد القافلة القلائل الذين تمكنوا من اجتياز الترعة تحت مخاطر جمة ولما اصبح منفرداً على الضفة الثانية بسبب تراجع جميع اخوانه الذين سقطوا ضحية فشل خطة القيادة سقط اسيراً في حوزة القوات الانكليزية المدافعة عن قناة السويس

الا ان رغبته في الدفاع عن وطنه وحبه لآله دفعاه لان يتدبر طريقة يفر بها من الاسر ويعود الى صفوف العثمانيين الذين بدل ان يقدروا اخلاصه وتضحيته بنفسه للعودة الى المعسكر اتهموه بالخيانة والجاسوسية فاعتقلوه وسلموه الى الديوان الحربي العرفي في عكا حيث ظل في السجن الرهيب مدة سبعة اشهر ثم افرج عنه على ان يعود الى الجبهة الحربية .

وفي هذا الوقت ورده نبأ يشعر بمرض والده العجوز فطلب رخصة للسفر الى دمشق الا ان القيادة رفضت ذلك مما اضطره الى الفرار من الخدمة العسكرية والسير على قدميه اياماً طويلة حتى وصل الى دمشق وكان في حالة مؤسفة لا فرق بينه وبين المتشردين جوابي الافاق ولكنه تحمل الالام وهو يتضرع الى الله ليحفظ والده ويمكنه من رؤيته .

ولما وصل الى المنزل رأى جمهوراً من الناس يحيط به فقد خيل الى الوالد البائس ان ولده الوحيد قتل في معركة القناة لانقطاع اخباره عنه فمرض واشتدت عليه الفاقة فمات مساء اليوم الذي سبق وصول ولده الى دمشق ولما وصل الولد الى المنزل كان اصحاب الاحسان من الجيران يخرجون بجثته ليواروها مثواها الاخير

ونترك للقراء تقدير التأثر الذي شمل هذا الشاب الذي تحمل المشقات لمشاهدة والده فوجده جثة هامدة

اضاع الشاب رشده واخترق الجماهير محاولاً الوصول الى المنزل قبل الخروج بالنعش ولكن مرت ساعتئذ دورية من دوريات مطاردة الجنود الفارين فاستوقفوا احمد وطلبوا منه اوراقه فروى لهم قصته وطلب رخصتهم لتوديع والده ومرافقة جنازته الى مثواه الاخير ثم يعود اليهم مستسلماً الا ان هؤلاء الجنود ، وهم ويا للاسف من دمشق ايضاً ، ابوا النزول على توسلاته واصروا على سوقه الى مقر القيادة

فاصيب احمد بشبه نوبة جنون وراح يتلفظ بعبارات مضطربة محاولا الافلات من الجنود وقد التف حولهم الاهلون يلتمسون من الجنود تحقيق رغبته ولكن دون جدوى اذ تكاتف الجنود عليه وقادوه بالقوة الى المركز وهناك انهالوا عليه ضرباً حتى افقدوه رشده واصيب من جراء الآلام النفسية والجسدية بحمى شديدة الزمته الفراش مدة اربعة اشهر وفي ختامها سيق الى المحاكمة لدى الديوان الحربي العرفي بدمشق وفي المحكمة وجدوا اسباباً تخفف الحكم عليه فاكتفوا بسوقه مخفوراً الى الجبهة الحربية .

وعندما اتصل امر سوقه الى الجبهة بشقيقته الصغرى فاطمة جاءت لوداعه ولما رآها منفردة وكانت في حالة هزال شديد سألها عن والدتها وشقيقتيها عائشة ورضى فاجابته انهن في المنزل الا انه لم يصدقها والح عليها في معرفة الحقيقة فابلغته ان امها ماتت بعد مرور ايام على موت والده غير تاركة لها ولشقيقتيها شيئاً من المال فبعن منزلهن ببضع ليرات لم تكفهن الا شهوراً قليلة دفعوها ثمن ادوية

ولما نفد المال افتقدت فاطمه ورضى اختهما عائشة فوجدتاها جثة هامدة لان المصائب التي توالت عليها افقدتها رشدها فقررت الانتحار تخلصاً من هذه الحياة المريرة فتجرعت كمية من طعم الفار كانت كافية للقضاء على حياتها اما شقيقتها الاخرى رضى فقد ذهبت لتفتش على عمل يمكنها من تامين معيشتها ولم ترجع واما هي ، اي فاطمة، فتقطن كوخاً صغيراً في جوار منزلها السابق وتتعاطى خدمة الجيران وتطوف في النهار بعض انحاء دمشق مفتشة عن شقيقتها دون جدوى .

فاصغى احمد الى قصة شقيقته محدقاً اليها بذهول غريب ، ولما مدت له يدها بصرة صغيرة فيها بعض الزاد كما مدت يدها الثانية بريالين من الفضة فلم يتمالك الشاب نفسه هذه المرة من تفجير دموعه فاجهش في البكاء والتفت

الى شقيقته قائلا :

- احتفظي بها لنفسك وسأعود اليك بعد يومين وان اتركك هذه المرة .

ولم يزد على ذلك بل سار وراء الحارس الى رفاقه الذين ركبوا قطار سكة حديد الحجاز كالماشية المسوقة الى الذبح

العودة الى دمشق

لم يكن احمد الحايك قد نقم على الدولة العثمانية الى ذلك الوقت ولم تخطر فكرة الانتقام بباله لاعتقاده ان ما اصابه واصاب عائلته مقدر له الا انه بعد وصوله الى محطة ازرع عدل عن فكرته هذه وقرر العودة الى دمشق والانتقام من الحكم العثماني ولهذا اغتنم فرصة غفلة من الحراس فقفز من القطار الى الارض ، وكانت القطارات كما بينا آنفاً تسير على الحطب سيراً وئيداً فلم يصب باذى .

الا ان الحراس شعروا بفراره ولكي يبرروا انفسهم اطلقوا وراءه عدة عيارات نارية ارسل على اثرها صرخة شديدة ليوهم الحراس انه قتل فسكت ازيز الرصاص وتابع القطار سيره لان الحراس لم يعمدوا الى توقيف القطار لاجل نفر من البشر واكتفوا عند وصولهم الى (درعا) باطلاع رؤسائهم على ان احد افراد هذه الماشية البشرية حاول الفرار فقتلوه وتركوه في البادية طعما للوحوش وهكذا انزلوا رقما واحداً من اصل الارقام التي يسوقونها

اما احمد فقد اقسم ان ينتقم من كل من كان سبباً في المصيبة التي حلت به وادار وجهه شطر دمشق مصمما على البقاء فيها ليحرث شقيقته الصغرى ويفتش عن شقيقته الاخرى

الحالة الاخلاقية في الحرب

كثيرون هم الذين اصيبوا بضربات شديدة في اعراضهم خلال الحرب العالمية

فقد اغتنم بعض الموظفين وبعض ارباب النفوذ من ذوي الاخلاق المنحطة الفاسدة فرصة غياب الرجال في الحرب حيث يخاطرون بارواحهم للدفاع عن الوطن فقبعوا في عقور دورهم يعتدون على نساء هؤلاء الجنود البواسل مما اهاب بالقيادة العليا لان تصدر اوامر مشددة تهدد فيها بالاعدام كل من يحاول الاعتداء على عرض جندي يحارب في الجبهة

الا ان هذه الاوامر لم تكن تتجاوز حد الورق والنشر في الصحف لان الموظفين الذين كانت مهتهم توجب عليهم تنفيذ اوامر القيادة العليا هم الذين كانوا يعتدون على النساء كما كانوا يحمون ذوي النفوذ والثروات اذا ما حاولوا الاعتداء ولهذا انتشر الفساد في البلاد وذهب عدد كبير من النساء والفتيات ضحية هذه الفوضى منهن من بعن انفسهن عن حاجة ومنهن من استسلمن بالقوة والقسر

ورضى شقيقة احمد جرفها هذا التيار مرغمة فقد بقيت تفتش عن عمل حتى خارت قواها فارتمت على قارعة الطريق متأثرة من الجوع

وصادف اذ ذاك مرور احد الضباط الترك الملازم الاول فاروق شوقي فرآها على هذه الحالة فأشفق عليها وقادها الى منزله القريب وهناك اسعفها ببعض المنعشات ولما عادت الى رشدها وعلم انها جائعة اطعمها وطلب منها البقاء في منزله لخدمته فلبت الطلب الا ان هذا الضابط جاءها بعد بضعة ايام ثملاً واعتدى عليها بعد ممانعة شديدة استعمل في نهايتها القيد لنيل وطره منها

وفي اليوم التالي حاولت الفتاة الفرار دون جدوى لان الضابط وكان قد تعشقها عهد بحراستها الى جندي هدده بالقتل اذا تغافل عنها وتركها تذهب ، وهكذا اضطرت الفتاة للبقاء في منزل الضابط شبه اسيرة مدة خمسة اشهر الى ان صدر الامر بنقله الى (معان) فاراد ان يأخذها معه فرفضت ولما رأى نفسه غير قادر على اخذها بالقوة تركها وسافر

وقد رأت الفتاة وهي البريئة من كل جرم ان تبتعد حتى عن شقيقتها فقصدت منازل بعض من يسمونهم وجهاء لعلها تلقى عندهم شيئاً من العطف والشفقة الا ان هؤلاء اهملوها حتى يئست من الحياة وقررت العودة الى منزلها مهما كان الامر

واخذه اسيراً .

وهنا الخطأ الذي ارتكبه هذا الشاب فبدل ان يسوق الضابط الى مقر قيادة الثورة عمد الى تعذيبه بصورة فظيعة بحيث لم يتركه الا وهو جثة هامدة

وقد اتصل هذا الامر بقائده فاوقفه لا ه اساء للشرف واحاله الى المحكمة العسكرية وهناك عرف لورانس بامره وادرك مقدار حقده و كراهيته للعثمانيين فقرر ان يستغل الموقف ويستميل الشاب اليه فاستدعاه سراً وحدثه في مهمة يوفده بها الى دمشق وبيروت ولبنان فقبل ومثل هناك الادوار العظيمة التي مر دناها آنفاً

ولما عاد المستر طومسون الى الجبهة فاراً على احدى الطائرات عهد الى احمد بان يتولى الدعاية في قلب دمشق بين الضباط العرب لحملهم على الفرار من الخدمة العسكرية في صفوف الترك والالتجاء الى دمشق

وخلال هذه المدة كانت شقيقته الصغرى تعرفت الى ضابط عربي هو الذي تحدث الى الجاسوس رضوان دون ان يشعر به

انتهاء فاجعة آل الحايك

و كان رضوان شديد الذكاء فتمكن من معرفة مكان المنزل الذي ارشد الجاسوس رئيسه اليه و درك ان الفتاة لم تكن منفردة دا من كان يطارده وفر من الفعار هو ساكن هذا المنزل ولهذا عاد مسرعاً الى برهان الدين بك يطلعه على النتيجة فزوده هذا الاخير بفرزة من الجند ذهب على راسها الى ذلك الكوخ فاحاط به وبالمنازل المجاورة له لاعتقاله

ومنازل دمشق ، لاسيما منازل حي الميدان، ملاصق بعضها لبعض وفي امكان سكانها اذا هجموا على انصار لا يعترضونهم ان يتنقلوا على سطوح عدة منازل بحيث يتمكنون من الفرار

و كان رضوان يعرف هذه الحقيقة فطوق المحلة بالجند لعزمه على مطاردة الرجل الى ابعد مكان يمكنه ان يصل اليه ولذا لم يدهش عندما وجد المنزل خالياً الا من الفتاتين فصعد الى السطح يصحبه اربعة انفار وبقي يتنقل على

السطوح المجاورة حتى شاهد شبح من بطارده ينزل من سطح آخر فاطلق عليه الرصاص فاخطأه .

الا ان احمد عند وصوله الى اسفل الدار وجدها خالية من السكان وابوابها موصودة لا يمكن فتحها فلفتت نظره بئر ماء وبدا له انها الوسيلة الوحيدة التي تنقذه من مطارديه وقد فضل الانتحار على الوقوع بين ايديهم خشية ان يضربوه ويسعوا لانتزاع اسرار رفاقه منه وبدا له ايضاً ان موته مفيد للقضية العربية الكبرى التي وقف نفسه لاجلها ولهذا لم يتردد طويلا والقى بنفسه في البئر

وقد شاهده رضوان فاسرع الى انقاذه دون جدوى لان البئر كانت عميقة جداً بحيث لم يصل الى قاعها حتى اصبح جثة هامدة

ما قالته « الشرق »

وفي اليوم الثالث للحادث اي في اليوم الثالث والعشرين من شهر شباط سنة ١٩١٧ نشرت جريدة الشرق لسان حال احمد جمال باشا في زاوية قصية من عددها ما نصه :

« القى احمد عطا الحايك نفسه في بئر ماء في احد منازل حي الميدان في دمشق فانتشل جثة هامدة

واحمد جندي فار من الخدمة العسكرية وخائن اشتغل لحساب الاعداء وهكذا لاقى جزاء خيانته »

ولم تقف فاجعة هذه العائلة البائسة عند هذا الحد الذي انتهت معه حياة عميدها المذكور بل تعدته الى الفتاتين اللتين اعتقلتا بتهمة اشتراكهما في حوادث الجاسوسية ونفيتا الى الاناضول بعد ان اقامتا بسجن دمشق مدة خمسة واربعين يوماً الا ان رضى الفتاة البائسة ، اصيبت بحمى التيفوس وهي في القطار بطريقها الى حلب فنزلت في حماه وابت شقيقتها الا البقاء بجانبها فانتقلت اليها العدوى وماتتا في يوم واحد وذلك في ٨ اذار سنة ١٩١٧

اما رضوان فقد حصل على تقدير رؤسائه مع الوسام الحربي الذي قلده اياه في حفلة

رسمية ثم رقي الى رتبة وكيل ضابط وعهد اليه تحت اشراف برهان الدين بمطاردة الجاسوس الاخير وسواه من الجواسيس

الفصل التاسع

اشتدت وطاة الجاسوسية في منطقة الجيش الرابع خصوصاً بعد اعلان الشريف حسين (المغفور له جلالة الملك حسين) ثورته في حزيران سنة ١٩١٦ على السلطنة العثمانية فاصبح الترك في ذلك الوقت عرضة ليس لجواسيس الاعداء فحسب بل ابناء البلاد ايضاً

وتدل التقارير الواردة الى الشعبة الاولى من مختلف الجهات على ان العاملين في صفوف الاعداء من ابناء البلاد لا يقلون قوة ونفوذاً عن الجواسيس اليهود الذين يشتغلون لحساب الانكليز في فلسطين

الا ان هؤلاء الجواسيس ينقسمون الى قسمين احدهما يشتغل في صفوف الفرنسيين كالسيد بشارة البويري والخوري بولص عقل وغيرهما

والاخر افراد مختلفون قادتهم الظروف التي سنتحدث عنها الى الانخراط في صفوف اعداء الدولة العثمانية كما حصل للمرحوم احمد عطا الحايك

اما رفيقه الذي ظل سالماً من بين هؤلاء الثلاثة فقد سبق له ان مثل ادواراً خطيرة قبل هذا الحادث بمدة طويلة انتهت بتوقيفه واعدامه وراء قلعة بعلبك في اليوم الثاني من شهر ايار ١٩١٧ وهو مصطفى بن محمد رجب المبيض من افراد السرية الاولى التابعة للكتيبة الاولى من الاي بعلبك واليكم بيان ذلك :

مؤامرة وهمية

لا اعرف تاريخ حياة هذا الرجل الا ان الظروف عرفتني اليه في اليوم التاسع من شهر تموز ١٩١٦ في دمشق حيث كان اركان الحكومة العسكرية والمدنية في محطة دمشق يتقدمهم احمد جمال باشا في استقبال الشريف علي حيدر باشا الذي

عينه الترك اميراً على مكة المكرمة بدلا من الشريف حسين

وفي هذا اليوم الذي غصت فيه محطة دمشق بمئات من رجال الدولة واعيان البلاد ووجهائها قام رجال التحري يفتشون الناس ويراقبون المشتبه بهم لان خبراً ورد الى الشعبة الاولى في اليوم الرابع من شهر تموز المذكور يشعر بان مؤامرة دبرت لاغتيال الشريف علي حيدر باشا في الخارج وان المتآمرين اوفدوا بعض الفدائيين لقتله

الا ان هذا الخبر لم يشر الى الطريقة التي اتخذت لتنفيذ هذه المؤامرة ولهذا صدرت الاوامر باعتقال كل من يشتبه بامره في جوار المكان الذي سيمر به الشريف والتحقيق معه لمعرفة هويته والاسباب التي دعت لمجيئه

وكان في جملة الذين اعتقلوا في ذلك اليوم مصطفى محمد رجب المبيض الجندي في الاي بعلبك ومع انه افرج في اليوم نفسه عن كثيرين من الذين اوقفوا الا ان هذا الشاب ظل معتقلا لان التحقيق ثبت انه كان في وظيفته عند مرور قطار الشريف علي حيدر باشا من بعلبك وانه غادر وظيفته بامر مزيف من رئيسه بصفته موفداً بمهمة رسمية الى دمشق وبذلك تمكن من ركوب القطار الذي يقل الشريف الى دمشق ومع انه كان في امكانه تنفيذ المؤامرة واغتيال الشريف علي حيدر باشا في المحطات التي مر بها القطار وبما انه لم توجد معه سلحة نارية عند توقيفه ، لهذا اعتقد رئيس الشعبة الاولى ان الرجل جاء يتجسس على الشريف فانصرف الى التحقيق معه وكنت في ذلك الوقت حاضراً هذه التحقيقات

ولكن مصطفى ظهر لدى استنطاقه بسذاجة متناهية وعلن انه جاء الى دمشق ليرى عشيقة له ، لهذا زور امر رئيسه ليتمكن من الحضور الا انه لم يتمكن من اثبات مكان هذه العشيقة قائلاً انه كان متفقاً معها على ان تنتظره في محطة دمشق وانه كان في امكان الجنود ان يعرفوا مكانها لو تركوا له الوقت اللازم لذلك وان عشيقته قد تكون علمت بامر توقيفه فخافت العاقبة ففرت

وكان تعليله الذي اورده ببساطة مقنعاً الا انني لم اصدقه لا انا ولا رئيس الشعبة الاولى

وقد اعتقدنا ان وراء هذه السذاجة المتناهية دهاءً شديداً ولهذا قررنا توقيفه لمتابعة التحقق معه توصلا الى معرفة الحقيقة وقد كنت على ثقة بان للرجل معرفة تامة بالنبأ السري الوارد

فرار المبيض

ولم يمكث مصطفى المبيض في السجن العسكري اكثر من خمسة ايام فبالرغم من الرقابة الشديدة التي بثت حوله في السجن الانفرادي تمكن ليلة الرابع عشر من شهر تموز من الفرار وقد ابلغنا جاويش الحراس ان الرجل فر واعتقل الحارس احمد ايش وهو كردي الاصل من اهالي ماردين لمعرفة كيفية فراره وحققنا معه فانكر بادىء ذي بدء انه سبب فرار الرجل الا انه بعد ان رفع (فلقاً) وضرب عدة عصي اعترف بالحقيقة وهي انه ساعد الرجل على الفرار بعد منتصف الليل مقابل خمس ليرات عثمانية ذهباً فارسلنا التعليمات الى جميع رجالنا لمطاردة الرجل الفار والقبض عليه حياً او ميتاً

هل كان هناك مؤامرة ؟

وتفيد الوثائق التي لدينا والتي اثبتتها معلومات الشعبة الاولى ان مؤامرة دبرت في شارع المدابغ في مصر فقد عقد هناك اجتماع حضره الشريف عبدالله (لم يذكر المؤلف هوية الشريف ولكنه ليس سمو امير شرقي الاردن الذي لم يكن في ذلك الوقت في مصر بل كان في الحجاز) والضابط السابق واثق بك وسليم حجازي والدكتور فؤاد وتقرر فيه ارسال من يغتال الشريف علي حيدر باشا واحمد جمال باشا اذ بدا لهم في قبول الشريف علي حيدر باشا امارة مكة في الوقت الذي اعلن فيه الشريف حسين ثورته العربية لاستقلال العرب امراً من الخطورة بمكان عظيم قد يقسم العرب الى شطرين ولذا رأوا من الضرورة انقاذ البلاد منه ، ولتحقيق هذه الغاية نظموا خططهم وقرروا انتداب احدى السيدات لتنفيذ هذه المؤامرة

ودلت التقارير السرية ايضاً على ان الدكتور فؤاد والشريف عبدالله كانا على

اتفاق تام وقيادة قوات الاحتلال البريطانية وشعبة الاستخبارات فيها وقد عهد اليهما بادارة هذه الحركة

ثم وردت اخبار متأخرة تفيد ان المتآمرين اوفدوا احدى السيدات لادارة هذه الحركة في سوريا نفسها

من هي المرأة المصرية ؟

وقد كان لهذه المعلومات تأثيرها الشديد في القيادة العليا لاسيما ان المبيض كان قد اعترف بانه جاء الى دمشق ليجتمع بعشيقة له وأن هذه العشيقة كانت في المحطة لاستقباله وانه لا يعرف مكانها واعتقدت القيادة ان هذه العشيقة التي اشار اليها لم تكن في الحقيقة الا رسولة المتآمرين في مصر ولذا رأت من المناسب معرفة هوية هذه المرأة وتوقيفها ومعرفة رفاقها

وخطر للملازم برهان الدين بك خاطر ساعده كثيراً على التقاط خيط العقدة فارسل تعميما الى قائد قوات الساحل يدعوه فيه ان يرسل اليه جميع التقارير الواردة اليه من قواد مخافر الساحل عن جميع الامور التي مرت بهم من اول ايار الى آخر تموز لعله يعثر فيها على ما ينير امامه سبل التحقيق وبعد بضعة ايام وردته رزمة كبيرة من هذه التقارير فانصرف الى درسها وافرز منها كل ما له علاقة بالنساء واستقر رأيه على خمسة تقارير منها طلب اجراء التحقيق فيها وهي :

اولا — تقرير من قائد مفرزة الساحل في يافا جاء فيه انه بينما كانت دورية الشرطة تقوم بواجبها في الجبهة الشمالية من مدينة (قيسارية) عثرت على امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها تجول على الساحل بصورة مريبة فاشتبه بها وقيدت الى المخفر حيث اعترفت بانها كانت تحاول الانتحار لضيق ذات يدها ولما لم يجد قائد المفرزة في امر هذه السيدة التي تدعى رمزية بنت سليم الناعسة من قرية قانون ما يريب امر باخلاء سبيلها ٠

(التقرير مؤرخ في ١٨ ايار سنة ١٩١٦)

ثانياً = تقرير وارد من قائد مفرزة صور يفيد انه في ليل ٢١ — ٢٢ ايار

سنة ١٩١٦ شاهد بنفسه زورقاً عادياً يقترب من الساحل في الجبهة الجنوبية من صور ثم رأى امرأة تحاول الاقتراب منه ولما شاهده من في الزورق عادوا ادراجهم ولكنه اعتقل المرأة فاعترفت له بانها تدعى سارا شالوم وانها فتاة يهودية اهلها في مصر وكانت تريد الفرار بالزورق

الا ان تقريراً آخر من قائد المفرزة المذكورة مؤرخاً في ٢٤ منه يقول ان التحقيق اثبت ان هذه الفتاة بعد اكتشاف رفاقها الجواسيس اليهود حاولت الفرار لانتسابها الى احدهم ولهذا ارسلها مخفورة الى الديوان الحربي العرفي في عكا

ثالثاً — تقرير مؤرخ في اول حزيران من السنة نفسها وارد من قائد مخفر العبدة بالقرب من طرابلس يفيد انه اوقف امرأة كانت تطوف الساحل وتبين انها من طرابلس وتدعي ملكة بنت طنوس ياسمين وقد اعترفت بان المجاعة قذفتها الى هذه الجهة

رابعاً — تقرير وارد من قائد منطقة طرطوس يفيد انه اوقف ليلة ١ — ٢ حزيران امرأة قالت انها بينا كانت آتية من مصر الى قبرص حيث يقطن شقيقها اعترضتها في الطريق سفينة حربية فرنسية واخذتها اسيرة وجاءت بها الى ارواد وانها اغتنمت فرصة وسرقت زورقاً جاءت به الى طرطوس

خامساً — تقرير من قائد طرطوس بتاريخ ٤ حزيران سنة ١٩١٦ هذا نصه :

الحاقاً بالتقرير اليومي رقم ٢٦١ — ٨١٥ المؤرخ في ٣ حزيران تبين لنا من افادة المرأة التي اعتقلناها على الساحل وهي قادمة من جزيرة ارواد انها تدعي عائشة كريمة مخلص عبد الكريم من اهالي القاهرة وان والدها مخلص بك كان من رجال السلطان عبد الحميد

ولكن بعد اعلان الحرية العثمانية نقم عليه رجال الحكومة فجاء الى مصر واستوطنها وان لها اخاً في « لفقوشه » عاصمة جزيرة قبرص يتعاطى التجارة وان الفرنسيين عندما اعتقلوها في المركب « جاد الله » بطريقها الى قبرص اعتبروها عثمانية واخذوها اسيرة الى « ارواد » وفي ارواد كانت عرضت لمحاولة اغراء بعض

الجنود ولهذا اغتنمت فرصة وفرت الى السواحل العثمانية حيث يمكنها ان تكون تحت الحماية ولذا تسلمت الى نيادة موقع طرابلس للنظر في امرها

سادساً — تقرير مؤرخ في ١٧ حزيران مرسل من قائد موقع بيروت يشعر بتوقيف فتاة في جوار نهر بيروت تدعى حنة بنت يوسف مرشد كانت تحاول الفرار على زورق وقد اعترفت هذه الفتاة بانها كانت تحاول الفرار الى ارواد مع بعض اقاربها للتخلص من المجاعة وان رفاقها نجوا وبقيت هي

وقوع الشبهة على عائشة

وقد اخذ برهان الدين بك علماً بهذه التقارير الخمسة وحقق فيها فتبين له ان النساء الثلاث الوارد ذكرهن في التقارير ١ و٣ و٥ موجودات اما الفتاة اليهودية الوارد ذكرها في التقرير الثاني فقد سيقت الى دمشق لتحاكم مع سائر الجواسيس اليهود .

واما الفتاة عائشة التي ورد ذكرها في التقرير الرابع فقد تبين من تحقيقات قائد مركز طرابلس ان هذه الفتاة سلمت فعلاً اليه في اليوم الرابع من شهر حزيران ١٩١٦ الا انه لم يجد في عملها ما يوجب ادانتها فاخلى سبيلها بعد ان استأجرت غرفة في منزل سامحة بنت محمد حسونة في محلة التل

وعلى الاثر ابرق الى مدير بوليس طرابلس لمعرفة مكان الفتاة فتبين له ان الفتاة لم تمكث في بيت السيدة سامحة الا ليلتين . وفي صباح اليوم السابع من شهر حزيران خرجت ولم ترجع

ثم ارسل استعلاماً الى شعبة الاستخبارات السرية في مصر للتحقيق عن كريمة مخلص بك وهل شخصها معروفة في مصر فجاء الجواب بعد عشرة ايام بفيد ان لمخلص بك المذكور فتاة واحدة هي نريمان خانم وان هذه الفتاة تقيم في (مصر الجديدة) بالقاهرة

الا ان هذا التقرير احتوى معلومات اخرى ذات اهمية في نظر التحقيق الذي يقوم به برهان الدين بك . فقد جاء في ما يلي:

« لدى مخلص بك وصيفة هي فتـاة جميلة الصورة في الواحدة والعشرين من عمرها تدعى بريهان بنت رفعت بك وكان والدها من رجال الخفية الذين استخدمهم عبد الحميد ثم اتهم بالاشتراك في تدبير الثورة التي نشبت في ٣١ اذا ١٩٠٩ فاعتقل ونفذ به حكم الاعدام . كانت ابنته في مدرسة « روبير كوليج » الانكليزية . ولما اعدم والدها نقمت على الاتحاديين وجاءت الى مصر حيث استخدمت وصيفة ومعلمة لبريهان خانم

وقد كانت هذه الفتاة في المدة الاخيرة تكثر من مبارحة المنزل حتى هددها مخلص بك بالطرد وفي ١٢ ايار غادرت منزل مخلص بك ولم تعد اليه

ولهذه الفتاة علامة فارقة في وجهها وهي شامة بحجم حبة العدس مرتكزة على رأس خدها الايسر . ونعتقد ان هذه الفتاة كانت على اتصال بشاب احبته وقد دلت اوصافه التي اخذناها من خدم مخلص بك على انه الدكتور فؤاد احد رجال شعبة الاستخبارات في القاهرة

وقد اطلعناكم في تقرير سابق على قضية تآمره على الشريف علي حيدر باشا»

فازدادت شبهة برهان الدين بك بالفتاة وظن انها الجاسوسة التي يتحرى اثرها ولكي يستثبت اوصافها ارسل يسأل قائد طاقم طرطوس وقائد طاقم طرابلس والسيدة سليمه التي باتت عندها يومين فأكد هؤلاء الثلاثة وجود اثر (الشامة) على خد الفتاة

بعد معرفه هوية الجاسوسة

وهكذا تمكن برهان الدين بذكائه وبالطريقة التي اتبعها آنفاً من معرفة هوية هذه الجاسوسة وبقي عليه معرفة مقرها وذلك امر صعب جداً لان هذه الفتاة الذكية المجربة تستطيع الاختفاء عن الانظار لاسيما انها محجبة بنقاب كثيف وليس في الامكان توقيف امرأة وازاحة النقاب عن وجهها

ومع هذا لم ييأس برهان الدين بك من الامر لانه كان على اعتقاد وطيد بان الفتاة التي خاطرت بحياتها هذه المخاطرة العظيمة لا بد لها ان تتصل برفاقها في

الخارج ولذا رأى من واجبه ان يقوم بسعيين :

الاول — مراقبة السواحل مراقبة دقيقة لمعرفة الطرق التي ستتبعها للاتصال برفاقها .

والاخر — احاطة المنطقة الداخلية بفئة من جواسيسه لمعرفة مكانها

كانت الخطة التي اتبعها برهان بك في مطاردة الجاسوسة السرية ومعرفة رفاقها موفقة لان المراقبة الدقيقة التي وضعها الضابط ساعدت كثيراً على استجلاء الحقائق .

وفي اليوم العاشر من شهر تموز سنة ١٩١٦ بينما كانت دورية من خفراء الساحل تقوم بجولة في تلك الجهات شاهدت عن بعد زورقاً عاديا يقترب من الساحل فبادره افرادها باطلاق النار الا ان الزورق عاد ادراجه ولم يتمكن رجال الامن من معرفة من فيه

وفي الوقت نفسه شاهدوا رجلاً يعدو مسرعاً في تلك الجهة فلحقوا به ثم امروه بالوقوف وكرروا انذارهم باطلاق الرصاص وراءه فاضطر الى الوقوف ومضوا به الى الساحل وهناك تحروه فوجدوا معه رقعة كتبت بلغة يجهلونها ولما سألوه عن امره اجاب انه كان يريد الفرار الى الخارج وانه لا يعرف شيئاً عن الزورق وقد جاء الى الساحل عندما شاهدوه ليتمكن من الفرار عليه

وقد انكر الرجل في بادىء الامر هويته وقال انه من يافا الا ان ورقة اكتشفت في طيات ثيابه دلت على ان اسمه محمود عبد الله علي من اهل شارع علي باشا في الاسكندرية ومن مواليد سنة ١٨٩٠ وكان في ذلك الوقت في السابعة والعشرين من عمره ولما كانت قيادة قوات السواحل في ريبة من امره سلمته الى اسماعيل حقي بك وكيل مديرية الشرطة للتحقيق معه فقضي مدة يومين كاملين تمكن خلالها من معرفة كثير من اسراره فقد اعترف الشاب بانه جاء الى بيروت منذ سبعة اشهر على زورق بخاري بصحبة زميل له يدعى محمد احمد الشعراوي من اهالي الاسكندرية وقد انزلها الزورق بالقرب من طرابلس وهناك استقبلها شاب يجهلان هويته

وكانت الاوامر الصادرة اليهما ان يعملا بموجب اشارة هذا الشاب الذي عهد اليه ان يسلمهما رسائل ينقلان بها في المناطق الساحلية تارة في الجهة الجنوبية من جونية وطوراً في جور الدامور وهلم جراً

ولما كان هو ورفيقه الشعراوي يحسنان السباحة فانه يحتم عليهما ان يسبحا في بعض الاحيان الى مسافة بعيدة لايصال الرسائل الى هدفها

وقد اكد الرجل انه يجهل هذه المهمة ولا يعرف عن هؤلاء الجواسيس شيئاً

وقد اعلن محمود عبدالله علي وكيل مدير البوليس انه كان متفقاً ورفيقه محمد احمد الشعراوي على الاجتماع مساء الخميس — اي مساء اليوم الثالث للاعتراف هذا — في منزل احد مواطنيه احمد حسن من اهالي قرية (الارداشية) بمصر ، وكان هذا المنزل في محلة زقاق البلاط .

توقيف اذناب الجواسيس

وكانت هذه المعلومات التي ادلى بها الرجل مهمة جداً ولهذا ابرق وكيل مدير البوليس في بيروت بخلاصتها الى برهان الدين بك رئيس فرقة مقاومة الجواسيس في قيادة الجيش الرابع فاسرع فوراً الى بيروت واختلى مدة طويلة بمحمود عبدالله علي واكد له انه مستعد لمساعدته ليس باخلاء سبيله فحسب بل بتزويده بمبلغ كبير من المال اذا ساعده على استجلاء حقيقة الادوار التي مثلها هؤلاء الجواسيس في البلاد فوعده خيراً

وفي الوقت المعين لاجتماع الرجل برفيقيه طوق منزل احمد حسن باكثر عدد ممكن من رجال التحري حتى اذا جاء محمود الى هذا المنزل كان من الصعب خروجه منه

وكان المنزل خالياً الا من سيدتين احدهما زوجة صاحب المنزل وهي امرأة من اهالي جبل عامل تدعى مهيبة بنت حسين موسى من قرية (الزرزرية) والاخرى فتاة لم يهتم لها المطاردون

وفي الساعة الواحدة والنصف شاهدوا الرجلين المنتظرين اتيين وقد تأبط

كل منهما ذراع الاخر وما كادا يدخلان المنزل حتى عرف رجال التحري انهما الرجلان المطلوبان فهجموا عليهما واعتقلوهما بعد ان تحروا المنزل ولم يجدوا فيه شيئاً .

وهنا ارتكبوا هفوة كبرى بعدم تحري السيدتين لان الصغرى منهما كانت الجاسوسة الخطيرة وكان محمود الذي وشى برفيقيه يجهل امرها ولهذا اغتنمت فرصة مضي رجال الامن بالرجال الثلاثة وتوارت عن الانظار نهائياً

ومحمد احمد الشمراوي ورفيقه حمد حسن وكلاهما من اهل مصر لم يعترفا بشيء بل اصرا على الانكار واعلنا انهما في الحقيقة من اهل مصر الا انهما جاءا بيروت قبل الحرب العالمية

وقد ثبت احمد حسن ذلك بزواجه من الفتاة العاملية قبل الحرب العالمية .

الا ان محمداً تجاه اصرار رفيقه محمود لم يلبث ان اعترف بانه جاء فعلا مع رفيقه الا انه لم يكن الا آلة بيد سيدة يجهلها وهي التي تزوده بالاوامر اللازمة لابلاغها الى من يأتيها من البحر ، وانه يتقاضى مقابل ذلك مبلغاً طائلا من المال ووصف هذه السيدة ، فقد جاءت اوصافها منطبقة على اوصاف الفتـاة التي لجأت الى طرطوس باسم عائشة والتي تبين بعدئذ ان اسمها الحقيقي نريمان .

وقال انه في بعض الاوقات يتلقى تعليمات الفتاة بواسطة شاب مصري يأتيه تارة بلباس مدني وطوراً بلباس عسكري برتبة ضابط ، وانه يجهل اسم هـذا الرجل الذي كان يلقب بالبك

وقد اخذ برهان الدين بك اوصاف هذا الرجل الوسيط فوجدها تنطبق تمام الانطباق على اوصاف شاب اشتبه بامره فاعتقله في جهات طرابلس قبل الحادث بشهر واحد ، الا ان الرجل تمكن من ابراز وثائق وادلة كانت كافية لبراءته واخلاء سبيله ، ولهذا ابرق فوراً الى قائد درك طرابلس للتحري عنه وتوقيفه لمواجهته بهذا الشخص لمعرفة ما اذا كان هو حقاً ام لا

رؤساء الحركة •

وفي اليوم الثاني وردت برقية من قائد درك طرابلس تشعر بان الرجل المطلوب يدعى عبد الحميد احمد رضى من اهل حلب وقد سافر برفقة شاب يدعى الياس مخائيل مينا من اهل «عرسوز» الى دمشق وانهما قد يكونان فيها

وعلى اثر ذلك ارسل برهان الدين بك اسمي الرجلين مع اوصافهما الى مديرية شرطة دمشق لتتحرى اثرهما ، وبعد ثلاثة ايام اعتقلا وسلما الى ادارة شرطة بيروت وهناك عرضا من وراء واجهة من الخشب المقفص على محمد احمد الشعراوي الذي ارشد الى احدهما عبد الحميد قائلا انه هو رسول تلك المرأة السرية ثم تحري رجال الشرطة منزل الياس في عرسوز ومنزله الاخر في محلة التبانة في طرابلس فعثروا فيهما على رسائل تثبت مخابراته مع السلطة الانكليزية وانها اوفدت اليه شخصاً يدعى عبداللطيف محمد حيدر من اهل الاسكندرية ليكون صلة اتصال بينه وبين رئيس اكبر اوفد الى بيروت لتنظيم الحركة

وتجاه هذه الادلة المثبتة شدد نطاق التحقيق على الياس لمعرفة مكان الرجل الوارد ذكره في هذه المذكرة ، وبعد ان ذاق صنوف التعذيب اعترف بان عبد الحميد لم يكن الا اسما مستعاراً لرفيقه الذي هو عبد اللطيف محمد حيدر من الاسكندرية ،عبد اللطيف نفسه لم ينكر هذه الحقيقة قط الا انه انكر معرفته مكان المرأة و اسمها الحقيقي قائلا :

ـ ان التعليمات الموجودة لدي هي ان اكون تحت تصرفها وان اعمد الى تنفيذ اوامرها

و كيف تتعارفان ؟

-- انني اعرفها شخصياً •

— وما هي الاوامر التي اعتطك اياها ؟ لقد سلمتني عدة اوامر منها معرفة تنقلات الجيوش العثمانية · و كان في ميسوري ذلك اذ تمكنت من ان تتدارك لي وثيقة تثبت كوني من ضباط الجيش التابعين للفيلق الثامن

= واين هذه الوثيقة ؟ مزقتها حين القي القبض علي

— وما هي علاقتك بالياس ومهمتك في دمشق ؟

— عهد الي ان اتصل به واتعاون معه في بعض الامور وان ابلغ السيدة ان القيادة تستعد لحملة قوية تريد ارسالها الى الحجاز حيث بدأت الثورة العربية ولهذا اوفدتنا الى دمشق لدرس الاستعدادات العسكرية الجارية هناك ودرس حالة اعيان دمشق ووجهائها بعد ثورة الحجاز

— واين اتفقتما على الاجتماع ؟

لم نتفق على الاجتماع في مكان ما انما اعلنتنا وجوب نزولنا في فندق « زهرة دمشق » حيث توصل الينا تعليماتها

مراقبة الفندق

وفي اليوم الذي تلقى فيه برهان الدين بك هذه الافادة ابرق الى عماله في دمشق بمراقبة الفندق المذكور مراقبة دقيقة واخذ كل المعلومات التي ترد اليه باسم عبد اللطيف او عبد الحميد والياس وهو ماله بها برقيا

لان برهان الدين بك كان خائفا من ان لا ترد هذه التعليمات لاسيما ان الجاسوسة نريمان كانت قد شهدت توقيف محمد احمد الشعراوي ورفاقه

ومع هذا تأمل خيراً من وراء ذلك ووضع الرقابة ثم احال هؤلاء الاشخاص الخمسة في ٣٠ تموز سنة ١٩١٦ الى الديوان الحربي العرفي في عاليه مرفقا اياهم باوراق التحقيق الاولى كاتما اعترافات الشعراوي عن الجاسوسة ليتابع التحقيق

ولم تستغرق محاكمة عبد اللطيف محمد حيدر لدى الديوان الحربي العرفي في عاليه اكثر من بضعة ايام وفي اول آب سنة ١٩١٦ حكم باعدام الياس ميخائيل مينا من اهالي عرسوز وعبد اللطيف محمد حيدر من اهالي الاسكندرية وحكم على محمد احمد الشعراوي بالاشغال الشاقة مدة عشر سنوات وعلى محمود عبدالله علي من اهالي الاسكندرية واحمد حسن من قرية ارداشية التابعة لمصر بالسجن ثلاث سنوات

وجاء في العدد المؤرخ في ٨ آب من جريدة (الشرق) الصادرة في دمشق

ما نصه :

وفي الساعة السادسة من صباح الاربعاء الموافق للسادس من شهر آب (١٩١٦) نفذ حكم الاعدام شنقاً في ساحة الاتحاد ببيروت (ساحة الشهداء اليوم) بالياس مخائيل مينا من اهالي عرمون وعبد اللطيف محمد حيدر من اهالي الاسكندرية لثبوت اشتراكهما في اعمال الجاسوسية ضد الدولة العثمانية وهكذا لقي هذان الخائنان جزاءهما »

الجاسوسية في دمشق

وفي الوقت الذي انطوت فيه صفحة هذين الشابين بانطفاء شعلة حياتهما كان برهان الدين بك ورفاقه يطاردون بقية الاشخاص الذين تدير شؤونهم السيدة نوريان خانم ، وقد ضاعت آثار هذه السيدة . وفي اليوم الاول من شهر آب سنة ١٩١٦ ورد من رضوان في دمشق اشعاراً يفيد ان شاباً يدعى عبد العال عبد الكريم عرفه من اهالي الميدان جاء في اليوم السابق الى فندق (زهرة سوريا) حاملا رسالة باسم عبد اللطيف المتخذ لنفسه اسم عبد الحميد وانه لم يشأ توقيف هذا الشاب لانه اوفد احد رجاله لمطاردته ومعرفة المكان الذي يأوي اليه وقد اتخذ لنفسه اسم الجاسوس المطلوب اي اسم عبد الحميد رغبة منه في معرفة شيء عن مهمة الشاب الا ان هذا الاخير قال له انه ليس لديه ما يقوله سوى تسليم هذا الكتاب اليه يداً بيد وان يضيف الى ذلك :

— كن حريصاً ولا تبقى طويلا في الفندق

ويضيف الجاسوس على ما تقدم انه فتح الكتاب فوجد فيه الجملة التالية :

« اذهب نهار الجمعة بعد الظهر الى حرستا واجتمع بعبدالله محمد عنده الذي سيكون وسيطاً لك »

اما عبد العال عبد الكريم عرفه فانه بعد مغادرته الفندق في الساعة التاسعة صباحاً قصد الى احد مقاهي ساحة الاتحاد (ساحة المرجه اليوم) فدخن النارجيلة واجتمع خلال ذلك بشاب تحدث اليه مقدار نصف ساعة ولما خرج الشاب المجهول

اوفد وراءه احد رجال البوليس الملكيين نظراً لعدم وجود احـد من رجاله في المنطقة لمطاردته

وبعد ساعة عاد هذا الجندي واعلمه ان الشاب الذي امره بتعقبه هو من اهالي حرستا وقد جاء الى خان في سوق مدحت باشا حيث ركب حماراً وسافر الى قريته وانه سأل صاحب الخان عن هذا الرجل فعلم انه يدعى علي احمد عيسى من اهالي قرية حرستا

اما عبد العال فلم ينتظر طويلا في المقهى بعد انصراف الرجل بل تابع سيره مشياً الى سوق محمد علي باشا ومنها توجه الى سوق مدحت باشا حيث اشترى بعض الحاجيات وسار الى جادة (عرنوس) فدخل منزلا صغيراً علم انه منزل شقيقته فاطمه وهي متزوجة من شاب يدعى عبد الحميد اسعد المقدادي السائق في شركة الترام وقد وضع حوله اثنين من رفاقه لاجراء المراقبة الدقيقة

وقد ختم رضوان تقريره هذا بقوله :

وقد تبين لي من خلاصة هذه التحقيقات التي قمت بها آنفاً ما يلي :

اولا — ان الجاسوسة عائشة خانم التي تقوم الان بمطاردتها لا تزال جاهلة مصير رجالها

ولما كانت البرقية الواردة من رئاسة الديوان الحربي العرفي تشعر بانه حكم على رفاقها بالاعدام فالواجب يقضي بلا مراء بمداهمة عائشة خانم في حرستا قبل فرارها

ثانياً — اليوم الثلاثاء والاجتماع سيعقد بعد ظهر الجمعه في (حرستا) ولهذا ارى من الواجب تأخير تصديق حكم الاعدام على الجواسيس

ثالثاً — لا شك في ان عائشة خانم موجودة الان في (حرستا) والدليل على ذلك الكتاب الذي ارسلته باسم السجين عبد اللطيف وتعيينها يوم الجمعـة موعداً لمقابلته في منزل عبدالله محمد عنته في حرستا

ثم ان ايفادها علي احمد عيسى الى دمشق لمقابلة عبد العال دليل واضح على ان الفتاة موجودة الان في حرستا وسيعود الرسول اليها فوراً لابلاغها نتيجة مقابلته لعبد العال .

فأرى من المناسب ، اذا وافقتم على ذلك ، اصدار امركم السريع باجراء مراقبة دقيقة حول حرستا او نعمد الى مهاجمة هذه القرية وتحري دورها »

الا ان برهان الدين لم يوافق على الاقتراحين معاً واراد ان يترك الامر في هذه القضية الى النهاية فيوفد احد رجاله متنكراً بزي عبد اللطيف لمعرفة ما يكون من نتيجة ذلك وهذا ما تم

مطاردة الجاسوسة

وقد غصت قرية حرستا صباح الجمعة خلافاً لعادتها بعدد من القرويين القادمين من القرى المجاورة لمشترى الحبوب

ولو ان احداً امعن النظر في هؤلاء القرويين لادرك من ملامحهم وايديهم الناعمة انهم لا ينتسبون الى المزارعين وليسوا في الحقيقة الا من رجال الامن الذين اوفدهم برهان الدين بك للاحاطة بهذه القرية وتوقيف كل من يحاول الخروج من القرية رجلا كان او امرأة

وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم جاءت الى حرستا سيارتان كبيرتان تحملان جنوداً واحضر هؤلاء الجنود مختار القرية وامروه بدعوة كل من فيها من رجال فائتمر المختار وحشد الرجال في ساحة القرية وراح يتحرى المنازل الاخرى فوجد بعض الاشخاص الفارين من الخدمة العسكرية فاعتقلهم .

اما عبدالله محمد عنته الذي ورد ذكره في الكتاب الوارد الى عبد اللطيف فلم يعثر له على اثر الا ان المختار اعلم ان الرجل قد يكون مختبئاً في مزرعة مجاورة لم يداهمها الجند تخص محمد حسين العاصي فقصدها برهان الدين بك مع رجاله وهناك وجدوا افراد العصابة جميعها وهم :

محمد حسين العاصي ، علي احمد عيسى الرسول الذي اوفدته المرأة الى

دمشق وعبد الله محمد عنتر ، محمد عمر شيحا ، عبد العال عبد الكريم عرمه الذي حمل الكتاب الى الفندق .

ووجدوا في زريبة الماشية سيدة تحاول الاختباء بين كومة من التبن فاعتقلوها فاذا اوصافها تنطبق تمام الانطباق على عائشه خانم فقادوها مع هؤلاء الاشخاص الخمسة الى دمشق

فرار الجاسوسة

وقد سيق الشبان الخمسة الذين اعتقلوا في حرستا الى السجن العسكري في دمشق تحت حراسة القوات العسكرية اما الفتاة فان برهان الدين بك لم يشأ ان يسوقها الى دمشق مع هؤلاء ليحول من جهة دون اختلاطها بهم ومن جهة اخرى ليمنع فرارها من هؤلاء الجنود الذين قد يفتنون بجمالها ومالها وقد سلمها الى الجاويش رفعت جواد وهو من الجنود الترك فمضى بها الى دمشق .

وفي اليوم التالي عندما طلب برهان الدين بك الفتاة والرجال الخمسة اجابه قائد السجن بان كل ما لديه من معلومات انه تسلم المسجونين الخمسة ولا يزالون تحت المراقبة اما الفتاة فلم يتصل به من امرها شيء .

فبدأ الشك يساوره في مصير الفتاة ولما كان الجاويش رفعت جواد من رجال الانضباط العسكري المعروفين باسم (قانون جاويش) ارسل يستفسر عنه من قومندان مركز دمشق فاجابه انه لا يعلم عنه شيئاً وجل ما يعرفه انه ارسله ليكون تحت تصرفه

ولكن الى اين ذهب هذا الجاويش بالفتاة وماذا كان مصيرهما؟

في اليوم السابع عشر من شهر آب ١٩١٦ تلقت قيادة المركز اشعاراً رسمياً من قائد درك حمص هذا نصه :

« لجأ الى حمص في اليوم الثاني عشر من هـذا الشهر الجاويش رأفت ومعه سيدة قال انها زوجته ونزلا في فندق زهرة العاصي، وقد لاحظ صاحب الفندق ان الرجل كان شديد الخوف على زوجته حتى انه عند خروجه من الفندق كان يغلق عليها الباب ويوصي الخادم بحراستها وكان الاضطراب باديا على محياه مما اهاب بصاحب الفندق لان يعرض تشكوكه على قائد الموقع الذي استدعى (قانون جاويش) اليه فابرز له وثيقة موقعاً عليها من قائد موقع دمشق ولهذا لم يعارضه

وصباح امس الاول خرج الجاويش الى المرحاض ولما عاد لم يجد المرأة التي كانت برفقته ولما علم بانصرافها ثارت ثائرته واصيب بشبه نوبة عصبية كادت تفقده رشده لو لم يسرع اليه من في الفندق وقد بقي طول النهار غائبا يفتش عنها دون جدوى

ولما عاد في المساء الى الفندق وكان في حالة يأس شديد اجاب صاحب الفندق الذي سأله عن زوجته

— ذهبت وانتهى بذهابها كل شيء

ولم يفهم صاحب الفندق الغاية من هـذا الجواب الى ان كانت الساعة الثانية عشرة ليلا فدوى في سكون الليل ازيز رصاصة هب على اثرها صاحب الفندق ونزلاؤه من رقادهم مذعورين يستفهمون فوجدوا باب غرفة الجاويش مفتوحاً والرجل جثة هامدة والمسدس لا يزال في يده فتركوه على حالته واخبرونا بالواقع فخففنا الى مكان الحادث فوراً

وقد ثبت لنا من التحقيقات التي قمنا بها ان الجاويش منتحر لانه ترك كتابين احدهما باسم قائد قوات حمص وفيه يقول « لقد خنت واجبي اذ خدعتني امرأة فانتحرت من تلقاء نفسي » والثاني معنون باسم برهان الدين بك قائد المفرزة السرية لمقاومة الجاسوسية وفي زاويته عبارة سرية له

وقد امرنا بدفن الجثمان واشعرناكم بالامر

حاشية — لم نجد في غرفة الرجل اية ورقة او معلومات تكشف عن اسرار هذا الانتحار الغريب »

ويلي ذلك تقرير الطبيب فافادة رجال التحقيق عن هذه الحادثة

اما الكتاب الذي ارسله الى برهان الدين بك فقد قال فيه بانه يعرف هذه الفتاة منذ كان صغيراً في استنبول فلما شاهدها خاف على حياتها وفرح عندما ائتمنه عليها ليمضي بها الى دمشق وخلال هذه الرحلة تعارفا وراحت تذكره بايام الطفولة وكيف اتفقا على ان يكون كل منهما للآخر وتوسلت اليه بان يفر بها الى استنبول فيعيشا معاً بعيدين عن هذه الحياة فأثر فيه كلامها ففر بها الى حمص وهناك حاولت الافلات منه ثم دعته للسفر معها الى طرابلس فادرك انها لا تزال مصرة على متابعة سياسة لاغواء فحجز عليها في الفندق خوف العاقبة الا انها تمكنت من الفرار ، ولما تبينت له هذه الخيانة بعد ان خان قائده لاجلها قرر الاقتصاص من نفسه بالانتحار .

فأثر هذا الكتاب في برهان الدين بك لما فيه من وصف للالام التي قاساها الشاب بسبب هذه الفتاة وابرق الى قائد موقع طرابلس بمطاردتها لعلها تكون لجأت الى هناك ما دام الشاب يقول انها كانت تنوي الذهاب الى طرابلس ثم استدعى معتقلي حرستا وانصرف الى التحقيق معهم

افادة شبان حرستا

ولم ينكر هؤلاء الشبان الذين اعتقلوا في حرستا معرفتهم للفتاة فقد اعترف عبدالله محمد عنه بان احدى السيدات جاءته الى منزله وبدون ان تساومه على الاجرة طلبت منه ان تنزل في ضيافته فقبل لاسيما ان السيدة نقدته يوم وصولها ليرة عثمانية ذهباً وطلبت اليه ان يشتري بها احتياجات منزله .

وقد امرنا بدفن الجثمان واشعرناكم بالامر

حاشية — لم نجد في غرفة الرجل اية ورقة او معلومات تكشف عن اسرار هذا الانتحار الغريب »

ويلي ذلك تقرير الطبيب فافادة رجال التحقيق عن هذه الحادثة

اما الكتاب الذي ارسله الى برهان الدين بك فقد قال فيه بانه يعرف هذه الفتاة منذ كان صغيراً في استنبول فلما شاهدها خاف على حياتها وفرح عندما ائتمنه عليها ليمضي بها الى دمشق وخلال هذه الرحلة تعارفا وراحت تذكره بايام الطفولة وكيف اتفقا على ان يكون كل منهما للآخر وتوسلت اليه بان يفر بها الى استنبول فيعيشا معاً بعيدين عن هذه الحياة فأثر فيه كلامها ففر بها الى حمص وهناك حاولت الافلات منه ثم دعته للسفر معها الى طرابلس فادرك انها لا تزال مصرة على متابعة سياسة الاغواء فحجز عليها في الفندق خوف العاقبة الا انها تمكنت من الفرار ، ولما تبينت له هذه الخيانة بعد ان خان قائده لاجلها قرر الاقتصاص من نفسه بالانتحار .

فأثر هذا الكتاب في برهان الدين بك لما فيه من وصف للالام التي قاساها الشاب بسبب هذه الفتاة وابرق الى قائد موقع طرابلس بمطاردتها لعلها تكون لجأت الى هناك ما دام الشاب يقول انها كانت تنوي الذهاب الى طرابلس ثم استدعى معتقلي حرستا وانصرف الى التحقيق معهم

افادة شبان حرستا

ولم ينكر هؤلاء الشبان الذين اعتقلوا في حرستا معرفتهم للفتاة فقد اعترف عبدالله محمد عنه بان احدى السيدات جاءته الى منزله وبدون ان تساومه على الاجرة طلبت منه ان تنزل في ضيافته فقبل لاسيما ان السيدة نقدته يوم وصولها ليرة عثمانية ذهباً وطلبت اليه ان يشتري بها احتياجات منزله .

والليرة العثمانيـة الذهبية كانت في ذلك العهد ذات قيمة كبرى ولا يمكن قرويا ان يجد اثراً لها ، ولهذا انزلها في ضيافته دون ان يعرف من امرها شيئاً ، وكانت واجبات الضيافة تمنعه ان يستفهمها عن امرها

اما علي احمد عيسى فقد اعترف بان الفتاة اوفدته بمهمة الى دمشق يحمل رسالة الى عبد العـال عبد الكريم عرمه وطلبت منه ان يبلغها ماذا يكون جواب الرسول فقام بهذه المهمة التي قبض أخيراً عليها ثلاثة ريالات مجيدية .

اما محمد حسين العاصي فقد اعترف بدوره انه قام بمهمة ايواء الفتاة لانها امرأة ولان واجبه يمنعه من تسليم امرأة

واما محمد عمر شيحا فقد انكر معرفته الفتاة او وجود اية علاقة له بها

بقي عبد العال عبد الكريم عرمه فقد اعترف بانه تعرف بهذه الفتاة في طرابلس دون ان يعرف من امرها شيئاً وقد اتخذته كخادم لها فاخلص لهـا الخدمة واصر على عدم معرفته هوية هذه المرأة وعلاقاتها بالجاسوسية او بغيرها

وعلى هذا فانه لم يكن هناك اي دليل مادي يثبت تهمة الجاسوسية على هؤلاء القرويين الخمسة

لان برهان الدين بك لم ترقه هذه النتيجة التي تفقده اذا استمر الامر على هذا المنوال المكافأة التي كان ينتظرها من القيادة العليـا لقاء اكتشافه حركات الجواسيس ولذلك ما لبث ان وجد دليلا على ادانة هؤلاء فقد تلقى تذكرة مؤرخة في ١٥ آب سنة ١٩١٦ تحت رقم ٨١٣ — ١٠٢٥ من رئاسة شعبة « اخذ عسكر » دمشق تشعر بان هؤلاء الشبان الخمسة قد فروا مراراً متعددة من الجيش ولما كان الامر الصادر من احمد جمال باشا يتضمن ضرورة الحكم بالاعدام على كل من يستسلم من الفـارين خلال مدة تنتهي في آخر حزيران سنة ١٩١٦ ولما كان هؤلاء قد اعتقلوا في اول آب اي بعـد نهاية هذه المدة فقد احيلوا الى الديوان الحربي العرفي بتهمة الفرار من الجندية والتواطؤ

مع جواسيس الاعداء على ارتكاب جريمة الخيانة الوطنية وحوكموا وحكم عليهم بالاعدام

كيف اعدموا

وقد نشرت جريدة (الولاية الرسمية لدمشق) في عددها الصادر في ٢٩ آب سنة ١٩١٦ ما نصه :

اعدم فجر الثلاثاء في ٢٨ آب الخالي عبد العال عبد الكريم عرمة في محلة الميدان ومحمد عمر شيحا في ساحة الاتحاد (ساحة المرجة او الشهداء اليوم) وعبدالله محمد عنتة في محلة باب توما واحمد حسين العاصي تجاه سوق الحميدية وعلي احمد عيسى في محلة المزة والاربعة الاخيرون منهم من اهالي حرستا جزاء ما اقترفوه من عار الفرار من الجندية والخيانة لوطنهم) اه

وهكذا انسدل الستار على هذه المأساة

اين نريمان او عائشة

ولكن الى اين ذهبت الجاسوسة الحسناء عائشة خانم ؟

ان جميع التحريات التي قام بها قائد موقع طرابلس ذهبت سدى فقد اختفت اثار الفتاة بصورة نهائية ولم يبق من يرشد اليها . الى ان كان اليوم الاخير من شهر آب أي بعد مرور يومين على اعدام شهداء حرستا فورد اشعار الى القيادة يفيد ان اربعة اشخاص مدججين بالسلاح هاجموا حراس المستر هل في عربة القطار الحديدي على بعد بضعة كيلومترات من محطة بعلبك وبعد ان ذبحوا هؤلاء الحراس الثلاثة عمدوا الى تهريب مستر هل وذهبوا به الى جهة مجهولة

من هو مستر هل ؟

والمستر هل طيار اوسترالي كان يشتغل في سلاح الطيران البريطاني اشترك في الحرب اشتراكا فعليا واوقع بالقوات العثمانية خسائر فادحة جداً حتى بلغت به الجرأة الى مهاجمة المراكز التركية ما وراء الجبهة دون ان يهتم لمقاومة الترك والمدفعية المضادة للطيارات

وفي اليوم الثاني عشر من شهر ايار سنة ١٩١٦ قام المستر هل على متن طائرته بغارة جديدة لم تكن موفقة هذه المرة لان المدفعية النمسوية ما لبثت ان ادخلت عطبا على طائرته في جبات (سينا) فلم يقدر مع هذا العطب على الرجوع الى (القنطرة) حيث المطار الانكليزي فاضطر للنزول في المنطقة العثمانية حيث اخذ اسيراً ونقل الى دمشق

وقد اشيع يومئذ ان الترك اقدموا على قتل الطيار حتى اقدمت اربع طيارات انكليزية في اليوم الخامس والعشرين من ذات الشهر على ضرب زمير فالقت يومئذ على هذه المدينة ١٦ قنبلة قتلت ثلاثة اشخاص وجرحت سبعة وهدمت عدة منازل

وفي ذلك الوقت اعلنت القيادة الانكليزية عزمها على تخريب المرافيء السورية الفلسطينية اذا ثبت مقتل الطيار هل الذي تعلق على حياته اهمية كبرى نظراً للخدمات الجلى التي قام بها

ضرب يافا

وقد بدأت القوات الانكليزية بتنفيذ تهديدها هذا يوم ٢٨ ايار ففي الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم جاءت الى يافا باخرة مساحة من بواخر الانكليز والقت ٢٥ قنبلة على الزوارق والمراكب الشراعية الراسية في مياه يافا فاضرمت

النيران في ثلاثة منها ثم اغرقتها .

وبعد ذلك ارسلت هذه الباخرة كتاباً الى قائد موقع يافا تطلب فيه ابلاغ القيادة العليا وجوب اخلاء سبيل الطيار هل او اثبات انه لا يزال في قيد الحياة ولا تضطر القيادة العليا للقوات الانكليزية الى استعمال الشدة في تضييق الحصار على السواحل العثمانية .

وقد ابرق قائد موقع يافا في الحال بهذا الانذار الى قائد الجيش الرابع فامر بجلب مستر (هل) الى دمشق واستكتبه كتاباً بخط يده معنونا باسم القيادة الانكليزية يبلغها فيه انه لا يزال في قيد الحياة وانه يعامل من قبل القيادة التركية معاملة حسنة فقد افرزت له غرفة خاصة من غرف الاسرى الضباط .

وفي الوقت نفسه دعي قنصلا هولاندا واسبانيا ليشهدا بدورهما حقيقة المعلومات التي اوردها المستر هل ثم فوض قنصل هولاندا بارسال هذه الرسالة الى القيادة العليا البريطانية في مصر ففعل

الا ان المعلومات السرية التي اتصلت بالقيادة فيما بعد دلت على ان المستر هل اغتنم فرصة السماح له بكتابة هذا الكتاب واورد بعض الجمل التي لم يعرفها الترك وفيها اعلن القيادة ان الترك سينقلونه الى بيروت فيمكث فيها مدة من الزمن ريثما يجدون الوقت الكافي لسوقه مع سائر الاسرى الى العاصمة العثمانية .

وعلى اثر ذلك قررت القيادة الانكليزية العليا السعي لانقاذ هل من الاسر واوعزت بذلك لعمالها الذين في بيروت .

لم تعرف القيادة العثمانية العليا ولا دائرة الاستخبارات فيها بالتدابير التي اتخذت لتهريب المستر هل

ومما لا شك فيه ان المعلومات التي ارسلها الى القيادة عن نقله الى بيروت

كانت حقيقة فقد جيء به في اليوم الخامس عشر من شهر حزيران الى بيروت وانزل مع بعض الضباط من الاسرى الانكليز في (الكمب) الالماني ووضع تحت حراسة قوة من الجنود الالمان وفي اليوم الثالث لوصوله شوهد ثلاثة اشخاص يجولون في هذه المنطقة بصورة ريبت الجندي الالماني فحاول ايقافهم الا انهم تواروا فوراً عن الانظار وهب الجنود يطلقون وراءهم الرصاص دون جدوى فقد تمكنوا من التوغل في الظلام

وكان المعسكر الالماني خلال الحرب العالمية قائماً في اطراف نهر بيروت في مكان بعيد عن العمران ومع ان المجاعة كانت على شدتها في ذلك الوقت ومع ان القيادة الالمانية كانت تملك كثيراً من الذخيرة والحبوب حتى ان الجنود الالمان كانوا يلقون ما يفيض عنهم الى كلابهم دون البشر الذين كانوا يشاهدون الكلاب تلتهم هذا الطعام ولا يجرؤون على الدنو منها

والقيادة الالمانية عندما نقل اليها حادث الاشخاص مجهولين اعتقدت ان هؤلاء القادمين ليسوا الا من الجياع الذين حاولوا اشباع بطونهم ولم يخطر في بالها انهم من الذين سعوا لتهريب المأجور هل الطيار الاوستر لي ولهذا لم تهتم بتشديد الرقابة الى ان كان اليوم الرابع من شهر حزيران سنة ١٩١٦ فشوهد احدهم يتقدم من المعسكر الالماني وقد لحق به الجندي المراقب ولما اصبح على مقربة منه امره بالوقوف الا ان الرجل كان متيقظاً فما كاد يرى الجندي الالماني تجاهه حتى بادره باطلاق بضعة عيارات نارية من مسدسه اصابته جميعها فقتلته فوراً

اكتشاف المؤامرة

الا ان القاتل الذي تمكن من الفرار فقد محفظته خلال القائه الرصاص على الجندي (كارل برونشتاين) فعثر عليها المحققون ووجدوا فيها كتاباً

مرسلا من دائرة الاستخبارات الانكليزية في القاهرة يشعره بان كتابه ومعلوماته المرفقة به قد وصلت الى القيادة وانها انتدبت الجاسوسة X ٩٠ وهي الجاسوسة التي تطاردها القيادة العثمانية بواسطة برهان الدين بك لتكون على اتصال به وتسعى الى تهريبه من مركزه وان عليه ان يزودها بالتعليمات اللازمة

ووجدوا في المحفظة رقعة ثانية بتوقيع X ٩٠ تشعره بانها اوفدت احد رجالها للاتصال به راجية منه ان يعمل على ارشاده الى التدابير الواجب اتخاذها وتقول له ان هذا الرسول سيكون محاطاً بعدد من رجالها المصريين لمعرفة التدابير الواجب اتخاذها في سبيل تهريبه اذا لزم الامر

تشييع جثة القتيل

وظهر اليوم السابع من شهر حزيران ١٩١٦ احتفلت السلطة العسكرية الالمانية والعثمانية بتشييع جثمان الجندي كارل القتيل بصورة رسمية وقد امتنعت السلطات ذات الشأن عن الاشارة الى الاسباب التي دفعت لارتكاب هذه الجريمة حتى انها منعت الصحف الموضوعة تحت الرقابة عن الاشارة الى هذا الحادث

واستدعى عزمي بك والي ولاية بيروت يومئذ اسماعيل حقي بك رئيس القسم العدلي ووكيل مدير شرطة بيروت وامره باجراء تحقيق دقيق في هذه الجناية وضرورة اعتقال القاتل

وامره الوالي باعتقال جميع الفارين من الخدمة العسكرية ليتمكن من ارضاء احمد جمال باشا الذي كان في ذلك الوقت شديد النقمة على الفراريين الذين كانوا خطراً عظيما يهدد سيادته في البلاد

ايام مشهودة في بيروت

وقد مرت على بيروت خلال ذلك الاسبوع الذي تلا هذه الجناية ايام هائلة فرجال الدرك والانضباط وقوات الشرطة والتحري انصرفوا الى مطاردة اخوانهم من ابناء بيروت حتى غصت بهم السجون ولاقى هؤلاء من وسائل الضرب والتعذيب والتشريد ما لا يحصى ثم ارسلت قافلة كبيرة من هؤلاء الى الديوان الحربي العرفي لما كنتهم بتهم هم براء منها

اما القاتل الحقيقي الذي تبين فيما بعد انه يدعى ديب دقنو من اهالي حرزما التابعة لدمشق فقد تمكن من الفرار دون ان يتمكن احد في ذلك الوقت من معرفة مقره فقد هرب الى الساحل ، وشاهده الجنود يركب زورقاً كان في انتظاره في جهة (نهر الموت) في جبل لبنان

اما الموقوفون الذين سيقوا الى الديوان الحربي العرفي فقد لقوا عقوبات صارمة واصدرت ولاية دمشق بلاغاً رسمياً هذا نصه :

بلاغ رسمي

بناء على المعلومات الواردة الى مقام الولاية الجليلة من قيـادة الجيش الهمايوني الرابع اعدم شنقاً فجر ٢٢ الجاري في الشام عشرة انفار من العساكر الفرارية الذين تكرر فرارهم والذين ثبتت لدى القيادة المشار اليها خيانتهم وبذلك نالوا جزاء ما يستحقه عملهم هذا

اعدام في بيروت

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩١٦ اصدرت ولاية بيروت البلاغ التالي :

« بناء على المعلومات الواردة الى مقام الولاية الجليله من قيـادة الجيش

الهمايوني الرابع اعدم شنقاً فجر ٢٥ الحالي كل من رامز بن عمر الجيزي من محلة راس النبع الشرقي في بيروت ومن مواليد سنة ٣١٢ وكامل محمد المصري من ميدان المزرعة ومن مواليد سنة ٣١٢ وتوفيق حنا الفلوطي من سكان محلة المصيطبة في بيروت وهم من الجنود الفرارية لتكرر حوادث فرارهم من الخدمة العسكرية المشرفة ولاقدامهم على خيانة الدولة العلية باعمال مخالفة» اه

بهذين البلاغين اللذين صدرهما والي دمشق ووالي بيروت برر هذان اعدام الثلاثة عشر شخصاً وقد خيل اليهما انهما بتبريرهما تدابيرهما الجائرة امام الرأي العام الساكت على ضيم في ذلك الوقت يمكنهما ايضاً ان يبررا موقفهما من التاريخ ومنا نحن الذين شاءت العناية ان نكون من اخوانهما الترك الا ان الحقيقة ابت علينا الا قول الحقيقة ولو كانت جائرة

سياسة الانتقام المرة

ولم تقف مساعي القائمين على مقدرات الامور عندهذا الحد بل اراد احمد جمال باشا الذي كان مسيطراً في ذلك الوقت متابعة سياسة الشدة والبطش والتنكيل بابناء البلاد فكرر اصدار اوامره بتوقيف عدد كثير من الاشخاص والحكم عليهم بصرامة وشدة

ويرجع السبب في هذه الحوادث الى الثورة العربية

فالاخبار الواردة من الجبهة كانت تدل على ان الثورة العربية اتخذت شكلا خطيراً اخاف جداً جمال باشا وحوله الى حية رقطاء لا تعرف الا ان تضرب من تشاهده امامها فقد افادت اخبار المدينة المنورة ان الثوار العرب احتلوا (الحسلي) الواقعة على بعد ثلاث ساعات من المدينة المنورة ثم امتدت الثورة الى قبائل قبا ، والعوالي وقربان واصبحت المدينة مطوقة من كل جهاتها بالثوار العرب المناوئين للحكومة العثمانية

وكانت الخطة التي اتبعها احمد جمال باشا في ادارة سياسة ذلك العهد غريبة الشكل غير متفق بعضها والبعض الآخر بوجه من الوجوه ففي ذلك الوقت اذ كان يسعى لاخماد الثورة العربية واستمالة زعماء البلاد اليه وجعلهم يلتفون حول الشريف علي حيدر باشا كان يواصل سياسة الاضطهاد والشدة ونصب المشانق .

سياسة متناقضة

غادر الشريف علي حيدر باشا استنبول في ٢٠ حزيران سنة ١٩١٦ قاصداً دمشق وكان احمد جمال باشا قد اعد حفلات كبرى لاستقباله فابرق الى الولاة في منطقـة الجيش الرابع يدعوهم الى ارسال الوفود برئاسة القضاة والمفتين لاستقبال الشريف قبل سفره الى الحجاز وكان قد عين لامارة الحجاز كما انه استقدم من المدينة نفسها وفوداً عديدة برئاسة الشيخ مأمون بري مفتي الاحناف والشيخ السيد زكي مفتي الشافعية والشيخ عبد القـادر هاشم من سراة الطيبة والشيخ عبد الكريم البرزنجي وغـيرهم من رجالات المدينة المنورة

وفي حين كانت هذه الوفود تستعد لمغادرة بلادها الى دمشق وفي حين كان احمد جمال باشا يسعى لتلافي الامور السيئة التي احدثتها الثورة العربية كنا نراه يعدم الاشخاص الذين ورد ذكرهم في مقدمة هذا المقال

للارهاب فقط !

وفي الوقت الذي وردت فيه برقية من حلب تشعر بوصول الشريف علي حيدر باشا الى حلب بطريقه الى دمشق نصبت اربع مشانق اعدم عليها اربعة من العرب هم طرودي محمد العاقة من اهالي قرية خربة جبا ومحمد البكار

من القرية نفسها وجبران ملحم نمر من اهالي بيروت وصادق بن محمد عبد الفتاح من قرية هربرة التابعة للزبداني

وقد اكتفت الحكومة يومئذ بالبيان الذي اذاعته عن هؤلاء بقولها: صباح اليوم الاول من شهر تموز سنة ١٩١٦ نفذ حكم الاعدام بحق هؤلاء لارتكابهم عار الخيانة الوطنية . كانما ترى ان في هذا البيان المقتضب ما يبرر موقفها من اعدام افراد هذه القافلة من ابناء البلاد

اما السبب في اعدام هؤلاء الشباب فيرجع الى ما يلي :

اتهم هؤلاء الشبان بالخيانة الا ان الحقيقة هي انهم ابرياء فجبران ملحم نمر وهو شاب من اهالي بيروت ورب عائلة كبيرة رأى في ترك عائلته ما ينذرها ويفجعها بالعدم وجود من يعيلها ففر من الجندية وجاء الى بيروت حيث اشتغل مدة تمكن خلالها من تأمين معيشتها ولم يستطع — تحت ضغط حمدو ورفاقه من رجال الدرك القساة — متابعة العمل وجاءه من وعده بالمساعدة للفرار الى مصر فشخص الى جونيه يرافقه صادق محمد عبد الفتاح وسعيا هناك للفرار الى الخارج بواسطة احد البحارة الا ان هذا البحري وهو من جهة مجاورة لجونية ما لبث ان فضح امرهما لقائد قوات الساحل فاعتقلهما وهما يهمان بركوب الزورق وحقق معهما فاعترفا بما كان وسيقا الى الديوان الحربي العرفي . اما طرودي محمد العقلة ومحمد بكار وكلاهما من بدو خربة جبا فقد اشتركا في حوادث نقل المعلومات الى رؤساء العشائر الموالية للانكليز .

هذه هي الاجراءات الحقيقية المنسوبة الى هؤلاء الاشخاص الذين اراد احمد جمال باعدامهم في اليوم الذي وصل فيه الشريف علي حيدر باشا الى حلب ان يضاعف سياسة الارهاب التي اتبعها .

ونذكر بهذه المناسبة ما جاء في مذكرات فالح رفقي بك احمد تواب

المجلس الوطني الكبير اليوم في انقره و كان خلال الحرب العالمية ملحقاً بجمال فقد قال في هذه المذكرات انه سأله يوماً ان يرفق بالسوريين والعرب وان يضع حداً لسياسة البطش والشدة التي يتبعها بحقهم فاجابه :

— ان السوريين والعرب لا يحترمون الا من يبطش بهم فاذا مايرناهم ظنوا بنا ضعفاً ، بطشوا بنا فمن الواجب والحالة هذه ان نبطش بهم لنأمن شرهم .

وهذا الجواب الذي نشره فالح رفقي في مذكراته يدل بصريح العبارة على سياسة هذا البطاش السفاك الذي مثل دوره هذا في السياسة السورية العربية

تقارير الجواسيس

ان جواسيس الحلفاء الذين كانوا في ذلك الوقت منتشرين ببيروت وغيرها من البلاد السورية اطلعوا على سياسة البطش والشدة التي اتبعتها الحكومة بعد افتضاح امر الخندي الذي قتله دبب دقو وتتبعوا بالم سلسلة الاعدام التي تولتها الحكومة في بيروت ودمشق على انها وسيلة من وسائل التهديد التي اعدت في ذلك الوقت ومن هذه المعلومات التي ارسلها الجواسيس ما يلي :

اولا — ان اعدام احد الاشقياء مع الشيخين الخازنيين في ساحة الشهداء يقصد به تحدي عائلة الخازن في جبل لبنان وتحقيرها وافهامها ان في استطاعة الحكومة ان تفعل ما تشاء دون ان يقدر الحلفاء على التأثير فيها بوجه من الوجوه

ثانياً — انها اعدت لائحة بعدد كبير من وجهاء بيروت والجبل لتنفيهم الى الاناضول .

ثالثاً — اعدت لائحة كبيرة باسماء بعض ابناء المنطقة لمحاكمتهم بمادة الخيانة الوطنية والفرار من الجندية لاعدامهم والتخلص منهم

رابعاً — محاولتها اظهار ضعف الحلفاء باستنكارها ثورة الشريف حسين ومناداتها بالشريف علي حيدر باشا اميراً على مكة مكانه

خامساً — دعوتها وفود علماء المسلمين ووجهاءهم من جميع الجهات الى دمشق لاستقبال الشريف واظهار تعلق المسلمين بالشريف علي حيدر باشا بصفته اميراً

على مكة المكرمة واظهار استهجانهم لعمل الشريف حسين وثورته على الدولة العثمانية التي هي دولة الخلافة الاسلامية

سادساً— القيام بمظاهرات في بيروت في اليوم التاسع من شهر تموز سنة ١٩١٦ وهو اليوم الذي سيصل فيه الشريف علي حيدر باشا الى دمشق تأييداً له ٠ ثم اقامة مهرجان واسع النطاق في اليوم الثاني عشر منه لاجل استقبال الشريف علي حيدر باشا الذي سيصل في ذلك اليوم الى بيروت

كيف عرفت هذه المعلومات

وقد عرفت هذه المعلومات التي ارسلها الجواسيس من عدة امور اهمها المذكرة التي بعث بها قائد الاسطول الافرنسي يحتج فيها على الرغبة في اعدام الشيخين الخازنيين ويهدد باستعمال تدابير شديدة اذا عدما

وعرفت ايضاً من الوثائق التي عثرت عليها في اثناء التحريات التي جرت في منزل السيد بشاره البويري في جونيه الذي تمكن من الفرار قبل وصول قوات الامن بفترة قصيرة ومن الوثائق التي عثر عليها عند مقتل الجندي كارل اذ صودرت يومئذ محفظة القاتل ووجد فيها الوثائق الخطيرة التي سردنا بعضها سابقاً

الماجور هل

وتجاه هذه الامور وتعدد الحوادث في بيروت رأت القيادة ان تنقل (هل) من بيروت الى دمشق

وفيها ازداد حقد احمد جمال باشا عليه اذ اعتقد ان هذا الامير عرف كيف يهزء به فبارق بامره الى استنبول فجاءه اشعاراً بضرورة سوقه مخفوراً الى بروسه حيث رفيقه الجنرال طاوسهند الذي اسر في كوت الامارة في العراق وسائر الضباط الانكليز الاسرى

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر آب سيق هذا القائد في القطار الى رياق حيث بات ليلة ثم تابع سيره الى بعلبك

كيف فر هل ؟

في محطة اللبوة ركب القطار اربعة اشخاص تصحبهم سيدة فلم يهتم بهم احد الا ان الاوصاف التي ادلى بها مأمور محطة اللبوة دلت على ان الفتاة وان كانت مرتدية لباس القرويات الا ان ملامحها اثبتت انها الجاسوسة عائشة خانم من الشامة التي شاهدها المأمور على خدها الايسر وقد ركب هؤلاء الاربعة في الغرفة المجاورة التي ركب فيها هل وحراسه

وقد سار القطار بهدوء تام الى ان وصل الى محطة رأس بعلبك وفي هذه المحطة صعد شخصان آخران وركبا في الحافلة التي ركب فيها الاربعة اشخاص وشاءت الصدف ان تكون هذه الغرفة خالية الا من هؤلاء

ولما وصل الى محطة (القصير) نزل هؤلاء الستة منه مع ان مأمور المحطة يقول ان اوراقهم -- اي تذكر السفر -- كانت مقطوعة الى حمص .

اما هل والمرأة فان احداً من مأموري القطار لم يرهما ينزلان من القطار وقد سئل رؤساء المحطات ورجال الانضباط المعروفون باسم (قانون جاويش) فلم يرد من احد انه شاهد هل والفتاة ينزلان في احدى محطات مما اهاب بالمحققين الى الاعتقاد بان الرجل والمرأة نزلا من القطار في احدى الطرقات حيث يتمهل القطار في سيره لاسيما ان سائق القطار قال انه اضطر ان يتوقف في الطريق بين بعلبك والقصير مرتين لسبب عدم حماوة المحرك

اين اكتشف الفرار ؟

وكان الوقت يسمح لهؤلاء الاشخاص بالفرار لان احداً من موظفي القطار لم يقترب من غرفة (هل) وحراسه حتى وصلوا الى محطة حمص ويحتم على قائد الموقع هناك تفتيش القطار فما كاد يفتح باب الغرفة حتى رجع مذهولا لهول ما رأى من مقتل هؤلاء الجنود فامر فصل هذه القاطرة التي وقعت فيها الجناية الفظيعة عن القطار الذي تابع سفره الى حلب وابرق الى دمشق ينبئها بما توقع من فرار

الجاسوس واسرع فوراً الى مكان الحادث برهان الدين بك وتمكن بتحقيقاته هذه من معرفة الامور التي سردناها للقراء آنفاً

ولكن كيف اختفت الفتاة مع مستر هل والى اين ذهبا ؟

وهل هي وحدها التي ارتكبت هذه الجناية بعد نزول الاشخاص الستة في محطة القصير ؟

وهل لهؤلاء الاشخاص الستة علاقة مع عائشة خانم في ارتكاب هذه الجناية التي قتل فيها الجنود الثلاثة ؟

هذه هي الاحاجي التي انصرف برهان الدين بك الى حلها ومعرفة اسرارها

وقد تولى التحقيق اولا في القاطرة التي وقعت فيها الجناية فعثر في زاويتها على قطعة صغيرة من الزجاج المحدوب مما دله على ان هذه القطعة نزعت من غطاء انبوبة زجاجية فاخذها ووضعها ضمن علبة (كارتون) وتابع تحقيقه فعثر بين طرفي الحائط الخشبي الذي يفصل الغرفتين في القاطرة على مسحوق من زجاجة حشرت بعنف في فتحة شقت بين الغرفتين فتهركت هذا المسحوق القليل من الزجاج ٠

وقد اخذ قليلا من هذا المسحوق وارسله مع القطعة الصغيرة الزجاجية الى المختبر الكيماوي فتبين له ان هذه القطعة مأخوذة من انبوبة مخدر هندي كاف لمن يتنشقه ان يغرق في ثبات عميق ولو كان في الهواء الطلق

وعندئذ ازيح امام برهان الدين بك ورجال التحقيق الستار عن كيفية مقتل هؤلاء البائسين اذ تبين لهم ان المجرمين عمدوا الى تنشيقهم مادة مخدرة كانت موضوعة ضمن هذه الانبوبة وقد فتح الجناة هذه الاخيرة التي عثر عليها برهان الدين ثم حشروها في الفتحة الصغيرة فتسربت الرائحة بقوة الى القاطرة الثانية فتخدر من فيها بعد ان استعمل الجناة مادة مقاومة للتخدير ثم اغتنموا فرصة سير القطار الحديدي ليلا وانسلوا الى غرفة الجنود وعمدوا الى ذبحهم وانقاذ الجاسوس منهم ٠

وهنا تساءل برهان الدين بك عن السبب الذي دفع هؤلاء الاشقياء الى قتل

الجنود مع انهم كانوا يستطيعون تسهيل سبيل الفرار للرجل دون الالتجاء الى الجريمة .

وهذا السر سرعان ما تجلى له ايضاً عندما راجع افادة الشهود الذين حقق معهم قائد موقع حمص فقد روى الشاهد مصطفى عبد السلام شاه ويردي الحلبي انه رأى احد الجنود يتحدث الى احد الذين جلسوا في الغرفة المجاورة مما دله على ان هناك معرفة سابقة بينهما كما ان الشاهد عبد الستار لطفي وهو شاب طرابلسي افاد انه شاهد الجندي يتكلم مع اثنين من الذين كانوا في الغرفة المجاورة

وهذه المعلومات دلت برهان الدين بك على ان الجنود كانوا يعرفون بعض هؤلاء الجناة ولهذا عمد هؤلاء الى قتلهم منعاً لاكتشاف امرهم

في اثر الجناة

لم يكن برهان الدين بك شرطياً ولم يشترك في حوادث الشرطة فهو ضابط تخرج من مدرسة الاركان الحربية في استنبول سنة ١٩١٢ وانخرط على اثر خروجه من المدرسة في الجيش حيث عهد اليه بوظائف متعددة في الشعبة الاولى وقد قام بوظائفه هذه خير قيام وفي مدة قصيرة اصبح من امهر رجال الشرطة السريين .

وتجاه هذه الجريمة رأى من واجبه الاطلاع على الامور التالية للوصول الى هدفه في حل الجريمة ومعرفة الجواسيس وهي :

اولا — معرفة الجندي الذي تحدث مع الرجلين المشتبه بهما

ولتحقيق هذه الغاية رأى من الواجب اخذ رسوم الجنود الثلاثة وعرضها على هذين الشاهدين

ثانياً — اخذ هوية الجنود الثلاثة والتحقيق في مناطقهم لمعرفة الغائبين من سكانها ثم جمع الشاهدين اللذين يعرفان هذه الحقيقة بمن يشتبه بهم من القرويين لان برهان الدين كان واثقاً من (هذه الافادة) بان الجاسوسين اللذين اجتمعا بالجندي كانا من مواطنيه

ثالثاً — ان معرفة هذا كله تستلزم جلب مصطفى وعبد الستار ومنع كل اختلاط بينهما دفعاً لتسرب هذه القضية الى الجواسيس اللذين اذا علموا بهذه الشهادة وباتجاه التحقيق على هذه الصورة يعمدون ولا شك الى اخفاء هذين الجاسوسين ·

والتحقيق هذه الغاية استدعى مساعده رضوان وطلب اليه ان يأتيه بالشاهدين بصورة سرية وان يقنعهما بالمال ·

فنفذ رضوان الامر وجاء بالشاهدين مصطفى وعبد الستار وعرض عليهما رسم الجنود الثلاثة فعرفا احمد على الفور واتضح لهما انه هو الذي كان يحادث الرجلين المجهولين فشكر لهما برهان الدين بك معلوماتهما هذه ورجا منهما ان يمكثا مدة في دمشق على ان يدفع لهما نفقاتهما وان يستحصل لهما من القيادة على وثيقة ترخص باعطائهما ما يحتاجان اليه من حبوب لتأمين معيشة عائلتيهما ويعفيها لمدة ستة اشهر من الخدمة العسكرية ،

وبعد انصرافهما توجه القائد لمتابعة تحقيقاته في تربة حرزما وقضاء دوما وارسل قوات الامن فاجريت تحريات دقيقة عقبتها توقيفات واسعة النطاق بحيث بلغ عدد الموقوفين ما يزيد على السبعين شاباً عرضوا جميعاً على مصطفى وعبد الستار فلم يعرفا بينهم احداً من الذين كانوا في القطار الذي وقعت فيه الخيانة ·

ومع هذا فان برهان الدين بك لم يقنط من اكتشافه الجناة في هذه المنطقة بل امر رجاله بمطاردة الموجودين في التربة الى ان كان اليوم الثاني عشر من شهر ايلول سنة ١٩١٦ فجيء الى سجن القلعة في دمشق بثلاثة اشخاص جدد عرف مصطفى ان احدهم من الذين كانوا مع الجناة اما رفيقه عبد الستار فقد اعتذر بان ملامح هذا الرجل لا تنطبق تمام الانطباق على ملامح الذين اشتركوا في الحادث ومع هذا اعتقل الشاب المذكور وسلمه الى المحقق العسكري لمتابعة التحقيق معه ولم يكن هناك اي دليل على ان هذا الشاب قد اشترك في المؤامرة الا شهادة مصطفى الذي اقسم على انه احد الجناة

وقد ابرق برهان الدين بك الى قائد درك دوما يطلب منه اجراء تحقيق عن

الشاب الموقوف ديب محمد دقنو والجواب سريعاً

وفي اليوم التالي تلقى الجواب التالي نصه :

رقم ١٠٢ سري محرم

تلبية لاوامركم الصادرة في ١٢ ايلول سنة ١٧١٦ تبين لنا من المعلومات السرية التي قمنا بها ما يلي :

ديب محمد دقنو شاب من مواليد سنة ١٣١١ طويل القامة معتدل الجسم اسمر الوجه ذو شاربين مسترسلين حليق اللحية ذو عينين سوداوين ، عصبي المزاج ، له حوادث شجار متعددة مع رفاقه القرويين مشهور بالبأس والقسوة يخافه مواطنوه ويخشون جانبه

لم يخدم في الجندية الا شهرين ثم فر من الخدمة العسكرية واعيد اليها ثانية ثم فر مراراً متعددة ٠

وشوهد في آخر فصل الشتاء الماضي يطوف حول القرية ساعياً لجمع فئة من الشبان يقوم معها بحركات تخل بالامن ثم اختفت آثاره في شهر ايار الماضي وتدل معلوماتنا الخاصة على ان الرجل فر الى جهات لبنان وعاد منها في الخامس عشر من شهر حزيران ونزل في منزل صالح الزربع احد الموقوفين معه ٠

وكان على ديب ديون كثيرة وعائلته بحالة من الفاقة الا انه تمكن بعد مجيئه من لبنان من وفاء هذه الديون جميعها واخذ يظهر بمظهر الغنى وصار يحبه جميع من في القرية والتف حوله بعض الشبان وقد داهمه رجال الدرك مراراً متعددة لتوقيفه كجندي فار مطلوب من القضاء الا انه كان يتمكن من الفرار بواسطة القرويين الذين يساعدونه وتعددت غيباته في المدة الاخيرة وكان آخرها ذهابه في ٢١ آب وبرفقته صالح الزربع وقاسم احمد الخطيب ولم يعودوا من هذه الغيبة كما تأكدلي الا منذ خمسة ايام فقط وقد تمكنا من توقيفهم معاً

قائد موقع دوما

الملازم احسان

وقد افادت هذه المعلومات التي ارسلها الملازم احسان الى رئيسه فائدة كبرى

فقد تبادر الى ذهن برهان الدين بك فوراً حادث مقتل الجندي الالماني كارل في مساء اليوم السابع من شهر حزيران الماضي ورأى في غياب الرجل في اواخر آب ما يدل على علاقته بجناية قطار حمص ولهذا استدعاه اليه وراح يحقق معه بصورة جديدة الا انه انكر كل هذه الامور

توقيف الخطيب والزريع

وكان احسان بك قد احتفظ بصالح الزريع وقاسم الخطيب في المركز وقد امره برهان الدين بك بجلبهما الى مركز دمشق للتحقيق معهما ولما مثلا بين يديه جعلهما بين عدة اشخاص من المسجونين في سجن القلعة وجاء بمصطفى شاه ويردي وعبد الستار لطفي وعرض عليهما جميع الموقوفين فعرف الرجلان فوراً قاسم وصالح اللذين كانا في جملة من كان في القطار المسافر الى حمص وهكذا قبض برهان الدين على طرف الخيط وقد خيل اليه انه سيتوصل الى حل عقدة هذه القضيـة .

الا ان الجواسيس عرفوا من انصارهم الذين في داخل السجن بمجريات التحقيق وبما توصل اليه من معرفة هوية الشبان الثلاثة الذين اوردنا اسماءهم كما عرفوا حقيقة هوية الشابين اللذين استند اليهما التحقيق في تشخيص هوية القتلة ، ويؤيد ذلك الحادث التالي الذي ادى الى قتل احد الشاهدين

مقتل مصطفى شاه ويردي

كان اليوم السابع عشر من شهر ايلول سنة ١٩١٦ الموعد المعين لاجراء مقابلة سرية بين الشاهدين والمتهمين الثلاثة وكان برهان الدين بك قد امرهما بالحضور الى الدائرة في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم الا ان الوقت المعـين لذلك مضى ولم يحضر فارسل رضوان الى الفندق النازلين فيه يسأل عنهما فاجابه صاحب الفندق ان شاباً دمشقياً جاء في اليوم السابق الى الفندق وكان يتردد عليهما منذ يومين وذهب بهما الى نزهة في دمر ولم يعودا بعد

وقد اجرى تحقيق في دمر فافاد احد اصحاب الخانات هناك ان الشابين اللذين اعطاه رضوان اوصافهما جاءا الى هناك فعلا ومعهما شاب آخر جاءت اوصافه منطبقة على اوصاف الشاب الذي جاء الى الفندق وسيدة اخرى جميلة الصورة تدل لهجتها على انها غير شامية ولما وصفها لرضوان تبين ان اوصافها تنطبق تمام الانطباق على اوصاف رئيسة هذه العصبة من الجواسيس عائشة خانم ، وكانت هذه السيدة تظهر لهما كثيراً من العطف وتبدي كثيراً من الخلاعة حتى اسكرتهما وانهما مكثا هناك الى ساعة متأخرة من الليل ثم استقل الاربعة عربة الحوذي ابي سعيد. وذهبوا الى جهة يجهلها . فطاف رجال الشرطة في ذلك اليوم يبحثون عن الحوذي ابي سعيد فلم يعثروا له على اثر

وبعد ظهر ذلك اليوم ورد اشعار الى قائد الدرك يفيد ان القرويين وجدوا شابين في احد بساتين الغوطة احدهما فارق الحياة والاخر مصاب بجراح بالغة وقد استدل من مجرى التحقيق على انهما كانا مع امرأة سرعان ما اختلفا عليها وتطاعنا بالمدى فجرح احدهما وقتل الاخر

وقد انبأ قائد الدرك برهان الدين بك بالحادث فاسرع فوراً الى هناك فتبين له ان من رآهما هما الشاهدان اللذان اعتمد عليهما في كشف اسرار جناية القطار

ولما كان احدهما عبد الستار لا يزال في قيد الحياة فقد رجا ان يطلع منه على اسرار هذه القضية ولهذا طلب بعض اطباء الجيش لنجدته .

كيف وقعت الجناية ؟

وظل عبد الستار لطفي غائباً عن رشده مدة ١٥ يوما الا انه لما استعاد قواه روى تفاصيل الحادثة التي رأينا ان نقدم سردها على المعلومات التي جرت خلال التحقيق في الايام السابقة قال :

— نحن شابان وجدنا في مدينة فيها كثير من الملاهي ولا عمل لنا ولدينا شيء من المال الذي تجودون به علينا ، ولذا لا عجب اذا ارتدنا بعض دور الملاهي

ومنذ اربعة ايام اخذ يتردد علينا شاب كل ما عرفناه عنه انه يدعي حسن

اجتمعنا به في احدى الحانات القائمة حول المرجة فتقرب الينا خلال السهرة ودعانا الى شرب كأس من العرق ورحنا نتبادل معه احاديث مختلفة انتهت بان تواعدنا معه على ان يأخذنا الى احدى النساء الجميلات لتمضية الوقت عندها في الفندق

وبعد ظهر ٦ ايلول جاء يقول ان المرأة في انتظارنا على طريق دمر فاستأجرنا عربة وسرنا بها مسافة طويلة ، وبالقرب من دمر اجتمعنا بالمرأة فركبت معنا العربة وذهبنا الى منتزه قائم هناك دون ان نعلم من امرها شيئاً ، وقد امضينا هناك ثلاث ساعات كانت المرأة تظهر لنا خلالها كثيراً من الغنج والدلال محاولة استدراجنا لمعرفة شؤوننا ومع اننا افهمناها اننا من التجار ابت ان تصدق قائلة انها تعرف علاقتنا بدائرة الاستخبارات وانها تطلب منا مساعدتها لانقاذ احد رفاقها المسجونين الذي يهمها امره و كان رفيقي قد تأثر بجمال المرأة وطلاوة حديثها ووعدها له فافضى اليها بكل ما تم الاتفاق بيننا وبينكم عليه

وهنا حاولت منع رفيقي من الادلاء اليها باية معلومات في هذا الشأن دون جدوى لان المرأة والخمرة اثرتا فيه تأثيراً شديداً حتى اذا انتصف الليل وحاولنا العودة الى الفندق دعتنا هذه المرأة الى مرافقتها فلبينا الطلب ولما بتنا في الغوطة دخلنا منزلا نجهله وهناك حجز علينا ولما حاولنا الافلات والفرار هاجمنا عدة اشخاص واوسعونا طعناً بالمدى حتى فقدت رشدي

• • •

هذا ما رواه عبد الستار عن الحادث الذي حصل له مع رفيقه وهو امر يدل على مقدار جسارة هذه الجاسوسة التي هزأت بقوات الحكومة مما اهاب ببرهان الدين الى ان يصب جام غضبه على الموقوفين الثلاثة الذين لاقوا من العذاب ما حملهم على الاعتراف بالحوادث التي مرت بهم

و كان موقف ديب دقنو ورفيقية الموقوفين محفوفاً بالمخاطر الشديدة اذ من الصعب جداً على شبان غير متعلمين محاورة ضابط متعلم من جهة ومقاومة وسائل التعذيب الشديدة التي كان يعاملهم بها رجال التحقيق

ومع هذا فقد اعترف ديب دقنو بانه اقدم على قتل الجندي الالماني لانه اراد

الاعتداء على عفاف امرأة مسلمة وهذه المرأة دفعته الى قتله لانه اجنبي وهو يعتقد ان قتل الاجنبي الذي يريد الاعتداء على عفاف امرأة مسلمة واجب محتم على كل مسلم ولم ينكر ان المرأة التي ارشدته الى مكان الجندي كافأته على عمله هذا بعشر ليرات عثمانية

اما كيف تعرف اليها فقال ؟

— كنت قادما من النبك الى دمشق وليس في جيبي فلس . كانت الدنيا في عيني ظلاماً ولم اكن قادراً على العمل لان الجنود كانوا يطاردونني لفراري من الجندية .

وفي الطريق شاهدت سيدة تركب احدى العربات بطريقها الى دمشق فاستوقفتها وتهددتها هي والحوذي بالقتل اذا لم يسلماني ما معها فقابلت السيدة تهديدي هذا بابتسامة وقالت :

— لا املك من المال الا ورقة بخمس ليرات ولدي بعض مجوهرات ومع هذا استطيع ان اعطيك اضعاف ما تطلب اذا نزلت عند طلبي .

قالت ذلك وفتحت محفظتها النسائية فاخرجت منها ورقة الخمس ليرات وقدمتها لي وقالت :

— امتفقان نحن على ما قلت لك ؟

— ...

= في امكانك ان تفتشني وتتأكد من صحة ما قلته لك الا انك لن تجد شيئاً وتخسر ما وعدتك به .

— ...

— اذن خذا المبلغ وتعال غداً الى حديقة دمر فتجدني في انتظارك

ففعلت مسحوراً بجمال هذه السيدة وابتسامتها الحلوة وذهبت الى حيث تدعوني فلم اجدها فضحكت في نفسي من نفسي اذ كيف يمكن سيدة غنية مثلها ، كما ظهر لي من ملامحها ، ان تثق بصعلوك لص مثلي ، وفيما انا اهم بالعودة اقترب مني شاب وقال لي :

— أأنت اللص الذي تصدى للسيدة امس ؟

فكهرني هذا السؤال ومددت يدي الى وسطي محاولا اشهار مديتي خوفاً من ان يكون الرجل من افراد البوليس شكتني اليه السيدة وانبأته بالوعد فجاء لتوقيفي الا انه ابتسم وقال :

— ضم مديتك في مكانها والحق بي لان السيدة في انتظارك

فلم اتبعه وامرته بالانصراف فعاد الي ورفع يديه قائلا :

— انا اعزل لا سلاح لدي وانت لديك مدية حادة الشفرتين في امكانك طعني بها اذا اتضح لك اني كاذب

فصدقته ومررنا بين البساتين مسافةطويلةحتى وصلنا الى بستان مجاور (ابردى) فوقفت هناك امام السيدة التي استقبلتني بالابتسامة العذبة نفسها وقالت :

— لقد وفيت بوعدي كما ترى

— ...

— هذه ٢٥ ورقة تركية فاشتر بها احتياجاتك وسافر بعد غد الى بيروت حيث اكون بانتظارك في فندق (كسمان) الواقع في محلة باب ادريس واسأل هناك عن السيدة نريمان بهجت فتجدني في انتظارك

فلبيت الدعوة وذهبت الى بيروت غير حافل بجميع المخاطر التي تهددني اذ آمنت بان السيدة ذات مكانة ان اخلصت لها العمل تنقذني من الخدمة العسكرية وتجد لي عملا حسناً

ولما جئت لزيارتها في الفندق استقبلتني بحفاوة واطلعتني على تاريخ حياتها بعبارات مؤثرة وخلاصة ذلك انها زوجة مثري كبير اراد الالمان استغلال ثروته فسجنوه دون ان يعلم الترك بامره وانها ارادت انقاذه الا ان الجندي المولج بالحراسة اراد الاعتداء على عفافها بالقوة وانها رأت بي الشهامة والمقدرة لارسال رسائلها الى زوجها المسجون والسعي لتهريبه واغرتني بالوعود وبجمالها فقبلت هذه المهمة وحضرت بي مساء ٧ حزيران الى المعسكر الالماني وطلبت الي ان انسل الى مكان زوجها بعد ان لفتت نظري الى الحارس قائلة انه هو الذي حاول الاعتداء عليها

ولا انكر ان جمال هذه المرأة اثر بي تأثيراً عظيماً وجعلني شبه عبد لها انصاع لارادتها

ولما حاولت اجتياز المنطقة الممنوعة واصبحت وجهاً لوجه تجاه الحارس تذكرت فوراً السيدة فثارت الدماء في عروقي وانقضضت عليه اوسعه طعناً بمديتي حتى سقط على الارض جثة هامدة ثم عدت ادراجي الى حيث كنت ورويت للفتاة ما كان فاستاءت السيدة من هذا العمل ولامتني عليه قائلة انها لا تريد قتل الحارس بل انقاذ زوجها ولما افهمتها انني نفذت ارادتها في الانتقام ممن اراد اهانتها سكتت ونقدتني عشر ليرات عثمانية وامرتني بالعودة فوراً الى قريتي والبقاء هناك بانتظار اوامرها وسيوافيني رسول من قبلها بما احتاج اليه من مال . وفعلا جاء هذا الرسول في حزيران يحمل الى خمس ليرات ذهبية ومثلها في آخر تموز وفي الخامس والعشرين من آب جاء يحمل الي عشر ليرات عثمانية مع دعوة منها للحضور فوراً الى دمشق للاجتماع بها في دمر في المكان الذي اجتمعنا به قبلا

ولما لبيت الدعوة طلبت الي ان اتدارك اثنين من رفاقي الذين يمكننا الاعتماد عليهم والذهاب فوراً الى بعلبك لانتظار تعليماتها هناك

وقد ذهبت في اليوم الثالث الى بعلبك يرافقني صالح وقاسم

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر آب جاءني الى بعلبك رسولها السري الذي لا ازال اجهل اسمه الى الان وطلب مني ان اذهب الى (رأس بعلبك) فاقطع من هناك تذاكر لي ولرفيقي الى حمص وان نركب في الحافلة المعينة لنا وسيكون هو اي الرسول ، فيها . فلبينا الطلب وركبنا القطار المذكور فوجدنا هناك السيدة والرسول ورجلا آخر ، وفي القصير امرتنا بالنزول من القطار ولم نعرف شيئاً بعدئذ .

— والمرأة ، اين نزلت ؟

— في المحطة التي تلي محطة القصير وقد سمعناها تروي لرفاقها ذلك

والجناية التي وقعت في القاطرة المجاورة ؟

— لا علم لنا بها

— اذن لماذا استدعتكم ؟

— لا نعرف

فانزل التعذيب بديب ورفيقيه لحملهم على الاقرار بجريمتهم الا انهم انكروها انكاراً تاماً

وصراحة ديب في رواية الحادثة الاولى والثانية دلته على انهم لا يعرفون حقيقة هذه الجناية التي قد تكون ارتكبت بين بعلبك واللبوة او بين اللبوة وراس بعلبك وقد تكون السيدة استقدمتهم لاستخدامهم في الجريمة ثم استغنت عنهم

اما الجريمة الثالثة الذي ذهب ضحيتها الشاهدان والتي اسفرت عن قتل مصطفى واصابة رفيقه عبد الستار لطفي بجراح بالغة فقد اعترف ديب بان رفيقيه اقترفاها بالاتفاق والرصول المجهول

وعلى اثر هذه الاعترافات احالهم برهان الدين بك الى الديوان الحربي العرفي في دمشق بتهمة الفرار من الجندية والاقدام على قتل الجندي كارل والشاهد مصطفى فحكم عليهم الديوان بالاعدام في جلسة واحدة ورفع الاوراق الى القيادة لتصديقها

وفي اليوم الاخير من شهر ايلول سنة ١٩١٦ صدرت جريدة الشرق وفي عملياتها ما نصه :

اعدام خائنين

نفذ حكم الاعدام صلباً في قضاء دوما بكل من صالح لزرع ، ديب دقنو من اهالي حرزما التابعة لدوما وقاسم الخطيب لفرارهم من الجندية واقدامهم على ارتكاب الخيانة الوطنية وقتل نفوس حرم الله قتلها وبذلك نالوا الجزاء الذي يستحقونه .

وهكذا اسدل الستار عن جريمة فظيعة كانت رئيسة الجواسيس عائشة خانم سبباً في ارتكابها

وقد طوى التاريخ حادث هؤلاء الضحايا البائسين في ٣٠ ايلول سنة ١٩١٦ اما عائشة خانم تلك الجاسوسة الخطرة فبقيت تتابع اعمالها

اين ذهب هل ؟

تشعبت حوادث عائشة خانم وتعددت جناياتها في البلاد وكانت السلطة العسكرية عاجزة عنها . فقد ذهب ضحية عائشة خانم عدد كبير من شباب سوريا ساقوا الى اعواد المشانق بعدل او بغير عدل

الا ان هذا كله لم يكن يهم القضاء لان المحققين العسكريين كانوا يهتمون بوجه خاص لتفصيل فرار « هل » ومعرفة الوجهة التي سلكها مع الجاسوسة ورفيقها الآخرين

وقد دلت المعلومات السرية ان الفتاة اجتمعت بالضابط الاوستر الي ورفيقها في حوار (القصير) ومن هناك توجهوا الى البادية حيث لجأوا الى عرب (الموالي) وتمكنوا من الحصول على المساعدة التامة للفرار من تلك المنطقة

ولكن الى اين تجهوا ؟

وكيف تنقلوا في بادية سوريا ؟

وكيف وصلوا الى المنطقة الثائرة ؟

كل هذه الاسئلة غامضة فالمعلومات الرسمية الواردة الى القيادة العامة من (مدائن صالح) كانت تفيد ان « هل » الطيار الاوستر الي وصل الى جبهة الثورة العربية في اليوم العاشر من شهر تشرين الاول واستقبله لورنس في المنطقة وتحدث عن الخائنة مدة طويلة

وعندما تأكدت السلطة التركية من تخلصها من الطيار الجاسوس « هل » كانت تخاصمت قبلا من طرسون دون ان تتمكن من الوصول اليهما بعد ان عبثا بها على تلك الطريقة الغريبة التي تدل على جهلها المطبق وعدم معرفتها حقيقة الامور التي تجري حولها قامت تشدد الرقابة على عائشة لمعرفة مصيرها

الفصل العاشر

فر هل في آخر اب وحصلت الحوادث الجنائية الاخرى في ايلول وانتهت باعدام ديب دقنو ورفيقيه ٠

ونقف الان بالقراء عند هذا الحد لنعود بهم قليلا الى الوراء فنروي الاسباب التي ادت الى انتحار محيي الدين بك مدير بوليس بيروت لان لانتحار هذا الرجل علاقة باجريات هذه الامور وبالحوادث الجنائية الاخرى التي سيأتي ذكرها في هذه الفصول

وظيفة مدير البوليس

لم تكن وظيفة مدير البوليس في العهد العثماني خصوصاً خلال الحرب العالمية مقصورة على المحافظة على الامن ومطاردة المجرمين فقد كانت له صلاحية واسعة النطاق في توقيف المتاجرين بالمواد الغذائية والعملة وسوقهم الى الديوان الحربي ومطاردة الجواسيس ومراقبة الحالة السياسية كما انه كان في استطاعة مدير البوليس اعدام البريء وتبرئة المجرم وكان محيي الدين بك رئيساً لاحدى شعب ادارة الشرطة في استنبول عندما كان عزمي بك مديراً لبوليس العاصمة العثمانية واحمد جمال باشا محافظاً عسكريا لها

ولما قامت الحركة العربية في استنبول وتولى احمد جمال وعزمي اخماد هذه الحركة التي اثارها نادي الاخاء العربي وعزيز علي بك المصري عهد هذان الطاشان الى محيي الدين بك بمراقبة دعاة القضية العربية ومطاردتهم بشدة فقام بهذه المهمة خير قيام بحيث صارا يريان فيه خير وسيلة يستفيدان منها لتحقيق هدفهما ٠

ولما استولى احمد جمال باشا على مقدرات الامور في سوريا وبلاد العرب استقدم لادارة وزارة سوريا زميله في البطش بالعرب عزمي بك فولاه ولاية بيروت

واستقدم هذا الاخير معاونه في البطش محيي الدين بك وولاه مديرية الشرطة وزوده بصلاحية واسعة النطاق لادارة امور الامن في الولاية

وقد استغل محيي الدين بك هذا النفوذ لتنفيذ مآربه الخاصة وجمع ما يقدر على جمعه من الثروة فقام في بادىء الامر يفرض نفوذه وسيطرته على التجار واصحاب الاموال والمتلاعبين بالعملة فالقى الرعب الى قلوبهم مما ضاعف محبة عزمي له ٠ وما لبث ان اصبح شريكا سريا لبعض تجار بيروت يدفعهم الى احتكار المواد الغذائية كما يريد على ان يأتوه بحصته من الارباح

اصطدامه بجمال

وكان في الامكان ان يستمر في عمله هذا لو لم تتدخل المرأة وتدفعه الى الاصطدام باحمد جمال باشا ٠

فقد روينا في فصل سابق من هذه المذكرات ان احمد جمال باشا اراد ان يبث الثقافة التركية في البلاد السورية لتحل مكان الثقافة الاجنبية التي بثت نفوذها ودعاياتها بواسطة مدارس الارساليات الاجنبية ولهذا استحضر من استنبول عدداً كبيراً من اساتذة المدارس التركية فولاهم ادارة معظم معاهد العلم الاجنبية ثم استحضر بعثات اخرى من فتيات الترك تحت ادارة الكاتبة المعروفة خالده اديب خانم وشقيقتها نكار اديب خانم ووزعهن على دور العلم للاناث في بيروت

وكان نصيب معاهد بيروت عدداً كبيراً من هؤلاء المعلمات الجميلات اللواتي بدل ان يزرعن بذور العلم والعرفان انطلقن في بث الدعارة والفساد

وكان نصيب محيي الدين بك بعض هؤلاء المعلمات اللواتي كان يستدعيهن الى سهرات فسق وفجور يقيمها في داره ، وهكذا ساعد مساعدة فعالة على نشر الرزيلة في البلاد

وفي شباط سنة ١٩١٦ عندما جاء احمد جمال باشا الى بيروت بصورة مفاجئة قام بجولة تفتيشية على المدارس الجديدة التي اوجدها في بيروت فقصد مدرسة جمال باشا ومدرسة القديس يوسف الواقعة في محلة زقاق البلاط بالقرب من دار آل

فريج » فوجدها خالية من المعلمات وجاء من همس في اذنه انهن في سهرة بدار مدير البوليس فقصد تواً الى هناك فرأى المدير في حالة السكر الشديد ومثله المعلمات والمنزل اشبه بحانة

وفي اليوم التالي اصدر امراً باستبدال المعلمات وحاول ايقاف المدير عن عمله الا ان عزمي بك تدخل في الامر ومنع احمد جمال باشا من اتخاذ مثل هذ التدبير فعدل عنه بعد ان اخذ وعداً من المدير بان لا يعود الى سيرته الاولى

الا ان المدير لم يرتدع واستمر في غيه

ظهور الجاسوسة

وظهرت الجاسوسة الانكليزية عائشه خانم في بيروت وراحت تمثل ادوارها الخطيرة في هذه المنطقة وكانت القيادة ترسل الامر تلو الامر الى مديرية شرطة بيروت مستفسرة ولكن دون جدوى لان التقارير الواردة من المديرية كانت تدل على جهل مطبق للادوار التي تمثلها الجاسوسة في بيروت

ولما حصلت جناية مقتل الجندي الالماني كارل في السابع من شهر حزيران سنة ١٩١٦ وقامت القيادة الالمانية تحتج زاد سخط احمد جمال باشا على مدير شرطة بيروت لاسيما ان التقارير الواردة اليه كانت تدله على انه لا يزال يواصل خطته في الدعارة والاتفاق مع المحتكرين فارسل اليه انذاراً شديد اللهجة ينبئه فيه باستعداده لاحالته الى الديوان العرفي اذا لم يرتدع ويظهر قاتل الجندي في مدة اسبوع واحد

يقول المثل (العادة في البدن لا يغيرها الا الكفن) وهذا المثل ينطبق تمام الانطباق على محيي الدين بك مدير شرطة بيروت فقد ظل متماديا في خلاعته كما تمادى في الاتفاق مع المحتكرين والمرابين

ولما تلقى انذار احمد جمال باشا رأى ان يحيد عن طريقه مدة ريثما تهدأ اعصاب الباشا ويتمكن في استنبول من تسوية الامر مع هذا الاخير بما له من دالة على طلعت باشا ولذا طلب الى عزمي بك ان يرخص له بالسفر الى العاصمة

بالاجازة فمنحه اجازة شهرين .

وفي اليوم الثامن عشر من شهر حزيران سنة ١٩١٦ غادر بيروت بالاجازة وولي اسماعيل حقي بك رئيس البوليس العدلي ادارة مديرية الشرطة بالوكالة مدة مأذونيته

اذا وقعت البقرة . . .

وكان اول ما اهتم به اسماعيل حقي بك بعد ذهاب رئيسه التحقيق في التهم التي يمكن توجيهها الى هذا الاخير فاتهمه بانه كان يساعد بعض تجار بيروت على احتكار المواد الغذائية ، ولكي يضيق عليه في هذا الامر قام يتعقب التجار الذين كانوا يعاضدون المدير فاوقفهم وحمل عزمي بك والي بيروت على اصدار قرار بتاريخ ٢١ حزيران سنة ١٩١٦ باحالة عبد الغني الغندور ورفاقه الى الديوان الحربي العرفي في عاليه لتلاعبهم بالمواد الغذائية واصدر الوالي بذلك بلاغاً رسمياً نشره بالصحف الصادرة في ذلك اليوم يعلن فيه احالة هؤلاء السادة الى الديوان الحربي العرفي ويهدد كل من سيحذو حذوهم بهذه العاقبة نفسها .

واثبت اعتداء محيي الدين بك مدير البوليس على عفاف عدد كبير من الفتيات والنساء اللواتي جئن يلتمسن الرأفة برجالهن وهذا امر مخالف للقانون والاوامر الصادرة من الحكومة باحترام نساء الجنود الذين في ساحات القتال والخدمة العسكرية

واعتقل مئات من الشبان الفارين المتوارين عن الانظار كما اعتقل ٢٥ شاباً بيروتياً سجلت اسماؤهم في ادارة الشرطة على انهم من موظفي هذه الادارة السريين مع ان التحقيق اثبت ان هؤلاء غير موظفين وانما قبلوا ان تسجل

اسماؤهم في دائرة الشرطة كجواسيس مقابل بقائهم في منازلهم واعفائهم من الخدمة العسكرية على ان يتقاضى المدير المخصصات التي يوقعون على الجداول بانهم قد تناولوها من صندوق المديرية

واثبت المدير الوكيل في تحقيقاته ان محيي الدين بك كان يتناول مرتبات معينة من المتاجرين بالعملة الذهبية الذين كانوا يجتمعون في مقهى المرصد وتمكن من الحصول على تواقيع من بعض هؤلاء يعترفون فيها بخط يدهم بان المدير محيي الدين بك كان يتناول منهم مرتبات شهرية مقابل صرف النظر عن اعمالهم في مشترى الذهب وبيعه

واثبت في تحقيقاته اخيراً ان خمساً من دور القمار كانت تدار تحت اشراف محيي الدين بك مقابل جعالة معينة له

وسجل هذه التهم رسمياً في دفاتر الادارة ورفعها بدوره الى مقام الولاية مع تقرير خاص كتبه بنفسه واستغرق ٦٤ صفحة كاملة سرد فيه مئات من الحوادث المخالفة للنظام التي قام بها محيي الدين بك . وعرض اسماعيل حقي بك في تقريره هذا لقضيتين هامتين اثبت في احداهما معرفة محيي الدين بك بالجاسوسة عائشة خانم التي ارتكبت تلك الحوادث قال :

— وقد صرح لنا حكمت جاويش من رجال قيادة المركز انه في اليوم السابع والعشرين من شهر ايار سنة ١٩١٦ اعتقل في فندق كسمان عائشة خانم التي رأى في امرها ما يريب خصوصاً بعد ان تردد عليها بعض الاشخاص المشتبه بهم الا انها بعد خلوة مع المدير امره باخلاء سبيلها لانها بريئة من التهم

وجاء في افادة راجي جاويش من جنود قيادة مركز بيروت ان زميله حكمت جاويش فاتحه بامر هذه الفتاة وبمخاوفه منها خصوصاً بعد ان وردت اوامر القيادة بشأنها ، فقام لمطاردتها فوجدها في الفندق

وعلم ان هناك عدة اشخاص يترددون عليها ثم هم بتوقيفها ولكنها ابرزت

له مستنداً موقعاً عليه من محيي الدين بك مدير الشرطة يثبت انها نسيبته وانها تعمل لحسابه في بعض المسائل السياسية ، وانه — اي اسماعيل حقي بك — راجع قيود الدائرة لمعرفة حقيقة هذه الافادة فلم يجد فيها ذكراً لهذه المرأة ، ولهذا يرى في هذه التذكرة اموراً خطيرة فاما ان تكون هذه التذكرة مزيفة وهو ما لا يعتقده لان راجي جاويش يؤكد انها تحمل توقيع محيي الدين بك الذي لا يمكن تقليده ، واما ان يكون محيي الدين بك قد اعطاها هذه التذكرة لغاية لا تزال مجهولة . ويحاول اسماعيل حقي بك في تقريره هذا ان يثبت معرفة محيي الدين بك لهوية هذه الفتاة بقوله انه جاسوس معها ضد وطنه ويطالب باجراء التحقيقات معه

اما الثانية فقد اورد فيها اسماء عدة اشخاص من البيروتيين الفارين من الخدمة العسكرية والذين تناول محيي الدين بك اموالا منهم قال :

— وقد اثبت لي التحقيق الذي قمت به مع الموقوفين من الجنود الفارين ان محيي الدين بك كان يتناول اموالا منهم ومن هؤلاء نقولا ابن نخله جنحو من اهالي بيروت ومواليد سنة ١٣١٤ وليان ابن نصرالله الجدلاني من سكان مزرعة العرب ومواليد سنة ١٣١٠ واحمد حسن المصري من سكان المصيطبة ومواليد سنة ١٣١٢

فقد اعترف لي هؤلاء بصراحة بانهم دفعوا له خمسين ليرة عثمانية ذهباً مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية وغير ذلك من التهم الخطيرة التي اذا ثبتت واحدة منها تكون كافية لان تؤدي بصاحبها الى الاعدام

موقف عزمي بك من التهم

جعل اسماعيل حقي بك في معلوماته هذه عزمي بك والي بيروت تجاه امر واقع لا يستطيع انكاره لسببين :

١ — ان جمال احمد باشا قد اطلع على نسخة من هذه التحقيقات وهو ناقم على محيي الدين بك مدير البوليس الذي اعتدى على المعلمات اللواتي جاء بهن لنشر الثقافة التركية في البلاد

ان اسماعيل حقي بك قام بعمل رسمي مسجل بالدفاتر فهدم تمام المعاملات القانونية والحالة هذه يعد اشتراكا معه في هذه التهم

وعزمي بك كان من انزه رجال الدولة العثمانية لم يرتكب جريمة الرشوة في وقت من الاوقات

ولهذا كان تأثره عظيما من هذه المعلومات فابرق الى محيي الدين بك يأمره بالعودة سريعاً الى بيروت

فعاد مساء الرابع عشر من شهر آب سنة ١٩١٦ وتوجه تواً الى مديرية الشرطة لاستلام مهام وظيفته وصباح ١٥ منه توجه الى مقام الولاية لمقابلة الوالي عزمي بك الذي استقبله بقساوة وسلم اليه نسخة من التقرير الذي وضعه اسماعيل حقي بك وسأله رأيه فيه

فلما اطلع محيي الدين بك على التهم التي وجهت اليه سكت .

فقال له عزمي بك :

— محيي الدين بك ، تعلم حق العلم مقدار عطفي عليك والمساعدات الكبرى التي اديتها لك ، ولهذا دفعت اليك بهذا التقرير لتطلع على التهم الموجهة اليك فاما ان تكون تهما باطلة فتعمد الي اقناعي بالادلة والبراهين على فسادها واما ان تكون ثابتة فيمكنك . . .

— مولاي هذه التهم كثيرة وقد دبرها اعدائي

— والوثيقة المعطاة لعائشة خانم أحقيقة هي ؟

— نعم يا مولاي

— وهل كنت عارفاً بانها تتجسس على القيادة ؟

= كلا

— اذن لماذا سلمت اليها هذه الوثيقة ؟

— فعلت ذلك في ساعة ضعف يا مولاي · فقد اثرت فيّ هذه الفتاة بصورة لا يمكنني وصفها واثبتت لي ان في استطاعتها خدمة ادارة الشرطة فسلمتها اياها

— وبعدئذ ؟

— لم ارها ونسيت امر هذه الوثيقة

— وبقية التهم ؟

— · · ·

— محيي الدين بك ، ان صداقتنا السابقة تقف بنا عند هذا الحد اذ لم يبق بامكاني حمايتك

— مولاي ، اتتخلون عني في هذا الظرف الحرج ؟

— نعم

— اتريدون تسليمي الى القضاء في هذا الوقت العصيب ؟ لقد خنت واجبي ولكنني لم اخن وطني فتوقيفي والحالة هذه في بيروت سيء العاقبة وقد يمس شخصكم الذي اريد ان يظل صافيا

— انني اعتقد بك الشرف والاخلاص ولهذا لا اسلمك الى القضاء

— ماذا يجب ان افعل ؟

— انت تعرف واجبك في مثل هذا الظرف ولم يبق بيننا حديث ولديك مهلة ٢٤ ساعة يمكنك خلالها ان تتدبر امرك ، وتعمل بما يوحيه اليك ضميرك

— فهمت يا مولاى

قال محيي الدين بك جملته الاخيرة وهو على اشد ما يكون من الاضطراب وسقطت بالرغم منه دمعة من عينيه والتفت الى عزمي بك كانه يلتمس منه عفوه

ويظهر ان عزمي بك ادرك نية مساعده الذي اعتمد عليه في ايام الشدة والقسوة فمد يده اليه وقال :

— محيي الدين بك ، انت السبب في هذه العاقبة السيئة وكان في نيتي ان

امد لك يد المساعدة الا ان واجبي وشرفي لا يسمحان بذلك فاذهب

ولما انصرف محيي الدين بك من مقام الولاية بكى عزمي بك وهو الرجل الحديدي اذ كان واثقاً تمام الثقة بان من خرج من امامه سيعمد الى القضاء على حياته .

وقد خرج محيي الدين بك واتجه تواً الى منزله فاختلى بنفسه في مكتبه الخاص لتحرير عدد من التحارير الخاصة اعترف فيها بكثير من الامور التي ارتكبها كما سامح سلفه اسماعيل حقي بك في تحرير خاص كتبه له راجياً منه ان يدوم على خطته التي ستسفر عن فائدة كبيرة لوطنه ولحكومته

ليلته الاخيرة

ولم يشأ محيي الدين بك ان يصرف ليلته الاخيرة في الصلاة او الرجوع الى ضميره لنسيان الماضي بل اراد ان يقضيها متابعاً خطته السابقة فامر الشرطي المرافق له بان يعد له مأدبة فخمة يجمع فيها افخر المأكولات والمشروبات ثم استدعى اليه ثلاث نساء من اللواتي كن يترددن عليه من وقت لآخر وصرف معهن وقتاً طويلا حتى اذا كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل استدعى اليه من احد مسارح بيروت ثلاثة من مهرة الموسيقيين وتابع ليلته المجونية الى الساعة الخامسة

ويؤكد الذين شهدوا محيي الدين بك في ساعاته الاخيرة انهم لم يروه في وقت من الاوقات مسروراً مرحاً يشرب الخمرة ويغني ويرقص كما رأوه في تلك الليلة .

وفي الساعة الخامسة صباحاً عند انصراف النساء والموسيقيين من دار المدير . وفي الوقت الذي هم فيه الخدم بالذهاب الى مراقدهم دوى في سكون الفجر ازيز عيار ناري عقبه صرخة خفيفة فهبوا الى غرفة المدير فوجدوه مطروحاً على الارض والمسدس في يده والدم يتفجر من صدغه وكان لا يزال يحشرج فلما رآهم قال والابتسامة على شفتيه :

— انا انتحرت واموت مسروراً   ثم فارق الحياة

عزمي يريد قتله

وقد اعتاد عزمي بك تمضية السهرة اما في (نادي بيروت) او في احدى دور وجهاء بيروت اما في ذلك المساء فلم يذهب الى هناك كما انه رفض استقبال الزوار الذين جاؤوا الى قصره في محلة جنبلاط لزيارته

وقد استدعى احد رجاله المخلصين وامره بالذهاب لمراقبة الحالة في دار محيي الدين بك وموافاته بما يجري هناك

وكان عزمي بك يترقب عودة هذا المرافق من وقت لآخر حاملاً اليه نبأ انتحار الرجل الا ان المرافق عاد في الساعة العاشرة والنصف مساء وانبأ الوالي بما كان من دعوة المدير للنساء الثلاث وتعددت الاخبار للوالي عن ارتفاع اصوات الغناء ووصول الموسيقيين وغير ذلك

فثارت ثائرة عزمي بك وقرر الانتقام من هذا الرجل وقد اعتقد انه فقد الشعور والاحساس فاستدعى اليه في الساعة الثالثة بعد نصف الليل اسماعيل حقي بك وكيل مديرية الشرطة وامره بان يذهب في الصباح الباكر الى دار المدير مصحوبا باحد المفوضين وان يوقفه ويقوده سراً الى الدائرة

وكان في نية عزمي بك ان يتدبر لمحيي الدين بك طريقة في الدائرة فاما ان يجبره على الانتحار او يعمد الى قتله بواسطة احد رجاله

الا ان الوالي استغنى عن هذه الطريقة عندما جاءه مرافقه في الساعة السادسة والنصف من صباح ١٦ الجاري وانبأه بانتحار محيي الدين بك فور خروج القوم من داره فتنفس عزمي الصعداء وقال :

— لقد كفر الرجل عن نفسه بنفسه

واراد عزمي بك ان يودع المدير مثواه الاخير باحتفال رسمي فخم فاستدعى اليه فوراً اسماعيل حقي بك ورئيس بلدية بيروت وامرهما بان يعدا العدة لتشييع الجثة باحتفال رسمي سار فيه هو ورجال الشرطة والجندوجلاوزة البلدية والوجوه والاعيان . وعلى هذه الصورة الفظيعة انتهت حياة محيي الدين بك الذي كان اشد

مديري البوليس قسوة وظلما واعتسافاً كما كان خير مساعد لبعض المحتكرين في التلاعب بقوت العباد وزيادة وطأة المجاعة في بيروت

وقد كان من نتيجة العداء بين المدير المنتحر ومعاونه ان عمد احمد جمال باشا الى معاقبة الاشخاص الذين اشتركوا معه ايضاً فأمر باعتقال هؤلاء وسوقهم الى الديوان الحربي العرفي كما امر باعتقال الذين ورد في التقرير انهم فروا من الخدمة العسكرية مقابل اموال دفعوها الى محيي الدين بك وكانت نتيجة ذلك ما يلي :

اولا — توقيف ٢٤٥ شابا من البيروتيين الذين اشتركوا في حوادث متعددة كالاتجار بالعملة والاحتكار او الفرار من الجندية وسجن البعض ونفي الآخرون

ثانياً — ابعاد ٨١ شخصاً آخرين الى الاناضول

ثالثاً — اعدام ثلاثة شبان اصدرت ولاية بيروت بلاغاً رسمياً عنهم بتاريخ ١٤ تموز سنة ١٩١٦ هذا نصه

(بناء على الاوامر الصادرة من مقام الجيش الهمايوني الرابع نفذ حكم الاعدام في فجر امس الموافق ١٣ تموز بكل من نقولا بن جنحو من اهالي بيروت ومواليد ١٣١٤ وليان بن نصرالله الجدلاني من اهالي بيروت وسكان المزرعة ومواليد ١٣١٠ واحمد حسن المصري من اهالي بيروت وسكان محلة راس النبع الغربي ومواليد سنة ١٣١٢ وذلك لثبوت فرارهم من الجندية بصورة متكررة) اه

تقرير سري

تعددت حوادث المخابرات بين القيادة الفرنسية والمناطق اللبنانية وكان رسل الفرنسيين يغزون سواحل بيروت الشمالية بصورة مستديمة دون ان يتمكن رجال خفر الساحل من مطاردتهم

وفي اليوم العشرين من شهر ايلول سنة ١٩١٦ تلقت قيادة الجيش الرابع تقريراً سريا من متصرفية لواء جبل لبنان جاء فيه ما نصه :

« انتشرت الدعايات في المناطق الساحلية الشمالية للبنان انتشاراً عظيما لحمل اكبر عدد من الشبان اللبنانيين على مغادرة هذه المنطقة والالتجاء الى سفن

الاعداء التي تجوب هذه المناطق بصورة خطرة

وكانت الغاية من وراء هذا التدبير حمل هؤلاء الشبان الى التطوع في صفوف الاعداء ضد الدولة

وقد علمنا من التقارير الواردة الينا من الملحقات ان فتاة تنطبق اوصافها على الفتاة الجاسوسة التي تقوم القيادة بطاردتها قد لجأت الى جرود كسروان متزيية بزي الفتيات المسيحيات وتقوم بنشر الدعايات للثورة في المنطقة اللبنانية المذكورة

وقد اوفدنا على اثر ذلك القومندان الضاهر بك لاجل اجراء تحقيقات في هذا الشأن فجاءنا ان الفتاة موجودة اليوم في دير للراهبات وعلمنا من جهة اخرى ان رئيس مدرسة عينطورة قد اتخذ من مدرسته هذه قاعدة لاستقبال الجواسيس الذين يأتون الى هذه المنطقة من قبل الفرنسيين وهو بدوره يتولى توزيع الاموال التي ترد من هناك على اصحابها اللبنانيين

وقد حاولنا مراراً متعددة العمل في هذا المضمار لمقاومة هذه الحركات وتوقيف رئيس المدرسة بالجرم المشهود الا اننا لم نتمكن من الوصول الى هدفنا

وقد علمنا من جهة اخري ان شحاده الشويري من اهل قرية الكفور التابعة للبترون وجميل نعمة الله درغام من سكان قرية (رام) التابعة لجونية اجتمعا في الاسبوع الماضي بالجاسوسة السرية في الدير اللاجئة اليه وقد اكد لنا هذا الاجتماع بعض الشهود الذين رأوا الرجلين يترددان عليها ·

وعلى اثر هذه المقابلات قصد الرجلان الى جونيه واجتمعا هناك بميلاد قزحيا الرامي من قرية عقيبة كسروان فتدبر لهما زورقاً مكنهما من الفرار معه الى مراكب الاعداء الحربية وقد غابا في هذه الرحلة ثلاثة ايام متوالية ثم عادا حاملين الى الفتاة التعليمات المطلوبة

وقد اصدرنا الاوامر اللازمة الى القومندان الضاهر بك قائد خفر الساحل في هذه المنطقة لمطاردة المذكورين

اما الثالث ميلاد فقد تأكد لنا انه لا يزال في صفوف الاعداء ونحن بانتظار تعليماتكم المفصلة في هذا الشأن »

وقد اهتم برهان الدين بك لهذه المعلومات واعتقد ان انتحال الجاسوسة الديانة المسيحيه والتجائها الى الدير ثم ايفادها السيدين شحادة الشويري وجميل نعمة الله درغام الى الخارج لا بد من ان تؤدي به الى امرار جديدة عن مساع ستقوم بها الجاسوسة ولهذا ترك المنطقة فوراً وقصد الى بيروت فاجتمع بالدركيين حكمت جاويش وراجي جاويش ومساعده رضوان واتفق معهم على القيام بتحريات سرية في منطقة كسروان

فاوفدت قوة من الجند الى قرية (غدير) التابعة لكسروان لمطاردة جميل درغام ورفيقه اللذين قيل لها انهما لجآ الى هذه المنطقة الا ان الجنود لم يجدوا هناك الاشخاص المطلوبين بل وجدو ثلاثة من الشبان اللبنانيين الابرياء لجأوا الى هذه القرية الهادئة فاعتقلهم الجنود وجاءوا بهم الى الديوان الحربي العرفي وهم طانيوس يوسف شاهين وحنا اوغسطين بربور وانطون بن حنا عاصي ورغم عدم وجود طلب بحق هؤلاء الشبان الثلاثة ورغم ان سكان غدير اثبتوا جماعات وافراد عدم معرفتهم هؤلاء الشبان ورغم عدم العثور مع هؤلاء الشبان على اية تذكرة او ورقة تثبت علاقتهم بالاعداء او بالاشخاص الذين يتعاملون مع الاعداء ورغم الافادات الافرادية التي اخذت لهؤلاء الشبان والتي اثبتت انهم من سكان قرى شمالي لبنان وقد اثرت المجاعة فيهم وفي عيالهم ، فراحوا يطوفون قرى الجبل لايجاد عمل يمكنهم من تامين معيشتهم ، رغم كل ذلك اصرت رئاسة الديوان الحربي العرفي على القول بان هؤلاء الشبان الثلاثة يتصلون بالاعداء وانهم ارتكبوا جريمة الخيانة الوطنية ولهذا حكمت عليهم المحكمة بالاعدام في جلسة واحدة وفي اليوم الاول من شهر تشرين الاول نفذ بهم حكم الاعدام شنقاً في عاليه، وهكذا ذهب هؤلاء الابرياء ضحية غيرهم الذين لم يتمكن رجال الامن من الوصول اليهم

حادث مؤسف

نمر عبد اللطيف شاب في الثلاثين من عمره ومن سكان قرية كفر قاسم التابعة لقضاء جماعين في نابلس وهو رب عائلة كبيرة مؤلفة منه ومن والديه

العاجزين ومن زوجته واولاده الاربعة وليس لهم من معين الا هذا الشاب وقطعة من الارض كان عمر يشتغلها ويؤمن من ايرادها معيشة هذه العائلة الكبيرة

ولما اعلن النفير العام في منتصف سنة ١٩١٤ اخذ هذا الشاب في الخدمة العسكرية الاجبارية فخدم باخلاص تام ثم اشترك في معركة قناة السويس الاولى فابلى فيها بلاء حسنا وجرح خلال هذه المعركة فنقل الى مستشفى القدس ولما تعافى دعاد الى قريته رأى ان والديه قد ماتا من الفاقة وان زوجته واولاده في حالة يرثى لها فانصرف الى العمل في ارضه وبذلك تأخر مدة الى ان كان شهر حزيران من سنة ١٩١٥ فهاجم قريته (كفرقاسم) بعض رجال الدرك لتحري اثر الفارين فاعتقلوه في الجملة وسجنوه مدة ثم ساقوه الى الجبهة دون ان يحفلوا بتضرعاته وتوسلاته

وغاب في جبهة (سينا) اربعة اشهر تمكن في نهايتها من الفرار من الجندية والعودة الى مسقط رأسه فعلم هناك ان زوجته ماتت من الجوع مع اثنين من اولاده وان ابنته فاطمه وهي في السابعة من عمرها ذهبت مع اخيها حسن الى جهة مجهولة سعيا وراء القوت وقد كانت هذه الصدمة شديدة على الرجل اصيب من جرائها بحمى دماغية شديدة القته طريح الفراش اربعة اشهر كاملة ولما تعافى وجد نفسه في المستشفى الاميري وقيل له ان في النية سوقه الى الديوان الحربي العرفي في عكا

الا ان كل هذه الامور لم تهمه بعد المصائب التي توالت عليه وهدت ركن حياته العائلية وكانت افكاره في ذلك الوقت منصرفة الى معرفة مصير طفليه

وقبل سوقه الى الديوان الحربي العرفي في عكا جاءه احد مواطنيه الجنود وانبأه بانه شاهد ولديه قبل اسبوع في بيروت يتسولون في شوارعها وهما في حالة يرثى لها

فقرر الرجل الفرار الى بيروت باية صورة كانت وفيما هو يحاول مغادرة المستشفى تصدى له في الخارج احد الجنود الموكلين بحراسة المستشفى وهم بان يمنعه من الذهاب ، وكان عمر يحمل مدية فانقض بها على الجندي فسقط على الارض يتخبط بدمه ودون ان يلتفت اليه ولى الادبار وظل ينتقل من منطقة لاخرى الى ان وصل الى بيروت فقصد الى المكان الذي شاهد فيه رفيقه ولديه واذا هو تجاه

حادث مؤلم جديد

فواجع الحرب

في محلة ميناء الحصن ، وفي الجهة القائمة بين طريق الميناء وعين المريسه ، يقوم خان قديم في طرفه بستان مهجور ، ذهب نمر الى هناك فرأى نفسه امام منظر افقده رشده ، فقد شاهد هيكلين عظميين متعانقين ولم يعرف انهما هيكلا ابنته فاطمة وولده حسن الا بصعوبة تامة لان الفقر والمجاعة حولا كلا من هذين الطفلين الى مومياء لا يستر العظم منها الا جلد رقيق مكرش يكاد ينفسخ بدوره وتبرز منه العظام الضعيفة

قال له صديقه عندما قابله في مستشفى نابلس :

— ان ولديك يتسولان وهما في حالة الجوع والمسكنة

ولكن لم يخطر في باله ان يرحمهما على هذه الصورة مطروحين بين الاقذار

شاهدهما فطار عقله واخذ يصيح ويعربد فاسرع اليه بعض المارة ولما علموا قصته اكتفوا بهز رؤوسهم لان هذا المنظر لم يكن الاول في بيروت . ففي كل منعطف هيكل بشري مطروح على قارعة الطريق

ولم يكن في استطاعة الفقير اعالة نفسه ليعيل غيره

وقسا قلب الغني . . .

وسمع صراخه احد رجال الشرطة ، ومخفر الشرطة قريب من مكان الحادث فاسرع احد رجال الشرطة اليه وبدل ان يؤاسي هذا الاب البائس بادره بشدة قائلاً :

— هيا واحمل هذين الكلبين الى المخفر

وحملق الرجل في وجه الشرطي أترى هل وصلت القسوة بالبشر الى هذا الحد ولما رأى الشرطي ان الرجل لا يزال واقفاً لا يتحرك دفعه برجله بشدة آمراً اياه بالوقوف والكف عن ازعاج الناس

عندئذ ثارت النخوة العربية في صدر نمر الذي استمد من الضعف قوة فتناول

هذا الشرطي القاسي بكلتا يديه ورفعه الى ما فوق وسطه والقاه بشدة على الارض
وعاد يندب ولديه

فجمع الشرطي نفسه وهرول مسرعاً الى المخفر وبعد دقائق عاد يصحبه
بعض رفاقه الجلادين وانهالوا على المسكين ضرباً وعمدوا الى سلخه عن الهيكلين
المظلومين بوحشية بعد ان كبلوه بالقيود

وفي المخفر قادته الظروف الى المفوض كاظم بك ، وقد اشتهر بعطفه على
الابرياء ، وما كاد يستمع الى شكوى هذا الاب البائس ويقدر حالته حتى امر
بجلب ولديه الى المخفر ثم استدعى طبيباً مجاوراً للمخفر لمعاينتهما فحكم ان احدهما
حسن قد فارق الحياة اما الطفلة فاطمة فان المجاعة افقدتها رشدها وان شيئاً من
العلاج والطعام والعناية كاف لاعادة رشدها اليها

ولكن من اين للاب ما تقدم وهو لا يملك شيئاً كما انه لا يملك حريته

وقد فاتح الوالد بالامر المفوض وروى له قصته من البداية الى النهاية مسترحماً
مساعدته ريثما يتمكن من الاهتمام بمن تبقى له من افراد عائلته وبعدئذ يعود بنفسه
الى القيادة مستسلماً اذ لا تبقى الحياة ذات قيمة لديه

فرق له قلب كاظم بك وهو رب عائلة واولاد ويعرف ان (الدهر دولاب
يوم له ويوم عليه) ولهذا استدعى احد المشايخ الفقراء وحمله جثة الطفل حسن
وسار هو ووالده بجانبه الى جبانة الباشوره فواروه التراب ثم عاد بالرجل الى منزله
وهناك استدعى اليه الطبيب وامره بالاهتمام بالطفلة الهزيلة التي ظلت ثلاثة ايام
فاقدة الرشد حتى اذا باتت قادرة على تناول الطعام اشترى لها المفوض الفراريج
لاعادة قواها اليها وكان والدها يركع يومياً تحت قدميه شاكراً له اهتمامه قائلاً
انه مستعد للتضحية حتى بحياته في سبيله

وشاية سافلة !

والشرطي احمد مرزوق شاب من ابناء هذه البلاد وكان من واجبه ان يعطف
على نمر اكثر من عطف المفوض عليه فهذا الاخير كان غريباً عن البلاد الا ان

حادثته مع ذلك الاب الثا كل وفساد اخلاقه جملاه يحقـد عليه حتى اذا علم بما كان من امر رئيسه المفوض كاظم بك عمد الى لوشاية بدل ان يخجل من نفسه ولهذا ذهب الى اسماعيل حقي بك مدير دو ئر شرطه بيروت وابلغه ان رئيسه آوي احد الفارين فاستاء اسماعيل حقي بك من هذا الامر واستدعى كاظم بك الذي كان من رجاله الخاصين وسأله عن الحقيقة فانكرها عليه وصدقه المدير بعد ان اطلعه على وشاية الشرطي به وامر بنقل ذلك الشرطي الى حيفا

جرت عائشة خانم الجاسوسة الخيفة سلسلة من الويلات وراءها

فقد عمد برهان الدين بك رئيس مصلحة مقاومة الجواسيس ، بعد فشله في مطاردة عائشة خانم برجالها ، الى صب جام غضبه على بعض الابرياء من ابناء البلاد وقد ساعده في ذلك اسماعيل حقي بك ، مدير شرطة بيروت ، وحكمت جاويش وراجي جاويش ورضوان (البيروتلي)

وفي اليوم الخامس من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٦ حملوا الديوان الحربي العرفي في عاليه على اصدار سلسلة من القرارات هذا نص بعضها :

« لما كان الاشخاص المذكورون ادناه قد ارتكبوا جريمة الفرار الى جهة الاعداء .

ولما كان هؤلاء قد اضافوا الى عار الفرار جرم الخيانة الوطنية بتجسسهم على الدولة العلية لحساب اعدائها

ولما كانت المهلة الاخيرة التي اعطيت لهم لاثبات وجودهم امام الديوان الحربي العرفي قد انتهت ولم يثبتوا وجودهم

وبناء على قرار الاتهام

وبعد اخذ مطالعة النيابة العامة حكم بالاعدام غياباً على كل من :

طانيوس شبل لحود ، نقولا زخيا برطع ، حبيب صالح القزي ، منصور حنا جبرايل القزي ، ميلاد فزحيا الرامي من عقيبة كسروان ، توفيق العباد من بيروت خليل انطون الصايغ ، لاون الخوري جريس »

وقد بلغ هذا القرار فور صدوره لبرهان الدين بك كي ينفذه

وكانت الغاية الرئيسية من هذا القرار المستعجل اعتقال الاشخاص الذين يشتبه بان لهم علاقة بهذا الامر قصد الوصول الى المكان الذي اختبأت فيه الجاسوسة عائشة خانم لانهم اعتقدوا ان التضييق على رجالات البلاد بمثل هذه الطريقة الشديدة يساعدهم على الوصول الى هدفهم

ولكن كل هذه التدابير لم توصل برهان الدين الى الهدف الذي توخاه فاغرق في الوشايات والدسائس واسفرت التحقيقات التي قام بها الرجل في منطقة كسروان عن فرار عدد آخر من ابناء هذه المنطقة الى سفن الفرنسيين التي كانت تجوب هذه المنطقة اللبنانية كما ادت الى نفي ٢٢٠ شخصاً الى الاناضول واعتقال مئات آخرين من جهات مختلفة وسوقهم الى الديوان الحربي الذي اصدر بحقهم مذكرات توقيف فاحكاماً قاسية

اين عائشة خانم ؟

اما عائشة خانم فقد غادرت هذه المنطقة في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الحركات الشديدة وقد ورد اشعار الى برهان الدين بك من قائد طاقم جونيه هذا نصه :

جونيه في ١٢ تشرين الاول سنة ١٨١٦

لقيادة قوات الامن العامة

رقم ١٨٢ — ٩١٧ سري

ج . رقم ١٠٢٣ — ١٠٦٥٩ : عملا بالاوامر الصادرة قمنا بتحقيقات دقيقة فتبين لنا ان شحاده الشويري وجميل نعمة الله درغام جاءا فعلا الى جونيه بعد التجائهما الى سفن الاعداء وقصدا الى (عينطورا) فباتا فيها ليلة واحدة ثم جاءهما انطون اسعد فارس وذهب بهما في صباح اليوم التالي الى دير . . . حيث قابلا الرئيسة وتحدثا اليها مدة

ويقول مخبرنا سمعان انطونيوس القزي ان المذكورين مرا عليه مساء ٦ تشرين الاول ومعهما احدى الراهبات وبقي الجميع عنده حتى منتصف الليل وقد

سألنا مخبرنا عن هذه الراهبة فقال انها جميلة الصورة فتية تقوم في اسفل خدها الايسر شامة وهذه الملامح تنطبق على التعليمات الواردة الينا عن ملامح الجاسوسة وبعد ان مكثا المذكوران عنده مع الراهبة حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل جاء حبيب القزي ومنصور حنا القزي الى منزل مخبرنا ثم ذهبا يرافقهما الرجلان والراهبة .

وانه، اي مخبرنا ،سأل نسيبه والآخرين عن الوجهة التي يريدون الذهاب اليها فاجاب احدهم منصور :

- هذه الراهبة موفدة من قبل رئيسة الدير لحمل مبلغ كبير من المال الى راهبات شمالي لبنان ولهذا اوصت هؤلاء بايصالها سالمة خوفاً من ان يتصل الامر بالفئات الاخرى فتعمد الى سلبها

ويقول محدثنا انه رأى الراهبة تحمل بيدها محفظة كانت تحرص عليها ولكن بدا له ان المحفظة ليست ثقيلة لانها كانت تنقلها بيدها بسهولة تامة وانها غادرت منزله في الساعة الثانية قبل شروق شمس ٧ تشرين ووجهتها شطر الجهة الشمالية من جونيه

وقد تلقينا هذه المعلومات في صباح ٧ الجاري فاوفدنا فوراً مفرزة من الخيالة كما ابرقنا الى المخافر الممتدة لغاية طرابلس لمطاردة هذه الراهبة ورفاقها واعتقالهم

ان المعلومات البرقية التي وردتنا في ذلك اليوم وفي اليوم التالي من جميع قواد خفر الساحل ان احداً من رجال خفر الساحل والاهلين لم ير الراهبة ورفاقها

وفي مساء اليوم الثاني وردت افادة من قائد مخفر جديدة المتن تشعر بان احد خفراء الساحل احمد اونباشي شاهد عند غروب شمس ذلك اليوم اربعة اشخاص يحاولون ركوب زورق عادي ومعهم احدى الراهبات ولما حاول منعهم هاجموه قبل ان يتركوا له مجالا للدفاع عن نفسه ونزعوا بندقيته منه ثم نزعوا ثيابه عنه وارتداها احدهم وكبلوه بمرساة واستقلوا الزورق وذهبوا الى الجهة مجهولة

الا ان البحر كان هائجاً في ذلك المساء فما كاد هؤلاء الخمسة يجذفون حتى حملت موجة هائجة الزورق وقذفت به الى الشاطيء فتحطم ونزل ركابه الى

الساحل وهناك توصل اليهم احمد اونباشي لرفع الكمامة التي وضعوها في فمه اذ كاد يختنق فلم يعبأوا به وتركوه حيث هو وتابعوا سيرهم جهة الساحل الممتد الى بيروت ·

وفي اليوم نفسه وردنا اشعار آخر من الجندي رضوان يقول فيه انه وجد على الشاطىء ثياب راهبة ويخشى ان تكون هذه الراهبة ذهبت ضحية احدى الجنايات او تكون غرقت فقذفت الامواج بثيابها الى الشاطىء وانه قام هو ورفيقاه بتحريات على الشاطىء فلم يجدوا للراهبة اي اثر

اما انا فارى من مجرى هذا الخبر ان المذكورين بعد الحادث الذي جرى لهم مع احمد اونباشي خافوا ان يعرف امرهم اذا ظلت رفيقتهم مرتدية ثياب الراهبات فنزعت المرأة عنها ثيابها المستعارة وارتدت ثياباً اخرى تمكنت بها من الاختفاء

هذه آخر معلوماتنا عن هذه القضية

ق · ط · جونيه

الا ان قائد الدرك العام لم ترقه هذه المعلومات فابرق الى ق·ط·جونيه يسأله السبب في تأخره عن سرد هذه المعلومات الى ذلك التاريخ مع ان سلسلة هذه المعلومات تنتهي مساء ٨ الجاري وتقريره مؤرخ في ١٢ منه اي بعد اربعة ايام وهذه مدة كافية لفرار الجاسوسة ورفاقها الذين اختفت آثارهم بصورة نهائية فاجاب قائد جونيه عن ذلك بصورة مبهمة مما اهاب بالقائد العام سامي باشا مفتش الدرك العام في الجيش الرابع الى طلب احالة ق · ط · جونية الى الديوان الحربي العرفي بتهمة مساعدته الجاسوسة على الفرار بتأخره عن انباء القيادة بالمعلومات الواردة اليه في قضية خطيرة مثل هذه

وفي الوقت نفسه احيل هذا التقرير بما فيه من معلومات خطيرة الى رضوان بك رئيس فرقة مقاومة الجواسيس لمتابعة التحقيق

مصير عائشة خانم !

ولكن الى اين ذهبت عائشة خانم بعد نزعها ثوب الراهبة عنها ؟ ومن اين

تدارکت عائشة خانم هذا الثوب ؟

وهل اعطتها اياه رئيسة الدير ام سرقته ؟

واذا كانت على علم بمهمتها افلا تعتبر شريكة لها ؟

هذه هي الاسئلة التي دونها برهان الدين بك امامه وهو يطالع هـذا التقرير ليقرر الوجهة التي يريد اتباعها في مطاردة الجاسوسة من جهة واجراء التحقيق في كسروان مع الذين ساعدوا الجاسوسة من جهة اخرى

وقد كان في نيته توقيف رئيسة الدير الا ان متصرف جبل لبنان عارض في ذلك اذ بدا له ان اعتقال رئيسة راهبات لمجرد الشبهة مما يسبب حقد الاهلين المتمسكين بتقاليدهم الدينية ولذا طلب الاكتفاء بالتحقيق مع الرئيسة حتى اذا ثبتت ادانتها وتوفرت الادلة عليها كان المجال فسيحاً لتوقيفها

وهذا ما تم فعلا فقد اجريت تحقيقات دقيقة في هذا الامر ثبت معهـا عدم معرفة الرئيسة بامر الجاسوسة فقد تبين انها جاءت بكتاب توصية من احد احبار المسيحيين يفيد انها امرأة بريئة مضطهدة فآوتها في الدير ثلاثة ايام ثم غادرت الدير دون ان تراها

ومع ان افادة الرئيسة كانت متناقضة للمعلومات التي جمعها قائد طاقم جونيه الا ان برهان الدين بك اكتفى بهذا الحد من التدبير بعد ان وضع مراقبة دقيقة على الدير والمترددين عليه بصورة ازعجت راهبات الدير فخابرن البطريركية المارونية فخابرت هذه الاخيرة بدورها احمد جمال باشا مباشرة فاصدر امره في اول كانون الثاني سنة ١٩١٧ برفع هذه الرقابة التي استمرت بصورة جديدة اكثر من ثلاثة اشهر

اما عائشة خانم ورفاقها الاربعة فقد اختفت آثارهم من جهات جونية لان التحقيق اثبت ان شحاده الشويري وجميل نعمة الله درغام وحبيب صالح القزي ومنصور حنا جبرائيل القزي تركوا الفتاة بالقرب من نهر الموت وقد طلبت منهم ان يتركوها هناك وعادوا الى جونية وفي اليوم التالي سافروا الى رودس ومنذ ذلك اليوم انضموا الى الفرنسيين

وكانت بيروت في ذلك الوقت ، في حالة تدعو الى الاسف الشديد ، فاذا استثنيت عدة امنياء كان اصحابها يرتعون في بحبوحة من العيش والرفاه رأيت ان الجميع كانوا في حالة حزن وبأس شديدين فالمجاعة ضاربة اطنابها بشدة ودولاب العمل واقف

حيث السعداء

وفي الجهة التي كان يقطنها بعض السعداء ممن سايروا احمد جمال باشا للاثراء والرقص على جماجم مواطنيهم اقيمت حفلة راقصة كبرى اكراما لاحمد جمال باشا وصفها فالح رفقي بك (المعرب — هو اليوم من نواب المجلس الوطني الكبير في انقرة) بقوله :

دعي احمد جمال باشا لحضور هذه الحفلة الراقصة التي احياها رب هذا القصر الشامخ اكراماً لاحمد جمال باشا وكنت بصفتي مرافقاً له مضطراً لحضور هذه الحفلة وكان موعدها الساعة التاسعة مساء الا ان الباشا تأخر عن الحضور الى الساعة العاشرة . ولما وصلنا الى القصر خف صاحبه وزوجته لاستقبال الباشا خارجاً وانحنيا امامه كانهما امام صنم يريدان السجود له ثم تقدما من يديه يكادان يقبلانهما وما كدنا نطأ عتبة القصر الداخلي حتى وجدنا الحضور من نساء ورجال قد اصطفوا على جانبي مدخل القصر كانهم اصنام يتحركون بطريقة ميكانيكية فقد انحنوا دفعة واحدة امام القائد الذي ظل منتصب القامة ماراً امامهم كما لو كان امبراطوراً عظيماً يمر برعاياه دون ان يحفل بهم

وظل هذا الوجوم مستولياً على القوم مدة طويلة الى ان حنى الباشا رأسه قليلا فتفرقوا هنا وهناك يتحدثون همساً كانهم يخشون اذا رفعوا اصواتهم ان يعكروا على الباشا راحته وقد ادرت انظاري في هؤلاء القوم فرأيت الرجال مرتدين الثياب الرسمية السوداء والنساء مرتديات اجمل الملابس العصرية وقد تزين بالحلى والمجوهرات التي تقدر وحدها بثروات طائلة

ويظهر ان احمد جمال باشا ادرك السبب في وجومي هذا فالتفت الي وقال :

— اترى هؤلاء الذين يرقصون على قبور اخوانهم ؟

فقلت : هذا ما افكر فيه يا مولاي

— وهذا ما افكر فيه انا ايضاً واتساءل لماذا لا يشعر هؤلاء بمصاب اخوانهم فيعمدون الى تخفيف حمل هذه الجوهرات الثقيلة عنهم فينقذون بثمنها مئات من اخوانهم من الجوع . (المعرب : هذه العبارات مترجمة حرفياً) ليس في استطاعتي ان افعل هؤلاء شيئاً

وفعلاً لم يكن في استطاعة احمد جمال باشا ان يفعل في سبيلهم شيئاً وقد سعى بكل قواه لتأسيس الدور الخاصة لاطعام الفقراء ولكن لم يتقدم احد للمساعدة بل رأيت جماعة من اغنياء بيروت يتقدمون لادارة دور الاعاشة التي اسسها عزمي بك واحمد جمال باشا في بيروت وغيرها من الجهات ولم ار احداً من هؤلاء يقدم على مساعدة هذه الدور من ماله الخاص

ولقد طفت قرى لبنان فشاهدت بام عيني مئات من البائسين مطروحين على الطرقات يلفظون انفاسهم الاخيرة وهم يصرخون مستنجدين لقمة خبز

وسمعت مئات من شكاوي الاغنياء الذين كانوا يقفون على باب احمد جمال باشا يلتمسون المساعدة لهم ولخدمهم لان املاكهم لا تدر عليهم شيئاً ولان حالتهم المالية لا تساعدهم على متابعة حياتهم السابقة اما الان فأرى امراً غريباً ، ارى عقوداً واقراطاً من الماس وسائر الاحجار الكريمة على اجسام هؤلاء السيدات وهي تكفي وحدها لاطعام شعب كامل ولانقاذ مئات من المحتاجين من الموت

ولهذا انقبضت نفسي حتى اذا دخلنا الى قاعة المائدة الواسعة ازداد انقباض نفسي فقد شاهدت زجاجات الشمبانيا تسيل كالماء وكان ثمن زجاجة واحدة كافياً لانقاذ عشرات من الموت تلك الليلة وسكت على المائدة لا اتكلم وربما لم اتناول الا لقمتين ازدردتهما غصباً كيلا اسير استياء الباشا حتى اذا انتهى

القوم من الطعام وتفرقوا في ردهات القصر يرقصون على انغام الموسيقى منصرفين الى ملادهم ومجونهم تركتهم واتجهت الى الحديقة واذا بي تجاه منظر موجع .

فقد شاهدت ايديا هزيلة في هياكل عظمية ممتدة من خلال قضبان الحديقة وسمعت افواها تقول :

— الرحمة ! لقمة خبز !

اقول شاهدت هذا المنظر وانا خارج من باب القصر الى الحديقة ثم رأيت اثنين من الخدم يهاجمان هذه الايدي الراجفة بضربات العصي فتسقط الاجساد ثم تجهد لتنهض وتمد ايديها مستنجدة فثارت ثائرتي ولا اعرف كيف امتدت يدي الى غصن شجرة مطروح على مقربة مني فتناولته بقوة لم اعهدها في نفسي وانهلت بها ضربا على الخادمين اللذين وقفا امامي واجمين

ويظهر ان سائر الخدم شعروا بهذه الحركة فهرولوا فكان نصيبهم عدة ضربات حتى اذا هدأت ثائرتي جاء رب المنزل وكان قد اتصل به ما حدث ولما شاهدني بادرته بحدة امراً اياه ان ينقل الى هؤلاء الفقراء شيئاً من الطعام

فتظاهر هذا الثري بانه مستاء من عمل خدمه وامرهم باطعام الفقراء وجاد عليهم بشيء من المال

وفي هذا الوقت اخترقت سيدة من الفقيرات نطاق الخدم ولم يبق الا واحد على وشك ان يقتلوه فانقذته

ثم خارت قوى هذه البائسة وسقطت على الارض من شدة الجوع فاقدة الرشد فامرت احد الخدم باستدعاء الطبيب لاسعافها وامرت احد رجال الشرطة بالعناية بها الى ان تستعيد رشدها فيعلمني بامرها في مقر القيادة

وفي ظهر اليوم التالي جاءني الشرطي بهذه المرأة البائسة الى فندق بسول فادخلتها الى حجرتي فروت لي قصة محزنة قالت :

اسنا من الاغنياء ولكننا لسنا فقراء فانا متزوجة من احمد ابراهيم السيداني وقد كان قبل الحرب العالمية تاجراً في محلة الميناء ورزقنا قبل الحرب اربعة اولاد وفتاة وثلاثة صبية وكنا سعداء في حياتنا العائلية الى ان وقعت الحرب فدعي زوجي ثم ولدي البكر الى الخدمة وبقيت انا وابنتي وولدي الاخران في المنزل .

ومع ان ولدي الثاني مصطفى في السابعة عشرة من عمره فقد اخذ سنة ١٩١٥ الى الخدمة العسكرية وشاء سوء حظنا ان يذهب ولدي وزوجي الى الخدمة في فلسطين وان يقتلوا هم الثلاثة خلال شهر واحد في المعارك التي دارت هناك وتسلط علينا رجل ثري عجوز هو محمد سعيد بك . . . تظاهر في بادىء الامر بمساعدتنا لما كان عليه من صداقة قديمة بينه وبين زوجي ثم اراد استثمار هذه الصداقة بالاعتداء على عفاف ابنتي وكانت قد بلغت السادسة عشرة من عمرها وهي تدعى رمزيه ، ولو كان يريدها زوجة لهان الامر الا انه يريدها خليلة لانه متزوج وله حفيدان ولما مانعناه ضايقنا واشترى منزلنا واخرجنا منه وطفنا على وجوهنا في الطرقات

ولما اشتدت المجاعة اصبت بمرض (التيفوس) ولزمت فراشي مدة طويلة لا اعي على شيء ولما عدت الى رشدي علمت ان ابنتي باعت نفسها من ذلك الثري الذي اغتنم فرصة محنتها لارتكاب هذه الدناءة وان اخاها ايوب ذهب الى جهة مجهولة .

فابيت البقاء مع ابنتي بعد هذا الحادث وغادرت المنزل اطوف الشوارع افتش عن عمل اؤمن به على معيشتي الى ان كان الخامس من شهر شباط الماضي فعلمت ان ولدي ايوب هاجم الثري محمد سعيد بك في منزله الواقع في محلة (ميناء الحصن) فقتله وقتل شقيقته وفيما هو يهم بالفرار ادركه رجال الشرطة فاعتقلوه وهو اليوم في السجن وينتظر ان يحكم عليه بالاعدام

فانت ترى يا مولاي حالتي التعسة فقد فقدت ثروتي كما فقدت زوجي واولادي الثلاثة ولم يبق لي الا هذا الولد فانقذه يا مولاي

فأثرت بي هذه الافادة تأثيراً شديداً ووعدت السيدة بانقاذ وحيدها

اين ايوب ؟

نقلنا هـذه المعلومات عن مذكرات فالح رفقي بك التي كتبها تحت عنوان (في جبل الطور) للدلالة على حقيقة الحالة في ذلك الوقت ولما لها من علاقة بمجريات الامور التي نحن بصددها ، فتلك الام البـائسة التي راجعت فالح رفقي بك كانت في حالة بؤس شديد لم تمكنها من معرفة مصير وحيدها وكان الجور والظلم في ذلك الوقت لايترددان عن دفع رجال الحكم الى ضرب هذه الام اذا هي حاولت السؤال عن ولدها المسجون

اما ايوب الصيداوي فكان قد فر من السجن منذ ايلول اي قبل مقابلتها لفالح بك باكثر من ٥٠ يوماً ولجأ الى كسروان وفي اليوم التاسع من تشرين الاول بعد ان غادرت الجـاسوسة عائشة خانم رفاقها الاربعة قصدت كوخاً قائماً في جهات جديدة المتن فوجدت فيه شاباً تجهله وطلبت منه ان يذهب الى السوق ليشتري لها قليلا من الطعام

الا ان الشاب كان في حالة مؤسفة فقد كان جائماً لم يتناول الطعـام منذ اكثر من اربعة ايام وكان طريد القضاء وقد افهمها امره فعرفت انه بطـل قصتنا التي سردتها زوجة الصيداوي

وقد اشفقت عليه هذه الجاسوسة وبدل ان تلح عليه بالذهاب الى السوق خاطرت هي بنفسها ومضت الى هناك وجاءته بالطعام وغذته

اما ايوب فقدر لها عملها هذا الذي لم يكن لينتظره من احد في ذلك الوقت العصيب وما كاد يعود الى رشده ويتمالك قواه حتى اقسم لهـا ان

يكون لها عبداً

فوعدته السيدة ، دون ان تخبره بحقيقتها ، بان تقدم له المساعدة التامة ، وفعلا نقدته شيئاً كافياً من المال وطلبت اليه ان يذهب الى والدته ليعطيها اياه

الا ان الشاب لم يجد اي اثر لهذه الام البائسة التي لم يكن لها مكان معين كما انه وهو طريد القضاء لم يكن في استطاعته ان يطوف شوارع بيروت مستفسراً عنها ولهذا عاد في المساء الى كوخه فوجد السيدة في انتظاره فانبأها بما حصل وبحقده على العثمانيين الذين كانوا السبب في فقدانه افراد عائلته وصيرورته مجرماً سفاكاً

فطيبت السيدة خاطره ثم كاشفته باحتياجها الى شابين آخرين يساعدانها معه في امر تقصده وطلبت اليه ان يأتيها بهذين الشابين حتى الخامس عشر من ذلك الشهر (تشرين الاول سنة ١٩١٦) الى منزل جرجي بشاره ديب في قرية (الميه وميه) الواقعة في جوار صيدا

فقبل ايوب الصيداوي هذه المهمة وغادر السيدة بعد ان نقدته مبلغاً آخر يصرفه في سبيل تحقيق غايتها

وفي الوقت المعين جاء ايوب يصحبه محمد محمود ايوب من اهل الخرطوم (السودان) وحسن علي عموري من قرية تفاحة التابعة لجبل عامل وقدمهما اليها فاكرمت وفادتهم ثم قالت :

— عهد الي انور باشا بمهمة سرية في هذه البلاد وهي التحقيق عن بعض المظالم التي تقترف باسم احمد جمال باشا وموافاته بكل ما يجري ، ولهذا ترون مهمتي سرية يجب ان لا يطلع عليها احد وانا قد فاتحتكم بها لتكونوا على بينة من الامر فتعمدوا الى العمل بجسارة واخلاص من جهة وتكونوا من جهة اخرى عارفين ان باستطاعتي الاحسان الى من يحسن والاساءة الى من يسيء ففي امكاني الحصول ساعة اشاء على امر من انور باشا بتحقيق الغاية التي اريدها اما

الان فكل ما اطلبه منكم ان يظل الامر بيننا سريا لا يعرف به احد .

فهل انتم موافقون على هذا ؟

— نعم

— ان تعليماتي اليكم ستعطى بواسطة احمد ايوب الذي استدعاكم الي

ثم التفتت الى محمد وحسن واردفت قائلة :

— اما المهمة التي اطلب منكما القيام بها فهي مراقبة كامل بك الاسعد مراقبة دقيقة ومعرفة كل حركاته والمكان الذي يجلس فيه منفرداً والاشخاص الذين يختلط بهم . وهناك امر خاص آخر اطلبه منكما وهو معرفة هل للرجل اعداء ومن هم وما هو مقدار حقدهم عليه ويجب ان لا يعلم بامركما حتى نساؤكما واولادكما ولكما مقابل ذلك عشر ليرات ذهبية في الشهر

وبعد ان زودتهما بالتعليمات اللازمة طلبت اليهما ان يذهبا فوراً لتنفيذ هذا الامر على ان يحملاه الى جرجي بشاره ديب الذي تنحصر مهمته في وظيفة الوسيط وذهبت هي وايوب الى عكا

الغاية من هذا التدبير ؟

وكانت عائشة خانم عارفة بنفوذ كامل بك الاسعد فلما رأت ان الفكرة التي ذهبت لتحقيقها في شمالي لبنان ومنطقة كسروان لاحداث ثورة هناك لم تثمر حولت انظارها الى جهات جبل عامل

فمصلحة الاستخبارات التي يهمها احداث فتن داخلية في البلاد العثمانية عمدت في بادئ الامر الى اثارة الفتن بين الارمن الا ان هذه الفتن التي نشبت خلال شهر نيسان سنة ١٩١٥ انتهت بوقوع الوف من الضحايا الابرياء وبالفشل التام

ولما اعلنت الثورة العربية في حزيران ١٩١٦ ارادت هذه المصلحة اثارة

فتن اخرى ورأت ان المناطق الساحلية افضل من سواها لهذه الفتن اذ في امكانها اذا اشتدت وطأة هذه الثورة ان تعمد الى التدخل في امرها اما في الداخلية فمن الصعب اضرامها قبل اقتراب القوات العربية منها لان الاهلين يكونون في هذه الحالة عرضة لمظالم القوات المتجمعة هناك . وارادت القيادة ان تدرس الموقف في المناطق المسيحية من لبنان فوجدت ان حالة هذه المناطق غير صالحة للثورة لاسباب كثيرة فعمدت لاحداث الفتنة في جبل عامل اعتقاداً منها ان الثورة اذا اضرمت في هذه المنطقة تساعدها على توسيع نطاقها الى المناطق اللبنانية المجاورة ثم الى المناطق السورية وهناك يكون لديها المجال الكافي لانزال الجنود في السواحل الممتدة من جنوبي لبنان وقطع خط الرجعة على القوات المحاربة في فلسطين وبذلك يمكنها انهاء الحرب بسرعة .

فكانت غاية عائشه خانم والحالة هذه الاهتداء الى طريقة سرية تمكنهامن الوصول الى كامل بك الاسعد لتحريض خصومه عليه من جهة وقتله من جهة اخرى .

وقد نجح هؤلاء في تدارك ذينك الشابين اللذين تطوعا للخدمة وهما يجهلان الهدف الاساسي الذي ذهبا من اجله

في عكا

اما عائشة خانم فقد ذهبت مع ايوب الى عكا لدرس موقف زعيم البهائية الا ان ايوب افهمها ، دون ان يعرف حقيقة مهمتها ، انه وقف نفسه لخدمة بني قومه وانه لا يتدخل في الشؤون السياسية

على ان الفتاة اتفقت في عكا وشابين هما يوسف ابن ابراهيم توما من قرية البصه وسليمان محمد قشقوش من اهل قرية «ابو سنان» التابعة لعكا على ان يشتغلا لحسابها ويوافياها بجميع الاخبار التي تريدها واستبقت في قرية

(ابو سنان) مساعدها ايوب الصيداوي لادارة الحركات هنالك حسب التعليمات التي زودته بها ريثما تعود اليه اذ قررت العودة الى الميه وميه

خطة جريئة

في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٦ قصدت عائشة خانم بنفسها مربض آل الاسعد وزارت كامل بك وتظاهرت امامه بانها قريبة انور باشا وانها تقوم برحلة متنكرة لزيارة هذه البلاد وانها اغتنمت فرصة مجيئها الى بيروت وقصدت قصره للتعرف اليه

وكان كامل بك الاسعد ، وهو نائب جبل عامل في مجلس المبعوثان العثماني ، يحسن اللغة التركية فتظاهرت امامه بانها لا تعرف العربية فاكرمها واقام حفلة شائقة لها تجلى فيها كرمه وسخاؤه

وتطرقت الفتاة في الحديث معه الى الموقف الحاضر وتمادت بان تناولت جمال باشا بفلتات اللسان

الا ان كامل بك اظهر تحفظاً معها خصوصاً بعد ان اقنعته بانها قريبة انور وهو المعروف بصداقته لجمال باشا ثم اخذت تستدرجه في الحديث لمعرفة موقفه من الاجانب اذا عمدوا الى احتلال الشواطئ فاظهر لها استعداده ورجاله للتضحية بارواحهم في سبيل الدفاع عن حريتهم واستقلالهم

ولاحظ كامل بك الاسعد خلال وجود هذه الجاسوسة في ضيافته مدة ٢٤ ساعة ان حسن ومحمد اللذين اشتبه بهما يتقربان من الفتاة كما ان بعض رجاله ابلغوه ان هذين الشابين اختليا بالفتاة وكانت اخبار الجاسوسة السرية قد وصلت اليه ومع هذا لم يأت على ذكر الفتاة لانه عربي والعربي يكرم ضيفه ويضحي بحياته في سبيل الضيف ولهذا سكت حتى اذا سافرت رأى ان واجبه الوطني يحتم عليه اطلاع الحكومة على الامر فاعلن قائمقام القضاء الامر

وهذا بدوره ابرق الى والي الولاية عزمي بك

مساعي برهان الدين بك

وكان برهان الدين بك رئيس مصلحة مقاومة الجاسوسية في بيروت يتخبط فيها هو ورجاله الذين وجهوا جهودهم الى كسروان لمعرفة مصير هذه الجاسوسة التي تزيت بزي الراهبات وتوارت عن الانظار دون ان يشعروا بها فما كاد يتلقى دعوة عزمي بك حتى ذهب اليه فبادره عزمي بقوله :

— ان المرأة التي تفتشون عنها في الشمال موجودة في الجنوب واخشى اذا ارشدتكم اليها ان يعمد رجالكم الى تسهيل سبل فرارها بدلا من توقيفها

— مولاي !

— اليك الحقيقة !

قال عزمي بك جملته هذه وناول برهان الدين بك برقية قائمقام مرجعيون المفصلة ثم قال ان المعلومات التي اخذتها من كامل بك نفسه تدل على ان اوصاف السيدة التي زارته تنطبق تمام الانطباق على اوصاف الجاسوسة وقد اصدرت الاوامر اللازمة الى رجال الدرك بمطاردة الرجلين دون ان يدعوهما يشعران بهم ، قال عزمي بك جملته الاخيرة هذه ووقف معلنا زائره انتهاء الحديث فذهب برهان الدين بك فوراً الى صيدا ومنها الى جديدة مرجعيون وهناك ابلغه القائمقام التعليمات المفصلة واضاف اليها قوله

— لقد انتدبت ثلاثة من رجالي الاذكياء لمراقبة حسن ومحمد فابلغوني ان الرجلين كانا يتناوبان البقاء في قرية كامل بك الاسعد فكان احدهما يذهب الى قرية (الميه وميه) فيدخل منزل جرجي ديب وحين يعود يذهب رفيقه الى المنزل المذكور

اما المرأة فلا يعرفون من امرها شيئاً لان الوقت لم يفسح لهم في متابعة

التحريات .

— واين هم الان ؟

ان الجندي معروف الشامي هو هنا وفي امكانكم محادثته لانه وصل الي الساعة ولم اتمكن بعد من اخذ معلوماته الاخيرة وعن موقفه وموقف رفيقهمن هذه القضية

— مر بادخاله .

دخل الجندي فامره القائمقام بان يروي للقائد برهان الدين بك تقريره الاخير فقال :

— ذهب حسن امس الى الميه وميه وقابل جرجي بشارة ديب وبات عنده وبقيت انا في الخارج وعند الساعة العاشرة ليلاً رأيت سيدة آتية الى المنزل ومعها ثلاثة رجال فلم اتمكن من معرفة ما فعلوه هناك وفي الساعة الثالثة صباحاً رأينا هؤلاء الثلاثة يخرجون من المنزل وقد ظلت السيدة وحدها الى اليوم الثاني فخرج الشاب في الصباح وعاد فعدت معه .

— والمرأة ؟

— تركتها هناك

مؤامرة لاغتيال كامل بك الاسعد

وكانت المعلومات التي ادلى بها الدركي معروف حقيقة فالجاسوسة عائشة خانم بعد مقابلتها الكامل بك الاسعد قررت اغتياله اذ اعتقدت ان مقتل هذا الزعيم سيثير حتما الفتنة في هذه المنطقة ويفسح لها المجال لبذر بذور الفساد بما تخلقه من اشاعات لتوسيع نطاق الفتنة

وقد رأت ان الشابين اللذين استخدمتهما ليتجسسا على البك غير قادرين على تنفيذ مهمتها هذه فقررت الاعتماد على غيرهما على ان يكون جاسوساها

لمذكوران مساعدين للقتلة في ايصالهم الى عرين الزعيم دون ان يشعر

وتدارك ثلاثة قتلة ولكن ليس من جبل عامل بل من خارجه اذ ادركت تماماً ان احداً من رجال جبل عامل لا يقبل ارتكاب هذه الجريمة حتى ان احد جواسيس حسن قد يخونها اذا عرف حقيقة امرها ولذا دبر لها يوب هؤلاء الشبان الثلاثة من الجنود الفارين من الخدمة العسكرية في فلسطين والذين ضاقت بهم سبل الحياة فصاروا يفضلون الموت عليها واوفدهم الى (لميه وميه) حيث اجتمعوا بالسيدة

والسيدة عائشة لم تطلعهم على الشخص المراد قتله بل اعلنتهم ان لها عدواً اعتدى عليها بالقوة وانها تريد الانتقام من هذا العدو لانه عبث بعفافها ثم رفض الزواج منها فعاهدوها على قتله بعد ان وعدتهم بعشر ليرات ذهبية لكل منهم دفعتها لهم مقدماً وبعشرين ليرة اخرى لكل منهم تدفع لهم بعد ارتكاب الجريمة .

فابلغها هؤلاء انهم على استعداد لتنفيذ هذه الجريمة فوراً للحصول على المال فاجابتهم ان الوقت لم يحن بعد لتنفيذ الخطة وان عليهم ان يذهبوا الى «مغاور طبلون» في خراج صيدا وينتظروها هناك دون ان يدعوا احداً يشعر بوجودهم في هذه المغاور حتى اذا حان الموعد المقرر جاءتهم وذهبت بهم الى الجهة المقصودة لتنفيذ الخطة المرسومة

وكانت عائشة خانم قد عرفت مواعيد كامل بك الاسعد وزياراته المدن وكان قد بلغها انه سيقصد يوم ٢٩ تشرين الاول الى بيروت لمقابلة الوالي عزمي بك ، وكنا يومئذ في الخامس والعشرين منه ، فرأت ان تتريث الى ذلك اليوم فيأتي كامل بك بعربته ومعه واحد او اثنان من خدمه فيهاجمه هؤلاء الاشقياء ويقتلونه دون ان يكون لديه مجال للدفاع

وبعد ان نظمت عائشة خانم هذه المؤامرة صرفت الرجال الثلاثة فقصدوا

الى (مغاور طبلون) المكان الذي امرتهم بالبقاء فيه واوت الى فراشها تحلم بنجاح خطتها الشيطانية

مؤامرة ضد مؤامرة

بعد ان استمع برهان الدين بك الى افادة الدركي معروف استفسره بعض تعليمات عن الرجلين فاخبره بما عرفه عنهما وهنا استدعى اليه قائد درك جديدة مرجعيون وامره بالذهاب الى قرية كامل بك الاسعد لتوقيف محمد وحسن ثم توجه الى صيدا فاخذ قوة من الدرك وقصد الى قرية (الميه وميه) فدهم منزل جرجي فلم يجد فيه احداً عدا الرجل فاعتقله وقاده سراً الى دائرة الحكومة في صيدا وانصرف الى التحقيق معه

وقد حاول جرجي بادئ الامر انكار جميع التهم التي اسندت اليه كما انكر معرفته للفتاة ولرسوليها الا ان انكاره هذا لم يدم طويلا اذ ما لبث قائد درك مرجعيون ان جاء الى صيدا ليلا يرافقه حسن ومحمد اللذان اعترفا صراحة بالمهمة لمو كول اليهما امرها وجاهما حقيقة المرأة وايدا ما قاله مراقبو الدرك عن اجتماعهما بالمرأة في منزل جرجي وعن توسط جرجي في اكثر الاوقات في نقل معلوماتهما الى المرأة ونقل تعليمات المرأة اليهما

فلم يبق في امكان جرجي المذكور انكار هذه الامور فاعترف لبرهان الدين بك بجميع الادوار التي مثلت في منزله ثم قال :

— وقد عزمت الفتاه على قتل كامل بك الاسعد يوم ٢٩ الجاري — وكانت هذه الافادات تؤخذ يوم ٢٨ منه — وتداركت لهذه الغاية ثلاثة من القتلة اجهل اسماءهم وهم مختبئون الان في مغاور طبلون وستأتي المرأة في ذلك اليوم لمقابلتهم وهي اليوم في عكا عند ايوب الصيداوي عاملها الامين

اصبحت القضية واضحة تمام الوضوح لدى برهان الدين بك بعد هذه

الاعترافات الصريحة التي ادلى اليه بها هؤلاء الاشخاص الثلاثـة ولم يبق له والحالة هذه الا ما يلي :

اولا — الحيلولة دون وقوع جناية كامل بك الاسعد

ثانيا — توقيف القتلة بالجرم المشهود

ثالثا — توقيف الفتاة وذلك بوضع رقابة حول المغاور المذكورة حتى اذا شوهدت اعتقلت فوراً

رابعاً — توقيف ايوب الصيداوي ورفاقه في عـكا

وقد انصرف الى وضع الخطط لتنفيذ ما قرر

وفي صباح اليوم التالي وردته برقية من عـكا تشعر بان قوات الشرطة تمكنت من توقيف ايوب الصيداوي ويوسف ابراهيم توما وسلمان محمـد قشقوش وسليم احمد راجح ومصطفى اسعدستاني وانهم وضعوا في غرف منفردة في سجن قلعة عـكا .

فابرق برهان الدين بك الى اليوزباشي صادق بك لاخذ افادة هؤلاء الموقوفين ومعرفة علاقتهم بالفتاة وموقفهم منها واشعاره برقياً بخلاصة هـذه المعلومات .

وفي اليوم التالي ورد الجواب وهو يفيد ان ايوب انكر كل معرفة له بالفتاة انكاراً باتا واعترف بانه يشتغل جاسوساً لحسابه الخاص لان المظالم التي نزلت به جعلته يسلك هـذا المسلك اما رفاقه فقد اعترفوا امامه بانهم يشتغلون تحت ادارة امرأة اطلقوا عليها اسم (الخـانم) وانهم شاهدوا هذه المرأة تزور ايوب مراراً الا ان ايوب انكر ذلك وقال ان امرأة هي عشيقته كانت تزوره فعلا من وقت الى لآخر الا انه ما لبث ان سئمها فطردها فذهبت الى حيث لا يعلم . وقد افاد هؤلاء انهم يشتغلون لحساب (الخانم) التي يتولى ايوب قضاء مهمتها وانها فوضتهم بدرس الموقف في جهات عـكا ومراقبة زعيم البهائية ورجاله ودرس حالة

الدروز بجوار عكا ومقدار استعدادهم للثورة وفوضتهم ايضاً بمراقبة الحالة العسكرية هناك وطرق الانسلال الى قلعة عكا ومعرفة هل في الامكان ايجاد مخرج للمساجين الذين في القلعة الخ …

وقد اهتم برهان الدين بك لهذه المعلومات وابرق ثانية الى صادق بك يطلب اليه مواصلة فصل هؤلاء بعضهم عن بعض والتحقيق معهم لمعرفة جميع اسرارهم

مصادمة دموية !

فصار لدى برهان الدين بك قضية اخرى هامة وهي توقيف الفتاة والقتلة . على انه ارتكب خطيئة جديدة فقد اراد ان يعتقل الفتاة قبل اعتقال القتلة فوضع ثلاثة من رجاله بالقرب من المغاور كما وضع قوات كبرى من الجند على مسافات مختلفة من المكان .

و كانت الفتاة قد قصدت قبل الحادث قرية (الميه وميه) متنكرة فشاهدت هناك قوات من الدرك واستفسرت من القرويين في الضاحية عن السبب في ذلك فقيل لها ان الجنود هاجموا القرية واعتقلوا احد سكانها جرجي فأخافها اعتقال جرجي وحده واهاب بها الى الاعتقاد بان امرها قد افتضح ، و كانت مرتدية في ذلك الوقت لباس امرأة قروية من سكان قرى جبل عامل فحامت حول المغاور القريبة من القرية فشاهدت حركة عسكرية نشيطة فتأكدت ان امرها قد افتضح ولذا لم تذهب الى المغاور

اما برهان الدين بك فاراد ان يتأكد من امر المغاور فارسل اليها ثلاثة من الجنود .

وقد شاهد الاشقياء الثلاثة هؤلاء الجنود يتقدمون من المغارة وهم — اي الاشقياء من الجنود الفارين المطلوبين من القضاء فخافوا العاقبة وخافوا ان يفقدوا الدراهم الكثيرة التي وعدتهم بها السيدة و كان يستحيل عليهم الخروج من المغارة دون ان يشعر بهم الجنود .

و كان الظلام قد بدأ ينسل الى مغاور طبلون الواسعة فلم يستطع الجند مشاهدة

من فيها وظن الاشقياء ان الجنود يقومون بطواف ولن يدخلوا الى المغارة واذا كان لا بد من مرورهم بها فيستطلعون اليها من الخارج ولهذا انكمشوا في زاوية قصية منها يراقبون

الا ان الجنود دخلوا المغاور وسمع الاشقياء احدهم يقول :

— ان القائد يؤكد ان الاشقياء الثلاثة هنا فيجب ان نكون على حذر

فأدرك الاشقياء ان الجنود يقصدونهم واعتقدوا ان الفتاة سقطت في حوزة الجنود ودلت عليهم فقرروا ان يبذلوا ارواحهم رخيصة ولكنهم تريثوا ولما رأوا من الجنود تشبثاً في البحث عنهم اطلقوا عليهم الرصاص فقابلهم الجند بالمثل الا ان الاشقياء ، وكان نور ضئيل ينبعث من فوهة المغارة ، شاهدوا الجند فكرروا اطلاق الرصاص عليهم فأصابوهم جميعاً

واسرع الجنود الاخرون على ازيز الرصاص الى مكان الحادث فشاهدوا الاشقياء الثلاثة يخرجون من المغارة وبايديهم السلاح وكان عدد الجنود عشرة فانصب رصاصهم على الاشقياء الثلاثة فسقطوا على الارض جثثاً هامدة

فاسرع برهان الدين بك الى مكان الحادث فوقعت انظاره على جثث الجنود الثلاثة وهم الاونباشي احمد وهو تركي الاصل من اهل استنبول والجنديان عرفان وصالح من اهل دمشق وحلب وقد اصيب الاول بخمس رصاصات والثاني بثلاث والثالث باربع رصاصات

اما الاشقياء الثلاثة الذين مزق الرصاص اجسادهم وتركهم جثثاً هامدة فهم محمد قاسم جنيد من عرب بيسان وعبد السلام ابراهيم قاسم ومصطفى بن احمد هاني من اهل القدس وقد تبين ان هؤلاء من الجنود الفارين من الخدمة وقد اشتركوا في عدة حوادث قتل ونهب في جهات فلسطين حكم عليهم من اجلها بالاعدام غيابا وكانت قوات الامن تطاردهم

فرار الجاسوسة !

لقد فاز برهان الدين باكتشاف هذه الشبكة من الارهابيين والجواسيس وحال دون وقوع فاجعة مقتل كامل بك الاسعد التي كان في الامكان ان تؤدي

الى جنايات متتالية او الى ثورة قد تقرب اجل انحلال السلطنة العثمانية الا ان القضية الهامة في نظره وهي توقيف الجاسوسة لم تحقق لان الفتاة عرفت كيف تتوارى عن الانظار

وقد ارتكبت عائشة خانم منذ مجيئها الى هذه المنطقة عشرات من الجنايات وقادت بسببها عشرات من الذين التفوا حولها الى الاعدام لانها كانت كالوباء اذ تسلط على احد قاده الى الموت المحتم وآخر ذلك احالة الاشخاص الموقوفين في صيدا الى الديوان الحربي العرفي في عاليه وعكا ثم قصد فوراً الى دمشق رفع تقريره الى قائد الجيش الرابع مباشرة معلناً موقفه مع عزمي بك بالتدابير التي قام بها

ثم ارفق هـذا التقرير بكتاب يسترحم فيه من القيادة قبول استقالته ومما قاله :

— لقد جربت بمختلف الطرق ان احول دون الجنايات المتوالية التي ارتكبتها في هذه المنطقة امرأة اغتنمت فرصة الاستياء والمجاعة ووجود اموال وفيرة لديها لاستمالة رجال يمكنها الاعتماد عليهم عملوا بجانبها باخلاص وتضحية

ولا شك في ان هذه الفتاة ليس لديها تشكيلات منظمة الا ان الاموال التي تبذلها في هذا السبيل تساعدها على تحقيق الاحداث التي تتوخاها والخطة التي تريدها

ثم ان عدم اخلاص الشعب للدولة كان يساعدها في كل مرة على النجاة . اما وسائلنا نحن فمفقودة تماماً ! .

فكلما طلبت عمالا لا اجد امامي الا رجال الدرك ، وهؤلاء غير اكفياء للقيام بالعمل المطلوب وليس في استطاعة الشعبة الاولى مساعدتي بمبلغ محدود جداً من المال وليس في استطاعتي انا من جهتي العمل بدون مال لان الاخلاص في الرجال الموضوعين تحت عهدتي لا يكفي فهؤلاء سواء كانوا عربا ام تركا يغترون بالمال مما يساعدهم على الفرار الى جهة الاعداء ولهذا استرحم قبول استقالتي وسوقي الى احدى القطع الحربية لمتابعة خدماتي الفعلية هناك

الا ان احمد جمال باشا رفض قبول هذه الاستقالة واستدعى اليه برهان الدين بك وباحثه في الامر واعطاه مطالبه وهي :

اولا — اعطاؤه العدد الكافي الذي يريده من الجنود وصفوف الضباط الذين يراهم لازمين لتوسيع تشكيلاته لمطاردة هذه الجاسوسة وغيرها من الجواسيس الذين تغلغلوا في البلاد العربية

ثانياً — فتح الاعتمادات المالية التي تلزمه على ان لا تتجاوز هذه الاعتمادات الفي ليرة ذهبية في الشهر وان يكون حراً في التصرف بها على ان يقدم حسابا بها الى القائد العام

ثالثاً — اعطاؤه تفويضاً تاماً بجعل قوات الشرطة والدرك والهيئات العسكرية تحت مطلق تصرفه تلبي طلباته ساعة يشاء واطلاق يده في توقيف الاشخاص الذين يرى لزوماً لتوقيفهم دون ان يكون مجبراً على تقديم بيان عن عمله هذا الى السلطات الادارية والقضائية المحلية

رابعاً — اجبار دوائر الاستخبارات على تقديم قرارات عن التقارير المتعلقة بالاستخبارات السياسية وعن حركات الاشخاص المشتبه بهم الذين يجولون في منطقة الجيش الرابع

تدابير برهان الدين

وقد اعتقد برهان الدين بك ان هذه الصلاحية الواسعة التي نالها من قائد الجيش الرابع ستساعده هذه المرة ليس على توقيف عائشة خانم فحسب بل على القضاء على كل جاسوس يعيث في هذه المنطقة ولهذا انصرف لوضع الخطط التي يراها لازمة وضرورية لتحقيق هدفه

وبعد انتهائه من هذا العمل اصدر تعميما الى قواد الدرك والشرطة وخفراء الساحل يتضمن اوصاف الجاسوسة بصورة مفصلة واعداً كل من يأتيه بمعلومات عنها تساعد على توقيفها بترفيع رتبته بصورة مضاعفة وبمنحه جائزة مالية قدرها ف ليرة تركية . ثم غادر دمشق وجاء الى بيروت

ومكث في الفندق الذي نزل به ثلاثة ايام كاملة تلقى في نهايتها برقية (٨ تشرين الثاني سنة ١٩١٦) بالشخوص الى صيدا لاستماع افادة ضحاياه قبل اعدامهم

اعدام الابرياء !

و كان الديوان الحربي العرفي في عاليه قد حكم بالاعدام على الشبان الذين اعتقلوا في جبل عامل دون ان يجد بحقهم دليلا واضحاً ورفع اوراق الحكم الى القيادة التي اقرتها كما هي .

وقد تقرر تنفيذ حكم الاعدام بهؤلاء الاشخاص في صيدا ولذا استدعي برهان الدين بك الى هناك لاخذ افادتهم ومعرفة هل في الامكان الاستفادة منهم فلبى الضابط الطلب وجاء الى صيدا فاستجوب جرجي بشاره ديب ملياً واعلمه ان لديه امراً بالعفو عن حياته اذا ساعده على توقيف المرأة المطلوبة الا ان جرجي اقسم له ايماناً مغلظة انه يجهل امر الفتاة وحذا حذوه محمد وحسن و كانوا على حق اذ يجهلون حقيقة المرأة المطلوبة و كرروا ما لديهم من معلومات واستعطفوا ولكن دون جدوى

وفي العاشر من شهر تشرين الثاني نشرت جريدة ولاية بيروت الرسمية بلاغاً رسمياً هذا نصه :

اعدام خائنين

في الساعة الخامسة من فجر امس نفذ حكم الاعدام صلباً في صيدا بكل من الاشقياء محمد محمود ايوب من اهل الخرطوم التابعة لمصر وحسن علي عموري من قرية تفاحة وجرجي بشاره ديب من اهل قرية الميه وميه لثبوت فرارهم من الجندية وارتكابهم عار الخيانة الوطنية وممالأة اعداء الدولة وبهذا لاقوا جزاء خيانتهم اهـ .

والمعلومات التي سردناها آنفاً تدل على ان هؤلاء البائسين لم يكونوا جواسيس ولم يتعاطوا عملا يوجب اعدامهم الا ان الديوان الحربي العرفي الذي يالي في احكامه ارادة القيادة العليا اوجد ما يبرر حكمه باعدام هؤلاء البائسين فاتهمهم بالفرار المتكرر من الخدمة العسكرية وبذلك اقنع القضاة ضميرهم الميت

قافلة عكا

و كانت محكمة عكا العسكرية قد حكمت ايضاً على هؤلاء البائسين بالاعدام

وكان من المقرر ان يعدموا في اليوم نفسه الذي اعدمت فيه قافلة صيدا الا ان برهان الدين بك طلب تأخير حكم الاعدام ريثما يصل الى عكا اذ كان في نيته استجواب هؤلاء البائسين مرة اخرى ولهذا غادر صيدا بعد شروق شمس ٩ ت ٢ الذي اشرقت شمسه على غروب ثلاث ارواح بريئة ووصل الى عكا في اليوم التالي. وتوجه تواً الى سجن القلعة حيث انصرف الى محادثة هؤلاء البائسين الذين انكروا معرفتهم هوية الفتاة حتى ان ايوب نفسه انكر معرفته هويتها واضاف الى ذلك قائلا:

- أؤكد لكم اني لم اعاشرها اكثر من شهر ومع هذا لو عرفت شيئاً من اسرارها لما افضيت اليكم باية معلومات عنها فانا رجل يعرف كيف يحسن الى من يحسن اليه ، فهذه المرأة انقذتني من الموت المحتم ووعدتني بمساعدة والدتي اذا قضي علي واني لواثق بوعدها فهي لن تتخلى عنها ابداً .

ولما بدا لبرهان الدين بك عدم الفائدة من هؤلاء الاشخاص تركهم وذهب الى مقر القيادة

وفي ١٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٦ نشرت جريدة ولاية بيروت الرسمية بلاغاً رسمياً هذا نصه :

(في فجر اليوم الثاني عشر من هذا الشهر نفذ حكم الاعدام صلباً بالمجرمين يوسف ابراهيم توما من اهل البصه وسلمان محمد قشقوش من اهل ابو سنان وسليم احمد راجح وايوب الصيداوي ومصطفى احمد ستاني لارتكابهم جرم الفرار من الخدمة العسكرية وارتكابهم جرم الخيانة الوطنية وبذلك لاقوا جزاء خيانتهم ودناءتهم والعدل اساس الملك) اه.

ولكن هل كان العدل اساساً للملك في هذه الحادثة الفظيعة التي ذهب ضحيتها خمسة من الشبان الابرياء ؟

مساعي برهان الدين الجديدة

ذهبت مساعي برهان الدين بك في مطاردة الجاسوسة الحسناء سدى لان الفتاة بعد الفشل الذي منيت به خطتها هذه في جهات بيروت والسواحل اللبنانية وجهت الى عمان وقد دعيت الى هناك لايجاد خطة اتصال جديدة بينها وبين

الجواسيس الانكليز الذين يشتغلون في المنطقة العربية الثائرة ولقد كان في الامكان ان يظل برهان الدين بك جاهلاً امرها هذا لو لم تقع في جوار عمان جناية قتل خلالها احد الضباط الترك

تفصيل الحادث

في اليوم الثامن عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٦ قررت القيادة العليا القيام بمناورات حربية كبرى لتنظيم امر الدفاع عن المنطقة ووضع الخطط لمقاومة الثوار العرب اذا ما حاولوا مهاجمة الجبهة الاردنية وأرادت القيادة العليا معرفة هذه الخطط فانتدبت لهذه الغاية مستر هولز وهو من جواسيسها المعروفين للاتصال بعائشة خانم التي تساعده على تحقيق غايته هذه

وقد جاء هولز الى عمان متنكراً بزي البدو واجتمع هناك بعائشة خانم وزودها بالتعليمات اللازمة وابلغها ضرورة الحصول على الخطة الواجب اتباعها لمطاردة الترك وانتزاع هذه الخرائط منهم واتيانه بها سريعاً

فذهبت عائشة خانم لتنفيذ خطتها هذه وكلها امال وطيدة في تحقيقها



الفصل الحادي عشر

لم تكن عمان في اواخر عام ١٩١٦ كما هي اليوم عاصمة منطقة ومقر امارة بل كانت قاعدة صغيرة لقيادة احدى الفرق العسكرية . وعمان تبعد عن محطة السكة الحديدية التي تحمل اسمها ثلاثة كيلومترات

وقد كانت محطة عمان قاعدة واسعة لتموين الخطوط الحديدية بالحطب فقيادة الجيش احتلت معمل السكة الحديدية واتخذته كمستودعات لخزن الحطب الذي تشتريه من القرويين ويقف هناك عشرات من الموظفين لوزن الحطب واعطاء اجازات لقبض ثمنه

واحمد جمال باشا الذي بسط نفوذه على ولاية بيروت ومتصرفية جبل لبنان والذي ادخل الرعب والخوف في قلوب السكان وجعلهم يرتجفون عندما يسمعون اسمه لم يكن في استطاعته ان يحرك ساكناً او ان يفعل شيئاً وراء حدود هذه المنطقة بل كان يضطر الى شراء كل ما يحتاج اليه الجيش بالعملة المعدنية والذهبية والفضية .

وتنحصر وسائل النقل في عربات ذات عجلتين تجرها الثيران فيأتي القرويون وهم من الجركس سكان عمان وضواحيها بعرباتهم المحملة حطباً الى محطة عمان ويبيعون ما لديهم من الحطب بقيمته النقدية وفي ذلك الوقت الذي اتفقت فيه عائشة خانم ومستر هولمز على اجتياز هذه المنطقة والمجيء الى عمان قصدت الى منزل فارس اسحق حديد من سكان عمان ، وكان لهذا الاخير منزل منفرد قائم بين المدينة والمحطة ، ونزلت في ضيافته

وكان فارس من الرجال المنتسبين الى مصلحة الاستخبارات البريطانية فطلبت منه عائشة خانم ان يشتري لها ثياباً من الثياب التي ترتديها نساء الجركس في تلك المنطقة . وثوباً آخر لرجل وعربة وزوجاً من الثيران ونقدته الثمن ليرات

عثمانية ذهباً

ولما جاءها في المساء بما طلبت رأت عندها رجلا آخر قدمته له باسم الحاج علي آغا .

من هو الحاج علي ؟

والحاج علي آغا من مهرة الجواسيس الانكليز الذين مثلوا دوراً خطيراً في سياسة جزيرة العرب قبل الحرب العالمية وقبل ان يعرف الكولونيل لورانس في تلك البلاد وكان معروفاً في بلادهم باسم مستر جون هربرت اختارته دائرة الاستخبارات البريطانية (انتلجانس سرفيس) للسفر الى اليمن فاقام بين مرفأي زبيد والحديدة واشتغل هناك لحساب بريطانيا ومثل في تلك المنطقة ادواراً خطيرة لا مجال لذكرها هنا

ولما جاء حسين حلمي باشا الى ادارة البلاد اليمانية سعى المستر هربرت او الحاج علي آغا كما سمى نفسه لاثارة فتنة في صنعاء ترمي الى قتل الباشا الا ان حسين حلمي باشا كان قد ادرك هذا فاعتقله وكاد يؤدي اعتقاله الى ازمة شديدة بين الدولة العثمانية وانكلترا وكانت الدولة في ذلك العهد في حالة من الضعف والمسكنة لا تساعدها على اثارة فتنة جديدة والدفاع عن حقوقها فاضطرت الى اخلاء سبيل الرجل والاكتفاء بابعاده من بلاده

الا انه في الحقيقة لم يغادر الاراضي العثمانية حتى عاد اليها سراً واتخذ منها ومن المناطق العربية المجاورة قاعدة لادارة شؤونه وظل هناك الى ان اضرمت نار الحرب العالمية فاشتغل في اثارة الفتن في تلك البلاد ضد الدولة العثمانية الى ان نشبت الثورة العربية فاوفد الى الجبهة ثم اوفد الى عمان لدرس حالة القوات العسكرية هناك

التجسس على السكة الحديدية

ويعرف المتبعون للسياسة العربية ان العرب وخلفاءهم الانكليز الذين حاربوا

العثمانيين في الحجاز ثم في شرقي الاردن اعتمدوا في سنة ١٩١٧ على سياسة مقاومة خطوط المواصلات وعمدوا عشرات المرات الى نسف الخطوط الحديدية وسنأتي على تفاصيل هذه الامور في الفصول التالية من هذه المذكرات التي تتناول حوادث سنة ١٩١٧

الا ان الانكليز الذين يستعدون لكل شيء قبل حدوثه ارادوا — وقوات العرب لا تزال بعيدة حتى عن معان — ان يدرسوا خطوط المواصلات العثمانية وخطط الدفاع التي وضعت للسكك الحديدية ثم خطط الدفاع التي تعدها القيادة العامة لحماية شرقي الاردن من هجمات جنود العرب

ولهذا اوفدت عائشة خانم لسرقة وثائق الدفاع كما عهد اليها بمساعدة مستر هربرت في معرفة وسائل الدفاع عن خطوط السكك الحديدية فاستدعت الفتاة فارس وطلبت اليه ان يشتري لها عربة نقل وثوبي رجل وامرأة لتذهب مع هربرت الى محطات السكك الحديدية بصفتهما قرويين من سكان المنطقة جاءا لبيع ما لديهما من حطب لادارة المحروقات المعهود اليها بهذا الامر

و كانت الفتاة وهي استنبولية المولد جركسية الاصل (وقد بينا تاريخ حياتها قبلا) تعرف كيف تتحدث الى الجراكسة امام الموظفين الترك بلغتهم وتحدث الترك بالتركية في الوقت الذي يلازم هربرت السكوت قائلة انه والدها وانه ابكم ولا يعرف القراءة والكتابة وهكذا كانت تتركه في المحطة فيدرس خطط المحافظة التي يريدها دون ان يشتبه به احد ، وتتولى هي وزن الحطب وتقبض ثمنه متساهلة كثيراً مع الموظفين الذين كانوا يترقبونها يومياً ويحومون حولها مغازلين غير عارفين من يخاطبون وماذا وراء هذا التساهل

ومع ان عمان كانت في ذلك الوقت تعتبر من المناطق العسكرية فان احداً من الضباط والبوليس لم يفكر في امر هذه الفتاة او يبحث عن ماضيها و كيفية ظهورها في المنطقة

فالكل كانوا يعرفونها فتاة جميلة الصورة حسنة المنطق متساهلة في حديثها ومداعبتها للشبان خلافاً لبنات الجركس اللواتي يظهرن تمسكاً شديداً بالعادات

والتقاليد وعدم مخالطة الرجال الغرباء

وكان الكثيرون يرون ذلك صادر عن تساهل والدها الاصم الابكم الذي كان يتظاهر بانه نائم في كوخه لا يسمع ما يجري حوله ولا ما تتحدث به ابنته الوهمية .

وكانت هذه الخطة التي اعتمدتها الفتاة ترمي الى التعرف بالقائد ممتاز بك رئيس اركان حرب القيادة الذي كانت تعتمد عليه في سرقة الوثائق والخطط الحربية

وممتاز بك رجل في الاربعين من عمره حسن الهندام ممتلىء الجسم جميل الصورة ميال الى المجون ولوع بالسيدات خصوصاً في هذه المنطقة البعيدة عن المدنية

وسرعان ما اتصل به امر هذه المرأة فقام يتحرى اثرها فعلم ان الفتاة شابة الا انها شريفة

فقد اخبره رفاقه الضباط بانهم حاموا حولها فسايرتهم الا انها كانت تصدهم بلطف عندما يريدون الاختلاء بها حتى ان الملازم ابراهيم اراد مرة ان يتحرش بها بالقوة فنال عدة ضربات من سوطها ولما هم بمقاومتها هدده والدها ببندقيته

وهكذا كان نصيب اليوزباشي باسم بك

ولكن ممتاز اراد ان يكون فوق الجميع فقد خيل اليه ان مركزه وجماله وماله تساعده على تحقيق ما يريد فاستفسر عن الفتاة فقيل له انها تذهب يومياً الى محطة عمان فاراد ان يترقبها على الطريق

كيف تعارفا ؟

في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٦ سارت الفتاة وحدها تجر امامها عربتها ذات الثورين وهي تنشد احد الاناشيد القوقاسية كما تفعل رفيقاتها وهن سائرات الى الحقل او الى العمل

وبعد ان قطعت العربة بساتين عمان وبدأت تتسلق الطريق المرتفعة الى المحطة اقبل ضابط يجري ركضاً على جواده فاجفل احد الثورين وحاول الهرب فانقلبت العربة وكاد الثور الثاني يهاجم الفتاة ويقتلها .

و كانت عائشة فعلا في خطر

الا ان الضابط الذي لم يكن الا ممتاز بك وقد وقف هناك يتربص للفتاة وما كاد يرى المشهد وهو يجهل ان صاحبته هي من يترصدها حتى دبت في رأسه المروءة فترجل فوراً عن جواده وبادر الى نجدة الفتاة فانقذها من موت محتم ثم نادى الجنود وامرهم باعادة العربة الى ما كانت عليه والذهاب بها الى المحطة وافراغ مشحونها واتيانه بالثمن ٠

ففعل الجند ما امرهم به هذا القائد الكبير وظل هو مع الفتاة فعرف انها ضالته المنشودة فاخذ يتودد اليها واخذت هي تشكره لانه انقذها من الموت ودعته لزيارتها في كوخها ليشكره والدها على معروفه والحت عليه بهذه الزيارة بعد ان عرفت انه ضالتها وقد جاءت الى المنطقة لاجله فقبل الضابط بهذه الدعوة مسروراً فاستقبله مستر هربرت بترحاب وشكره باشارات من يده ووجهه وعينيه

وتوالت زيارات القائد وفي اليوم الثالث لهذا الحادث امرها بان لا تذهب الى المحطة فلبت الطلب واظهرت له من الاحترام والخضوع ما جعل هذا الضابط يعتقد ان هذه الفتاة التي لم يمض على تعرفه بها خمسة ايام اضبحت مغرمة به خاضعة لامره وممتاز بك ، رغم انه متزوج وابو ثلاثة اولاد موجودين هم ووالدتهم في استنبول، مسقط رأسه ، احب هذه الفتاه حباً شديداً واطلعها على عزمه الزواج منها قائلا انه يعتبرها خطيبة له ولذا رجا منها ان ترافقه مع والدها الى منزل لائق بخطيبته بعده لها في عمان

الا ان هذا الاقتراح لم يكن يتفق والغاية التي جاءت الفتاة من اجلها الى هذه المنطقة فابلغته ان والدها وهو من العائلات الجركسية المعروفة لا يقبل بمثل هذا الاقتراح فيجب ان يظلا كما هما الى ان يعقد زواجهما ورجته منه ان لا يفاتح والدها بالامر كيلا يمنعها من استقباله

فرضي ممتاز بك بهذا الاقتراح بعد ان وعدته الفتاة بان تعتبره خطيباً لها وان تعدل عن الذهاب مع والدها الى محطات السكة الحديدية لبيع محصول الحطب

وقد حاول ممتاز بك ان يقنعها بان يبقى والدها في المنزل الا انها رفضت ذلك

قائلة ان من كان مثل والدها لا يقبل مساعدة من رجل ليس بينه وبينه أية رابطة فسكت ممتاز بك على ذلك ما دامت الفتاة لا تذهب وبذلك تحققت غاية الفتاة فظل مستر هربرت حراً في تسقط الاخبار التي يريدها خصوصاً بعد ان نال من ممتاز بك وصاية تسمح له بان يجوب الاماكن التي يريدها وان يلقى المساعدات المفيدة كما ان الفتاة باتت في استطاعتها بعد ان علق الضابط بغرامها معرفة الاسرار التي تريدها بشأن التدابير والخطط العسكرية

وفي المساء اختلت الجاسوسة بوالدها الوهمي اي (مستر هربرت) وتبادلا الحديث فهنأ المستر هربرت الفتاة على نجاحها وقال :

— لقد وفقت توفيقاً عظيماً في خدع هذا القائد التركي الذي بات على ما اعتقد متيماً بك واصبح في امكانك والحالة هذه الحصول على كل المعلومات التي نتوخاها

— هذا حقيقي و ...

وقبل ان يتمم هربرت جملته هذه قرع باب الكوخ على طريقة خاصة ثم سمع صوتاً يقول :

— ان البرد شديد !

فاجابته الفتاة :

— ليس لدينا حطب للوقود

— في الداخل الدفأ

— وفي الخارج ؟

— الزمهرير

وكانت هذه العبارات اداة التعارف بين هربرت والفتاة والجواسيس الذين توفدهم القيادة في الجبهة العربية ولذا ما كادت الفتاة تنتهي من هذه العبارات مع الغريب حتى فتحت الباب فدخل منه شاب في الخامسة والعشرين من عمره ودفع الى المستر هربرت برسالة من مستر هولمز يعلنه فيها وصول الرسوم والخرائط وجميع المعلومات التي ارسلها اليه بشأن استعدادات الترك لتسيير السكك الحديدية والنقاط والمراكز العسكرية التي اتخذوها للدفاع عن هذه الخطوط من منطقة عمان

الى درعا ·

ثم يطلب منه العودة الى الجبهة وترك الفتاة حرة التصرف في عمان للحصول على المعلومات العسكرية المطلوبة

الا ان عائشة خانم اعترضت على هذا بقولها :

— لقد عرف الجميع بانك والدي فمن الصعب والحالة هذه مغادرتك المنطقة قبل تحقيق الهدف الذي جئت لاجله ، ثم ان وجودك بجانبي يساعدنا تمام المساعدة على تأمين خدع الضابط فاذا عرف انك غادرتني وذهبت دون ان تعود لا يبقى بامكاني الا الذهاب معه والاستسلام اليه وفي هذا تضحية لا اقبل بها واضطر الى مغادرة منطقة (ما وراء الاردن) الى غيرها

فرأى مستر هربرت ان الحق بجانب الجاسوسة الحسناء فكتب الى مستر هولز يشعره بالامر ويبين له ان المسألة لا تستغرق الا بضعة ايام حتى اذا حصلت الفتاة على ما تريد كان المجال فسيحاً لعودته الى المنطقة وانتقالها هي الى المنطقة الثانية التي تراها محققة لغاية القيادة الانكليزية

فحمل الرجل المجهول الذي لم يكن الا عثمان نامق من اهل (حصن الاكراد) هذا الجواب وعاد ادراجه

عجز الاستخبارات العثمانية

وهذه الاخبار التي وصلنا بها الى هذا الحد تدل على عجز فاضح في السياسة العثمانية لمقاومة الجواسيس ، فالمعلومات المفصلة التي سردناها آنفاً تدل دلالة واضحة على توغل جواسيس الحلفاء في مختلف مرافق الحياة العثمانية ، فالجواسيس اليهود وفي مقدمتهم سارا ارونسون وجماعتها مثلوا ادوارهم في المناطق الفلسطينية بسهولة تامة دون ان يتمكن الترك من مقاومتهم بوجه من الوجوه ، وهناك عشرات من الجواسيس مثلوا ادوار سارا في فلسطين وبيروت ولبنان وظلت القيادة عاجزة عنهم ، ثم جاءت هذه الفتاة الجركسية فمثلت كل هذه الادوار الخطيرة ولم يفكر احد بامرها

وقد زادت مساعيها في عمان بان اوجدت شبكة لها في هذه المنطقة كانت الحكومة عاجزة عن اكتشافها او العمل على مقاومة دسائسها

شبكة شرقي الاردن

وقد دلت المعلومات التي اتصلت بالقيادة فيما بعد على ان هذه الشبكة الرئيسية للجواسيس كانت مؤلفة في عمان تحت ادارة هربرت وعائشة خانم بصورة مباشرة يساعدهما في عمان نفسها :

١ — فارس اسحق حديد من اهل عمان وكانت وظيفته منحصرة في مراقبة الاستعدادات العسكرية في منطقة عمان

— ٢ الجاويش احمد عبد الستار الحمد وهو من العرب المقربين من القيادة ووظيفته تنحصر في نقل المعلومات عن اتصال قيادة الفرقة بالعشائر العربية ودرس حالة العشائر في المنطقة العثمانية ومقدار المساعدات التي يلاقونها من القيادة

— ثالثاً الاونباشي عباس بن عساف وهبه وهو شاب دمشقي الاصل عهد اليه بصفته من كتاب الفرقة الاطلاع على المخابرات الرسمية وسرقة مفتاح الشيفرة الاوامر التي تصدرها القيادة العليا الى قيادة الفرقة مع المعلومات التي ترسلها الفرقة الى القيادة العليا

وهناك عدد من الجواسيس الذين كان هؤلاء الثلاثة يستخدمونهم في المناطق التي عهد اليهم بمراقبتها الا انهم كانوا على اتصال غير مباشر بالجاسوسة حتى ان هؤلاء الجواسيس الثلاثة كانوا يستخدمونهم بطريقة غير مباشرة كيلا يفتضح امرهم ٠

الا ان المال كان يعطى بسخاء بحيث كان من المستحيل اكتشاف امرهم

وكان هناك اشخاص آخرون ومهمتهم نقل المراسلات بصورة منظمة بين هربرت والجاسوسة من جهة وهولاء في المنطقة العربية الثائرة من جهة اخرى وكان بين هؤلاء الجواسيس الرسميين عثمان نامق من اهل قضاء حصن الاكراد (التابع اليوم لمنطقة اللاذقية) وسليم محمد باكير من اهل قرية داريا التابعة لدمشق

وكان لهؤلاء الاشخاص مساعدون من البدو والاهلين يساعدونهم على التنقل لقاء اجور معينة دون ان يعلموا حقيقة امرهم .

فالجاسوسة كانت تقول :

— اريد وثائق ومعلومات راهنة موئيدة بالدليل ولا قيمة للمال لدي اذا تحقق املي .

وكانت حالة الجنود والضباط المالية تمكنها ساعة تشاء ان تستميل من تشاء وتأخذ منه الاسرار التي تريدها

وقد ساعدت هذه التدابير المحكمة الجاسوسة على معرفة ما تريد من الاسرار التي يجهلها قائد قوات الحامية

ولم يبق لها والحالة هذه الا الحصول على خطط الدفاع التي اعدتها القيادة اصد هجمات الثوار العرب وحلفائهم الانكليز من جهة والتدابير الاخرى التي تتخذها القيادة في تنقلات الجنود وارسالها الى الجبهة وهذه الامور الرئيسية اخذتها الفتاة على عاتقها وقررت انتزاع اسرارها من القائد ممتاز بك الصلح الذي بات مولعاً بحب الجاسوسة يطلعها على كل تدبير تتخذه القيادة العليا

وفي اليوم الخامس من كانون الاول عقد مجلس اركان حرب الفرقة اجتماعاً فوق العادة واعلن القائد في هذا الاجتماع ان جميع المقررات العسكرية التي اتخذت في الاسبوع الماضي ما لبثت ان شاعت فالاوامر التي صدرت الى المفرزة الاولى من الطابور العاشر والاوامر التي صدرت الى البلوك الخامس والاوامر التي صدرت الى البلوك الثامن عرفها الثوار جميعها لانهم عمدوا الى مقاومة هذه الخطط والقضاء على القوات التي ارسلت الى هناك ، وابدى تعجبه من كيفية تسرب هذه الاسرار التي يجب ان تبقى سرية الى الاعداء وطلب التكتم في الامر وفوض القائد ممتاز بك ، رئيس اركان حرب الفرقة الذي تسرب منه هذه الاسرار بدون علمه ، باجراء التحقيق في كيفية تسرب

اسرار هذه الاوامر الى الاعداء

وفي ذلك اليوم قام ممتاز بك بتحقيقات دقيقة حول القضية بحيث تأخر كثيراً في عودته الى كوخ الجاسوسة

وقد استبطأته الفتاة وخافت ان يكون هناك مفاجأة مريبة . ولما جاءها في ساعة متأخرة من الليل استقبلته بشوق ولهفة وسألته عن السبب في تأخره فاخبرها الحقيقة بحذافيرها .

اكتشاف الامر

وكان تأخر القائد ممتاز بك في زيارة الفتاة سبباً في اكتشاف امر الجواسيس فقد كان مقرراً بين الفتاة ورسلها من الجواسيس ان يأتوا لزيارتها بين منتصف الليل والساعة الواحدة صباحاً وكانت عادة ممتاز بك ان لا يمكث عندها في الكوخ الى ما بعد الساعة الحادية عشرة ليلا

وفي تلك الليلة ، وقد جاء في الساعة العاشرة والنصف مساء ، اراد ان يصرف عندها ساعات طويلة من الليل

الا ان الفتاة خافت ان يأتي احد من جواسيسها لزيارتها في الوقت المتفق عليه فأخذت تحاول ابعاد الضابط بصورة ادخلت الريبة في نفسه ودفعته الى الاعتقاد بان الفتاة تهوى غيره وانها تريد ابعاده للاجتماع بمن تحب ولهذا قرر مراقبتها عن بعد وتظاهر بموافقته اياها على خوفها من والدها لتأخره في البقاء بجانبها فودعها وذهب فوقفت على الباب تستمع الى وقع حوافر جواده المبتعد . اما ممتاز بك فمضى بجواده الى المعبد الروماني « انفيتياتر » القائم في طرف بساتين عمان فربط جواده هناك وعاد ادراجه يتسلل بين البساتين الى ان وصل الى مقربة من المنزل فشاهد شبحاً على بابه فترقبه عن بعد ثم رأى الباب ينفتح وتظهر على عتبته الفتاة وبيدها مصباح منار بالبترول ثم تأخذ بيد الرجل المجهول وتدخل به الى الكوخ .

فازدادت ريبة الضابط بالفتاة وخيل اليه انها لم تستقبل الرجل الا لانها تحبه ولم يدر في خلده انها جاسوسة تستقبل في مثل هذا الوقت من الليل زميلا لها . وقد اراد ان يتأكد من صحة ظنونه فاقترب من نافذة الكوخ وانصت فلم يتمكن من فهم شيء لان الحديث كان يدور همساً ثم سمع حركة شديدة بالقرب من الباب عرف انها حركة الزائر الذي يريد الانصراف

فابتعد ممتاز بك من الكوخ عشرات الامتار قابضاً بيده على مسدسه مصمما على قتل الزائر اذ ابى الوقوف . ولما رأى الرجل يخرج متلفتاً ذات اليمين وذات الشمال تبعه على ان الرجل سلك جهة السهل المؤدية الى محطة السكة الحديدية وليس جهة مدينة عمان كما كان يظن ، حتى اذا ابتعدا مسافة شاسعة عن الكوخ وكان الظلام شديداً والسماء ممطرة اهاب بالرجل الى الوقوف فأخذ هذا الاخير يركض فاطلق وراءه عدة عيارات نارية ارهابا فوقف وأسرعت على ازيز الرصاص دورية من الجند فلما اتيها ممتاز بك الرجل وامرها بان تقوده فوراً الى مقر القيادة

ولما جاء الجنود بالرجل الى مقر القيادة ، حقق معه وجد في حوزته اوراق تثبت اشتراكه في جاسوسية فضغط عليه وحمله على الاعتراف بان من كان عندها جاسوسة خطيرة وان من دعت بانه والدها لم يكن الا جاسوساً اشد خطورة منها

وكان هذا الجاسوس يدلي بافادته هذه امام الاونباشي عباس عساف وهبه وهو من جبل لبنان عائلة خانم و ضطرب الامير كما ضطرب منه قائده ممتاز بك الذي شتهرت الفتاة بانها خطيبته ولذا قرر الذهاب اليها حتى اذا تأكد انها حقيقة جاسوسة عمد الى قتلها بنفسه او تسليمها الى القضاء وبذلك يكفر عن اعماله ولهذا امر الاونباشي عباس بالخروج وهذا ما كان ينتظره عساف الذي ما كاد يتلقى امر قائده حتى غادر المقر مسرعاً الى ضواحي عمان ووصل الى الكوخ في الساعة الرابعة صباحاً فقرع الباب بشدة وبعد ان تبادل والفتاة العبارات المصطلح عليها فتحت له الباب بادرها بقوله :

- لقد فضح امرنا فعجلي بالفرار !

[illegible]

فروى لها بعبارات مقتضبة ما كان من ممتاز بك وتوقيف الجاسوس من البداية الى النهاية فقلقت الجاسوسة ورفيقها وقاما لاعداد معداتهما بسرعة استعداداً للفرار قبل ان يداهمهما ممتاز بك وجنوده

اما ممتاز بك فانه استدعى معاونه الضابط شرف الدين بك وامره باستئناف التحقيق مع الرجل وقال له انه يريد توقيف الجواسيس بنفسه اذ لا يرى ضرورة للاستعانة بالقوات في الوقت الحاضر كيلا يفتضح الامر ويفسح للجواسيس ورفاقهم سبيل الفرار

الا ان شرف الدين لم يوافقه على رأيه هذا اعتقاداً منه ان مثل هذا التدبير شديد الخطورة وطلب منه ان يسمح له بمرافقته او ارشاده الى المكان الذي يختبيء فيه الجواسيس حتى اذا رأى هناك خطراً على حياته وتأخر عن الموعد الذي يحدده بادر هو الى اسعافه ومساعدته

ولكن ممتاز بك رفض اعطاءه اي تصريح في ذلك وذهب

مقتل ممتاز بك

وصل ممتاز بك الى الكوخ في الساعة الخامسة صباحاً وكانت الجاسوسة قد غادرت المنزل مع رفيقها الى جهة مجهولة ولما دخل الى الكوخ لم يجد فيه احداً وفيما هو يتحرى الكوخ فوجيء بانفجار شديد واذ بالكوخ ينهدم ويقتل القائد

ولم تكن الجاسوسة تريد ارتكاب هذه الجريمة الا ان هربرت اقنعها بضرورة هذا العمل وحجته في ذلك ان الترك قد يعثرون فيه على اثر يرشدهم الى شيء

ولما كان اكتشاف امر الجاسوس سيؤدي حتماً الى تحري الكوخ وضعا آلة ميكانيكية ربطا محركها بباب الكوخ الداخلي حتى اذا عمد القادم الى فتحه انفجرت القنبلة وقتلته ونسفت الكوخ

وقد وقفت الفتاة على هذا التدبير دون ان تعرف انه سيقضي على حياة ممتاز بك الذي شعرت نحوه بشيء من العطف او المحبة - ولكن محبة الضابط للفتاة ورغبته في محاكمتها بنفسه كانتا سبباً في القضاء على حياته

توقيفات واسعة النطاق

وقد كان لهذا الانفجار الذي حصل عند الفجر دوي شديد اقلق السكان النائمين فهبوا الى مكان الحادث واسرع اليه ايضاً شرف الدين بك الذي كان قلبه دليله على احتمال وقوع مثل هذه الفاجعة و كان على رأس قوة من رجاله ولما رفعوا الانقاض وجدوا ممتاز بك جثة ممزقة بصورة مريعة فطوق عندها المكان واعتقل عشرات من السكان الذين يقطنون المنطقة المجاورة دون جدوى ، الا ان هذا التدبير كان ضروريا نظراً لخطورة الجناية ·

وما لبث ان عرف ان في الامر امرأة ولما خطرت له مسألة الجاسوسة التي اذاعت القيادة العليا الاوامر المتعددة بشأنها ادرك انها هي التي كانت تقطن الكوخ وانها هي التي خدعت رئيسه وسببت قتله على هذه الصورة الفظيعة

فابرق فوراً الى برهان الدين بك الذي كان لا يزال في بيروت يفتش دون جدوى عن الجاسوسة يعلنه بما حدث ويطلب اليه الاسراع في الحضور الى عمان لمواصلة التحقيق في الحادثة

برهان الدين في الميدان

في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول سنة ١٩١٦ اي بعد وقوع الحادث المذكور بثلاثة ايام كان برهان الدين بك في عمان يتولى التحقيقات الدقيقة وقد حصر جهوده في بادىء الامر في معرفة الذين كانوا على اتصال بالفتاة فعلم ان فارس اسحق حديد هو الذي استأجر الكوخ واشترى العربة والثورين فاعتقله و كان الى ذلك الوقت بعيداً عن كل مظنة

وانصرف الى التحقيق معه عن كيفية اتصاله بالرجل وابنته فحاول في بادىء الامر الانكار الا انه ما لبث ان اعترف بان الاونباشي عباس عاف وهبه هو الذي قادهما اليه بصفتهما من زعماء الجركس وقد اخنى عليهما الدهر فأمر باعتقال عباس ومداهمة منزله و كان قد عاد اليه بعد فرار الجاسوسة ورفيقها اعتقاداً منه ان

امره لا يمكن ان يفضح لاسيما ان الجاسوسة اوجبت عليه العودة كيلا يثير الشبهات حوله ولان في استطاعته ان يتابع خدماته دون ان يشعر به احد

ولما اعترف فارس لبرهان الدين بك بان عباس هو الذي قاد اليه الفتاة ورفيقها لم ينبيء شرف الدين بك بالحادث لان عباس كان عنده ولهذا اراد مباغتته في منزله وقد ادت هذه المباغتة الى اكتشاف معلومات هامة • فقد دخل برهان الدين بك الى المنزل على رأس قوة من الجند وباغت عباس مباغتة فوجده يكتب تقريراً ضافياً عن الامور التي حصلت منذ بدء الحادث وعن سير الامور في عمان ولم يكن انجز بعد تقريره الا ان هذا التقرير جاء مؤيداً لجاسوسيته ولمسايرته للاعداء ولذا حجز عليه في غرفة منفردة وشدد عليه النطاق فاعترف بانه هو والجاويش احمد عبد الستار الحمد وفارس اسحق حديد يشتغلون جميعاً لحساب الجاسوسة وانه لم يقدم الفتاة ورفيقها الى فارس بل فارس هو الذي قدمه لها

اعترافات فارس

واجريت المقابلات بين الرجال الثلاثة فاكد الجاويش احمد ما قاله عباس من ان فارس هو الذي قدمه للجاسوسة وشدد النطاق على فارس فاعترف بانه يتعاطى الجاسوسية من مدة لحساب الانكليز وان هؤلاء اوفدوا اليه عثمان نامق من اهالي حصن الاكراد فكان ينقل اليه المعلومات بصورة منظمة الى ان جاءه من مدة تصحبه الفتاة والرجل وقدمهما اليه فطلبا منه بعض المساعدات فقدمها لهما وهو لا يعلم ان النتيجة ستؤدي الى ذلك

اما مسألة تقديمه عباس واحمد الى الجاسوسة ورفيقها فقد انكرها فارس انكاراً باتاً •

الا ان الشهود ما لبثوا ان كذبوا فارساً واثبت الكثيرون منهم وجود علاقات صداقة بين فارس والجنديين المذكورين

وكان برهان الدين بك قد وضع الرقابة حول الكوخ الذي تقطنه الفتاة ومنزل فارس لتوقيف كل من يشتبهون به وكل من يحاول الاقتراب من هذه

المنطقة .

وشاءت التقادير ان يأتي عثمان بعد يومين دون ان يعرف شيئاً من الحوادث التي جرت مما يدل على ان الجاسوسة ورفيقها لم يغادرا المنطقة العثمانية

ولما اعتقل عثمان وفتش وجد معه كتاب ومبلغ ثلاثمائة ليرة عثمانية من النقود الذهبية الجديدة التي كان يعرف الاعداء كيف يحصلون عليها ويوزعونها على البدو .

وقد جرى توقيف عثمان بصورة فجائية فلم يتمكن من اخفاء الكتاب فثبتت الجرم عليه واضطر الى الاعتراف بجاسوسيته الا انه انكر انكاراً بتاً معرفته احداً من الجواسيس الذين في عمان مؤكداً ان علاقاته بمصلحة الاستخبارات لا تتعدى حد الرسول العادي

توسيع التحقيق

وقد امرت القيادة برهان الدين بك بتوسيع تحقيقاته في هذه القضية ومعرفة جميع شركاء الجواسيس فقام بما امر به واعتقل ٤٦ شخصاً من المشتبه بهم احيلوا الى الديوان الحربي العرفي وقد استمرت محاكمتهم الى اليوم الثامن والعشرين من شهر كانون الاول ١٩١٦ وفي ذلك اليوم اصدر الديوان الحربي العرفي قراره باعدام كل من :

اولا — فارس بن اسحق حديد من اهل عمان .

ثانياً — عثمان نامق من اهل حصن الاكراد

ثالثاً — سليم محمد باكير من اهل داريا التابعة لدمشق

رابعاً — عباس عساف وهبه من اهل دمشق

خامساً — احمد عبد الستار المحمد من اهل شرق الاردن

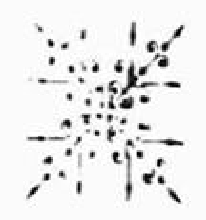
سادساً — ياسين احمد علو من عرب شرق الاردن

سابعاً — الحكم على ٢١ شخصاً بالاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات لثبوت اشتراكهم في حوادث من شأنها مساعدة العدو

ثامناً — الحكم على البقية بالاشغال الشاقة من سنة الى ثلاث سنوات لاشتراكهم في هذه الاعمال بصورة غير مباشرة

وفي اليوم الاخير من عام ١٩١٦ نفذ حكم الاعدام شنقاً في دمشق بكل من سليم محمد باكير وعباس عساف وهبه وعثمان نامق

ونفذ حكم الاعدام في اليوم نفسه في عمان بكل من فارس اسحق حديد واحمد عبد الستار الحمد وياسين احمد علو



الفصل الثاني عشر

يذكر القراء اننا ذكرنا نبأ توقيف مصطفى ابن محمد رجب المبيض من اهل دمشق وسوقه مخفوراً الى دمشق وفراره من هناك اذ اعترف بانه جاء لمقابلة عشيقة ثم اقدام هذه الجاسوسة بجرأة كبيرة على تهريبه من سجن دمشق العسكري وتوقيف الحارس المولج بالامر

الا ان برهان الدين بك سرعان ما طوق دمشق برجاله وقام بتحريات دقيقة الى ان تمكن من توقيف الرجل الفار في احد منازل محلة (باب توما) وهناك شدد عليه الحصار فاعترف له بانه لم يكن الا آلة بيد هذه الجاسوسة الحسناء التي بعد ان انقذته امرته بان يتدبر مكانا يختبيء فيه على ان يوافيها بعد يومين الى احد بساتين دمر حيث تكون بانتظاره في ساعة معينة وانه نظراً للمراقبة الشديدة القائمة في دمشق خاف العاقبة ورفض الذهاب الى المكان المعين له واقسم ايماناً مغلظة على انه لم يرَ الفتاة بعد ذلك ولا يعرف مكانها

مطاردة الجاسوسة

الا ان هذه التعليمات خدمت الضابط الذي اعتقد ان الفتاة تريد ان توفد احد رجالها الى المكان المعين لمعرفة مصير زميلها اذا لم تأت هي بنفسها الى مكان الحادث ولهذا وضع رقابة دقيقة حول حدائق دمر

وبعد يومين جاءه احد رجاله رضوان وقال له

— رأيت في اليومين الاخيرين شاباً يرتاد احد متنزهات دمر فاشتبهت به وسألت عنه الخادم فاعلمني ان هذا الشاب يرتاد المكان يومياً منذ اربعة ايام ، ولما كنت اعتقد انه جاسوس الفتاة واخشى اذا اقدمت على توقيفه ان تفلت منا الفتاة لهذا جئت ارجو منكم اخلاء سبيل الشاب الموقوف على ان يذهب الى هناك فيفسح

لنا المجال في مراقبته ومعرفة مكان الفتاة بواسطته ٠

— ولكن هذا الشاب مخلص للفتاة ٠

— لا يهم اخلاصه ما دمنا نشدد المراقبة عليه

— واذا هرب ؟

— انا مسؤول عنه بحياتي

— اتفقنا

قال برهان الدين بك جملته الاخيرة هذه وامر باستدعاء الشاب اليه فلبي الامر وجاء مصطفى

فاستقبله بشيء من القسوة وقال :

— مصطفى افندي ، اتعرف مسؤولية من يشتغل لحساب الاعداء ؟

— نعم يا مولاي ، يكون جاسوساً

— اتعرف عاقبة الجاسوسية في ايام الحرب ؟

— ؟؟؟

انها الاعدام

— مولاي انني بريء

— كيف تكون بريئاً وقد اوقفت بالجرم المشهود وابد ذلك اقدام الجاسوسة على اخلاء سبيلك ؟

— لو انني عرفت يا مولاي ما اقدمت على هذا العمل ؟

— في امكانك التكفير عن خطيئاتك الماضية

— انا على استعداد يا مولاي

— امستعد انت للتضحية بالفتاة لانقاذ نفسك ؟

— مولاي ٠٠٠

— لا سبيل الى الاعتراض فهذه الفتاة متهمة باشد الفظائع ٠اتعلم انها كانت سبباً في اعدام ٤١ شخصاً من مواطنيك ومقتل عدد من الجنود ؟

— ان هذه المعلومات لفظيعة

— نعم فظيعة وخيانتها كانت سبباً لهذه الفظائع ولا تزال حتى الان تواصل ارتكابها ولكن في امكانك انت ان تضع حداً لجناياتها

وكيف ذلك ؟

— بان ترشدنا الى مقرها

= لقد اقسمت لكم يا مولاي انني اجهل مقرها واكرر لكم ذلك

— اعرف ذلك الا ان في امكانك اذا اخلصت لنا العمل ان تساعدنا على توقيفها فتخدم بلادك ووطنك ، تضع حداً للجنايات التي يحتمل ان ترتكبها هذه الفتاة ثم تنقذ نفسك من الاعدام

— امرك مطاع

فعرض عليه برهان الدين بك الخطة وهي ان يذهب مع رضوان الى حدائق دمر فيجتمع هناك برسول الفتاة الذي ينتظره وينقل اليه رسالة الفتاة او يذهب معه اليها اذا دعاه لذلك ويكون رضوان في اثره وبذلك يسهل سبيل توقيف الفتاة

وزاد برهان الدين بك على ذلك قوله ان رجاله السريين منبثون في كل جهة وان الاوامر صريحة لديهم بقتله اذا ما شعروا بخيانته فوعده الشاب بان يكون مخلصاً له ثم استدعى عامله رضوان وعرف اليه الشاب وامره بالانصراف معه ليدبرا الطريقة التي تؤدي الى نجاح مهمتهما هذه الذي يعلق برهان الدين عليها وحدها امر القضاء على هذه الجاسوسة

ولما خرج رضون ومصطفى من امام القائد اتفقا على ان يذهب مصطفى الى دمر للاجتماع بالشخص المطلوب ويقف رضوان بعيداً عنه

وقصدا فعلاً الى هناك فلم يجدا احداً وجلس مصطفى الى طاولة منزوية يترقب الرجل الغريب دون جدوى لانه لم يحضر لا في ذلك اليوم ولا في اليوم التالي على ان رضوان لم ييأس ولم يخامره الظن بان الجاسوسة شعرت به فكرر الزيارة في اليوم الثالث فوجد الرجل الغريب هناك،وما كاد هذا الاخير يرى مصطفى قادماً حتى بدرت منه حركة ارتياح لاحظها رضوان فجلس الى طاولة وراء بناية المقهى وراح يراقب ما يجري في الجهة الثانية المطلة على نهر بردى وبعد مرور ساعة على

وجه التقريب نهض الرجل الغريب كأنه يحاول ان يتنزه واقترب من (مصطفى)
ويظهر انه اسر اليه بكلمة فنهض مصطفى ولحق به الى طرف القهوة وهناك تبادلا
بعض الكلمات دون ان يشعر بهما احد وعاد كل الى مكانه فجلس الرجل الغريب
بضع دقائق ثم حاسب خادم المقهى وانصرف

وبعد هنيهة غادر مصطفى المقهى فلحق به رضوان فأخبره ان محدثه كان
فعلا رسول الجاسوسة اليه وانه ابلغه ضرورة الذهاب الى سرغايا حيث تنتظره
الفتاة وانه ، اي الرسول سينتظره في مكان عينه له في خراج المدينة ومن هناك
يذهبان معاً الى مكان المرأة وذلك في الساعة السابعة من مساء اليوم التالي

فارتاح رضوان الى هذه النتيجة وذهبا معاً الى الدائرة العسكرية فاجتمعا
هناك ببرهان الدين بك واطلعاه على ما كان وعندئذ وضع الضابط الخطة الواجب
اتباعها لتوقيف الجاسوسة الحسناء وقرر ان يكون هو بنفسه على رأس هذه القوة
لتنفيذ الامر خوفاً من ان تؤدي العاقبة الى فرارها كما حصل في المرات الاولى

١٥٠ جنديا لاجل فتاة !

وكانت الحملة مؤلفة من مئة جندي شاكي السلاح وخمسين جندياً بلباس
القرويين وزعوا جميعاً في قلب سرغايا وضواحيها

وقد حشد هذا الجيش لتوقيف فتاة واحدة اتعبت قوات الجيش الرابع واقضت
مضاجع قواده

وفي الوقت المعين قصد (مصطفى) الى المكان المتفق عليه مع الرجل السري
الذي اوفدته الفتاة فلقيه في انتظاره فمشى امامه الى كوخ بعيد عن القرية فقرع
الباب بطريقة سرية ففتح ودخلا

وكان رضوان في اثر الرجلين بحيث ما كادا يدخلان الى هذا الكوخ حتى
عاد ادراجه واتصل باحد الجنود ودله على المكان ليدل القائد عليه لنطوقه
ويظهر ان (مصطفى) ندم على ما بدر منه تجاه المرأة وكان يعرف ان خيانته

هذه ستؤدي حتماً الى توقيفها واعدامها فما كاد يدخل الكوخ ويراها فيه حتى ترامي على قدميها وانبأها بما وقع منه وبخيانته لها قائلاً ان برهان الدين بك قد حاصر القرية باكثر من مئة جندي

فتلقت الجاسوسة الخبر بهدوء تام وقالت :

— والان ماذا نعمل ؟

— لا شيء

— بلى ، في امكاننا النجاة

— وكيف ذلك ؟

— الست نادماً على ما بدر منك ؟

— بلى

— اذن في امكانك انقاذي

— كيف ؟

— بان ترتدي ثياب امرأة وتخرج من الكوخ في العربة الواقفة في الجهة الخلفية حتى اذا رآك الرقباء ظنوك اياي فلحقوا بك لمطاردتك وليس لديهم عربة في الوقت الحاضر ، واذا نجحت هذه العملية تنال مكافأة سخية

— ولكن ...

— ليس امامنا الا احد امرين اما الاستسلام وفيه الموت لنا جميعاً واما المخاطرة وفيها سبيل للنجاة

— قبلت

قال ذلك وارتدى بسرعة لباسها وارتدت هي لباسه وخرج من الجهة الخلفية وركب العربة التي كانت هناك في انتظاره بقيادة احد سكان مرغايا ، الا ان العربة ما كادت تبتعد قليلا حتى شعر بها رضوان والجنود الذين كانوا هناك فلحقوا بها مسرعين ، وكان الامر على خلاف ما ظنت الجاسوسة لان القوات النظامية التي كانت خارج القرية ما لبثت ان قطعت الطريق على العربة فاوقفتها واعتقلت

الحوذي والعربة وجاءت بهما الى المكان الذي كان فيه القائد فدهش برهان الدين بك لرؤيته الرجل مرتديا ملابس المرأة ، خاف ان يكون هذا التدبير قد ساعد الجاسوسة على الفرار فأمر بتوقيف الرجل والحوذي وركب جواده واسرع الى الكوخ لمعرفة مصير الجاسوسة ، وفيما هو في الطريق فوجيء بما لم يكن يتوقعه

اما مصطفى فانه ما كاد يبتعد بالعربة ويسمع من في الكوخ بحركة المطاردين وراء العربة حتى اعتقدوا ان المطاردين قد ابتعدوا عن مكان الحادث ولم يبق هناك ما يخشى منه ففتحت الفتاة الباب وحاولت الخروج وسرعان ما عادت اليه اذ شاهدت اربعة اشخاص قادمين من جهتها

نباهة رضوان

لم يفقد رضوان رشده عندما رأى الفتاة تفر من الكوخ بالعربة ، فقد كان على ثقة من ان القوات التي احاطت بسرغايا كانت كافية لمنع فرارها وقد رابه امر فرار الفتاة واعتقد ان رفيقه قد خانه فصمم على الانتقام منه وتوقيفه مع الرفيق الاخر ما داما خائنين ولهذا استدعى ثلاثة من الجنود وقرر ان يهاجم بهم الكوخ لاعتقال المعتدين المذكورين ولما اقترب من الكوخ ورأى الفتاة تخرج بملابس الرجال ولم يتبين ملامحها بسبب الظلام ظنها الرجل وقرع باب الكوخ آمراً من فيه بان يفتحوا له الا ان احداً لم يرد عليه مما دعاه لان يأمر الجنود بان يخلعوا الباب وان يقتحموه بالقوة ففعلوا

الا ان من كانوا في المنزل بادروا المهاجمين باطلاق العيارات النارية فتراجع هؤلاء قليلاً الى الوراء وقابلوهم باطلاق الرصاص ، ثم جاءت قوة اخرى من الجنود وانضمت الى رفاقها ثم اقتحم بعضهم باب الكوخ ودخلوه فشاهدوا فيه جثتين هامدتين احداهما جثة صاحب المنزل محمد سعيد الشماط والاخرى جثة مصطفى بن سعد الدين رمشه الذي رافق مصطفى المبيض الى مكان الجاسوسة اما الجاسوسة فلم تكن هناك

عاقبة الجاسوسة

وكان الكوخ على صغره ذا طابقين الاول عبارة عن فسحة ذات ارض معدة للماشية ومطبخ بجوارها وفي طرف الفسحة سلم خشبية تؤدي الى الطابق العلوي المؤلف من حجرتين للرقاد وفي طرف هذا السلم باب من الخشب يرفع الى ما فوق عند فتحه

ولما دخل رضوان ولم يجد الفتاة اراد الصعود الى الطابق العلوي الا انه وجد الباب مقفلاً مما دله على ان ثقلاً وضع عليه فامر الجنود بان يأتوه من احد المنازل المجاورة بسلم يصعد عليها من الخارج الى الطابق العلوي ولما جيء بالسلم وصعد عليها احد الجنود سأله رضوان ماذا يرى فأفاده انه يرى رجلاً جالساً على طاولة يواصل الكتابة ، فامره ان يدعوه لفتح الباب والا يهدده بالقتل ففعل الجندي بما امره به رئيسه الا ان من كان يكتب لم يحرك ساكناً ولم يشأ ان يرد عليه فاطلق عياراً نارياً اصابه في ظهره ، فصدرت عن الرجل صرخة حادة كانت صرخة امرأة ما لبثت ان سقطت عن الكرسي الى الارض تتخبط بدمائها فقفز الجندي من النافذة الى داخل الحجرة وتبعه جندي من بقية الجنود واذا بصاحب الثوب الرجالي كان امرأة وهذه المرأة الجاسوسة عائشة خانم . فامر رضوان الجنود باخلاء الغرفة فوراً وارسل من يبلغ برهان لدين بك ما كان

وقد اضطرب برهان لدين بك لهذا الحادث لانه كان يريد اعتقال المرأة في قيد الحياة لمعرفة الشبكة التي تعمل تحت ادارتها من جهة ولمعرفة بقية اسرارها من جهة اخرى

واسرع الى مكان الحادث لعله يدرك الفتاة في قيد الحياة الا انه وجدها في دور النزاع لان الرصاصة التي اخترقت السلسلة خرجت من الصدر بعد ان مزقت الرئة فامر معاونه رضوان بنقلها الى المستشفى في دمشق واستولى على الرسالة التي كانت تكتبها حين مقتلها وتحرى الكوخ فلم يجد فيه شيئاً لان الفتاة لم تكن

قاطنة هناك كما انه لم يجد معها شيئاً من الاوراق التي تفضح امرها سوى مبلغ ٥٠ ليرة عثمانية ذهباً و ٣٠٠ ورقة من النقد التركي ، فجمعها وتوجه الى دمشق املاً منه ان يتمكن الاطباء من اسعاف الفتاة ليتمكن من معرفة اسرارها منها

وفي اليوم التالي للحادث تلقى برهان الدين بك شعاراً من ادارة المستشفى يعلنه وفاة الجاسوسة متأثرة من جراحها دون ان تعود الى رشدها وبذلك انقطع كل امل له في معرفة اسرار هذه الفتاة التي مثلت تلك الادوار الخطيرة ، ودفنت الفتاة في ذات اليوم نفسه دون ان يشيع جثمانها الا الذين سببوا قتلها وهم برهان الدين ورفاقه الذين ظلوا يؤملون ان يصلوا حتى بعد دفنها الى معرفة احد من رفاقها الذين قد يأتون ليودعوها وفرضت رقابة حول ضريحها استمرت عشرة ايام واكثر في التراب دون جدوى فقد بقيت الفتاة في التراب لم يفكر احد في وضع زهرة على ضريحها

ولم تكن رسالة الجاسوسة التي كانت تكتبها عندما قتلت تحتوي شيئاً يستحق الذكر فقد كانت رسالة عادية موجهة الى شقيقتها تتضمن عبارات مؤثرة عن شعورها بنهاية اجلها وتقول فيها انها تعاطت الجاسوسية لحساب الاعداء انتقاماً من رجال الحكومة العثمانية لوالدها

الا ان الديوان الحربي العرفي اتخذ هذه الرسالة كدليل واضح على براءة الجند في قتلها .

اعدام الشيخ

واحيل مصطفى بن محمد رجب لبيض الى الديوان الحربي العرفي مع الحوذي سعيد الصالحاني الذي ساعده على محاولة الفرار فحكم على الاول بالاعدام وعلى الاخير بالسجن سنة واحدة

في اليوم الثاني من شهر ايار سنة ١٩١٧ نفذ حكم الاعدام في بعلبك بمصطفى المذكور شنقاً امام مفرزة عسكرية وجمهور من اهل بعلبك

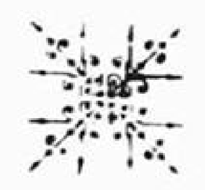
وعلى هذه الصورة الفظيعة انتهت حوادث الجاسوسة الحسناء عائشة خانم بعد

تلك الادوار الخطيرة التي مثلتها على مسرح الجنايات في البلاد

وقد ارسل احمد جمال باشا على اثر ذلك كتاباً رسمياً الى برهان الدين بك يهنئه فيه على تطهير منطقة الجيش الرابع من هذه الجاسوسة ورجالها الذين اتعبوا القيادة بشكل مؤسف

ولكن هل انتهت بموت هذه الحسناء حياة الجاسوسية في المنطقة ؟

تدلنا الوقائع على ان الجواسيس الاجانب ظلوا مسيطرين على مقدرات الامور في الدولة العثمانية الى النهاية حتى ان الحوادث التي وقعت منذ مقتل هذه الجاسوسة الى يوم جلاء القوات العسكرية عن بلاد العرب تدل على ان هؤلاء الجواسيس ازدادوا سطوة ونفوذاً في البلاد عما كانوا عليه من الايام الماضية والى القراء بيان ذلك



الفصل الثالث عشر

كانت الوكالة البريطانية في مصر القاعدة الرئيسية للاستخبارات الانكليزية في الشرق الادنى تدير حركات الجواسيس الانكليز وغير الانكليز الذين استخدمتهم لمراقبة مختلف الحركات السياسية والعسكرية في بلاد العرب وسائر انحاء السلطنة العثمانية . وكان رجال هذه الدائرة يتوغلون في مختلف انحاء البلاد بصورة لا يستطيع معها القابضون على زمام الامور في السلطنة العثمانية مقاومتهم

وكان احمد جمال باشا شاعراً بحركات هذه الدائرة ومساعيها المتعددة في سبيل نشر الدعايات المضادة له في قلب منطقته الا انه لم يكن قادراً على القيام باعمال شديدة لمقاومتها لاسيما وقد تبين له ان جميع التدابير الشديدة التي اتخذها حتى الان في مقاومة شبكات الجاسوسية كانت تذهب سدى دون ان تحدث اي تأثير فعال . وكان قد استخدم الدكتور فؤاد بك سليم المصري لمراقبة مصر ومقاومة حركات الانكليز الصادرة منها الا ان جميع التدابير التي اتخذها الدكتور ذهبت ادراج الرياح وظلت المواصلات مستمرة بين منطقة الجيش الرابع ومصر

جواسيس جدد

وفي اليوم الثالث من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ تلقى احمد جمال باشا سلسلة من التقارير السرية الواردة اليه من القطر المصري عن الحالة هناك وقد لفت نظره في احداها ان المستر (فايان بري) الجاسوس الانكليزي الذي اشتهر في جزيرة العرب باسم الحاج عبدالله منصور اوفد بمهمة سرية الى سوريا وانه سافر في منتصف شهر كانون الاول سنة ١٩١٦ الى سوريا عن طريق صحراء سينا ويتضمن هذا التقرير اوصاف الرجل واعماله في جزيرة العرب ومعرفته الجيدة للغة العربية واتقانه للهجات كثير من القبائل العربية في الجزيرة

فاضطرب أحمد جمال باشا لهذه المعلومات لانه كان يعرف شخصياً هذا الجاسوس عندما كان قبل الحرب العالمية ، على رأس ولاية بغداد

من هو بري ؟

والمستر فايمان بري او الحاج عبدالله منصور من جواسيس الانكليز الماهرين الذين مثلوا دوراً خطيراً في السياسة الانكليزية في جزيرة العرب فاذا كان مستر لورانس قد نال شهرة واسعة في جزيرة العرب خلال الحرب العالمية ومن بعده مستر فابي في الحرب السعودية الحجازية بعد الحرب فان الفضل في ذلك يرجع الى مستر هربرت الذي كان مع الجاسوسه عائشة خانم في عمان والى زميله فايمان بري هذا

فقد كان من مؤسسي النفوذ البريطاني في جزيرة العرب فالاول كان يشتغل في منطقة اليمن المحدودة بينما كان الاخر يشتغل في الجزيرة على طول الساحل المشرف على البحر الاحمر وهو الذي كان يسعى لبسط نفوذ دولته على البلاد العربية كما كان يسعى لبث الشقاق والنفور بين امراء العرب قصد الاستفادة من ذلك لتوطيد نفوذ دولته ومقاومة السياسة العثمانية

ففي حين كانت القيادة العثمانية تعمل في « صبياء » على استمالة الادريسي وجماعته الى صفوفها كان فايمان بري يسعى من جهته لتوسيع شقة الخلاف ومضاعفة نفوذ دولته بين هذه القبائل وله قبل الحرب العالمية عدد كبير من الدسائس والمؤامرات التي اتعبت الحكومة العثمانية ووطدت نفوذ دولته في تلك البلاد

وقد اعتمد عليه الانكليز بعد الحرب العالمية لاثارة القبائل على السلطة العثمانية واليه يرجع الفضل في انضمام امراء سواحل البحر الاحمر وزعمائها الى الامبراطورية البريطانية

فأقدام الرجل والحالة هذه على مغادرة منطقته على سواحل البحر الاحمر التي لازمها منذ سنة ١٩٠٥ وسفره الى سوريا يدلان على ان الانكليز ينوون تنفيذ خطة جديدة في سوريا قد ترمي الى احداث ثورة في هذه المنطقة لمعاضدة ثوار الحجاز الذين قاموا بحركاتهم ضد الحكومة العثمانية

وقد اهتم احمد جمال باشا لهذه المعلومات وابرق الى حسن حسني باشا امير ، رئيس اركان الحرب لقوات جيش الصاعقة ، يلفت نظره الى هذا الجاسوس ويدعوه الى اتخاذ التدابير الاحتياطية الشديدة لمراقبة ومعرفة هل دخل الى المنطقة والوجهة التي يقصدها

وبعد اسبوع تلقى البريد المصري للمرة الثانية وفيه يؤكدون له سفر الرجل الى سوريا مع رسم له تمكنت مصلحة الاستخبارات العثمانية من الحصول عليه لبيان ملامح هذا الجاسوس فعممه على دوائر الاستخبارات العثمانية

ثم تلقى نص مخابرات سرية دارت حول هذا الشأن ورد فيها ذكر هذا الجاسوس ونرى ان نتوقف عندها قليلاً ليتمكن القراء من معرفة هذه الادوار الخطيرة التي مثلها الرجل

صاحب المعالي حاكم السودان العام طال بقاه

ان الامة العربية التي تسعى منذ مدة لتحقيق حريتها واستقلالها ترى ان الوقت اصبح مناسباً لان تعملوا معاليكم في هذا السبيل اذ الفرصة سانحة والعرب على استعداد لمد يدهم الى اليد التي تمد لهم في سبيل تحقيق حريتهم واستقلالهم ٠

لقد اجتمعت بالصديق الشريف عبدالله منصور ، فاخبرني ان العرب في الجزيرة على استعداد تام للعمل يداً واحدة مع حكومة صاحب الجلالة وطلب الي مخابرتكم في هذا الشأن

فهل تريدون ان تكونوا الوسطاء بين الامة العربية وحكومة صاحب الجلالة الامبراطورية

في ١٤ شباط سنة ١٩١٥ الامضاء

الشريف يوسف الهندي

وليس لدينا وثائق اخرى عن هذه المخابرات السرية التي سبقت هذه المفاوضات او تلتها في شهري شباط واذار الا ان دائرة الاستخبارات العثمانية عادت فتلقت نسخة زنكوغرافية ثانية عن المخابرات الاخرى

واليكم نصها :

من حاكم السودان العام

الى السيد يوسف الهندي

خصوصي – سري جداً

حضرة الفاضل الشريف السيد يوسف الهندي المحترم

بعد اهداء حضرتكم السلام ابادر الى اخبار سيادتكم بما يأتي :

لقد وصلني من لندن وعد صريح مكين بان حكومة جلالة الملك قد قررت انه في حالة ما اذا تم الصلح فأحد شروطه الجوهرية هو ان تكون شبه جزيرة العرب والاماكن المقدسة في يدي حكومة ملك مستقل وان حكومة جلالة الملك تعتبر هذه المسألة مما يجب اقراره من قبل الشعب الاسلامي بدون مداخلة الدول وفي حالة ما اذا قرر الشعب الاسلامي واعلن صراحة تمسكه بان تكون الخلافة عربية فحكومة جلالة الملك تحل ، بالطبع ، قرارهم محله من الاعتبار الا انها لا يمكنها ان تتدخل في الامر من الان لانه متوقف على ارادة الشعب الاسلامي دون غيره .

ولهذا يسرني جداً ان اتمكن من تبليغكم هذا الوعد المستمد من التصريحات التي اعلنتها حكومة صاحب الجلالة عند نشوب الحرب مع تركيا راجياً ان تفيدني بوصول هذا البلاغ اليكم وان تبقوا هذا الكتاب سريا بينكم وبين الشريف عبدالله منصور ولا تمكنوا احداً غيره من الاطلاع عليه مع بيان الموقف الذي ترونه محققاً لهذه الغاية

اركويت في ٣٠ نيسان سنة ١٩١٥ الامضاء

حاكم السودان العام

وقد كان هذا الكتاب الذي بعث به حاكم السودان العام مقدمة للمفاوضات التي بدأ بها الانكليز مع العرب اذ اوصلهم الى الاتفاق مع الشريف حسين امير مكة .

وقد تمكن احمد جمال باشا من الاطلاع على هذين الكتابين اللذين اوردنا نصهما في حزيران من العام نفسه الا انه لم يهتم للحادث اهتماماً جدياً لاعتقاده انه ليس في استطاعته من سمى نفسه (بالشريف يوسف الهندي) ان يحدث اي تأثير في سياسة جزيرة العرب ومع هذا فقد اراد احمد جمال باشا ان يعرف حقيقة موقف زعماء العرب وامرائهم في هذه القضية ولهذا اوفد اليهم الرسل الذين كان في مقدمتهم نوري باشا شقيق انور باشا وجعفر باشا العسكري ، وغيرهما من الشخصيات المعروفة . وقد اعتقد ان مساعي هؤلاء الرسل كافية لتحقيق غايته العليا والسعي لبلوغ الهدف الذي يتوخاه في ابعاد كل صلة بين العرب والانكليز

ولكن جواسيس انكلترا السريين الذين كانوا يعملون في هذا السبيل ما لبثوا ان عرفوا كيف يقاومون رسل جمال باشا بحيث استمالوا اكثر هؤلاء الرسل الى صفوفهم وحملوهم على مقاومة السياسة العثمانية

مقتل جاسوس تركي

ونذكر بهذه المناسبة ان الانكليز اعتقلوا في عدن في ١٢ ايار سنه ١٩١٥ احد الجواسيس الترك الذين اوفدهم احمد جمال باشا لمعرفة علاقات العرب برجالات الانكليز في جزيرة عدن وهو خير الدين صادق بك وقد استطاعوا ان يعرفوا منه كثيراً من اسرار احمد جمال باشا واسرار رفاقه الجواسيس الذين في جزيرة العرب يعملون لحساب تركيا فاعتقلوا العدد الكبير منهم وفي الثالث من حزيران اعدموا الجاسوس المذكور

ولم يكن اعدام هذا الجاسوس مما يؤثر في مجرى الاستخبارات العثمانية لان الجواسيس العثمانيين ما لبثوا ان حملوا الى احمد جمال باشا نصاً زنكوغرافياً عن الكتاب الذي بعث به الشريف يوسف الهندي الى حاكم السودان العام رداً على كتابه المتعلق بوعد انكلترا للعرب وتحريضها المسلمين على مقاومة السلطان وانشاء مملكة عربية وخلافة عربية والى القراء نص هذه الوثيقة التاريخية بلغتها العربية كما كتبت :

صاحب المعالي حاكم السودان العام طال بقاؤه

بمزيد السرور تناولت كتابكم الكريم المؤرخ في ٣٠ نيسان سنة ١٩١٥ وتأكد لي ولدى كل مسلم ان بريطانيا العظمى تريد بعد اخذها آراء المسلمين ان تكون شبه جزيرة العرب مستقلة الخلافة بها عربية قرشية محض

وهذا لعمري مما يسجد له المسلمون الى الاذقان شكراً لله ربنا ان امر الخلافة واجب ووجوبه في الشرع اجماع الصحابة على ابي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر اليه في امورهم وهذا معناه ان الامر راجع الى رأي المسلمين ونظر اهل العقد والحل منهم ليروا رأيهم فيمن تكون له اللياقة لتقليدهم اياه هذا المنصب الخطير مع الشروط اللازمة كالعلم والعدالة والكفاءة وسلامة الحواس والاعضاء والنسب القرشي والوطن المكي وهذا الامر وان توفر في كثير من الناس فصاحب الحق فيه واحد ولا ارى انا هنا ولا الشريف عبدالله منصور الذي في المنطقة اليمانية (نذكر القراء هنا ان من لقبه صاحب الكتاب بالشريف عبدالله المنصور ليس الا الجاسوس فايمان بري الذي تظاهر باعتناقه الاسلام لخدمة دولته في هذه البقعة من جزيرة العرب) غير ان واحد من الناس هو احق بهذا المركز من غيره وتعني به شريف مكة المكرمة الحالي السيد الحسين بن علي المتصل الاصل بالامام الحسين رضي الله عنه لانهم اهل البيت ولهم الامارات فيه منذ الف سنة ولان حرمتهم مقرونة بحرمة هذه الاماكن المقدسة ونفع الناس به في محل قبلتهم وحجهم يكون اعظم لخاصتهم وعامتهم

ونحن على اعتقاد وطيد بان الامر اذا تم على هذا المنوال ارضى كل مسلم اذ يمكنه من التمتع بثمرة الدين وثمرة الخلافة وثمرة الحج لانها وضعت في محلها ومن عهدها القديم كل المسلمين يقصدون هذا البيت في كل عام لاداء فريضة الحج وزيارة قبر نبيهم ويستقبلونه في كل يوم خمس مرات في صلواتهم واذا تمت لهم نعمة الخلافة مع ذلك فيه تمت نعمة الله لهم واعز جانبهم واخذ يساعدهم ورد اليهم بضاعتهم ولعمري انه فتح ثان لهذا البيت وتجديد عظيم لاهل القبلة في آخر الزمان .

اما اذا كانت الخلافة من حيث لا يعلمون وفي غير اهلها وفي غير بلدها فبالطبع انها غريبة ومهجورة ومغصوبة واهلها فيها مغلوبون ومظلومون الى ان يقفوا امام الله جلت قدرته

اما صفة عقد الخلافة لمن تكون به للياقة كشريف مكة حسين باشا الذي اوجه اغلب اقوالي اليه فمتيسر وذلك ان يكون عقد اجماع كل امة في بلدها ويعقدون بيعته ويرسلون بها طائفة من الفضلاء والعلماء ثم يقدمون انفسهم له في زمن الحج زمرة بعد اخرى في مواسم الحج وغيره في كل صوب وحدب ·

هذا ما ارى تقديمه ودمتم سيدي

في ١ حزيران سنة ١٩١٥ الامضاء

الشريف يوسف الهندي

وقد اهمل احمد جمال باشا خطأ هذا الكتاب كما اهمل الكتابين الاولين من قبله لاعتقاده ان هذه المخابرات شخصية بين حاكم يريد ان يبيض وجهه تجاه حكومته وبين شخص غير مسؤول ·الا انه لما تعددت مماطلة الشريف في ارسال هذه الحملة لمساعدته في فتح قناة السويس بدأ يعتقد بسوء نياته تجاه الدولة العثمانية فأرسل هذه المخابرات ، بعد فوات الاوان ، الى استنبول فاعتمدت عليها الحكومة المركزية في خلع الشريف حسين عن عرش مكة وتعيين الشريف علي حيدر باشا مكانه

موقف الجواسيس الترك

ونحن لا نبحث في هذا الفصل عن الثورة العربية واسبابها وخلع الشريف حسين والمناداة بعلي حيدر باشا مكانه بل اوردنا نصوص هذه الكتب الثلاثة للدلالة على ان الجواسيس الذين استخدمهم الترك في هذا السبيل كانوا على معرفة بمجريات الامور قادرين على تتبع الموقف بمهارة ودقة الا ان رؤساءهم كانوا مهملين الامر ولو ان احمد جمال باشا اعار هذه المخابرات التي وصلت اليه في سنة ١٩١٥ الجانب الذي تستحقه من العناية والاهمية لامكنه ان يتابع مجريات الامور وان

يعرف حقيقة المؤامرات التي تدبر في الخفاء وان يحول دون وقوع هذه الثورة العربية التي كان وقوعها سبباً رئيسياً في تقويض دعائم الامبراطورية العثمانية

ولدى احمد جمال باشا وثائق وادلة راهنة تدل على حقيقة مجريات الامور ولكنه هزأ بها في حين كنا نرى جواسيس الانكليز يهتمون لاقل حادث يقع في البلاد ويعملون على معالجته

يقول احمد جمال باشا في مذكراته التي نشرها عام ١٩٢١ انه لم يشعر ابداً بمساعي الشريف حسين باشا لاضرام نار الثورة العربية ويبدي اسفه لذلك ويقول انه لو يعلم بهذه المساعي لانزل بالعرب وزعمائهم اشد نقمة

الا ان الحقيقة التي استنتجناها من مجريات الامور ومن مطالعة الوثائق التي تركتها لنا السلطنة العثمانية هي ان هذا الجهل ناجم عن اهمال احمد جمال باشا مراقبة الحالة في البلاد فهو لم يوجه الى الحوادث العربية عناية كافية ولو راعى التقارير السرية الواردة اليه من الخارج لتمكن من معرفة كثير من الامور السياسية التي كانت تجري في جزيرة العرب

فهذه الكتب الثلاثة التي نشرناها آنفاً كانت تدله على نواة هذه المفاوضات الا انه اهملها كما اهمل مراقبة المفاوضات التي كانت تدور في القطر المصري لتهيئة الثورة العربية هناك

فالتقارير الواردة من مصر كانت ضعيفة جداً تدل على ان جواسيس العثمانيين الذين في القاهرة كانوا جاهلين كل هذه الامور ولا يعرفون الا نقل اسماء الذين يترددون على الوكالة البريطانية وهو امر ليس مرتباً بالمقدار الذي تهتم له القيادة مع ان الواجب يستلزم معرفة حقيقة الامور التي جاء هؤلاء الاشخاص من اجلها الى مصر وما كان يدور في الخفاء من احاديث واسرار قد تؤدي معرفتها الى حفظ سلامة الجيش ومستقبل البلاد

وكان جواسيسنا في مصر لا يعرفون الا القشور في حين كان جواسيس الانكليز يعرفون عنا كل شيء وحادث الجاسوسة عائشة خانم اكبر دليل على ذلك

عود الى فايان بري

جاء (فايان بري) الى منطقة الجيش الرابع في اوائل عام ١٩١٧ عندما كان صدر احمد جمال باشا يغلي بالحقد على العالم اجمعه فقد فشلت خطته في اختراق قناة السويس وبات موقف قواته في صحراء سينا مضعضعاً و كذلك موقفه في الحجاز حيث اشتدت الثورة العربية

والبلاد السورية نفسها كانت ناقمة عليه وحكومة استنبول ندمت على توليتها اياه القيادة العليا و كانت تسعى لدعوته الى العاصمة

و كان مجيء هذا الجاسوس الذي اكدت التقارير التي اوردناها سابقاً انه كان في مقدمة العاملين على اثارة العرب اثار حقد جمال باشا على الرجل فراح يشدد في الامر لتوقيفه ومعرفة الغاية من قدومه الى هذه المنطقة

بيد ان الاجوبة التي كانت ترده من فلسطين لم تكن تبرد غليله بالعكس انها كانت تزيد في حدته ونقمته

الا ن الجاسوس الانكليزي تابع سيره دون ان يحفل باحد لاعتقاده ان الجميع عاجزون عن معرفته ومعرفة الاتجاه الذي اتجهه ولهذا توغل في قلب فلسطين الى صحراء سوريا ، هدفه في اثارة الفتن وفي الاتصال بامراء العرب لاثارتهم على الدولة وضمهم الى صفوف الثوار العرب القادمين من الحجاز

وقد تمكن هذا الجاسوس الذي تزيى بزي احد المشايخ العرب من الوصول الى مركز قبيلة (بني صخر) المشهورة بالشدة والبأس وسرعان ما اتخذ فيها اسم الشيخ حمد وبات من مشايخ هذه القبيلة المعروفين

مقابلته لاحمد جمال باشا

ولم يكن بين افراد قبيلة بني صخر من يعرف هويته الا ثلاثة اشخاص هم رؤساء القبيلة الذين كانوا صلة اتصال بينه وبين افراد القبيلة التي كان يسيرها الى الهدف الذي يريده ويهيئها لتكون في مقدمة القبائل المناضدة للانكليز والقوات

العربية الثائرة عندما يحين الوقت

وكان احمد جمال باشا يقدر هذه القبيلة العظيمة قدرها ويغدق عليها النعم ويرى ان في بذله المال الوفير لها ما يكفل له تحقيق امنيته في اكتساب ولائها

وقد اراد ان يزيد في اكرام رؤساء هذه القبيلة فقصدهم مع هيئة من كبار قواده الى درعا فأقبلوا للسلام عليه وجاء الشيخ احمد او الشريف عبدالله منصور او فايان بري مع هؤلاء الرؤساء لمقابلة احمد جمال باشا فاستقبلهم بترحاب وخطب فيهم مبيناً لهم متانة موقف الحكومة ومقدرتها على البطش بالثوار الخوارج وشكر لهم موقفهم ومناعتهم من جهة الاعداء ثم قلدهم الاوسمة الحربية العثمانية وفي جملة هؤلاء الجاسوس فايان بري اعتقاداً منه انه زعيم من زعماء بني صخر

وقد اغتنم الجاسوس هذه الفرصة لدرس الموقف العسكري بدقة فحادث الزعماء العسكريين ببساطة وسذاجة كانه بدوي مخلص لدولته وتمكن بهذه الصورة من معرفة كثير من الاسرار العثمانية التي يريدها خصوصاً في دمشق وكان احمد جمال باشا قد دعاه مع بعض الزعماء لزيارة دمشق فلبى الدعوة واستطاع درس الامور بكل دقة

ثم طاف اسواق دمشق يرفل بالملابس العربية الحريرية مرصع الصدر بالاوسمة مرموقاً بعطف الشبان وتفقد المراكز العسكرية والحالة العمومية دون ان يجد من يعترضه ويشتبه به فقد كان الجميع يحترمونه ويوفرون له الايضاحات التي يريدها لان احمد جمال باشا امر بذلك وقد اراد ان يظهر لزعماء بني صخر قوته وسطوته .

الا ان الجاسوس الذي تسرب باسم الشيخ احمد لم يعر هذه المظاهر اقل اهتمام بل انصرف الى درس موقف القوات العثمانية ووسائل الدفاع التي اتخذتها في جهات دمشق وحوران وشرقي الاردن بحيث ساعدته الايام العشرة التي قضاها في تلك الجهات على وضع خارطة مفصلة لوسائل الدفاع العثمانية ورسم خطة حقيقية للقوات الموجودة والتعرف الى نفسية الشعب حتى اذا عاد الى مقر قبيلة بني صخر انصرف الى اعداد تقريره الضافي عن الامر مصحوبا بالخرائط والرسوم وارسله الى القيادة

البريطانية العليا

خطورة التقرير

وقد ساعد هذا التقرير القيادة الانكليزية العليا على مهاجمة المراكز العثمانية عندما سنحت الفرصة لذلك اذ تضمن جميع الاستعدادات الحربية والمراكز الرئيسية للعتاد الحربي ولادارة سوقيات الجيش

ويستدل من المعلومات التي اوردها لورانس في مذكراته انه اعتمد في مساعيه في قلب المنطقة العثمانية على تقرير فايمان بري نفسه

وقد ظل هذا الجاسوس في بادية سوريا حيث قام بوظيفة الاتصال بين القيادة الانكليزية العليا وعرب البادية من جهة ومراقبة العثمانيين من جهة اخرى الى ان حان الوقت الذي طلب اليه فيه اثارة القبائل العربية على الدولة العثمانية ففعل وكان نجاحه باهراً في ضرب القوات العثمانية بشدة

موقف العثمانيين

وكانت اخبار هذا الجاسوس الانكليزي ترد الى القيادة العثمانية في تقارير مضحكة جداً ، ففي اليوم الذي تقدم فيه هذا الجاسوس الى احمد جمال باشا بصفته من مشايخ قبيلة (بني صخر) وردت الى القيادة تقارير مختلفة تفيد جميعها ان (فايمان بري) شوهد في جهات حيفا وبيروت والقدس وبئر السبع وان التحريات جارية لمطاردته فاستاء احمد جمال باشا من هذه التقارير الكاذبة وارسل الى هؤلاء القواد في المدن الاربع نسخاً من تقارير رفاقهم سائلاً اياهم اي من هذه التقارير هو الصحيح ؟ وهل يعقل ان يظهر رجل واحد في اربع مدن بعيد بعضها عن بعض ؟ وان يكن ظهر في احداها فاين هو ؟ ولماذا لم يقتله مرسلو هذه التقارير ؟

هذا الحادث اكبر دليل على مقدار نباهة دوائر الاستخبارات ومعرفتهم الحقائق !..

اما (فايمان بري) فانه لم يكتف بالحضور الى درعا ودمشق فحسب بل قصد في اليوم الاول من شهر آذار سنة ١٩١٧ الى بادية سوريا الشمالية للاجتماع بامراء العشائر القاطنة في شمالي سوريا اذ رغبت اليه القيادة في ذلك

وكان الموقف الحربي في العراق في ذلك الوقت شديد الخطر على العثمانيين وكان الانكليز يرغبون في اثارة القبائل من سكان الصحراء القاحلة بين سوريا والعراق .

وقد شعرت القيادة العليا بالحركات الجارية في البادية فارادت ان تكرم العشائر ومشايخها

وقد لبى هؤلاء الطلب وحضر منهم ٤٥ زعيماً من الزعماء المعروفين فاستقبلهم قائد الفيلق ووالي الولاية استقبالاً فخماً وعين اليوم الخامس من شهر آذار سنة ١٩١٧ موعداً لاستقبالهم من قبل احمد جمال باشا

مقابلة جريئة

وكان فايمان بري في جملة هؤلاء الامراء فجاء هذه المرة الى حلب باسم الشيخ طمان الاحمد من زعماء شمر

والغريب في امر احمد جمال باشا ، ذلك الرجل الحاد النظر ، انه لم يعرف به احد مشايخ (بني صخر) الذي استقبله قبل شهرين في درعا وعلق على صدره وسام الحرب العثماني وقد يكون لاحمد جمال باشا عذر في ذلك لانه لم يشاهد الرجل الا عندما علق على صدره الوسام وانه لم يحادثه الا عندما قدم اليه وصافحه ولكن الجرأة هي ان يتقدم هذا الجاسوس مع هذا العدد الكبير من الزعماء كانه منهم غير خائف ان يعرفه احمد جمال باشا او احد اركان معيته

ولم تقف الجرأة بهذا الجاسوس عند هذا الحد بل تعدته الى قيامه بالقاء شبه محاضرة تكلم خلالها عن موقف زعماء البادية العربية من الدولة العثمانية واخلاصهم للقيادة اخلاصاً تاماً واستقباحهم عمل الشريف حسين وتمردهم على مقاومة الاعداء بكل ما لديهم من عزم وحزم وقوة

لفت طعان الاحمد — او الجاسوس فايان بري — احد زعماء قبيلة شمر نظر احمد جمال باشا في المقابلة التي جرت بينه وبين زعماء البادية في فندق (بارون) في حلب واستنشق في هذا (الشيخ) ذكاء ومقدرة نادرين فاراد ان يتعرف اليه شخصياً ويستميله اليه فاوفد مرافقه الخاص الى الصالون ليدعو اليه هذا الشيخ

ويظهر ان هذا الجاسوس الانكليزي الداهية كان ينتظر مثل هذه الدعوة بعد الخطاب الذي القاه امام الباشا ولم يترك لغيره من امراء البادية وزعمائها من يتفوه بكلمة ولهذا لم يستغرب هذه الدعوة ولحق بالمرافق الى حيث كان الباشا فاستقبله هذا الاخير وحدثه بترحاب وتحدث اليه عن مختلف الامور فكان يجيبه هذا الجاسوس بلهجة بدوية وبفصاحة لا تترك لاحد اي مجال للشك فيها وكيلا يترك للباشا اي مجال للتحري عن ماضيه اعلمه بانه كان منذ سنوات طويلة في المنطقة العراقية وقد ساءه ما كان من انقياد بعض زعماء البادية الى الثورة العربية واستلامهم الى الانكليز مما سبب سقوط قسم كبير من الاراضي العرقية بين ايدي الانكليز

وكان هذا الجاسوس يتكلم بتأثر وحرارة مما جعل احمد جمال باشا يثق به ثقة مطلقة ويدعوه للتعاون معه والعمل يداً واحدة لمقاومة دعايات الانكليز في قلب البادية ، واضاف احمد جمال باشا الى ذلك ان وعد هذا الجاسوس باغداق النعم عليه وايصاله الى اكبر زعامة في قبائل شمر اذا هو اظهر الاخلاص الذي ينتظره منه .

فوعده الجاسوس خيراً .

جاسوس ضد جاسوس

وبات الشيخ طعان الاحمد من جواسيس احمد جمال باشا ومن المتظاهرين بالاخلاص الشديد له وقد اجتمع به خلال اسبوع واحد خمس مرات ادلى اليه خلالها بكثير من المعلومات التي طلب الباشا ايضاحات عنها ومن البديهي ان تكون هذه المعلومات على الصورة التي ارادها الجاسوس فقد صور له ان هذه المنطقة هادئة بعيدة عن جواسيس الانكليز ليترك له ولرجاله الحرية التامة في العمل

دون ان يكون هناك منازع او معارض له ·

ثم حدثه عن الدعايات التي يقوم بها الماجور (فون برت) الالماني في هذه المنطقة قائلاً :

— عهدتم الى الماجور فون برت بادارة العشائر في هذه المنطقة وحملهم على مساعدة القوات العثمانية وتوطيد نفوذها مع ان حقيقة مهمة الرجل هي مقاومة النفوذ العثماني واستمالة هذه القبائل الى جانب المانيا فالامبراطور لا يزال يطمع في الفوز وفي تحقيق مشروع مد سكة حديد بغداد ولهذا بدأ يسعى منذ الان لاستمالة هذه القبائل الى جانب المانيا واعتقد ان الموقف اذا استمر على هذا المنوال يصبح في مستطاع الرجل ان يمثل الدور الذي تريده المانيا في هذه المنطقة فمن الواجب اذاً وضع حد لمثل هذه الامور بكف يد (فون برت) عن ادارة شؤون العشائر وتسليمها الى من بيدهم الامر من الترك

فأثر هذا القول في احمد جمال باشا الذي كان يكره الالمان ويكره بصورة خاصة تدخلاتهم في شؤون المنطقة القائمة تحت نفوذه وكان فايمان بري يعرف هذا الشعور في الباشا فاستغله لتحريضه عليهم لانه كان يخشى الالمان ويخشى ان يتغلب نفوذهم على النفوذ الانكليزي

ولم يعتم الامر ان فاز بامنيته هذه لان جهود احمد جمال انصرفت الى مقاومة مصلحة العشائر الالمانية في شمالي سوريا وكان ان حقق امله هذا بابعاد فون برت من الجزيرة العليا الى فلسطين وكان هذا من مكاسب الانكليز وليس الباشا

وقد سر احمد جمال باشا بنباهة هذا الجاسوس واعتمده في مقاومة فون برت ورجاله واخباره باسماء الذين يتعاملون معهم من رجال البادية ورجال الحضر كما طلب منه بث نفوذه ونفوذ الدولة العثمانية بين القبائل وزوده باسماء بعض رجاله الذين بثهم في البادية ليكونوا على اتصال دائم به

وعاد « فايمان بري » الى البادية وهو على اشد ما يكون من السرور

فون برت

وكان للماجور فون برت رئيس مصلحة الاستخبارات الالمانية في شمالي سوريا عدد من الجواسيس الذين استخدمهم للتجسس على العشائر وابناء البلاد وعلى الترك انفسهم وكان هؤلاء الجواسيس منتشرين في مختلف الجهات بحيث بات لديهم معلومات كافية عن كل حركة تجري في البلاد وعن كل محاولة ترمي الى مقاومة النفوذ الالماني وقد حضر جواسيس فون برت مقابلة احمد جمال باشا لزعماء البادية ولفت نظر احدهم وهو من الارمن مقابلات فايان بري للباشا ، فما لبث ان راح يتجسس عليه ويتتبع خطواته

(وفايان بري) ذلك الجاسوس الداهية ادرك انه يراقب وان من يراقبه وان كان مرتدياً ملابس الخدم في فندق بارون الا انه في الحقيقة من الجواسيس

وهنا تساءل (بري) عن هذا الجاسوس فقال انه ليس من الانكليز كما انه ليس من العثمانيين لان ادارة الاستخبارات العثمانية ليس لديها من الجرأة ما يسمح لها بان ترسل من يراقب زوار القائد العام فادرك ان الرجل ليس الا من جواسيس الالمان ولهذا اوعز الى احد رجاله وكان مبثثاً بين المرافقين العرب الذين جاؤوا لخدمة امراء البادية وارشده الى الخادم وطلب اليه مراقبته ومعرفة حقيقة علاقته والاماكن التي يزورها دون ان يدعه يشعر به

جواسيس وجواسيس

وهكذا دارت سلسلة شديدة من رقابات الجواسيس بعضها حول بعض كان المحور الرئيسي فيها فايان بري !

وقد قام المندوب الذي اوفده لهذه الغاية بمهمته وعاد اليه في اليوم التالي بمعلومات ضافية عن الجاسوس قال :

— ظل هذا الخادم في الفندق الى منتصف الليل وقد اغتنم فرصة غيابكم عن غرفتكم في الفندق وحاول الدخول اليها فنجح الا انه لم ينجح في فتح حقيبتكم

وقد رأيته يقوم بهذه المحاولة فلم اتعرض له لمعرفة حقيقة هويته

وعند منتصف الليل خرج وذهب الى القيادة الالمانية مباشرة وقد رأيت الحارس يدخله الى غرفة الماجور فون برت حال وصوله كانه يعرفه من قبل او ان هناك اشارة خاصة للتعارف وقد ظل هناك ساعة ثم قصد الى سوق المومسات حيث صرف الليل الى الصباح وعاد الى الفندق الذي يشتغل فيه

وقد علمت ان هذا الشاب من الناقمين على الترك نقمة شديدة وهو ارمني يدعى ارداش خورين خورنيان من اهل بلدة (اصبا بازاري) وهو شديد الذكاء الا انه شرس يتردد بصورة مستديمة على المحلات العمومية وينفق اكثر مما يربحه في عمله مما يؤكد اشتغاله في الجاسوسية والعمل لحساب المانيا

وعلى اثر هذه المعلومات امر (فايان بري) عامله هذا بمتابعة ارداش المذكور خلال وجودهما في حلب وقد ادت هذه المراقبة الى معلومات هامة اثبتت ان هذا الرجل يدير عصابة قوية من الاشقياء والجواسيس يشتغلون تحت امرته في حلب هم بوزانط يغاشيان ومكرديش بن قره بت ارسونيان وبغدامار اركيل بغد اساريان واستيان جاك ماردينيان وبراوانت اهانس ارضروميان

الا ان هذا الجاسوس الذي يشتغل لحساب الجاسوس الانكليزي لم يشر الى حقيقة علاقات هؤلاء الاشخاص بالجاسوس ارداش بل اكتفى بأن يؤكد وجود علاقات لهم باردداش

وقد سر فايان بري بهذه المعلومات لسببين اولا انها اكدت له ان الالمان لا يثقون باحمد جمال باشا وان هناك سلسلة من الاختلافات بينه وبينهم

وثانيا انه تمكن من أن يعرف بعضاً من هؤلاء الجواسيس الذين يشتغلون لحساب المانيا في حلب

ومع هذا لم يشأ ان يتدخل في امور هؤلاء واكتفى بالوقوف على الحياد التام ليرى ما سيكون من الموقف حتى اذا حان الوقت ضرب الجميع بشدة

في البادية

وهذه الادوار التي مثلها الجواسيس في حلب والتي خرج منها (فاپان بري) ضاحكاً من جميع الجواسيس لم تقتصر على هذه المدينة بل تعدتها ايضاً الى البادية لان الالمان الذين ساهم الدور الذي اراد احمد جمال باشا ان يمثله في البادية قاموا لمناوئته بواسطة الماجور (فون برث) الذي قام برحلة الى البادية بوزع المال

وقد شعر (فاپان بري) بان اثنين من هؤلاء الجواسيس يراقبانه في البادية وان احدهما يدعى بوزانط بغاشيان احد رجال اردش والاخر علي حسين ... وهو جندي عثماني فارق الخدمة العسكرية فانصرف لمراقبتهما بصورة سرية لمعرفة الغاية الحقيقية التي توخاها الالمان من وراء ارسالهم هذين الرجلين الى البادية حتى اذا وصل الى هدفه ارسل اشعاراً الى احمد جمال باشا يعلمه فيه ان الالمان لم يكتفوا بما عرضه عليه سابقاً من مقاومة النفوذ العثماني في البادية بل قاموا يبثون جواسيسهم ايضاً ضربوا الخاصين للقيادة العليا وارسل اليه لائحة مفصلة باسماء الذين يشتغلون لحساب المانيا وطلب منه مراقبة بوزانط وعلي وتوقيفهما وهما قادمان الى حلب فيتمكن عندئذ من اعتقالهما بالجرم المشهود والحصول منهما على المعلومات الكافية التي تساعده على معرفة الاسرار والادوار التي يمثلها الالمان في الخفاء ضده وضد الجيش العثماني .

وقد اهتم احمد جمال باشا لهذه المعلومات اهتماماً شديداً فقرر وضع رقابة شديدة حول هؤلاء اذ فيفهم بالجرم المشهود

توقيف علي و بوزانط

قامت الدوريات السرية بمطاردة هؤلاء الاشخاص مطاردة فعلية فبثت رقابة شديدة حول علي وبوزانط في البادية وارداش ورفاقه في حلب

وفي اليوم الاول من شهر نيسان ١٩١٧ تمكنت من توقيف بوزانط بغشيان في محلة (باب الفرج) ولدى تحريه وجد معه :

ثلاث قذائف بدوية ومسدس و٢٥ خرطوشة وخارطـة تشتمل على طرق البادية والاماكن التي تقطنها كل قبيلة مع بيان واضح عن الاماكن المرتفعة ومراكز المياه ومعلومات عن حركات طعان الاحمد ومن يلتف حوله من جواسيس العثمانيين .

واخيراً كتاب مرسل من احد زعماء شمر المماكسين لطعان الاحمد الى الماجور فون برت يبدي فيه اسفه لثقة رئيس القبيلة بالشيخ طعان ويعلنه انه يشك في ان يكون جاسوساً تركياً

وكانت هذه المعلومات التي صودرت كافية لاثبات الجاسوسية عليه ولكن هذه الجاسوسية لم تكن مما يوجب المجازاة لان مجرد اشتباه الجماعة به لكونه جاسوساً لحساب فون برت لا يشكل جرماً لان الالمان كانوا متفقين مع الترك وهذا الاتفاق لا يجيز توقيف رجل يشتغل لحساب المانيا ولهذا حذف من هـذه الوثائق الكتاب الوارد الى الماجور فون برت ، وكان كافياً ان تصوب التهم الاخرى على هذا الرجل وتسلم الى القائد برهان الدين بك للتحقيق معه سراً دون اطلاع القيادة الالمانية على امره

وفي اليوم الرابع من شهر نيسان اعتقل في (جبل الاكراد) علي حسين عليان وحمل تحت طائلة التعذيب الشديد على الاعتراف بانه يشتغل لحساب ارداش خورين فاعتقل هذا الاخير وخمسة من رفاقه وبوشر التحقيق معهم

احتجاج فون برت

وقد اتصلت هذه الانباء بفون برت فارسل كتاباً الى احمد جمال باشا يحتج على اعتقال هؤلاء الاشخاص ويقول انهم من رجاله الذين استخدمهم لصيانة القوات العثمانية والالمانية معاً .

الا ان قائد موقع حلب رد عليه ، بناء على اوامر احمد جمال باشا ، بان المعلومات الوثيقة التي لديه والمؤيدة بالادلة والبراهين تثبت ان هؤلاء الاشخاص يشتغلون بالجاسوسية لحساب الاعداء وان في استطاعته ، اذا اراد ، ان يتقدم

للدفاع عنهم امام الديوان الحربي العرفي

الا ان فون برت رفض هذا الاقتراح اذ كان يخشى ان يكون هؤلاء الاشخاص على اتصال فعلي بالاعداء لان من يتصل به ، وهو الغريب عن البلاد ويشتغل معه كضابط اجنبي مقابل مبلغ من المال لا دفاعاً عن الوطن او حباً له ، لا يتردد في العمل بجانب غيره ولهذا لم يتقدم بتقرير رسمي للدفاع عن هؤلاء الاشخاص واكتفي بمخابرة رؤسائه في استنبول ليطلبوا من احمد جمال باشا اخلاء سبيل المذكورين

والالمان الذين لم تكن تروقهم هذه الحالة والذين كانوا يرغبون من كل قواهم في العمل على معاكسته اغتنموا هذه الفرصة وقاموا يشددون على حكومة الباب العالي متهمين احمد جمال باشا بمعاكسة مصالح الالمان والدولة معاً مصرين على اخلاء سبيل الموقوفين الا ان احمد جمال باشا وقف تجاه هذه الامور وقفة الرجل القوي فعارضهم معارضة شديدة رافضاً بكل قواه وبما اوتيه من مقدرة اخلاء سبيلهم مهدداً رفاقه في العاصمة بالاستقالة اذا هم عارضوه وعلى هذا بقي هؤلاء الاشخاص قيد التوقيف ورفض طلب فون برت نهائياً وقد اجيب ان الديوان الحربي العرفي سيحاكم هؤلاء المتهمين بشدة حتى اذا رأى ما يؤيد براءتهم وعدم انتسابهم الى الاعداء برأ ساحتهم والا حكم عليهم بالاعدام مهما كان من خدماتهم السابقة لمصلحة الاستخبارات الالمانية

وفي اليوم السادس عشر من شهر نيسان سنة ١٩١٧ اجتمع الديوان الحربي العرفي لمحاكمة الجواسيس وكانوا كما يلي :

١ — ارداش خورين خورنيان من اهل اسبا بازاري والتهمة الموجهة اليه هي ترؤسه لعصابة من الجواسيس تعمد الى سرقة الاسرار العسكرية لحساب الاعداء واثارة الفتن بين القبائل السورية في الشمال

٢ — بوزانط يغشيان من الجواسيس والفدائيين وقد اثبت التحقيق انه كان يريد قتل احمد جمال باشا

٣ — كريكور حاجي آغوب باصليان من اهل سعرد وقد شوهد مع

الموقوفين وتبين انه من الجواسيس الذين يشتغلون لحساب ارداش

٤ — اوهانس بن جاكوب اضرومیان من اهل ماردين وقد وجدت معه اوراق مرسلة الى جهة اجنبية عن الاستعدادات العسكرية في منطقة العشائر وعن السلاح الذي ارسل اليه في الشهرين الاخيرين من قبل احمد جمال باشا ويقول الرجل في افادته ان هذه المعلومات كانت مرسلة الى مصلحة الاستخبارات الالمانية الا انه لما كانت هذه المعلومات غير حقيقية اذ لا يعقل ان تقدم القيادة الالمانية على مثل هذا التحقيق وهي عالمة بما ارسل من سلاح الى العشائر فان التوسل بهذه الطريقة كان يعد مخالفاً للحقيقة التي هي الجاسوسية المحض

وقد اثبت المحقق تهمة الجاسوسية على الرجل

٥ — كريكور بن بوزانط بوزانطيان من اهالي زيتون في اورفه وقد وجدت لديه خمس قنابل يدوية ونشرات تدل على اشتراكه في جمعية فدائية

ويقول المحقق في تقريره هذا ان هذا الرجل وان كان قد انكر علاقاته بالجاسوسية الا ان اختلاطه الدائم بالمتهمين يجعله شريكاً لهم في اعمالهم ولهذا يتهمه مع الجواسيس

٦ — حاجي توما بن مكرديش باصماقيان من اهل اطنه وقد وجدت معه رسوم بعض قبائل البدو مع اشارات تدل على عدد رجالها وما تملكه من اسلحة حربية ومواقع للمياه وطرق للدفاع

ومع ان هذا الرجل انكر في التحقيقات الاولية انكاراً بتاً وجود اية علاقة له مع افراد هذه العصابة واشتراكه معهم الا ان هذه الوثائق تدل على انه جاسوس فعلي ويطلب محاكمته بتهمة الجاسوسية بصورة مباشرة

٧ — آغوب بن مركيس زمزيان من اهل قرية بيات التابعة لماردين وقد وجدت في حيازته بندقية حربية وثلاث قذائف يدوية

٨ — آغوب اوهانس قره جامليان من اهل انطاكية وقد وجدت في حيازته قذيفة يدوية ومسدس وكتاب مرسل من ارداش الى اوهانس جاكوب اضرومیان احد الموقوفين يدعوه فيه لمقابلته بصورة مستعجلة ويقول الرجل انه لا يعرف من

امر هذه المقابلة شيئاً لانه رجل فقير الحال استخدمه ارداش لتسليم هذه الرسالة بدون ان يعرف الغاية من ذلك

ومع هذا فان المحقق يتهمه بالتواطؤ مع الجماعة في ادارة الشبكة الجاسوسية

٩ — استمان آغوب استبانيان من اهل انطاكية وقد وجدت في حيازته ثلاث قنابل يدوية ومسدس وخنجر وقد انكر كل علاقة ومعرفة بالموجودين ولم يرد في شهادات احد من الموقوفين وجود معرفة بينهم وبينه

١٠ — علي حسين من قرية الفرح التابعة لعكا وقد وجدت في حيازته الوثائق التي اوردناها آنفاً وقد اثبت المحقق في قرار الاتهام انه الرئيس الثاني لعصبة الجواسيس يتولى فيها ادارة القسم العربي

١١ — يوسف بركات ابو شامه من اهل حلب وقد وجدت في حيازته اوراق ووثائق تثبت اشتراكه مع علي وانه مساعد له في الاختلاط بالعشائر ويعمل على تأييده .

١٢ — شهاب الدين بن احمد المصري من اهل القاهرة وسكان حلب وقد تبين انه جاسوس لحساب علي

١٣ — علي بن ايوب الصالحاني من اهل دمشق وكان فاراً من الخدمة العسكرية وقد استخدم في الجاسوسية لحساب العشائر

١٤ — عيسى حنا الوردي من اهل لبنان وقد استخدم للاتصال بالجواسيس

وكانت التهم التي صوبها المحقق العسكري الى المتهمين شديدة الخطورة لاسيما وان الادلة التي اوردها بحقهم في هذا الصدد كانت ثابتة ومما زاد في ثبوتها وجود القنابل اليدوية والبنادق الحربية عند هؤلاء الاشخاص

وقد حاول هؤلاء المتهمون الدفاع عن انفسهم وتبرئة نفوسهم من تهمة الجاسوسية مؤكدين انهم كانوا يعملون لحساب (فون برت) رئيس مصلحة العشائر والجاسوسية الالمانية وطلبوا دعوة (فون برت) الى المحاكمة لاستماع افادته في القضية .

والنظام المتبع في الجاسوسية يوجب عدم البوح باسماء الجواسيس ولم يشأ

(فون برت) الذي اقام الدنيا واقعدها بمخابراته الرسمية مع القواد الالمان والسفارة الالمانية في استنبول لانقاذ هؤلاء الاشخاص ، ان يتدخل في القضية بصورة فعلية امام الديوان الحربي لان تدخلاً من هذا النوع يدل على تدخل مباشر من الالمان في شؤون البلاد الداخلية ولهذا انكر امام الديوان الحربي المذكور وجود اية علاقة له بالموقوفين وقال انه كان قد استخدم ارداش وعيسى حنا الوردي في بعض المسائل كترجمانين ولم يستخدمهما في شؤون الاستخبارات

وقد اراد ارداش ان يؤكد للمجلس الحربي عدم صحة معلومات فون برت وانتسابه اليه قائلاً ان اسمه مسجل في دائرة فون برت كما انه كان يوقع على الجداول الشهرية التي تثبت اشتراكه في خدمة المصلحة الالمانية منذ اكثر من سنة وطلب فحص تلك المستندات

الا ان الرئيس لم ير موجباً لهذا العمل بل اكتفى بسؤال فون برت عن رأيه في هذه المسألة فأجاب :

— انها عارية من الصحة

وقد استغرقت محاكمة هؤلاء الاشخاص جلستين انتهتا بصدور احكام شديدة فقد لفظ الرئيس حكمه باعدام كل من

ارداش خورين خورنيان — بوزانط بغشيان — اوهانس جاكوب ارضروميان — حاجي توما باصماقيان — علي حسين عليان — يوسف بركات ابو شامه — عيسى حنا الوردي

وحكم على البقية بالاشغال الشاقة خمس سنوات ووضعهم خمس سنوات اخرى تحت المراقبة الضابطية اصلاحاً للنفس

مساعي فون برت

وكان تصديق حكم الاعدام بحق هؤلاء الاشخاص وتنفيذه متوقفين على ارادة احمد جمال باشا

وقد خيل لفون برت الذي يعرف مقدار حقد الباشا على الالمان انه لا بد ان

يصدق الحكم وان يكن احمد جمال باشا مؤمنا ببراءة هؤلاء الاشخاص

ولذا ابرق الى استنبول والى برلين يطلب بشدة تأجيل تنفيذ حكم الاعدام ريثما يعاد النظر في هذه القضية

وطير الى رئاسة اركان الحرب للجيش الالماني برقية يبين فيها الموقف باسهاب وانتساب هؤلاء الاشخاص الى الجاسوسية الالمانية

فاهتم اركان الحرب لهذه المعلومات اهتماماً كبيراً وابرقت القيادةالعليا الى انور باشا تطلب اليه ايقاف تنفيذ حكم الاعدام

واستغرقت هذه المخابرات البرقية يومين كاملين بين دمشق ، مقر احمد جمال باشا ، وحلب واستنبول وبرلين وشغلت هذه المخابرات رجال الدوائين عن سائر المسائل الخطيرة ومع هذا ظل احمد جمال باشا على اصراره الى اليوم السادس والعشرين من شهر نيسان سنة ١٩١٧ ففي هذا اليوم تلقى احمد جمال باشا برقية من انور باشا يقول له فيها « ان الموقف شديد الخطورة ، فالقيادة الالمانية تهدد اذا نفذ حكم الاعدام وتصر على استبداله بالاشغال الشاقة المؤبدة فأرى ان توقفوا حكم الاعدام مدة اخرى »

الا ان احمد جمال باشا الذي كان يرى في هذه القضية مسألة نفوذ بينه وبين الالمان ابى قبول هذه النصيحة وابرق الى انور باشا يدافع عن نفوذه تجاه ماجور الماني قائلاً ان المسألة لم تبق مسألة محكوم عليهم بالاعدام بل اصبحت مسألة نفوذ وانه ، اي انور باشا ، اذا رأى ما يوجب تحقيق رغبات الالمان فهو على استعداد لتقديم استقالته فوراً من القيادة العليا في سوريا وبلاد العرب

وليجمل جمال من في استنبول تجاه امر واقع وقّع في الساعة الخامسة بعد ظهر ٢٧ نيسان سنة ١٩١٧ على قرار الديوان الحربي العرفي في حلب القاضي باعدام الشبان السبعة

و كان احمد جمال باشا قد امر ضابط الارتباط لديه بان لا يدخل عليه البرقيات التي ترد من استنبول كيلا يرى فيها اية برقية مخالفة لما قرره ، وبعد ان وقع على هذا القرار غادر دمشق في سيارته الخاصة متوجهاً الى لبنان دون ان

يترك اي عنوان له

كيف نفذ حكم الاعدام

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر نيسان استدعى اليه رئيس مرافقيه وامره بان يأتيه بالمخابرات البرقية الرسمية التي وردته بعد ان يذكر (قلم القيادة) الساعة التي وردته فيها هذه البرقيات

فنزلت رئاسة القلم على اوامر الباشا ، وكانت تعرف مقاصده ولا تجهل ان هناك برقيات تصدر بعبارة « يعدم من يؤخرها » وقدمتها اليه متحملة مسؤولية التأخير ٠

ولما تصفح احمد جمال باشا هذه البرقيات ضرب الطاولة بقبضة يده صائحاً معربداً لانه وجد في احداها ما نصه :

الى قيادة القوات العثمانية في سوريا وبلاد العرب بناء على شرف صدور الارادة السنية باستبدال حكم الاعدام الصادر من قبل ديوان الحرب العرفي في حلب على كل من ارداش خورين حورنيان وبوزانط بغشيان واوهانس جا كوب اضرميان وهاجي توما باصمافيان وعلي حسين عليان ويوسف بركات ابو شامه وعيسى حنا الوردي يقتضي تنفيذ هذه الارادة الشاهانية والعمل بموجبها

وكيل القائد العام ورئيس

الحربية العثمانية : انور

وتظاهر احمد جمال باشا بالغيظ لان هذه البرقية وصلت في الساعة الرابعة بعد ظهر ٢٧ نيسان اي قبل تصديقه حكم الاعدام بساعة وكان في الامكان تأجيل التنفيذ حتى بعد التصديق ما دام صاحب الجلالة السلطان امر بذلك ، واستدعى الباشا رئيس القلم واتهمه بالخيانة والقى عليه المسؤولية وامره بان يبرق الى قائد موقع حلب للعمل بموجب الارادة السنية وسلم اليه مذكرة بخط يده وتوقيعه

ففعل الرئيس بما امره به ، ولكن بعد ساعة ورده الجواب يقول ان حكم الاعدام نفذ فجر ذلك اليوم

وعندها ابرق الى انور باشا يطلعه على ما تقدم ويقول له انه نظراً لاهمال الموظفين المسؤولين قرر احالتهم الى الديوان الحربي العرفي ، الا ان رجال القيادة ما لبثوا ان ابرقوا الى انور باشا بصورة سرية ينبئونه بحقيقة الحادث وبكيفية وقوعه فاضطر الباشا للحيلولة دون وقوع صدام بينه وبين احمد جمال باشا ان يطلب منه احالة رئيس القلم والموظفين المسؤولين الى الديوان العرفي في استنبول وهناك طمست قضيتهم واخلي سبيلهم

وانتهت هذه الفاجعة باعدام اولئك الشبان السبعة الابرياء الذين ذهبوا ضحية المنازعات الالمانية العثمانية

اشتداد النزاع

الا ان اعدام اولئك الشبان السبعة لم يضع حداً للنزاع بين احمد جمال باشا والالمان بل زاد في حقد الالمان على احمد جمال باشا فقد بدأ هؤلاء يرون فيه خصما يقاوم ارادتهم وراحوا يسعون في استنبول بواسطة طلعت وانور لابعاده عن سوريا وبلدان العرب موجهين اليه تهمة اثارة هذه البلدان على السلطنة العثمانية · ولكي يحققوا رغباتهم هذه دعوه الى المانيا لمساعدة الجبهات الحربية فيها

موقف فايان بري

اما فايان بري ، ذلك الجاسوس الانكليزي الخطير الذي كانت له اليد الطولى في اثارة هذه الحوادث ، فما لبث ان زور تقريراً سرياً ، ديرته له مصلحة الاستخبارات الانكليزية ، قال انه عثر عليه مع احد الجواسيس الالمان وفيه تقول القيادة الالمانية العليا ان الواجب يقضي بما يتدبير مؤامرة لاغتيال احمد جمال باشا و ابعاده من مقر القيادة الى الخارج

و كانت غاية (فايان بري) من وراء هذه احداث الشقاق بين القواد العثمانيين والالمان ليخالف بعضهم بعضاً في ادارة الحركات الحربية في البلاد العربية لان خلافاً من هذا النوع يخدم بلاده ويفسح للقيادة الانكليزية الدايا في الاستفادة من

هذه الامور والتوغل في قلب البلاد العربية

وقد شددت هذه المعلومات المزورة التي كان يرسلها (فانيان بري) الى احمد جمال باشا ثقة الرجل به ودفعته الى مفاتحته بكثير من اسراره

وفي ذلك الوقت اتخذت الخطة التالية للدفاع عن الموقف العسكري في سوريا وجوارها

اولا — يتولى الفيلق الثامن قيادة المرحلة الاولى (في الاصطلاح العسكري التركي في القدمة الاولى)

ثانياً — يدير الجيش قيادة (القدمة) المرحلة الاولى والفرقة العاشرة والقوة الغربية الحجازية (هي بقايا جنود الحجاز وقوات الامير شكيب ارسلان وعبد الرحمن باشا اليوسف وغيرها ممن ذكرناهم فيما تقدم)

ثالثاً — يتولى قائد الفيلق الثامن قيادة هذه القوات مع بقية القوات التي في مختلف انحاء سوريا بصفته وكيلاً لقائد القوات العثمانية في سوريا وبلاد العرب

رابعاً — تظل مفتشية المنزل العامة (دوائر المنزل هي الموكلة بادارة الاعاشة للجيش) في سوريا وفلسطين تابعة لقيادة الجيش العليا بصورة مباشرة

خامساً — تكون ادارة الامن والضابطية في كل هذه المناطق العسكرية تابعة لوكيل قائد الجيش

معرفة هذه الاسرار

، كان (فانيان بري) عارفاً بجميع هذه التدابير كما كان عارفاً تمام المعرفة بادوار الخلاف الناشب بين القواد ولذا كان في استطاعته ان ينقل الى القيادة العليا الانكليزية كل ما يريده من معلومات

الا ان الامر الذي كان يهمه في ذلك الوقت هو معرفة بعض المراكز التي يتخذها الترك والالمان كمستودعات لخزن البنزين والبترول

ولم تكن الطائرات الحربية في ذلك الوقت بالمتانة التي هي عليها في الوقت الحاضر بحيث يمكنها ان تطير ساعات طويلة ، ومع هذا فقد كانت القيادة

الانكليزية في مختلف جهات سوريا والعراق وفلسطين تلاقي مشقات جسيمة في مقاومة هجوم الطائرات الالمانية والعثمانية التي تعمل في هذه الجهات وكان يهمها ان تعرف الاماكن الرئيسية التي اتخذها هؤلاء لتزويد الطائرات بالمؤن من الوقود

وكانت الاخبار الواردة الى القيادة الانكليزية تدل على ان في داخلية سوريا اماكن تحتفظ فيها كميات كبرى من البنزين وهذا ما كانت القيادة تريد معرفته لضرب القيادة الجوية العثمانية ضربة شديدة فكتبت الى (فايمان بري) تطلب اليه اكتشاف هذا المقر وتدارك اشخاص يمكنهم نسف هذه المستودعات بسهولة

وقد تلقى فايمان بري هذه التعليمات في العاشر من ايار وهو في دير الزور

وكان عمر بن مصطفى عطا من خيرة رجال (فايمان بري) الذين يعتمد عليهم في استقاء المعلومات لانه يعرف هوية الجاسوس منذ كان في اليمن وجاء معه الى البلاد السورية ولذا لم يصحب الجاسوس معه الى البادية بل ابقاه في حلب لخدمته بعد ان استحصل على اوراق تثبت انه منتدب بمهمة وكانت هذه الاوراق تحمل توقيع احمد جمال باشا مزوراً

واستدعاه (فايمان بري) واخبره بما كان من امر القيادة العليا

ويظهر ان الصدف ارادت ان تخدم الرجلين في دسيستهما هذه فما لبث عمر ان ابلغ رئيسه ان هناك شابا يعرف شيئاً عن مستودعات البنزين والبترول وكان قد باحثه في الامر قبل ذلك وهو من جنود فرقة العملة وقد فر من الخدمة ولجأ اليه لمساعدته في النجاة من الخدمة العسكرية والالتجاء الى البادية

فسر (فايمان بري) بهذه المعلومات وطلب من عمر ان يرشده الى الرجل ويجمعه به ٠

مقابلة خطرة !٠٠

وجاء عمر بالشاب وهو ايليا بن ميخائيل الصوري من اهل ارسوز ودار بين الثلاثة حديث طويل انتهى بالاتفاق على احتراق الاسرار التي يريدها فايمان بري وعلى انتداب ايليا وعمر لنسف (مستودعات المواد الملتهبة) في ارسوز

وكانت هذه المهمة خطيرة جداً لانها اذا تمت احدثت انقلاباً عظيماً في قوات الدفاع الجوية

ومع هذا تعهد الرجلان بتنفيذها وغادرا حلب الى ميناء (ارسوز) لهذه الغاية في الوقت الذي ارسل فيه (فاءان بري) اشعاراً سريا الى قيادة الاسطول الانكليزي يعلمها فيه وجود مستودعات للمواد المشتعلة في ارسوز

فاستغربت القيادة الانكليزية هذه المعلومات اذ استبعدت جداً ان يقدم الترك والالمان على انشاء مثل هذه المستودعات في منطقة بحرية هي دوما في متناول يد الانكليز ومع هذا ارادت ان تتأكد من الامر فأوفدت باخرتين من البواخر المجهزة بالمدفعية الخفيفة وهو السلاح الحربي الوحيد الذي كان الحلفاء يهددون به دوما السواحل العثمانية الى ارسوز لاكتشاف الامر

ريبة الترك

وقد اكثرت هاتان الباخرتان من ترددهما على الساحل كما اطلقتا عدة قنابل على مناطق حكومية ساحلية دون ان تصيبا الهدف

وشاءت الصدف ان يشتبه رجال البوليس بايليا لتردده على الساحل عند ظهور الباخرتين ثم جتاعه سراً بمحمد فوضعوا رقابة عليه وحاولوا ان يعتقلوه مع رفيقه بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية الا ان الرجلين ابرزا شهادة بتوقيع احمد جمال باشا وهي من الشهادات المزورة التي كان يحملها فاءان بري لرجاله فلم يسع رجال الامن الا احترامها واخلاء سبيل الرجلين

لكن مدير المستودعات وهو رجل الماني ظل على ريبته بالرجلين خصوصاً بعد ما رأى من تعدد اعتداء الباخرتين فقام يراقبهما بواسطة رجاله الى ان كان مساء ٢٩ ايار ١٩١٧ فشاهدهما يشعلان النار في كومة من القش على بضعة امتار من المستودع وقبل ان يتواريا عن الانظار كان قد ادركهما واعتقلهما

وفيما هو يحقق معهما لمعرفة السبب في الحادث شاهد ثلاث قنابل تنصب في منطقة التي اشتعلت فيها النيران ، الا انها لحسن حظ السلطة الالمانية لم تقع بجانب

المستودعات التي نجت من كارثة هائلة وبذلك ضاع كل امل للحلفاء في نسف هذه المستودعات لان الالمان بعد ان شعروا بهذا الامر ادركوا خطر بقاء تلك المستودعات في ارسوز فعمدوا الى نقلها الى منطقة داخلية امينة

التحقيق مع الموقوفين

وعلى اثر هذا الحادث الذي اثبت على الرجلين جريمة محاولة نسف مستودعات المواد المشتعلة وقد ثبت ذلك باقدام الباخرتين على اطلاق القنابل من الجهة التي صدرت منها النار مما يدل على ان هناك اتفاقاً سابقاً بين الرجلين والحلفاء على اثر هذا قام مدير المستودعات بتحقيق دقيق مع الرجلين ولكنهما اصرا على الانكار واعلنا انهما من رجال جمال باشا السريين فاستشير الباشا في الامر فاستغرب هذا الادعاء من الجاسوسين وامر بجلبهما الى دمشق وهناك امر باستجوابهما وتعذيبهما لحملهما على الاعتراف بالحقيقة

ولكن ايليا السوري لم يتمكن من احتمال العذاب فاعترف بالحقيقة وكانت هذه الحقيقة صدمة مؤلمة لاحمد جمال باشا لانها دلت على ان من اعتمد عليه لم يكن الا جاسوساً خطراً

وجاء برهان الدين بك يقول :

— مولاي لقد اعترف ايليا بانه جندي فراري ولا ... لقيه ... عمر ... يوماً وسأله هل يشتغل معه فلما اجابه بالايجاب قاده الى الشيخ طعان الاحمد الذي اخذ يسأله عن مستودعات الغاز وما يعرفه عنها ولما اخبره بما لديه نقده مئة ليرة تركية ووعده بان يدفع له الف ليرة اخرى اذا ساعد عمر في كل ما يطلبه منه وانه قصد مع عمر الى ارسوز وهناك اتفقا على نسف المستودعات ، ولما خافا العاقبة اتصلا بقائد الباخرة واتفقا معه على اشعال النار في مكان قريب من المستودعات اشارة الى مكانها فيعمد هو الى ضربها وهكذا ينجوان من مسؤولية الحرق ، الا ان يقظة مدير المستودعات حالت دون وقوع الحادث . واثبت عمر هذه الافادة وصرح بان طعان الاحمد لم يكن الا فايان بري الجاسوس الخطير الذي نطارده

منذ اشهر دون ان نعرف من امره شيئاً

فاستغرب احمد جمال باشا هذه المعلومات وكان استغرابه اشد لوثوقه بالجاسوس الى هذه الدرجة ولهذا طلب من برهان الدين بك دعوة الرجلين اليه

ولم يرض احمد جمال باشا توقيف الشيخ طعان في البادية او حلب بل اراد توقيفه سراً والتملص منه بطريقة عجيبة وفي اليوم نفسه انتدب لهذه الغاية برهان الدين بك وزوده بصلاحية تامة لتحقيق رغبته هذه

وفي اليوم الاخير من شهر ايار سافر برهان الدين بك الى مقر قبائل شمر لتوقيف الرجل ومداهمة مضارب الشيخ الوهمي واعتقاله ومصادرة ما يراه عنده من اوراق ووثائق تثبت ادانته

ولكن الشيخ طعان الاحمد او « فايان بري » لم يكن في ذلك الوقت لا في حلب ولا في بادية سوريا اذ اخافه فشل مساعديه في اضرام النار في مستودعات البترول في ارسوز ثم توقيفهما . فقد عرف بامر توقيفهما فور حصوله واعتقد ان توقيف عمر الذي يعرفه الكثيرون من رجال البادية سيجعل الشك والوساوس تساور النفوس من جهته ولذا قرر مغادرة هذه المنطقة الى جهة مجهولة

ولم يشأ العودة الى المنطقة الانكليزية لان مهمته في سوريا لم تكن انتهت بعد والجاسوس الانكليزي لا يغادر المنطقة قبل ان تنتهي مهمته الا انه يعرف كيف يتوارى عن الانظار

فالى اين ذهب ؟

لقد توجه برهان الدين بك الى البادية فابلغوه ان الشيخ طعان غادرها ولم يعد فتحرى خيمته ومكانه دون ان يجد هناك اي دليل على الرجل كما انه لم يجد احداً يشك في الشيخ طعان او يعتقد بان هذا الشيخ الذي كان يظهر متحمساً للدولة العثمانية بهذا المقدار كان عدواً لها او عاملاً على هدم نفوذها

واستفسر عن كيفية تسربه الى القبيلة فلم يجد من يرشده الى الحقيقة وكيف حصل هذا الرجل على الثقة بهذه السرعة

وهكذا عاد برهان الدين بك من حلب والبادية (بخفي حنين) وهو كعادته

في كل الامور التي قام بها يكتفي بما كان ويعود معلناً رئيسه بما توقع

الاستعداد لقدوم انور

و كانت هناك امور هامة تشغل افكار احمد جمال باشا ، فالالمان كانوا يلحون على القيادة العليا بكف يده وارساله بمهمة الى المانيا لابعاده عن سوريا وفلسطين و كان جمال باشا يعارض في هذه الفكرة وانور باشا قادم في حزيران الى دمشق وبيروت وفلسطين و كان احمد جمال يريد ان يظهر البلاد بغير حالتها الحقيقية

و كان يريد ان يظهرها ناقمة على الالمان . كان يريد ان يلبسها لباس الزينة للترحيب بانور باشا في حين كانت تبكي قلوبها من الجوع والمرض والفاقة ولهذا ارسل البرقيات والاوامر الى رجاله في هذه البلاد يطلب منهم ان يعدوا العدة لاستقبال انور باشا وتوفير مسائل المرح له ولاحمد جمال باشا

وقد قام هؤلاء بما امروا به واخذوا يعدون العدة لذلك الى ان كان اليوم الخامس من شهر حزيران سنة ١٩١٧ فورد تقرير سري من مصلحة الاستخبارات العثمانية في القاهرة يقول ان مؤامرة سرية دبرت لاغتيال انور باشا عند وصوله الى سوريا

فخاف احمد جمال باشا من هذا الخبر الذي ظل غامضاً

وعندئذ استدعى اليه عامله الامين برهان الدين بك واطلعه على هذا الامر وطلب منه اجراء التحقيقات اللازمة في الحال ثم انصرف احمد جمال باشا لتطمين الافكار في البلاد وادخال الروع والخوف الى قلوب الاهلين وحملهم على الاعتقاد بقوة الدولة وعظمتها فألف وفداً من ابناء البلاد ليذهب الى فلسطين و يتفقد الحالة الحربية فيها ثم يعود الى بلاده معلناً ما شهده من قوة وعظمة وبذلك يمكنه ان يؤثر في الرأي العام ويجعله مؤمناً بقوة الدولة ومن ورائها احمد جمال باشا

الوفـــد

وفعلا الف وفداً برئاسة محمد فوزي باشا العظم نائب دمشق والرئيس الثاني لمجلس النواب العثماني وعضوية السادة محمد الفاخوري ومحمد الباقر — عن بيروت

حسن العجم — طرابلس — شبلي ملاط — جبل لبنان — محمد كرد علي — دمشق — علاء الدين الدروبي — حماه — سليم الاطرش — حوران — توفيق المحامي — الكرك — بدر الدين النعساني — حلب — واشخاص آخرين عن عينتاب وفلسطين وقد غادر الوفد دمشق على قطار خاص صباح الاثنين في ٧ ايار سنة ١٩١٧ فوصل الى القدس في ٩ منه واستقبل اركانه على المحطة كل من عبد الكريم باشا باسم قائد الجيش الرابع مع المتصرف وقائد المنزل ومن هناك ذهبوا لتحية القائد العام الذي رد لهم الزيارة في فندق (فاست) وفي المساء اقامت بلدية القدس حفلة عشاء على شرف الوفد حضرها الباشا واركان الجيش والملكية وفي اليوم الثاني زار اركان الوفد الجبهة وتجولوا فيها وانتهت زيارتهم بعد اسبوع وقد ملأوا خلال هذه الزيارات الصحف الصادرة في المدن التي زاروها بالاخبار عن هذه الرحلة وعما شاهدوه فيها من عظمة الجيش العثماني وقوته

ولما لم يكن في البلاد اية صحيفة اجنبية يمكنها ان تنقل الى العامة من الاهلين حقيقة الموقف في البلاد آمن الناس بصحة هذه المعلومات ومناعة الدولة وقوتها .

مع ان الحقيقة هي ان الانكليز بعد هذه الزيارة باشهر قليلة اجتاحوا البلاد الفلسطينية واحتلوها .

في دمشق

وفي العاشر من شهر حزيران جاء أحمد جمال باشا « الصغير » قائد الفيلق الثامن واركان العسكرية والملكية والاشراف ورؤساء القبائل وقد تمادت هذه الفئة من ابناء البلاد في خدعها القائد او خدعها نفسها فذبحت الذبائح حين وصول القطار .

واقامت في الساعة الخامسة من مساء اليوم نفسه حفلة كبرى في « حديقة الامة » بدمشق حضرها خمسماية من المدعوين ولفظت فيها خطب وقصائد بمدح الباشا وتقدير اعماله

انور في دمشق

وتعددت المآدب والحفلات لاحمد جمال باشا حتى شبع منها ، وفي اليوم الخامس عشر من شهر حزيران وصل انور باشا الى دمشق وقد وصفت جريدة « الشرق » التي يصدرها احمد جمال باشا في دمشق كيفية وصوله . قالت حرفياً :

قدم دمشق حضرة صاحب الدولة انور باشا وكيل القائد الاعظم فنزل في المحطة الحجازية التي كانت مزدانة باجمل زينة وقد استقبله دولة احمد جمال باشا وعطوفة والي سوريا وعطوفة متصرف لبنان وجمال باشا قائد الفيلق الثامن وامراء العسكرية والملكية والعلماء والاشراف وشراذم من الجند والدرك والشرطة وجلاوزة البلدية والموسيقات وازدانت الشوارع التي مر فيها والدور الرسمية باجمل زينة بالاعلام العثمانية والمصابيح الكهربائية » اه .

نعم كانت المظاهر على هذا المنوال الذي سردته جريدة (الشرق) الدمشقية الا ان الحقيقة هي ان الشعب الشامي لم يشعر بهذا الابتهاج خصوصاً في هذا الوقت الذي ازدحمت فيه الطرقات بئنات من الجياع وفي الوقت الذي غصت فيه السجون بعشرات من المشبوه بهم الذين جاء بهم رجال الشرطة بتهمة انهم حاولوا الاشتراك في مقتل انور باشا

التحقيق السري

وفي هذا الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الامور في دمشق كان هناك عدة اشخاص يعقدون جلسة سرية للايقاع بابن رفاده

وقد اجتمع هؤلاء الاشخاص وهم من رجال الجاسوسية الانكليزية في احد منازل دمشق واتفقوا على الايقاع بسليمان باشا رفاده لان هذا الرجل رفض الايقاع بالترك كما رفض الانقياد للشريف فيصل عندما جاء على احدى الدوارع الحربية الانكليزية في منطقته في طرف خليج العقبة لحمله على الثورة تأييداً له

وقد كانت الخطة المتبعة في هذه المؤآمرة اتهام الشيخ سطام والوفد الذي

انور في دمشق

وتعددت المآدب والحفلات لاحمد جمال باشا حتى شبع منها ، وفي اليوم الخامس عشر من شهر حزيران وصل انور باشا الى دمشق وقد وصفت جريدة « الشرق » التي يصدرها احمد جمال باشا في دمشق كيفية وصوله ، قالت حرفياً :

قدم دمشق حضرة صاحب الدولة انور باشا وكيل القائد الاعظم فنزل في المحطة الحجازية التي كانت مزدانة باجمل زينة وقد استقبله دولة احمد جمال باشا وعطوفة والي سوريا وعطوفة متصرف لبنان وجمال باشا قائد الفيلق الثامن وامراء العسكرية والملكية والعلماء والاشراف وشراذم من الجند والدرك والشرطة وجلاوزة البلدية والموسيقات وازدانت الشوارع التي مر فيها والدور الرسمية باجمل زينة بالاعلام العثمانية والمصابيح الكهربائية » اه .

نعم كانت المظاهر على هذا المنوال الذي سردته جريدة (الشرق) الدمشقية الا ان الحقيقة هي ان الشعب الشامي لم يشعر بهذا الابتهاج خصوصاً في هذا الوقت الذي ازدحمت فيه الطرقات بمئات من الجياع وفي الوقت الذي غصت فيه السجون بعشرات من المشبوه بهم الذين جاء بهم رجال الشرطة بتهمة انهم حاولوا الاشتراك في مقتل انور باشا

التحقيق السري

وفي هذا الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الامور في دمشق كان هناك عدة اشخاص يعقدون جلسة سرية للايقاع بابن رفاده

وقد اجتمع هؤلاء الاشخاص وهم من رجال الجاسوسية الانكليزية في احد منازل دمشق واتفقوا على الايقاع بسليمان باشا رفاده لان هذا الرجل رفض الايقاع بالترك كما رفض الانقياد للشريف فيصل عندما جاء على احدى الدوارع الحربية الانكليزية في منطقته في طرف خليج العقبة لحمله على الثورة تأييداً له

وقد كانت الخطة المتبعة في هذه المؤآمرة اتهام الشيخ سطام والوفد الذي

بعث به الى دمشق بانهما موفدان من قبل الشيخ سليمان باشا رفاده لاغتيال انور باشا ووضعوا كتاباً بذلك ارسلوه بطريقة سرية الى برهان الدين بك فوصل هذا الكتاب الى هذا الاخير فيما كان يدرس المعلومات الواردة من مصر وفي حين كانت القيادة تستعد لاستقبال انور باشا

وقد خاف برهان الدين بك ان يكون ما ورد في هذا التقرير حقيقياً الا انه خشي في الوقت نفسه اذا هو عمد الى توقيف الشيخ سطام ان يؤدي هذا الامر الى نفور الشيخ سليمان باشا رفاده ، في هذا النفور ما يدفعه حتماً الى الثورة وكان احمد جمال باشا يتحاشى كثيراً ثورته لما يعرفه من نفوذه في البادية وفي خليج العقبة بوجه خاص ولهذا اطلع جمال باشا على هذه المعلومات التي رفض الباشا ان يصدقها بل اكتفى بأن امر برهان الدين بك بأن يضع رقابة حول الشيخ سطام كي يحول دونه ودون تنفيذ مؤامرته

ولما رأى الاخصام ان برهان الدين بك لم يحرك ساكناً اوقفوا احمد جمال باشا نفسه على الحادث واضافوا الى ذلك ان الشيخ سطام سيغتنم فرصة وجوده مع بقية افراد القبائل التي تستقبل الوزير لتنفيذ غايته هذه

على ان احمد جمال باشا هزأ للمرة الثانية بهذا الخبر ورفض تصديقه او توقيف الاشخاص الذين اراد مفكرو صفاء الامن العام توقيفهم

ومع هذا استدعى اليه برهان الدين بك وابلغه قائلاً :

— ان اعتقادي وطيد جداً بان هذه التعليمات التي وردتنا من دمشق ومن القاهرة ليست الا تعليمات وهمية بعضها يرمي الى تخويفنا من ان هناك مؤامرة على انور باشا لتحول دون مجيئه الى هذه البلاد وبعضها يرمي الى الايقاع بسليمان باشا رفاده .

ولما كان الاعداء لم ينجحوا في كلتا الحالتين لم يكن بد لهم ليقنعونا بصحة دعواهم من تدبير مؤامرة جديدة وقد لا يستبعد ان يدبروا هذه المؤامرة ويعمدوا الى محاولة قتل انور باشا ولهذا اطلب اليك تشديد الرقابة ومنع اي اتصال بين انور والاشخاص الذين لا تعرفهم ولا يعرفهم رجالك ، فغادر اليوم

دمشق الى حلب وادرس المسألة بدقة

وقبل ان يتم احمد جمال باشا جملته هذه طرق باب غرفته نصرت بك مرافقه الخاص ودفع اليه ببرقية مستعجلة واردة من استنبول تقول «ان مصلحة الاستخبارات الالمانية تلقت شعاراً سرياً حولته الى القيادة العامة يفيد ان هناك مؤامرة في منطقة الجيش الرابع تدبر لاغتيال انور باشا عند وصوله الى دمشق او بيروت وان على رأس هذه المؤامرة احد زعماء القبائل العربية »

فابتسم احمد جمال باشا لهذا النبأ وابرق الى انور باشا نفسه ينبئه بما تلقاه من معلومات ويضيف اليها ان هذه المعلومات والمعلومات السابقة الواردة اليه ليست الا مناورة من الاعداء للحيلولة دون وصوله الى سوريا من جهة والايقاع بسليمان باشا رفاده من جهة اخرى ويطمئنه الى الموقف ويؤكد له ، مع هذا كله ، انه اتخذ التدابير الكافية لمنع وقوع اي اعتداء عليه

ولكن هذا الجواب لم يقنع انور باشا الذي كان على اعتقاد بصحة المعلومات الواردة اليه من الالمان فكرر اوامره بوجوب توقيف ذلك الزعيم العربي ما دام يعرفه .

الا ان احمد جمال باشا لم يرد على هذه البرقية واكتفى بالتدابير التي رآها ضرورية .

هل هناك مؤامرة؟

وفي اليوم الثاني لسفر برهان الدين بك الى حلب تلقى احمد جمال باشا برقية شيفرة منه يقول له فيها :

« اخبرني اليوم فون برت رئيس مصلحة العشائر الالماني ان هناك مؤامرة خطيرة تدبر لقتل انور باشا الا ان اخبارية فون هذه تختلف تمام الاختلاف عن الاخباريات السابقة التي تلقيناها من القاهرة ثم من دمشق فهي تقول ان (فايمان بري) الجاسوس الانكليزي الذي اختفت اثاره لجأ الى قبيلة الرولة حيث لقي عطفاً وعناية من الامير فواز الشعلان نجل نوري باشا (الامير فواز الشعلان الذي يعرفه القراء هو

نجل الامير فواز المبحوث عنه في هذه المذكرات وقد اتخذ اسم والده كعادة قبائل العرب لحفظ اسمه في القبيلة) ولما كان الامير فواز يطمع في السيادة المطلقة على بادية سوريا فقد رأى في (فايمان بري) الزعيم الانكليزي الذي يستطيع ان يوصله الى هذا المنصب والخطة التي اتبعها هؤلاء ، حسب رواية فون برت ، كانت التالية :

اولا — ان يعمد الامير فواز الشعلان الى اضرام روح الثورة بين القبائل السورية ومقابل ذلك يتعهد فايمان بري بان يقدم له كل ما يحتاج اليه من دراهم وسلاح وعتاد حربية

ثانياً — ان يقوم بهذه الاستعدادات بصورة سرية

ثالثاً — ان ينتظر لاعلان الثورة ريثما يصبح لديه العدد الكافي من الجنود والضباط العرب المدربين الذين تقرر بثهم بين افراد قبائل الرولة

رابعاً — تقرر الشروع في الثورة والهجوم على الخطوط الحديدية وقطع خطوط المواصلات بعد وصول انور باشا الى سوريا

ويعتقد فايمان بري ان بوادر الثورة هذه ستندلع في الوقت الذي يقدم فيه المتآمرون على قتل انور باشا

اما من هم الذين سيقدمون على قتل انور باشا ؟

و كيف يقدمون على تنفيذ هذه المؤآمرة الخطيرة ؟

فهذان السؤالان لم يتمكن فون برت من الجواب عنهما في الحال ، الا انه لفت انظارنا الى ضرورة مراقبة الاشخاص القادمين من بادية سوريا وبوجه خاص الاشخاص القادمين من جهة قبائل (الرولة) والذين يترددون على هذه القبائل لانه على اعتقاد وطيد بان هذا التدبير اذا اعتمدناه كان في استطاعتنا معرفة هوية المتآمرين

وهو يرى من جهة اخرى ان هذه المؤآمرة اذا وقعت لا تقع لا في ولاية سوريا (دمشق) ولا في ولاية حلب بل في بيروت او جبل لبنان حيث تقل المراقبة وحيث يصبح في مستطاع المتآمرين ان يجدوا طريقاً تساعدهم تمام المساعدة

على النجاة والفرار

ولهذا اتخذت فوراً التدابير الشديدة لايصال مندوبي الى قلب قبائل (الرولة) لمعرفة هل (فايان بري) موجود هناك ؟

فوردني نبأ يفيد ان اجنبياً شوهد مراراً مع الامير فواز الشعلان وهذا يثبت رواية فون برت

ولهذا ارى من الواجب دعوة الامير فواز الشعلان ووالده الى بيروت ليكونا كرهينتين على الحوادث الممكن وقوعها في الوقت الذي اتولى فيه انا هنا مراقبة فايان بري وجميع الاشخاص الذين يتصلون به من ابناء القبائل في هذه المنطقة النائية »

فاهتم احمد جمال باشا لهذه المعلومات اذ كان على ثقة وطيدة بان حادث سليمان باشا رفاده الذي امتنع عن تصديقه لا يستبعد وقوعه من نوري باشا الشعلان وهو الرجل الذي لم يكن يثق به

وخطر ببال احمد جمال باشا موقف الامير فيصل منه و كيف خدعه وسافر الى المدينة المنورة وخاف ان يمثل نوري باشا هذا الدور ويشهر عليه ثورة جديدة في سوريا هو في غنى عنها خصوصاً بعدما سعى لاستمالة القوم اليه

ولذا ارسل كتاباً رقيقاً الى نوري باشا الشعلان يدعوه فيه للقدوم الى دمشق على رأس وفد كبير من زعماء قبيلته لاستقبال انور باشا ويلح عليه ان يكون هو ونجله على رأس هذا الوفد

الا ان الامير نوري باشا الشعلان ، ذلك الرجل الذي يظهر من ملامحه الخارجية انه بدوي ساذج ، يشتمل على ذكاء ومقدرة نادرين ولهذا خاف من كتاب احمد جمال باشا وبدت له وراء هذه الدعوة اسرار هامة لاسيما انه لم يكن من الاشخاص الذين يمكن خدعهم بسهولة فاستشار بالامر نجله ، وتدل المعلومات الواردة من رجال برهان الدين بك السربين على ان الامير فواز استشار الجاسوس الانكليزي فاشار عليه هذا الاخير ان يذهب وحده على رأس ذلك الوفد فيتمكن من درس الموقف ويعود اليه حاملاً الاتفاق الاخير

وعلى هذا كتب الامير نوري باشا الشعلان كتاباً رقيق الحاشية الى احمد جمال باشا يعتذر فيه عن عدم تمكنه من الحضور بسبب مرضه وانتدابه نجله الامير فواز لتمثيله في ذلك الاحتفال ويؤكد في الوقت نفسه ولاءه واخلاصه له وللدولة العثمانية

وقد استقبل احمد جمال باشا الامير فواز ووفد قبائل الرولة بحفاوة واكرام وابدى تأثره لمرض الامير نوري والده ثم قال :

— ارى من الواجب ان تذهبوا الى بيروت لاستقبال انور باشا لان في دمشق عدداً كافياً من القبائل

— ولكنني لم استعد يا صاحب الدولة للذهاب الى بيروت

— لقد اعددت لك ما يلزمك هناك

— انا يا صاحب الدولة بحاجة الى كثير من الاستعدادات

— كل هذا مدبر

— ولكنني لا اريد الذهاب الى بيروت يا صاحب الدولة

فعبس احمد جمال باشا ونهض عن مقعده كانه يريد القول ان الحديث قد انتهى .

ولما خرج الامير فواز الشعلان من غرفة احمد جمال باشا رأى صفوت بك مرافق الباشا في انتظاره فاعلنه هذا الاخير ان رجاله سبقوه الى القطار الخاص الذي اعد له فله ان يركب معه السيارة الى القطار المسافر الى بيروت

ولما حاول الامير فواز الشعلان ان يعترض على هذا الامر اجابه صفوت بك ان اوامر احمد جمال باشا قطعية وانه لا يرى اي لزوم للاعتراض عليها فاجابه الامير فواز :

— ولكن معنى هذا ابعادي عن بلادي

— كلا يا امير بل هناك تدابير خاصة اوجبت هذا

— ولكن هذا الامر قد يؤدي الى عواقب سيئة

— لا ، اذ لن يتمكن احد من معرفة شيء لاسيما انكم ستذهبون بين رجالكم

انكم ذاهبون من تلقاء نفسكم الى بيروت ترويحاً للنفس ولاستقبال الضيف الكبير .

— واذا لم افعل ؟

— ستفعلون لان مخالفتكم لهذا الامر ستؤدي حتماً الى عواقب سيئة بحقكم

— ووالدي ؟

— ستعلمونه عزمكم على السفر الى بيروت لاستقبال انور باشا

— اذن انا سجين في بيروت

— كلا بل انت حر فيها ولكنك ستكون موضوع مراقبة اذا ظهر منك ما يخالف القانون وخلال الايام التي ستقضيها في بيروت تكون موضع عناية واكرام من جميع الهيئات الرسمية والاهلية فقد صدرت الاوامر بانك ذاهب الى هناك لاستقبال وكيل القائد العام وانك ضيف على قائد الجيش الرابع

— اذن لا مجال للاعتراض ؟

— كلا واعتقد ان تظاهرك بالسفر من تلقاء نفسك افيد لك

فقبل الامير فواز الشعلان بالامر الواقع وركب السيارة الى جانب صفوت بك الى المحطة فوجد هناك شرذمة من الجنود لحراسة سفره فحيته وسافر معها بالقطار الخاص الذي اعد له الى بيروت وفيها استقبل بحفاوة كبيرة وقد كتبت عنه في اليوم التالي لوصوله جريدة البلاغ البيروتية ما نصه :

« وافى بيروت حضرة الامير فواز نجل الامير نوري باشا الشعلان بصحبه رهط كبير من حاشيته فاحتفل بقدومه احتفالاً لائقاً ونزلوا ضيوفاً على القيادة العليا فنرحب بهم اجمل ترحيب ونتمنى لسمو الامير حسن الاقامة في الحل والترحال » اه

على ان الامير فواز الشعلان كان مستاء من هذه الاقامة الاجبارية وهو يعرف ان والده لا بد ان يقلق لغيابة لاسيما ان (فايان بري) لن يصدق الغاية الحقيقية من سفرته

الا ان احمد جمال باشا ما لبث ان ارسل اشعاراً الى الامير نوري باشا يطمئنه

فيه على ولده ويعلنه انه ذهب الى بيروت للنزهة وانه سيظل في بيروت الى ان يصل هو اي نوري باشا الى دمشق لانه يريد مباحثته في امور هامة

فلم يبق في وسع نوري باشا البقاء طويلاً في البادية فغادرها دون استشارة (فايمان بري) الجاسوس الانكليزي وجاء الى دمشق فاستقبله فيها احمد جمال باشا بجفاوة

واستوضحه موقفه من الدولة فاجاب :

— تعلمون دولتكم مقدار تعلقنا نحن وعشائرنا بالدولة فنحن لا نستطيع ابداً ان نقف بصفوف الاعداء

— ولكن ولدكم الامير فواز ؟

— وهو بدوره يا صاحب الدولة شديد الاخلاص لكم ولعرش صاحب الجلالة السلطان الخليفة

— وهل تؤمنون انتم باخلاصه ؟

— نعم ، واذا رأيت منه اية خيانة اذبحه انا بيدي

— انني شديد الرغبة في ان اثق باقوالكم الا ان التعليمات الراهنة التي لدي تدلني بصراحة تامة على ان الحقيقة غير ما تقولون وان ولدكم الامير فواز على اتصال باعداء الدولة

— مولاي ان من نقل اليكم هذه المعلومات عدو لعائلتنا ويتعمد الايقاع بنا

— كلا فانا على ثقة وطيدة بهذه المعلومات التي نقلت الي والامر الذي يهمني في هذه القضية هو سؤالكم عن الغاية الحقيقية من اتصال نجلكم فواز بك باحد الاجانب المشبوه بهم فهل في امكانكم تقديم الايضاحات اللازمة بهذا الصدد ؟

— لا علم لي بهذه الامور !

— الم يأت الى مضاربكم رجل غريب ويتصل بنجلكم ؟

— ؟ . . .

— قل

— بلى يا مولاي الا انني امرت بطرده فور معرفتي بامره

— وماذا كان يرغب ؟

— علمت انه كان يرغب استمالة ولدي الى صفوف الشريف

— ولماذا لم توقفه ؟

— لانه حل بيننا ضيفاً ومن كان هذا شأنه لا يجوز ان يسلم الا انني لما عرفت نياته السيئة عمدت الى ابعاده

— والآن ؟

— انا ورجالي على استعداد لتقديم التضحية اللازمة في سبيل صيانة حقوقنا والدفاع عن كيان الدولة

— ومن يضمن لي خلاصكم ؟

— انا

— كلا فانا ارغب في ان يظل نجلكم وحاشيته كرهينة عندنا

— ولكن لا يقبل فواز بذلك

— بل يقبل

— اذن تريدون ابقاؤه في بيروت كرهينة

— بل يمكث في بيروت بضعة ايام اذ لا يصح بقاؤه هناك طويلا ثم يأتي الى دمشق فيبقى فيها

— امركم

— وعليك في الوقت نفسه ان تذيع بيانا تستنكر فيه موقف العشائر التي اقدمت على خيانة الدولة العثمانية وتدعو رجالك الى محاربة هؤلاء الخائنين واستنكار اعمالهم ، وتستنكر في هذا المنشور ايضاً اعمال الشريف حسين

— اننا يا صاحب الدولة مستنكرون اعماله كل الاستنكار ولكن نرى في هذا الاستنكار العلني ما يدعو الى استياء الشريف واقدامه على محاربتنا

— هذا ما اريده

— ولكننا في حالة لا تساعدنا على الحرب

— بل في استطاعتكم ذلك فسنساعدكم في ما تحتاجون اليه من مال

وعتاد حربي .

— مولاي

— لا داعي للاعتراض فقد اصدرت الاوامر اللازمة باعطائكم خمسة الاف ليرة ذهبية مع الكميات التي تحتاجون اليها من العتاد الحربي

— شكراً

— ولكن هناك شرطاً واحداً فقد عهدنا الى رئاسة اركان الحرب العام ان تزودكم بما انتم بحاجة اليه من المستشارين الترك العسكريين

— ولكننا لسنا بحاجة اليهم

مع تحسين بك

وانتهى الحديث بين احمد جمال باشا والامير نوري الشعلان وما كاد يخرج هذا الاخير حتى استدعاه احد الحجاب لمقابلة الوالي تحسين بك فلبى الدعوة وحدثه تحسين بك عن الموقف بالصورة التي لا تخرج عن ارادة احمد جمال باشا وطلب منه ان يرسل اليه كتاباً في الموضوع الذي اشار اليه احمد جمال باشا

بلاغ الحكومة

وفي اليوم التالي لهذه المقابلة اصدرت الحكومة بلاغاً رسمياً هذا نصه :

استقبل صاحب الدوله احمد جمال باشا قائد الجيش الهمايوني الرابع ووزير البحرية الجليلة حضرة الامير نوري الشعلان شيخ الرولة الذي اعرب لدولته عن استنكاره الشديد للاعمال المخلة التي قام بها الخائن الشريف حسين وعن استعداده هو رجاله لمقاتلة هذا الخائن ورجاله واعادتهم الى الصواب والعدل

وقد شكر له صاحب الدولة عواطفه هذه

وفي اليوم الثاني لصدور هذا البلاغ نشرت جريدة الشرق ما نصه الحرفي :

« اذاع مقام ولاية سورية صورة الرسالة المأخوذة من نوري الشعلان شيخ مشايخ عشيرة الرولة المترجمة عما يكنه ضميره ضد الاعداء وهذا نصها :

بعد اهداء السلام وتقديم الاحترام ادعو للدولة الاسلامية بالنصر وانه فهم من الاخبار المؤلمة الواردة من ساحات العراك ان الانكليز اعداء الله ورسوله اعتدوا على اعراض المخدرات المسلمات فأثر هذا الخبر في محبتنا وغيرتنا الاسلامية لاقصى درجة ولا شبهة في انه يؤلم بالطبع جميع المسلمين للغاية ، لذلك انا حاضرون لاراقة آخر نقطة من دمائنا في سبيل الدين والدولة ومستعدون بعون الله تعالى بلا خوف ولا تأخر عن محاربة من يحاهد لله ورسوله والدولة العثمانية ادامها الله ويقابلها بالعدوان والشريف ايضاً داخل في هذا الوعيد »

الامير فواز

هذا نص البلاغ الرسمي مع كتاب الامير نوري الشعلان بنصه الحرفي وقد استدعى عزمي بك والي ولاية بيروت في اليوم الثاني لصدور هذا البلاغ اصحاب الصحف البيروتية وكانت يومئذ جورنال ده بيروت والبلاغ والرأي العام وطلب اليهم نشر ما نشرته جريدة الشرق ثم عاد واستدعى الامير فواز الشعلان وطلب اليه ان يدلي بحديث الى هذه الصحف يؤيد فيه ما ذكره والده في كتابه وان يستنكر ثورة الشريف حسين وقد فعل الامير فواز ما طلب منه

وقد مكث الامير فواز الشعلان في بيروت تحت مراقبة الشرطة الى ان عاد انور باشا للمرة الثانية من بيروت الى العاصمة العثمانية

مؤامرات ومؤامرات

كان اليوم الخامس عشر من شهر حزيران سنة ١٩١٧ موعد وصول انور باشا الى دمشق فنشطت في ذلك اليوم جماعة برهان الدين بك لزيادة المراقبة

وفي اليوم نفسه هاجمت عصابة من الجياع قطار حلب القادم من حلب الى رياق وبالقرب من بعلبك وشاعت الظروف ان يهاجم هؤلاء قطار الاستكشاف الذي اعدته القيادة ليسير في مقدمة القطار الخاص الذي يقل انور باشا وقد تبادل رجال خفر القطار وافراد هذه العصابة اطلاق العيارات النارية مقدار نصف ساعة

وصل في خلاله قطار انور باشا الذي اضطرب من هذا الحادث وعادت الى ذهنه الاخبار التي نقلتها اليه دائرة الاستخبارات الالمانية عن وجود مؤامرة عليه فهب فوراً الى سلاحه ووقف في القطار يستمع الى ازيز الرصاص الذي دام بضع دقائق اخرى ثم دخل عليه اليوزباشي ممتاز بك واعلنه النتيجة قائلاً :

— مولاي ان عصابة من الاشقياء هاجمت قطار الكشف بالقرب من القصير وتبادلت وحرسه أطلاق العيارات النارية وقد قتل من الاشقياء المهاجمين سبعة وتمكنا من أعتقال سبعة من المهاجمين والبقية لاذوا بالفرار

انور — وكم كان عدد افراد هذه العصابة المهاجمين ؟

— يقدرون بثلاثين شخصاً

— اذن لا يزال هناك عدد كبير من المهاجمين تمكنوا من الفرار

— نعم

— هل استجوبت الموقوفين؟

— كلا يا صاحب الفخامة لانني جئت اعرض عليكم النتيجة الفورية

وبعد هنيهة جاء الملازم عثمان بك وادلى الى انور باشا بتقرير جديد قال :

— وجدنا بين جثث القتلى ثلاثة من الجنود الفراريين وقد تبين من اوراقهم انهم كانوا في الخدمة العسكرية في سنة ١٩١٦ الا انهم فروا بعد الثورة العربية والتحقوا بالثوار العرب وهم حسين احمد صالح من اهل دمشق وعبد الباسط احمد مكلاوي من أهل حلب ووجدنا معهم اوراقاً تثبت انتسابهم الى القوات الثائرة العربية وانهم مرسلون بمهمة الى البادية السورية

— والموقوفون ؟

— هم سبعة اشخاص خمسة منهم من البدو واثنان من الحضر

— وهل عرفت هويتهم ؟

— نعم فهم عمر الملحم وحسن صالح الملحم من عشيرة الحسينة وشاهد رحيل وعجان الجاسم من عشيرة التركي القاطنة في جوار حماه ومحمد ميرزا وسعيد ميرزا من اهل قرية دير فور التابعة لحمص وحاف الاحمد من عشيرة الحديديين .

— وهل وجدتم مع هؤلاء اوراقاً او وثائق ؟

— عهدت الى الملازم صبري بك بتحريهم ربثما اجيء لاعرض على فخامتكم النتيجة .

— حسن ، يجب كتم هذه المعلومات وسوق الموقوفين فوراً وفي القطار نفسه الى دمشق للتحقيق معهم في الوقت الذي يتولى فيه بقية رفاقكم مطاردة الفارين

وظلت هذه الحادثة سرية لا يعلم بها الا قائد الجيش الرابع احمد جمال وار كان حربه وبرهان الدين بك الذي تولى التحقيق مع المتهمين فوراً لمعرفة اسرار هذه القضية .

وقد اعترف له سعيد مرزا بانه يجهل الغاية من هذا الاعتداء انما يعرف ان نسيبه محمد طلب اليه ان يشترك مع عصابة وطنية تألفت لانقاذ البلاد من الترك اما كيف تألفت هذه العصابة ومن هم افرادها فلا يعرف

وانكر محمد ميرزا بدوره هذا الامر وافاد انه زار في ذلك اليوم نسيبه سعيد ميرزا فاعترضه في الطريق جماعة مسلحون فاجبروه على الالتحاق بهم ففعل دون ان يعرف الغاية

الا ان هذا الجواب لم يقنع برهان الدين فشدد على الموقف الى ان حمله على الاعتراف فقال :

— كنت مطلوباً من قبل القضاء لفراري من الجندية عندما جاءني حسن صالح المنجم ومعه ابن عمه عمر ورجل آخر قدماه الي باسم الشيخ طعان الاحمد من زعماء عشائر شمر فاستقبلت الجماعة في منزلي الواقع في خراج قريتنا (دير فور) وهناك علمت ان الشيخ طعان يريد تأليف عصابة ليس قصدها السلب والنهب بل اثارة الفتن في المنطقة وجمع اكبر ما يمكن جمعه من الرجال لمقاومة نفوذ الدولة فقبلت العمل معه

— وعلى اي اساس قبلت العمل معه ؟

— لقد ابلغني الشيخ طعان ان العشائر العربية في بادية سوريا على وشك اعلان الثورة وانه جاء مندوباً من قبل الشريف فيصل لتأليف عصابات تعمل في

مؤخرة الجبهة ونساعد الثوار في عملهم وانه يحمل ارادة من الشريف بتولية من يختاره للقيادة وانه لهذا اختارني كضابط برتبة ملازم اول ودفعني لاجمع ما اقدر على جمعه من المتطوعة في هذا السبيل

— نعم ابرز لي ورقة بامضاء الملك حسين بن علي تتضمن دعوة كل عربي يقرأ هذا الامر للعمل على تحقيق ما يطلبه حامله الذي هو معتمد من قبله وحائز على ثقته المطلقة

— وبعد ذلك ماذا فعلت ؟

— طلب الي الشيخ طعان ان اظل في مكاني اجمع العدد الكافي من الجنود لتشكيل مفرزة تحت قيادتي وان اعد كل نفر ينخرط في سلك هذه المفرزة براتب قدره خمس ليرات ذهبية في الشهر وان انتظر اوامره في قرية دير فرز

ولما وردني الامر قصدت الى قرية السليمية ومنها الى البادية فوجدت الشيخ طعان ومعه ٢٥ شاباً جميعهم مرتدون الملابس البدوية فاستقبلوني بحفاوة وقال لي الشيخ طعان ان اذهب لمقابلته في المساء

ولما قصدته الى خيمته وجدت هناك ثلاثة من الغرباء اجهل اسماءهم الذين قتلوا في معركة مهاجمة القطار وكانوا عاقدين شبه مجلس عسكري اتفقوا فيه على مهاجمة القطار ولما اعترضت على هذا الامر قائلاً لهم انني لا اشترك في حوادث سلب اجابني الشيخ طعان :

— انعتقد اننا من اللصوص لمهاجمة القطار لسلبه ، فلو كنا من اللصوص لما نقدنا كم المال فالقطار الذي نريد مهاجمته من القطر العسكرية وهو مملوء بالذخائر والعتاد الحربي التي سيستخدمها الترك لمحاربة اخواننا على حدود الحجاز ولهذا نريد الحصول على هذا السلاح لنستخدمه ضدهم وتأليف الجبهة

وعلى هذا تم الاتفاق فانصرف هؤلاء الاربعة لاعداد الخطط الحربية لمهاجمة القطار قبل وصوله الى محطة القصير التابعة لبعلبك واصدروا الينا الاوامر اللازمة بالزحف الى الامام لتنفيذ هذه الخطة

في كل مكان مؤامرة

كانت دائرة شرطة بيروت في حركة غير عادية منذ ١٧ حزيران سنة ١٩١٧ فالاجتماعات كانت تتوالى في غرفة المدير وكان جالساً وراء طاولة هذا الاخير برهان الدين بك يعرض مع المدير ورؤساء الدائرة الاسماء والتدابير الواجب اتخاذها لحماية انور باشا

وفي المساء نفسه ورد اشعار من احد الجواسيس يفيد ان اجتماعاً عقد في جونيه حضره بشاره البويري الذي حمل من جزيرة ارواد مبلغاً من المال ليوزع على بعض اللبنانيين ، ولم يكن في هذا النبأ ما يهم هؤلاء لو لم يرد في نهاية التقرير خبر صغير وهو :

« في جونيه اشاعات متعددة عن وجود مؤامرة لاغتيال انور باشا في بيروت فالمتآمرون الذين يريدون اغتيال الباشا قد تلقوا اعانات مالية كافية لهذا المشروع حملها اليهم بشاره البويري وسيكون هناك زورق بخاري بانتظار القتلة في جوار بيروت لنقلهم الى الدوارع الحربية فور اقتراف الجريمة » وقد كانت هذه المعلومات خطيرة جداً في نظر برهان الدين بك فأمر باستدعاء الجاسوس وهو ايليا جريس (لم يورد مؤلف هذه المذكرات الا هذين الاسمين من كنية الجاسوس ولهذا لم نتمكن من معرفة هويته لنثبتها حفظاً للتاريخ) فلبي الدعوة وسأله برهان الدين بك ايضاحاً لهذه المعلومات التي اوردها قال :

— انهم يتحدثون عنها في جونية وقد سمعت من كل السكان

— لا يمكن نسبة هذا الامر الى سكان جونيه جميعاً لان مثل هذه المعلومات يجب ان تنحصر باشخاص ولا يصح ان تكون سمعتها من جميع السكان

— سمعتها من ام غنطوس كرم فقد افادتني ان بشاره البويري سلمها مبلغاً من المال جاءها من ولدها

— ايمكن ان تبني تقريرك على حديث ام غنطوس فقط ؟

— كلا بل ان حبيب صالح الغزي هو الذي اخبرني بمجيء بشاره البويري

= واين اجتمعت به ؟

— عند ام غنطوس وهو الذي حمل اليها المال

— وهناك سمعت بالمؤامرة ؟

-- كلا بل في بيت ميلاد بن قزحيا الرامي في مزرعة عقبة كسروان فقد بلغني ان ميلاد وهو من المحكوم عليهم بالاعدام غيابا جاء الى منزله فقصدته الى هناك فلم اجده وانما وجدت الخوري بولس عقل (هو اليوم سيادة المطران عقل) ومعه لاون الخوري جريس وهذا من المحكوم عليهم بالاعدام ومعهما شخص آخر من المنطقة وكنت على معرفة سابقة بالخوري فسلمت عليه وتبادلنا الحديث ولما عرف بقدومي من بيروت سألني عن الحالة فيها وعن المجاعة وحالة الاهلين ثم سألني احقيقة ان انور باشا قادم الى بيروت فأجبته ان الاندية البيروتية تقول ذلك فسألني عن الموعد الحقيقي لقدومه فلم اعينه له

وبصفتي مسيحيا يثق بي سألته عن الموقف فقال :

— اذا عرفنا موعد وصول انور باشا الى بيروت كان في امكاننا تعيين موعد الخلاص .

ولم اجسر ان اسأله عن ذلك الا ان لاون الخوري جريس ما لبث ان فسره لي من تلقاء نفسه فقال :

— ليس في لبنان رجال يمكنونا من التملص من انور ورفيقه والا لما كنا في هذه الحالة

فقلت -- ومن يجسر على هذا الامر ؟

فرأيت الشرر يتطاير من عينيه الا انه قبل ان يجيب عن سؤالي قاطعه الخوري بولس عقل بقوله :

— ليس هنا مجال هذا الحديث يا لاون

-- الى هذا الحديث استندت في تقريرك ؟

— نعم لانني وجدت من لاون ورفيقه المجهول اللذين جاءا مع الخوري الى هذه المزرعة ما يدل على ان هناك اموراً سرية لاسيما الحاج الخوري بولس عقل

في معرفة اليوم الذي سيصل فيه انور باشا الى بيروت

— وهل تعتقد ان راهباً ورعاً مثل الخوري بولس عقل يشترك في هذه الجناية ؟ . .

— لا اعرف

— واين ذهب الخوري بولس عقل ورفيقاه

— لم اعرف تماماً الوجهة التي ذهبوا اليها لانني لم اعد الى تلك المنطقة بل عدت ادراجي الى جونية وفيها وضعت تقريري وحضرت الى بيروت فرفعته الى المديرية .

ولما اكتفى برهان الدين بك من استنطاق ايليا جريس امره بالانصراف بعد ان نقده خمس ليرات تشجيعاً له على متابعة الخيانة ووعده بمكافئة مالية كبرى اذا ما سلم اليه احد المطلوبين خصوصاً الخوري بولس عقل وبشاره البويري

وبعد انصراف هذا الجاسوس من لدنه ابرق الى قائد درك الساحل في جونية يدعوه لتوقيف بعض الاشخاص المشتبه بهم في المنطقة مع الخوري عقل ورفاقه وفي المساء ورده ما يشير الى اعتقاله ٣٥ شخصاً من المطلوبين

تدابير في بيروت

وكان لاحمد جمال باشا اعوان سريون في بيروت من طقم الجواسيس والقبضايات فاستدعاهم برهان الدين بك وفرقهم في مختلف انحاء المدينة لمراقبة الموقف وموافاته عن كل غريب يرونه ثم استبدل خدام الفندق من غير الالمان بخدام من رجال الشرطة ثم اخذ لائحة باسماء كل فرد من الاشخاص الذين يشغلون البنايات والمخازن القائمة حول الفندق « فندق كسمان » لمعرفة ماضي كل شخص منهم وهويته ووضع مراقبة شديدة على حركات هؤلاء الاشخاص وتنقلاتهم .

اما التدابير العلنية فكانت كثيرة فقد اراد احمد جمال باشا ان يظهر الشعب بمظهر المجمع على استقبال انور باشا فأقام اقواس نصر في جهات فرن الشباك والحرج

حيث تقرر ان يستقبل وجهاء البلاد واعيانهم الضيف والقائد كما اجبر سكان المنازل والحوانيت الممتدة من هذه الجبهة لغاية دار جنبلاط التي كانت دار الوالي على رفع الاعلام والزينات واقام في ساحة البرج عدة اقواس نصر تمتد من مدخل طريق الشام الى طرف الساحة واقيمت زينات اخرى في حديقة البلدية (حديقة الشهداء اليوم) ودار الحكومة

وارسل الوالي اشعاراً هو شبه انذار الى جميع المدارس لترسل طلابها الى حفلة الاستقبال وقد تقرر ان يصطف هؤلاء الطلاب والطالبات في الجهة الممتدة من فرن الشباك الى الحرج وفي محلة الناصرة حيث مدرسة البنات التي تديرها خالدة اديب خانم (مدرسة دير راهبات اللعازارية اليوم) وفي ساحة البرج وامام مدرسة الدياكونيز الالمانية في محلة حوض الساعاتية

كما تقرر تعطيل الدوائر في ذلك اليوم ابتهاجاً بقدم وكيل القائد العام ووزير الحربية .

وهكذا كانت الحياة في مدينة بيروت على شكلين احدهما رسمي يدل على خوف الحكومة الشديد من المؤامرة المتوقع حصولها لاغتيال احمد جمال باشا وانور باشا بوجه خاص والآخر علني يرمي الى اظهار الشعب بمظهر المغتبط باستقباله القائد العام .

حالة بيروت الحقيقية

ولكن اهكذا كانت حقيقة الحال في مدينة بيروت ؟

فقد طاف زبانية مدير الشرطة على الطرقات والشوارع يجمعون الهيا كل البشرية الملقاة هنا وهناك وقد جاء في تقرير مفوض المركز ما نصه الحرفي :

« بناء على اوامر مديرية الشرطة قامت دوريات الشرطة بجولة في المدينة لجمع المتسولين والاشخاص الذين لا منازل لهم وكانت النتيجة ان ١٨٢ متسولاً وجد ان معظمهم في حالة المرض غير قادرين على السير فنقلوا في طنابر البلدية الى الدار المخصصة لهم وفي هذا الصباح اي صباح اليوم الذي وصل فيه انور باشا الى

بيروت — مات عشرة منهم من تأثير المرض ولا يزال هناك غيرهم في حالة النزاع فأبقيناهم مع رفاقهم الى ان نرى ما يجب تقريره في هذا الشأن

ثم جمعنا من الشوارع جثث ثلاث نساء وسبعة من الاطفال واربعة من الرجال العجز تبين لنا من الفحص الطبي انهم ماتوا من تأثير الجوع والمرض

وللبيان صار عرض الكيفية مولاي »

ولكن الوثائق التي لدينا لا تدل على مصير بقية هؤلاء البائسين الذين جمع الاصحاء والمرضى منهم في مكان واحد

ومما لا شك فيه انهم تركوا هناك الى ما بعد سفر انور باشا ثم اعيدوا الى طرقات بيروت واحيائها يفتشون بين الاقذار عن فضلات الاغنياء او عن قشور البرتقال والموز التي يلقيها هؤلاء الاثرياء ليقتاتوا بها

ثم سافر انور باشا قاصداً الى حلب وقد ذكرت احدى صحف بيروت سفره بما نصه الحرفي :

« غادر الضيف الكبير يصحبه جمال باشا بيروت في الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر امس على سيارة القيادة العليا يتبعهما رتل من السيارات قاصدين تعنايل ووصلا اليها بعد ساعتين فمكثا فيها مدة ترويحاً للنفس وفي المساء اقيمت لهما في تعنايل مائدة عشاء باهرة ثم استأنفا السفر الى رياق ومنها ركبا القطار الحديدي الى حلب » اهـ.

وهكذا غادر انور باشا بيروت الى حلب ووصل اليها سالماً دون ان تقع له اية حادثة تستحق الذكر

الموقوفون

اما الاشخاص الذين اعتقلوا في بيروت وجونيه ودمشق وحلب فقد ظلوا مدة طويلة قيد السجن لان احداً لم يفكر في الافراج عنهم. وقد تركتهم القيادة وشأنهم الى ان احتاجت اليهم في احد الايام فشحنتهم الى الجبهة الحربية ليدافعوا عن الوطن فكان ان مات ما بقي منهم حياً في الجبهات الحربية وذهب

هؤلاء البائسون ضحية لوشايات الوشاة ولزيارة انور باشا لسوريا وبيروت

اما الموقوفون في حادث الاعتداء على القطار الكشاف الذي تقدم قطار انور باشا فقد احيلوا الى الديوان الحربي العرفي لمحاكمتهم

ومع انه لم تكن هناك ادلة قاطعة عليهم الا افادة محمد ميرزا وابن عمه سعيد وحسن صالح الملحم فأن انور باشا طلب الحكم عليهم بالسجن لمدة قصيرة

ولكن احمد جمال باشا الذي رأى في هذا العطف ضعفاً لا يتفق وسياسة البطش والشدة التي اتبعها في مركز قيادته تظاهر بتلبية طلب انور باشا واوعز الى الديوان الحربي العرفي بتأجيل البت في قضية هؤلاء واحالة القضية ثانية الى المستنطق لتوسيع التحقيق ٠

وكانت غاية احمد جمال باشا من وراء توسيع التحقيق القيام بتحريات واسعة النطاق بين عشائر الحسنية والتركي والحديديين لارغام رؤساء هذه العشائر على تسليم الجاسوس مقابل العفو عن رجالهم او الكف عن مضايقتهم بمفرزات الجنود التي كانت ترسل بصورة متوالية لمطاردة الجاسوس

مطاردة فايان بري وقتله

واراد احمد جمال باشا ان يستخدم كل قواه لمطاردة هذا الجاسوس الذي اتعبه فاستدعى اليه في العاشر من شهر تموز سنة ١٩١٧ الامير نوري الشعلان وطلب منه ان يثبت وعده السابق بمطاردة اعداء البلاد وذلك بارساله قوة من رجاله لمضايقة العشائر الموالية للجاسوس وافهمه صراحة انه لا يريد البطش بها بل حملها على تسليم ذلك الجاسوس ولما اخذ منه وعداً قاطعاً في هذا الشأن استدعى اليه برهان الدين بك وابلغه قراره وطلب اليه ان يذهب الى حمص لتجهيز عدة حملات تمشي من حمص وحماه وحلب وضواحيها الى قلب البادية لمطاردة فايان بري واعوانه

واعلن احمد جمال باشا رسمياً قبائل الحسنية والتركي والحديديين انه سيعفو عن رجالها الموقوفين بالجرم المشهود اذا ساعدته على مطاردة الجاسوس فقدمت اليه

هذه القبائل المساعدة المطلوبة اعتقاداً منها بان حياة خمسة اشخاص من رجالها الموقوفين افضل من حياة شخص واحد لاسيما بعدما رأت من شدة تدابير احمد جمال باشا ما اخافها واوقعها في مأزق - ولهذا غادر فايان بري و١٥ شخصاً من اعوانه مقر هذه القبائل ولما كان من الصعب خروج هؤلاء من البادية قرروا الاجتماع في منطقة بعيدة عن مكان محاصرة الجنود لهم

ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . فقد صادف ان تحولت القوة القائمة تحت قيادة برهان الدين بك الى جهة اخرى فالتقى الفريقان مساء ١٧ تموز سنة ١٩١٧ وكان رجال برهان الدين بك تجهل من هم افراد هذه القافلة فأمرهم بالوقوف لمعرفة هويتهم فبادروه باطلاق العيارات النارية فقتلوا ثلاثة من رجاله وجرحوا اربعة ، عند هذا امر القائد رجاله بالارتماء فوراً على الارض واخذوا يقابلون العيارات النارية بالمثل بعد ان ارسلوا بالآلة اللاسلكية التي معهم اشعاراً لبقية القوات بما حصل لهم وموقع وجودهم

ودارت هناك معركة شديدة استمرت ثلاث ساعات قتل فيها من جنود برهان الدين بك العشرين ١٦ جندياً ولم يبق لديه الا اربعة وهو لا يعرف ما كان مصير المجهولين الذين يطاردهم الا انه عند منتصف الليل شعر بابتعادهم عن مركز المعركة فذهب الى هناك فوجد جثث خمسة اشخاص وجريحاً واحداً تمكن ان يعرف منه ان هذه القافلة مؤلفة من ١٥ شخصاً يرأسهم الجاسوس الذي يطارده وانهم كانوا متوجهين الى مقر قبيلة ... قبل ان يصادفوهم

وكان الصباح قد انبثق عندما وصلت اليه النجدات من الجند الذين تلقوا اشارته فزحف بهم جهة القبيلة التي دله الجريح عليها

ويظهر ان معلومات الجريح كانت حقيقية وان الجاسوس لم يبدل خطته لاعتقاده بان من ترك من رجاله كانوا جثثاً هامدة وليس بينهم من يرشد الجند الى وجهته ولهذا بوغت عندما رأى عند ظهر ١٨ تموز القوات المطاردة تقترب منه فاراد الاختباء الا ان برهان الدين بك شعر به فامره بالاستسلام مع رجاله وكان عددهم تسعة فقط والجنود ٤٠ فأبوا الاستسلام وقاوموا الجنود واستمرت هذه

المقاومة مدة طويلة انتهت بقتل الجميع مع سبعة من الجنود

وقد نقـل جثمان فايمان بري الى دمشق حيث عرض على احمد جمال باشا وصودرت منه اوراق ووثائق على جانب عظيم جداً من الخطورة

وقد كافأ احمد جمال باشا برهان الدين بك على فوزه هذا بجائزة مالية كبيرة وبترقيته الى رتبة قائمقام في العسكرية

تنفيذ حكم الاعدام

كثيراً ما وعد احمد جمال باشا بالعفو عن الابرياء الذين اعدمهم لا لجريمة اقترفوها بل لانه ولوع باقتراف الجرائم الفظيعة

ومثل هذا الوعد قطعه على قبائل الحسنية ، والتركي ، والحديدية ، بالعفو عن ابنائها الموقوفين في الديوان الحربي العرفي مقابل مساعدتها له في مطاردة الجاسوس وقد بر افراد هذه القبائل بوعدهم وساعدوا احمد جمال باشا حتى وصل الى هدفه

ولكن جمال باشا لم يف بما وعد بل امر برهان الدين بك بان يضع تقريراً في الحادث الذي انتهى بقتل الجاسوس (فايمان بري) وان يرفع هذا التقرير الى المستنطق العسكري ليختم به التحقيق في هذه القضية ويرفعه الى الديوان الحربي العرفي ، ومعنى هـذا ان احمد جمال باشا لا يريد العفو عن هؤلاء ويرغب في اعدامهم ، وقد حاكمهم الديوان الحربي العرفي وحكم عليهم جميعاً بالاعدام

وفي اليوم الثاني من شهر آب نشرت جريدة « الشرق » التي يصدرها اعوان جمال باشا ما نصه :

اعدام خونة مجرمين

فجر صباح امس نفذ حكم الاعدام في ساحة الاتحاد في بيروت بكل من المجرمين عمر الملحم من عشيرة الحسنيه وشاهد رحيل من عشائر التركي ومحمد ميرزا من قرية دير فور لاقدامهم على خيانة الامة والوطن وشهر السلاح ضد الجند وبذلك لاقوا جزاء خيانتهم

وفي الوقت نفسه نفذ حكم الاعدام في ساحة المرجة في دمشق بكل من حسن

صالح الملحم من عشيرة الحسنية وعجان الجاسم من عشيرة التركي وخضر الاحمد من عشيرة الحديديين وسعيد ميرزا من قرية ديرفور لثبوت خيانتهم ولشهرهم السلاح ضد الجند المولج بالدفاع عن سلامة الوطن . اه

المناورات العسكرية

وكانت القيادة في ذلك اليوم مستعدة للقيام بمناورة حربية واسعة النطاق في المناطق الساحلية بين بيروت والجهات الجنوبية الممتدة منها الى صيدا وصور

وكانت الغاية الاساسية من وراء هذه المناورات اتخاذ تدابير جديدة لحماية مؤخرة جبهة فلسطين فالقوات الانكليزية التي قامت بمهاجمة القوات العثمانية خلال اشهر الربيع الاخيرة كانت منذ اول حزيران قد اخلدت الى الهدوء والسكينة وانصرفت الى تعزيز جبهتها هذه وجلب القوات الكافية من مصر والخارج لمضاعفة القوات التي هناك وقد خافت القيادة العثمانية عاقبة هذا الاستعداد ورأت امكان مهاجمة الانكليز فقررت انشاء جبهة خلفية على الشواطيء وقد عرضت هذه الخطة على انور باشا فوافق عليها

خطة الالمان

الا ان الالمان عارضوا في هذا التدبير معارضة شديدة وحجتهم ان سواحل جنوبي بيروت لغاية حيفا غير صالحة للدفاع . وان من الواجب سحب القوات العثمانية من المدينة المنورة ومعان وحصر خطة الدفاع على خطوط نهر الاردن الا انور باشا ، وهو الرجل المشهور بولائه وخضوعه للالمان ، لم يوافق على هذا التدبير لانه باخلائه المدينة المنورة يخسر آخر مدينة دينية وهو الذي يعتمد على الاسلام في تحقيق مطامعه وانشاء الامبراطورية الاسلامية الواسعة النطاق ولهذا أمال احمد جمال باشا الى خطته ،وقرر احمد جمال باشا بدوره القيام بمناورات حربية واسعة النطاق تبدأ من بيروت وتنتهي في حيفا وقرر ان يحضر كبار القواد الترك والالمان الى صور من ١٧ — ٢٠ اب سنة ١٩١٧ للاشراف على هذه المناورات الحربية

ولكي يثبت للالمان ان هذه المناورات مفيدة وفي امكانها اعطاء الفوائد المنتظره

ضرب بيروت

الا ان جواسيس الحلفاء ما لبثوا ان نقلوا اليهم تفاصيل هذا التدبير كما نقلوا اليهم الموعد الذي سيصل فيه احمد جمال باشا وعزت باشا الى بيروت، وفي الساعة الثامنة من صباح الجمعة في ١٧ آب فيما كانت سيارة احمد جمال باشا تجتاز ساحة الشهداء وبجانبه عزت باشا حامت في سماء بيروت عدة طائرات فرنسية بصورة اجبرت القائدين على تحويل وجهة سيرهما الى طريق النهر كيلا يشاهدهما من في الطائرات وكانا راكبين سيارة مكشوفة ومرتدين الملابس الرسمية التي يمكن معرفتهما منها

اما الطائرات فقد حامت مدة فوق بيروت وفي الساعة العاشرة من قبل ظهر ذلك اليوم القت عدة قنابل على (الكازخانة) والاماكن المجاورة لها وكانت النتيجة ان قتل خمسة من الاهلين في هذا الحادث ونجا الباشا

وفي اليوم التالي حامت حول سواحل بيروت وصيدا وصور بعض الطائرات وشوهد بالقرب من السواحل بعض البواخر الاجنبية مما جعل تحقيق فكرة المناورات الحربية المقررة مستحيلاً فعدل عنها وكان هذا العدول اشد صدمة اصابت احمد جمال باشا في نظر القواد الالمان الذين هزأوا به لان النتيجة جاءت جاءت مؤيدة لما كانوا قد نبهوا اليه انور باشا وكيل القائد العام

. . . . .

وفي اليوم التالي لهذا الحادث تلقى احمد جمال باشا دعوة رسمية من قيصر المانيا لزيارة الجبهة الالمانية وتلقى امراً صادراً من انور باشا بوجوب السفر الى المانيا لتمثيل الوزارة في الجبهة فوافق على ذلك وسافر الى المانيا في ٢٤ آب سنة ١٩١٧

الفصل الخامس عشر

كان الموقف الحربي في بدء عام ١٩١٨ شديد الخطر على القيادة العثمانية التي كانت محاطة بالاعداء من كل جهة و كان خوف القيادة من هجوم العرب على الطفيلة والشوبك ان يتقدموا جهة (الكرك) ويحتلوها فيقضى عليهم ويصبحون عاجزين عن مقاومتهم ولا يبقى في استطاعتهم الا الجلاء عن شرقي الاردن ، الا ان العرب لم يفعلوا ذلك ووردت الاخبار الى القيادة العثمانية تفيد ان العرب نزلوا في (الطفيلة) واستسلموا الى الراحة والخمول وان المساعي التي بذلها لورانس لاستفزازهم ذهبت ادراج الرياح

وبلغ القيادة العثمانية ان خصاماً على المال نشب بين لورانس وزعماء العرب وفي مقدمتهم الشريف زيد لان الامير زيد قد انفق المبلغ الذي جاء به لورانس من القدس على دفع الاجور وشراء المؤن وتقديم الهبات والمكافئات للظافرين وان لورانس سافر لجمع المال مرة اخرى فاهتم العثمانيون كثيراً لهذه المعلومات واعتقدوا ان في استطاعتهم تفريق كلمة العرب اذا عمدوا الى شراء بعضهم بالمال ولهذا ارسل القائد العام برقية بتاريخ ٢٧ كانون الثاني سنة ١٩١٨ الى وكالة القيادة العليا يطلب منها ٢٥٠ الف ليرة ذهبية لهذه الغاية

الا ان وكالة القيادة العليا لم توافق على هذا الطلب واجابت ان حالة الخزينة لا تمكنها من تحقيق ذلك واكتفت بمبلغ ٥٠ الف ليرة ذهبية

الا ان القائد عاد فابرق الى وكالة القيادة العليا يقول ان مثل هذا المبلغ لا يفيد شيئاً لاسيما ان لورانس جاء يحمل ٥٠ الف ليرة وهو يستطيع ان يدفع عشرات اضعاف هذا المبلغ لمقاومة الحركات العثمانية الا ان القيادة العليا لم ترد واكتفت بعزمها على ارسال الخمسين الفاً من الليرات العثمانية

ولكن هذا المبلغ لم يصل الى القيادة في الوقت المعين بل تأخر اربعة اشهر

وبذلك ضاعت كل فائدة كان يمكن حصولها لو وصل هذا المبلغ في حينه

خطة الانكليز لاحتلال دمشق

وكانت الحكومة الانكليزية ترغب في انهاء الحرب بسرعة في هذه البلاد ولهذا خولت الجنرال اللنبي الصلاحية التامة لاتخاذ التدابير التي يراها ضرورية لانقاذ الموقف والاسراع في اخراج القوات العثمانية من بلاد العرب فاستدعى اليه الجنرال اللنبي الكولونيل لورانس وقال له :

— ان الحالة في فلسطين وشرقي الاردن تسير ببطء شديد فيجب انهاء هذه القضية بسرعة ولا استطيع في الوقت الحاضر القيام بهجوم عام على هذه الجبهة ولهذا جئت اسألك ايستطيع العرب مساعدتنا في احتلال شرقي الاردن ؟

فأجابه لورانس — ان العرب يسعون في الوقت الحاضر للاستيلاء على معان ويرون ان استيلاءهم على هذه المدينة يجب ان يكون في مقدمة الامور وانا اعتقد ان في امكاننا ان نستفيد من فكرتهم هذه اذا تمكنت قيادتكم من تزويدهم بما يحتاجون اليه من ذخيرة ومؤونة وعتاد حربي ووسائل للنقل

اللنبي — وماذا تكون فائدتنا نحن من وراء هذا العمل ؟

— تكون الفائدة عظيمة جداً لاننا اذا جمعنا قوات العرب الرئيسية في شمالي معان يصبح في استطاعتنا ان نجهز عصابات منظمة تعمل على قطع خطوط السكة الحديدية وبذلك نضعف الترك ونختصر طرق مواصلاتهم ثم نجبر الترك على تسيير الحملات الى الخارج فيعمد رجالنا الى مقابلتهم وهكذا تكون الغلبة للعرب لان الترك بحالتهم الحاضرة لن يعمدوا الى مهاجمة العرب بل يكتفون بالدفاع عن انفسهم وبخطة الدفاع هذه خسارة لنا

— وما هي حاجة هذه القوات ؟

— سبعماية جمل واربع بطاريات من المدفعية وما تحتاج اليه المدفعية من عتاد حربي لان البنادق كثيرة لدينا وارسال قوات كافية من الجنود والطيارات لصرف نظر الترك ومنعهم من مهاجمة القوات العربية من جهة عمان عندما نبدأ بمهاجمتهم

في جهات معان

موقف الترك

وكان للترك جواسيس في القدس اخذوا يتتبعون بدقة حركات لورانس منذ مجيئه الى القدس وتمكنوا ان يرسلوا الى القيادة العثمانية خلاصة ما تم الاتفاق عليه بين لورانس والعرب اذ انه ابلغ رجاله وهو من المنتمين الى الجواسيس الترك ان الجنرال اللنبي اصدر امره الى وحدتين من وحدات الجيش المصري المخيم في العقبة بضرورة مساعدة القوات الزاحفة على معان واضاف الجاسوس العثماني الى ما تقدم ان القيادة الانكليزية لم تتخذ بعد اي قرار فيما يتعلق بصد هجمات القوات العثمانية اذا هي حاولت نجدة قوات معان من عمان

ومع ان هذه المعلومات كانت خطيرة وفي امكانها ان تؤثر في الموقف فقد ظل الترك ساكتين الى ان تلقوا تقريراً ثانياً جاء فيه ما يلي :

« يواصل الجنرال اللنبي قائد القوات الانكليزية المحتلة في القدس عقد الاجتماعات مع ضباط اركان حربه ومع بعض رجاله السريين وفي مقدمتهم لورانس وقد علمت ان الجنرال اللنبي عقد مؤتمراً مع اركان حربه وقد تمكنت من الحصول على بعض قصاصات من اوراق القيادة التي سجلت فيها المقررات وقد ارسلت اليكم ما عثرت عليه منها وقد رشح لي من المصادر الاكيدة ان الانكليز في مؤتمرهم هذا الذي عقدوه اتخذوا عدة مقررات خطيرة هذا ما علمته منها :

اولا — ان يزحف الجيش العربي في الحال الى معان لاحتلالها . وقد اقرت المطالب التي قدمها لورانس لتحقيق هذه الغاية

ثانياً — ان يعبر الانكليز بقواتهم الرئيسية نهر الاردن ويحتلوا السلط وان يعمدوا الى اقتلاع خطوط السكك الحديدية في جنوب عمان وتدمير النفق الكبير القائم هناك »

موقف الترك

وقد اهتمت القيادة العثمانية هذه المرة لهذه المعلومات اهتماماً شديداً واستدعى القائد فوراً كبار قواد الفرق لعقد مؤتمر لبحث الموقف واتخاذ تدابير شديدة فعالة لمقاومة نفوذ الانكليز ومنع تحقيق غايتهم هذه ، لاسيما ان احتلال الانكليز السلط سيقضي حتما على القوات العثمانية في عمان ويسبب انهيار السلطة العثمانيـة في شرقي الاردن

من هو لورانس ؟

وكان القائد نوري بك من القواد العثمانيين الذين استعملوا الشدة والقساوة في حوران حتى انه اساء كثيراً الى السكان واصبح الجميع يكرهونه ويرون فيه خطراً عظيماً على بلادهم

ولما اتصل امر هذا القائد باحمد جمال باشا امر باعتقاله وسوقه مخفوراً الى دمشق ليحاكم امام الديوان الحربي العرفي الا ان نوري بك تمكن من الفرار الى جهة الاعداء قبل توقيفه وقـد اخذ اسيراً الي مصر وظل فيها الى نهاية الحرب العالمية ٠

ولما انتشر امر لورانس في اواخر عام ١٩١٧ ارادت القيادة ان تموه على عرب حوران وشرقي الاردن فاذاعت بين هذه القبائل ان لورانس لم يكن ضابطاً انكليزياً بل هو عدوهم القومندان نورس الذي حرف اسمه لخدع العرب واتخـذ لنفسه اسم لورانس

وقد اثرت هذه الاشاعة باديء الامر في الاهلين قليلا الا ان الحقيقة ما لبثت ان ظهرت لهم عقب انتشار العرب في شرقي الاردن ومعرفة النـاس حقيقة القائد لورانس

حيل لورانس

ازدحمت محطة عمان بعدد غير قليل من وجهاء المنطقة والقواد والجنود الذين جاؤوا لاستقبال القائد العام وقد استقل جمال باشا واركان حربه السيارات الى مرج عمان القائم بين محطة السكك الحديدية ومدينة عمان نفسها وهناك عرض قوات الحامية التي قرر اتخاذها للدفاع عن المنطقة ثم توجه الى مقر القيادة العليا

و كانت هناك بدوية مرتدية ملابس البدويات الجميلة وعلى وجهها وشم ازرق متكحلة العينين ناصبة على رأسها عدداً من النقود المزخرفة

شوهدت هذه البدوية في محطة عمان عند وصول الباشا اليها ثم عندما عرض الجيش وقد رقصت للجنود بعد انتهاء العرض واخذ البعض في مغازلتها ومسايرتها والتحرش بها

ولم تكن تلك البدوية امرأة بل كانت الداهية لورانس الذي تزيا بزي امرأة بدوية وجاء يتجسس على الترك ليعرف مقدار استعدادهم الحربي للدفاع عن عمان والتدابير التي قرروا اتخاذها بعد مجيء جمال باشا للدفاع عن عمان والتدابير التي قرروا اتخاذها بعد مجيء جمال باشا للدفاع عن هذه المنطقة

وكان من جراء هذا التدبير الحكيم الذي اتبعه لورانس في تنكره ان غاب امره عن الجميع حتى ان الجنود الترك انصرفوا الى مغازلته على انه امرأة وتبعه ثلاثة منهم بعد ذهاب الجنود ليس لمراقبته كجاسوس خطر يهدد سلامتهم بل كامرأة جميلة اشتهوها لانفسهم فارادوا الحصول عليها ٠ ولورانس الداهية ادرك غاية هؤلاء الجنود الذين لحقوا به الى ضواحي عمان ورأى ان الضرورة توجب عليه مغازلتهم فانتظرهم وغازلهم ثم اغتنم هذه الفرصة واستدرج منهم الاسرار العسكرية التي يريدها بين عشرات القبل التي كان يمنحهم اياها ٠ ولما حصل لورانس من اولئك الجنود على ما يريده من اسرار دعا هؤلاء الى مرافقته الى كهف

بعيد بحيث ان المغازلات الغير البريئة لا يمكن ان تتم في السهول عرضة لانظار القرويين فلحقوا به الى الكهف وهم لا يزالون يعتقدون انه امرأة حتى اذا دخل الجميع الى الكهف اطبق جماعة لورانس الذين كمنوا في الكهف نفسه على الجنود الثلاثة . وهناك نزع لورانس ثيابه وظهر بمظهره الحقيقي الذي اخجل هؤلاء الجنود .

وقد كان هؤلاء الاخيرون من الترك المخلصين لوطنهم ولهذا ما كان احدهم مرجان احمد وهو شاب من عينتاب بعرف الحقيقة المخجلة حتى تغلب عليه التأثر فأخرج مسدسه قبل ان ينزع منه واطلق منه عدة عيارات نارية على لورانس الا ان شدة اضطرابه اضاعت توازنه فذهبت رصاصاته طائشة ولكن رفاق لورانس بادروا هذا الجندي باطلاق العيارات النارية فقتلوه مع رفيقه رجب وهو من اهل استنبول ونجا الثالث لان لورانس حال دون قتله .

وقد تمكنا بعد نهاية الحرب من الاجتماع بهذا الجندي في انقره وهو اليوم من موظفي الخارجية ويقيم في خارج البلاد قال :

— لم نشعر ابداً ان من كان امامنا رجل لان كل ما فيه من حركات وغنج ودلال كان يدل على انه امرأة و كان من واجبنا ان لا نحرك ساكناً بعد ان ظهر لنا أمر الجاسوس الا ان مرجان وهو شاب شديد الاندفاع لم يتمكن من تحمل هذا الامر فعمد الى قتل لورانس فكان ان ذهب ضحية تهوره اما انا فقد سكنت واخذت اتحين الفرص للفرار من الامر والذهاب الى القيادة لابلاغها الحادث لاسيما ان الحديث الذي دار بين لورانس وزعيم هذه العصبة التي كان معه دلني على ان الجماعة يؤلفون هناك عصبة لاغتيال احمد جمال باشا

وفيما انا منزو في جهة منفردة رأيت لورانس يرسل اربعة اشخاص من افراد عصابته وعددهم تسعة الى جهات مختلفة برسالة ينبيء فيها المصادر الانكليزية بما اخذه من المعلومات عن حركاتنا وبما شاهده وعرفه مني ومن رفاقي ثم رأيته يعود الى ارتداء ملابس البدويات مما اهاب بي للاعتقاد انه يقصد العودة الى عمان وقد اثبت ظني هذا توصيته لرئيس العصبة بي وضرورة الاهتمام بحراستي ومنعي من

الفرار وقد حذره من الاعتداء علي قائلاً اني امير والامير لا يجوز الغدر به وغاب لورانس طويلاً وقد تكون غيبته هذه استمرت يومين ولما عاد امر رجاله بالاستعداد للرحيل ثم سمعت حديثاً دار بينه وبين رجاله لم افهم منه شيئاً ثم سمعت زعيم العصابة يقول :

— وماذا نفعل بهذا الشاب (اي الكاب)

ومن البديهي ان اكون ذلك الكاب . فأجابه لورانس :

— اربطوه جيداً واتركوه هنا فاذا كان له حظ في الحياة جاء من انقذه والا فأن مصيره بيده

وعند هذا رأيت ثلاثة اشخاص يقتربون مني ويكبلوني بالحبال ثم يرفسني أحدهم برجله بشدة قائلاً :

— مت هنا ايها الشاب (الكاب) وانصرف .

ومضت علي اربع وعشرون ساعة كدت افقد فيها رشدي وبح صوتي من كثرة الصراخ حتى اوشكت ان اقنط من الحياة ثم حاولت آخر مجهود للخروج من المغارة فسقطت في هوة لم تكن عميقة الا انها كانت سبباً في اصابتي بصدمة شديدة افقدتني رشدي فلم اع على شيء الى ان افقت فوجدت نفسي في مستشفى عمان العسكري

بقيت ثلاثة ايام في المستشفى فاقد الرشد لا اعرف ما حولي حتى اذا عدت الى رشدي رأيت بجانبي الدكتور فهمي بك من اطباء الفيلق الثامن يعتني بي عناية فائقة حتى اذا رآني قد عدت الى رشدي قال :

— احمد الله فقد نجوت

— نعم نجوت

ولكن هذه الفاجعة لم تذهب من مخيلتي ، وسألت الطبيب عن كيفية نجاتي فقـال :

— افتقدتنا القيادة واعتقدت اننا فررنا الى جبهة الاعداء فسجلت اسمنا بين الخـائنين .

الا ان فروية مرت من امام المغارة اقضاء حاجة فشمت الروائح الكريهة المنبعثة منها فاسرعت واعلمت الجنود بالامر فجاؤوا الى المغارة فوجدوك فاقد الرشد ووجدوا جثتي رفيقيك فقادوك الى هنا حيث بذلت جهداً عظيماً لانقاذك فماذا جرى لكم ؟

— ان الامر خطير اريد عرضه على القائد

— سأعود اليك حالا

وبعد نصف ساعة حضر رئيس الشعبة الاولى فابلغته ما حصل لي

ولكن المعلومات التي ادليت بها لم تفد شيئاً لان لوراس كان قد تمكن من الحصول على ما يريد من معلومات في هذا الشأن قبل اعطائي معلوماتي هذه

الموقف الاخير

وقد رأت القيادة انه اذا سقطت عمان بين ايدي الاعداء قبل وصول النجدات من دمشق ثم من استنبول ضاع كل امل للقيادة بالمحافظة على الموقف الراهن ولحين وصول هذه القوات تقرر جلب القوات المعسكرة في (القطرانة) بين عمان ومعان وهي بقيادة علي فؤاد باشا الى عمان لتساعد قوات عاصم بك في الدفاع عن هذه المنطقة .

وقد اتخذ هذا القرار بصورة سرية وبلغ فوراً للقائد علي فؤاد باشا

الا ان لوراس عرف بالحادث فوراً وقرر مقاومته

اما علي فؤاد باشا فانه ارسل جنوده بقطار مؤلف من ٦٥ حافلة بحيث اضطر هذا القطار الى السير على مهل لان المواد الفحمية كانت مفقودة تماماً ولم يكن في هذا القطار قوة تمكنه من السير بسهولة وهو يجر هذا العدد الكبير من الحافلات المملوءة بالجنود والمعدات الحربية

وقد الحقت بهذا القطار حافلة شحنت بمفرزة المدفعية الرشاشة التابعة لفرقة الطيران الالمانية في القطرانة

وقد سار هذا القطار بهدوء تام دون ان يعترضه معترض الى ان وصل الى

محطة (القصر) وهي المحطة الاولى القريبة من (عمان) التي وجب على القطار ان يقف فيها ليأخذ الجنود لانفسهم بعض الراحة

وقد اشتبه جواد رفعت رئيس الشعبة الاولى في الفيلق الثامن ببعض حركات جرت في هذه المحطة ابلغها لعلي فؤاد باشا الذي كان على رأس هذه الحملة

ولنترك الان جواد رفعت يحدثنا عن هذه الامور التي جرت في هذه الرحلة قال :

— وقد لفت نظري في محطة القصر مجيء بعض مشايخ القبائل من بني صخر وذهابهم قبل سفر القطار وقد عرضت الامر على علي فؤاد باشا فقال لي :

— قد يكونون جاؤوا الى المرعى

الا انني لم اوافق القائد على نيته الحسنة هذه وبقيت معتقداً اننا تجاه امر شديد الخطورة ولهذا ما كاد القطار يتحرك بنا حتى تناولت منظاري العسكري ووقفت في قاطرة مكشوفة راقب الطرق البعيدة التي يسير فيها القطار بهدوئه الممل .

وفيما انا راقب الشفق شاهدت حول الهضبات البعيدة التي يقترب منها القطار حركات اشباح تتنقل هنا وهناك ولما تأكدت منها اسرعت الى علي فؤاد باشا انبئه بما شاهدت ثم طلبت الى الضابط هاشم بك ان يذهب الى القاطرة (لوكوموتيف) وان يكون بجانب السوق

وكان هاشم بك الذي هو اليوم بذباشي في جيش الجمهورية التركية ضابطاً ذكياً شديد الحماسة ، فما كاد يذهب الى حيث امرته حتى رأيت القاطرة ترسل صفيراً عالياً مزعجاً ثم يقف القطار بشدة في مكانه فاضطربت اضطراباً عنيفاً وقفزت من الحافلة وذهبت جرياً الى القاطرة لارى السبب في وقوفها فابلغني هاشم بك انه ابصر بالقرب من الجسر القريب من المحطة اشباحاً اعتقد انها من رجال العرب الذين جاؤوا لنسف القطار عند الجسر ولهذا امر السائق بايقاف القطار في الحال وشد الصفارة ليشعرنا بالخطر المحدق بنا

وفيما نحن في هذا الحديث الذي لم يستغرق الا دقائق معدودة بدأ ازيز الرصاص حولنا لان لورانس وجماعته هاجمونا ولم يبق في استطاعتنا متابعة السير

اكثر من ذلك لاسيما اننا شاهدنا القضبان الحديدية منتزعة على بعد مئتي متر من المكان الذي وقف فيه القطار

و كان علي فؤاد باشا قد اصدر امره بادارة حركة المقاومة واجبار الاعداء على التراجع فالتفت الى اليوزباشي هاشم بك وقال له :

— علينا ان نتخذ كل تدبير يساعدنا على تسيير القطار

— هذا مستحيل ·

ليس في الدنيا مستحيل فالخط المنزوع لا يتجاوز طوله بضعة امتار وفي امكاننا ان نسير القطار على الحجارة الى ان نصل الى هدفنا

فنزل هاشم بك عندئذ وجاء من القاطرة بالاخشاب وهم بوصل الخط ليتمكن القطار من السير عليها · ويظهر ان لورانس وجماعته كانوا يراقبون حركاتنا ، فما كانوا يرون جنودنا يقدمون على هذه المحاولة حتى ضاعفوا اطلاق النار فاصدر الامر اليوزباشي رجب بك (هو اليوم امير الاي اركان حرب في الجيش التركي) بان يقابل المهاجمين باطلاق العيارات النارية

عند هـذا رأيت القوات التي يديرها لورانس تتخذ خطة حربية جديدة لمحاصرتنا ففي الوقت الذي وقفت فيه قوة من هذه القوى لمتابعة اطلاق النار على قواتنا انصرفت قوة اخرى الى الجهة الخلفية بعد ان تأكد لها عدم تمكن قطارنا من التقدم لقطع خط الرجعة علينا اذا ما يئسنا وحاولنا التراجع الى الوراء

وعلى اثر ذلك مضيت الى الجهة الاماميـة فوجدت عدداً كبيراً من رجال هاشم بك سقطوا قتلى رصاص المهاجمين ولم يبق في استطاعته مواصلة العمل لحمل القطار على متابعة سيره فأمرته باعادة رجاله الى القطار لمشاركة رفاقهم في مقاومة المهاجمين ، ثم انصرفت الى الجهة الاخرى فرأيت القوات البدوية التي حاولت الاحاطة بمؤخرة القطـار قد ابتعدت قليلا ، فرابني ابتعادها هذا ، الا ان الحقيقة ما لبثت ان ظهرت واضحة بعد بضع دقائق

وفي هذا الوقت شوهد في الجبهة الغربية من المحطة طابور من المشاة الانكليز وآخر من الخيالة وبلوك من راكبي الهجن واتخذت متاريسها هناك ونصبت مدفعيتها

الرشاشة بسهولة ثم عمدت على الاثر الى اطلاق الرصاص بشدة وليس في امكاني تعريف القراء الى شدة هذه الغارة النارية المفاجئة التي شنها الاعداء الا ان المؤكد هو أن الرصاص انقض علينا كوابل المطر فاطار الحجارة وحطم زجاج القطار ٠

عندئذ اسرعت الى القاطرة الاخيرة التي ركبها صدفة كما قدمنا قبلا بلوك من المدفعيه الرشاشة الالمانية وصحت بافرادها

— فويير ٠٠٠ فويير ٠٠٠ اي اطلقوا النار وارشدتهم بيدي الى الوجهة التي يجب ان يطلقوا عليها الرصاص وهي الجهة الخلفية من القطار وكانت هناك مفرزة من المشاة واخرى من الخيالة الانكليزية تتقدمان نحونا تحت حماية مدفعيتها الرشاشة للاحاطة بنا واخذنا اسرى٠

وفجأة دوى زيز المدفعية الالمانية الرشاشة فوقف من جراء ذلك الانكليز هنيهة مبغوتين اذ لم يكونوا يعتقدون اننا نملك هذه المدفعية الرشاشة في القطار وبذلك اجبروا على التوقف مكانهم ، النزول عن جيادهم والتراجع قليلاً الى الوراء والانصراف للتحري عن استحكامات يتخذونها لوقاية اجسادهم هذه الحمم التي انصبت عليهم

المخابرة مع عمان

ولما امنت ابتعاد الخطر عنا في تلك الجهة اتجهت الى احدى حافلات النقل وكان لنا فيها آلة لاسلكية من آلات الصحراء التي نستعملها في المخابرات اللاسلكية فوجدتها لحسن الحظ سالمة من العطب فركبت قضبانها واخذت في استعمالها لمخابرة احمد جمال باشا قائد الجيش الرابع

وكانت الخطوط البرقية مع مؤخرتنا منقطعة ومع هذا تمكن احد الجنود من تسلق احد اعمدة التلفون المتصلة بعمان ورحت ادير الآلة مدة دون جدوى عندئذ اتيت بالادوات اللازمة وقويت الآلة وعدت الى المخابرة :

— آلو ٠٠٠ آلو

ولكن ليس من مجيب

وعدت الى آخر محاولة واذا بي اسمع قلبي ينبض بشدة متناهية لانني سمعت في الالة صوتاً يجيب على ندائي بنداء مماثل له قائلاً :

— ألو ... آلو ...

— ما هو المركز الذي يخاطبنا ؟

— هنا معسكر الجيش الرابع

وقد كان هذا الجواب كافياً لمضاعفة دقات قلبي ومع هذا حبست انفاسي في صدري وتابعت المخابرة كيلا اضيع الوقت ثم قلت :

— اذا كان دولة الباشا هنا ، فارسلوا اليه خبراً مستعجلاً ليأت الى الآلة فالموقف خطر ونحن في حالة مؤسفة

وانقطع الصوت قليلاً ، واذا بي ارى رصاص الاعداء ينصب على العمود التلغرافي الذي جعلته واسطة اتصال ، ويظهر ان الاعداء شعروا بحركتنا هذه فارادوا ان يقطعوا علينا خط المخابرة ورأيت قطع الخشب تتطاير حولنا من العمود الذي كاد يؤثر فيه الرصاص وخفت ان تنقطع المخابرة قبل ان نصل الى هدفنا الى ان عدت الى سماع صوت اجش فقلت :

— من انتم ؟

— جمال قائد الجيش الرابع

— يا دولة الباشا ، هنا معسكر الفيلق الثامن ، نحن بين محطتي القصر وعمان وعلى بعد عشرة كيلومترات من جسر عمان ، وقد ضرب الاعداء خط السكة الحديدة ونحن الان في موقف حرج فالبدو يحيطون بجهتنا الشرقية والانكليز الذين في الجهة الغربية يسعون للاحاطة بنا والقضاء علينا وقد قطعت علينا مؤخرة الخط الحديدي وليس في استطاعتنا التراجع الى الوراء مع كل ما نبذله من جهود في هذا السبيل فما هو امركم لنا في هذا الشأن ؟

— سأرسل اليكم الآن قوات كافية من الخيالة وعليكم انتم ان تعمدوا الى ...

ولم يكد الباشا يصل الى هذه الكلمة حتى انقلت العمود وانقطعت الاسلاك فانقطعت معها مخابراتنا مع الباشا فتركت الآلة حيث هي واسرعت الى علي فؤاد باشا قائد الفيلق انبئه بما وقع لي مع احمد جمال باشا

وفي هذه الآونة رأيت اليوزباشي هاشم بك يواصل مساعيه الجديدة في سبيل انقاذ القطار وكان الماكنيست قد اصيب برصاصة تركته عاجزاً عن متابعة عمله وقد اصيبت القاطرة بكمية وفيرة من الرصاص جعلتها غير صالحة للعمل وسقط العدد الكبير من رجال هاشم بك على الارض بين قتلى وجرحى

والتفت الى الجهة اليمنى فوجدت اليوزباشي رجب بك قد سقط جريحاً وتكدست امامه جثث عدد كبير من الجنود الذين لم يكن في استطاعتنا انجادهم فكان الجرحى يصابون برصاصات اخرى

والموقف كان شديد الخطورة في كل جهة وقد رأيت اربعة من العرب يقتربون قليلا من القطار محاولين نسفه بالقذائف اليدوية وكادوا يصلون الى هدفهم لو لم اشعر بهم فابادر الى اطلاق الرصاص عليهم وقد اصبت احدهم برصاصة في يده

وقد علمت ان هذا المغامر لم يكن الا لورانس الذي بلغت به الجرأة الى مهاجمته ايانا في عقر دارنا الا ان الضربة التي وجهتها اليه حالت دون وصوله الى هدفه هذا ولولا تيقظه لذهب ضحية تهوره لان من كان معه ارادوا مساعدته فابعدهم عنه بقوة ونفض يده التي تحمل القنبلة والقاها جهتنا فكانت سبباً في نجاته وموت ثلاثة من جنودنا الذين ذهبوا ضحية حماستهم ورغبتهم الاكيدة في تأديب الذين حاولوا الاعتداء عليهم

وفي هذا الطوفان العاصف من الرصاص الذي انصب علينا تقدم ثلاثة من ضباطنا هم اليوزباشي الخيال عوني والضابط الاحتياطي صبحي والملازم نيازي على رأس قوة من جنودهم لمقاومة هجمات الانكليز وايقافهم عند حدهم ونشبت معركة شديدة بين الفريقين فرايت ان الفرصة قد سنحت لاصلاح الخط وتسيير القطار وهما الطريقة الوحيدة التي تساعدنا على النجاة فاسرعت فوراً الى

جهة القاطرة فوجدت ان مرجل القاطرة قد ثقب بالرصاص من عدة جهات والميكانيست في حالة مؤسفة من الجرح الذي اصابه

وكان الميكانيست مسيحياً من اهل لبنان لا اتذكر اسمه فالتفت اليه وقلت

— لم تبق لنا وسيلة للنجاة الا بمتابعة السير الى الامام فاما ان نظل هنا نموت جميعاً واما ان نتقدم الى الامام وننجو ، فعليك والحالة هذه ان تنفذ امري في الحال وامامك الان امران

— اما الموت بهذا المسدس او تنفيذ امري ولك جائزة مئة ليرة ذهبية

ونفذت تهديدي بان وجهت فوهة مسدسي الى دماغ هذا الموظف الجريح ولم يكن لدي غير هذه الطريقة لانقاذ الموقف ، فابتسم سائق القطار عن مرارة والم والتفت الي قائلا :

— دع هذا المسدس جانباً يا مولاي فلا فائدة منه فانا مثلك على اعتقاد وطيد بان السير الى الامام هو الطريقة الوحيدة للنجاة

منظر مؤسف

عند هذا رأيت هذا السائق المخلص يتململ في ارضه ويحاول الوقوف والدماء الغزيرة التي نزفت منه لا تساعده ، ولم اجد احداً يفكر في تضميد جرحه وكان واضعاً يده على هذا الجرح يحاول ان يسد بها نزيف الدماء المتفجرة منه فانتزعت فوراً قطعة من قميصي وهممت بان اضمد بها جرحه فعاد الرجل الى ابتسامته الهادئة وقال :

لا فائدة يا مولاي ، فهذا العمل يستغرق وقتاً طويلا ، بل مد لي يدك

ففعلت فاستند الى يدي وتناول محرك القاطرة بيد ووضع يده الاخرى على جرحه وادار المحرك فسار القطار على اعمدة الحطب التي رأينا ان يمر عليها القطار ليتصل بالحديد الذي لم ينتزعه لورانس ورفاقه وسمعنا تحطيم اعواد الحطب تحت العجلات

وكنا في حالة خوف واضطراب شديدين نترقب هذه التجربة بفارغ صبر

الى ان رأينا عجلات القاطرة ترتكز على الجهة الاخرى من الخط فعاد لنا الامل بالنجاة وتعالت الاصوات بالتهليل من كل جهة حتى ان الافكار انصرفت عن الرصاص الذي كان يتساقط علينا من اربع جهات الى مراقبة انتقال القطار الى خطوطه الحديدية فقد انتقلت القاطرة الى الخط ولحقت بها الحافلة الاولى والثانية والثالثة وتابع القطار سيره وقد حمل ما امكنه من الجنود .

على ان مخلص بك قائد الموقع المستحكم والضابطين صبحي ونيازي وعشرين جنديا من رجالهم الذين وقفوا لمجابهة العدو لم يتمكنوا من اللحاق بالقطار الذي تابع سيره

وهؤلاء الابطال لم يتراجعوا عن موقفهم بعد سيره بل رضوا ان يضحوا بانفسهم في سبيل رفاقهم

وكنا نتطلع اليهم والقطار يبتعد عنهم وليس في استطاعتنا ايقاف القطار الذي كان يسير بسرعة ، وهكذا ذهبوا ضحية بطولتهم

اما العدو الذي شاهد محاولتنا هذه فقد حول كل قواه لجهتنا واخذ مفعول الرصاص يبتعد عنا تدريجاً الى ان انقطع تماما

ومع هذا لم نثق بالنجاة لان على بعد عشرة كيلومترات من مكان الحادث جسر عمان فتساءلنا هل نسف هذا الجسر ام اننا سنكون تجاه كمين جديد نصب لنا في جهة اخرى ، ومع هذا لم نأمر القطار بالتوقف بل تركناه يسير على هوى السائق اللبناني الجريح الى ان وصل به سالماً الى محطة عمان

وهناك فقد هذا السائق البطل اخر مجهود بذله فسقط في القاطرة فاقد الرشد فاسرع اليه طبيب الفيلق واسعفه وقد اضطر لملازمة فراشه مدة طويلة ولما تمالك رشده قليلا تقدم منه قائد الفيلق الثامن علي فؤاد باشا وقلده الوسام الحربي جزاء بسالته واخلاصه واعطاه المئة الليرة الذهبية التي وعده بها لبسالته واخلاصه وتضحيته بنفسه مما كان له الفضل الاكبر في نجاة هذا العدد الكبير من الجنود

واذا كان هناك ما يؤسفني الان فهو عدم معرفتي اسم هذا السائق اللبناني البطل لاسجل له في تاريخ هذه القضية الاخلاص والبسالة اللذين ابداهما »

هذا ما رواه جودت رفعت بك عن هذه الحادثة التي مثل لورانس ادوارها الرئيسية وقد كان فشل لورانس هذه المرة ضربة شديدة اصابت القوات الانكليزية التي كانت قد تقدمت الى ضواحي عمان ·

وقد اثرت هذه النجدة في معنويات القوات العثمانية فاستراحت يوما في المحطة وفي اليوم الثاني بدات بهجومها على قوات الجيش الانكليزي فاجلته عن ضواحي عمان ثم استردت منه السلط واضطرته الى الاتجاه الى الساحل الشرقي من نهر الاردن

وراجت يومئذ اشاعة اقلقت الانكليز وهي ان جمال باشا ينوي ملاحقة قوات الانكليز في وادي الاردن وانه ينتظر ان يسترد القدس

لورانس

و كان لورانس في ذلك الوقت في الطريين بين (عطاط) و (تميد) الا انه بعد هذه الضربة الشديدة التي اصيبت بها القوات الانكليزية امر قواته القائمة تحت قيادته بالانضمام الى قوات فيصل و كانت هذه الاخيرة من القوات الهندية وتابع سيره بمفرده الى (اذرع) فدرس هناك موقف الترك العسكري ومن هناك تابع سيره عائداً الى جهة معان ليلتحق بالقوات العربية المهاجمة لمدينة معان و كانت القوات العربية في ذلك الوقت قد احتلت قرية (صمنه)ولا تزال تتقدم الى الامام ثم قال :

— لدينا الآن خطتان ، الاولى عسكرية نقوم بها بواسطة جنودنا والاخرى سياسية نقوم بها بواسطة جواسيسنا

اولاً ان نعمد الى استعادة موقع « جردون »

ثانياً · مقاومة تقدم قوات الانكليز من نهر الاردن

ثالثاً استعادة غدير الحاج وصمنه اللذين احتلتهما العرب

هذا من الوجهة العسكرية · اما من الوجهة السياسية فقد تم الاتفاق على ايفاد القائد برهان الدين بك الى المنطقة العربية لدرس الموقف واستمالة الاشخاص الناقمين

على العرب .

خديعة لورانس

وفي الوقت الذي دبر فيه الترك هذه الخطة عمد لورانس الى خدع الترك فجهز في بادىء الامر حملة تظاهر بان الغاية منها قطع خط المواصلات بين عمان ودرعا ثم اوفد قوة اخرى لمهاجمة عمان

وقد اتصلت الاخبار الاولى بالترك فكان ان ابدلوا خطتهم التي رسمناها فيما تقدم وبذلك فشلت كل التدابير التي اتخذوها في هذا السبيل

فقد زحفت القوات الانكليزية بقيادة الماجور بكستون على (المدورة) فهاجمتها الطائرات ثم هاجمتها القوات فاحتلتها بعد معركة قصيرة قتل فيها من رجاله اربعة وجرح عشرة وقتل من الترك ٢١ واخذ ١٥٠ اسيراً بقية افراد الحامية مع مدفعيتهم وعتادهم الحربي .

خدعة الانكليز

وبات العرب بعد هذا الحادث على ابواب درعا دون ان تشعر بهم قيادة هذا المركز الى ان جاء احد الجنود واشعر القيادة بالامر فارسل اليه جواسيسه لمراقبة الموقف ولما جاؤه بالخبر اليقين اوعز الى سرب من الطيارات بمطاردة العرب

وكان لدى القيادة في درعا قوة كافية من الطيارات خرجت تسع منها لدرس الموقف ومطاردة العصاة العرب وقد تمكنت هذه الطائرات من تشتيت تجمعات العرب ببضع ساعات

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر جاءت من جهة الازرق طيارة انكليزية واحدة وقد علمت بعدئذ انها بقيادة الطيار الانكليزي جونور ، وكانت الطيارة الوحيدة التي يستخدمها العرب في تلك الجهات للكشف ، ومع ان هذه الطائرة ضعيفة بالنسبة الى قوة الطائرات العثمانية التي هي من احدث طراز الماني فان طائرها تقدم بجرأة نحو الطائرات العثمانية وكنا قد شاهدناه من درعا يقترب من طائراتنا

الشمع حتى اذا شاهده من في طائراتنا تحول عنها واخذ يعدو امامها وقامت طائراتنا جميعها بمطاردته ووجهة الجميع الازرق

وهذا الخطأ الجسيم الذي ارتكبته طائراتنا لان غاية هذا الطيار الجريء من وراء هذا العمل هي تحويل الطائرات العثمانية عن هذا المركز واخلاء الحرية للعرب في نصب مدافعهم السريعة والمدافع المضادة للطيارات وقد استمرت هذه المطاردة وقتاً طويلا حقق فيها العرب هدفهم ونجا الطيار الانكليزي من الخطر الذي استهدف له ولم يصب بسوى جرح طفيف في فخذه

وقد كان هذا الفشل سبباً في القضاء على القوات العثمانية التي ما لبثت ان اخذت تصاب بضربة تلو ضربة وكانت النتيجة تراجع القوات العثمانية نهائياً عن بلاد العرب



انتهى

الكتب التي ترجمها المعرب هي :

اولاً   كيف دخلت تركيا الحرب العالمية تأليف احمد رؤوف بك وثمنه نصف ليرة سورية

ثانياً   كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب تأليف جمال باشا وثمنه نصف ليرة سورية

ثالثاً   الاستخبارات والجاسوسية من الدولة العثمانية تأليف عزيز بك وثمنه ليرة سورية واحدة